الموسوعة الشامية في
تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن الثامن

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء الثاني و العشرون

مــؤرخــو القــرن الثــامــن

١ ــــ أبو الفداء

٢ ــــ نهاية الأرب

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمت الاشارة في توطئة الجزء السالف الى حماه وظهور عدد من المؤرخين البارزين فيها كان من بينهم أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل

ابن علي بن محمود بن محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وولد أبو الفداء بدمشق سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ م، وكان أهله قد جفلوا إليها قادمين من حماه خوفا من المغول، لكنه نشأ بحماه وفيها نال ثقافته وتدرج بالمناصب السياسية والعسكرية حتى وصل الى منصب سلطنة حماه وملكها سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م.

كانت علاقات أبي الفداء ممتازة بسلاطين المماليك بالقاهرة لاسيما مع الناصر محمد بن قلاوون ، وقد زار القاهرة أكثر من مرة، وشارك في عدد كبير من الحملات العسكرية، ولكن مصدر شهرته ليس هذا بل ما صنفه بالتاريخ والجغرافيا، وحمل مصنفه بالجغرافيا اسم « تقويم البلدان» وهو كتاب تام مكتمل يمتاز بالأصالة بالتوبيب والوضوح، ولاقى هذا الكتاب رواجا عظيما ، فترجم وطبع اكثر من مرة في أوروبا.

ويعد كتاب « المختصر في أخبار البشر» أهم ما كتبه ابو الفداء في ميدان التاريخ وكتب أبو الفداء هذا الكتاب كتذكرة لنفسه اختصر فيها بشكل اساسي ما اودعه ابن الأثير في كامله، ثم وصل أخباره حتى

عصره وطبعا هـذا أهم ما في الكتاب، ولاقى هذا الكتـاب رواجا وشهرة واسعة، وطبع أكثر من مرة ولا أعرف لـه طبعة علمية لائقة ، وعرفت من مخطوطاته مخطوطة البودليـان فقط ،وأتمنى أن تتاح لي الفرصة لتحقيق هذا الكتاب ونشره بشكل علمي لائق.

لقـد انتـزعت مـن كتـاب المختصر المـواد التـي تتعلق بـالحـروب الصليبيـة ، وهي بـالنسبـة لي الآن أهم مـا فـي الكتاب لاسيمـا أخبـار الحوادث التـي وقعت بعد وفـاةابن الأثيـر ، وجل هذه الحـوادث أسهم فيها أبـو الفداء فهو قـد شارك في تحريـر عكا من قبل الأشـرف خليل فضلا عن اسهامه في وقائع أخرى.

وكان من مزايا العصر المملوكـي الثقافي ظهور عدد كبير من الكتب الموسـوعية كان مـن أشهرها «نهـاية الأرب في علم الأدب» للنـويري ، والنويـري هو شهاب الـدين أحمد بن عبد الـوهاب بن محمـد بن عبد الدائم القرشـي التيمي البكري ، وشهر بالنـويري نسبة إلى نـويرة، وهي قـرية مـن قـرى بني سـويف في أرض الكنـانـة ، ولـد سنة ٦٧١ هـ/ ١٢٧٨م، وحسب بعض الروايات كـانت ولادته سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣م ذلك أنه توفي سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م وهو من أبناء الخمسين.

نال النويـري ثقافة جيدة ، عمل في الوراقـة، بحيث كان ينسج بخط يـده الكتب ويبيعها ، حتـى أنه نسـخ صحيح البخـاري ثماني مـرات، وكان خطه من الجودة والضبط بمكان.

ويأتي النـويري على رأس الموسـوعيين العرب ،وذلكمن خلال كتابه العملاق «نهـاية الأرب فـي علم الأدب» وجاء هـذا الكتاب في ثـلاثين مجلدة، نشر في القاهرة جلها ومن المنتظر استكمال نشره.

وكـان قـد سلف لي منـذ عـام ١٩٦٧ الحصـول على مصـورة عـدة أجزاء مـن كتاب نهايـة الأرب منها مـا تعلق بأخبار الـدولة الفـاطمية ، ومنها ما ارتبط بتـاريخ السلاجقة والأيوبيين والمماليـك، وتقدم لي نشر بعض مواد النويري في كتابي « الجامع في أخبار القرامطة».

والمواد التـي أقدمت الآن على نشـرها في مـوسوعتنا سلـف ونشرت في ثنـايا مجلـدات نهايـة الأرب، وأعدت نشرهـا للافـادة من مـوادها ، ولازالة ماحوته المنشورات من تصحيفات لاسيما بالأسماء الشامية.

من اللـه تعـالى أرجـو التوفيـق والعون ولـه جل وعـلا عظيم الشكـر

والحمد ، والصـلاة والسلام علـى من لانبي بعده محمـد بن عبـد الله وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ١٣ جمادى الأولى ١٤١٦ هـ

٧/ ١٠/ ١٩٩٥م

سهيل زكار

من كتاب المختصر في أخبار البشر لعماد الدين اسماعيل ابي الفداء

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر قتل الصالح بن رزيك

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة في رمضان قتل ابو الغارات طلائع ابن رزيك الأرمني ، وزير العاضد العلوي جهزت عليه عمة العاضد من قتله وهو داخل في القصر بالسكاكين ، ولم يمت في تلك الساعة بل حمل الى بيته وأرسل يعتب على العاضد فأرسل العاضد اليه يحلف له أنه لم يرض ولا علم بذلك، وأمسك العاضد عمته وأرسلها الى طلائع فقتلها، وسأل العاضد أن يولي ابنه رزيك الوزارة ، ولقب العادل ومات طلائع واستقر ابنه العادل رزيك في الوزارة

ذكر ولاية شاور ثم الضرغام

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزيك فولاه الصعيد، وكانت ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة، ولما جرح الصالح أوصى ابنه العادل ان لا يغير على شاور شيئا لعلمه بقوة شاور. ولما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب إلى شاور بالعزل، فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل إلى القاهرة، فهرب العادل وطرد وراء شاور وأمسكه وقتله، وهو العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، وانقرضت بقتله دولة بني رزيك، واستقر شاور في الوزارة، وتلقب بأمير الجيوش، وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم، ثم إن الضرغام جمع جمعا، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان فقوي على شاور، فانهزم شاور إلى

الشام مستنجدا بنـور الدين، ولما تمكن الضرغام من الـوزارةقتل كثيرا من الأمراء المصريين لتخلـو له البـلاد، فضعفت الـدولة بهذا السبـب، حتى خرجت البلاد من أيديهم

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

وفي هذه السنة سير نور الـدين محمود بن زنكي عسكرا مقـدمهم أسد الدين شيركوه بـن شاذي الى الديار المصرية ومعهم شـاور، وكان قد سار من مصر هاربا مـن الضرغام الوزير فلحق شاور بنـور الدين واستنجده، وبـذل لـه ثلث أمـوال مصر بعـد رزق جنـدها . إن أعـاده إلى الـوزارة، فأرسل نور الدين شيركوه إلى مصر، فوصل إليها وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة، وأعاد شاور إلى وزارة العاضـد العلوي، ثم غدر شاور بنور الديـن ولم يف له بشيء مما شرط، فسار شيركـوه واستولى على بلبيس والشرقية، فأرسـل شاور استنجد الافرنـج على إخراج أسد الديـن شيركوه مـن البلاد، فسـار الافـرنج واجتمـع معهـم شاوربعسكـر مصر، وحصروا شيركـوه ببلبيس، ودام الحصـار ثـلاثة أشهـر وبلـغ الأفرنـج حـركة نـور الديـن، وأخذه حارم، فـراسلوا شيركوه في الصلـح وفتحوا له فخـرج من بلبيس بمن معه من العسكر، وسار بهم ووصلوا الى الشام سالمين.

وفي هذه السنـة في رمضان فتح نـور الدين محمـود حارم وأخذهـا من الأفرنج بعد مصاف جرى بين نور الديـن والأفرنج انتصر فيه نور الدين، وقتل وأسر عـالما كثيرا، وكان من جملة الأسرى البرنـس صاحب انطـاكية والقومص صاحب طرابلس، وغنم منهم المسلمون شيئا كثيرا .

وفي هذه السنة أيضا في ذي الحجة سار نـور الدين إلى بانياس وفتحها وكانت بيد الأفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى هذه السنة .

ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة

وفيها فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الأفرنج

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

وفيها عاد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية، وجهزه نور الدين بعسكر جيد عدتهم ألف فارس، فوصل إلى ديار مصر واستولى على الجيزة، وأرسل شاور إلى الأفرنج واستنجدهم وجمعهم وساروا في إثر شيركوه الى جهة الصعيد، والتقوا على بلد يقال له البابين، فانهزم الأفرنج والمصريون واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها، ثم سار إلى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والافرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة أشهر، فسار شيركوه إليهم واتفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم الاسكندرية ويعود إلى الشام، فتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال من هذه السنة، وسار شيركوه إلى الشام، فوصل إلى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة، واستقر الصلح بين الأفرنج والمصريين على ان يكون للافرنج بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار .

وفي هذه السنة فتح نور الدين صافيتا والعريمة،وفيها عصى غازي ابن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج ، فسير إليه عسكرا أخذوا منه منبج ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخا غازي المذكور، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

.وفيها ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي، وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه، ولم يقدر نور الدين على أخذها إلا بعد أن أسر صاحبها وأحضروه إلى نور الدين، واجتهد به على تسليمها فلم يفعل، فأرسل عسكرا مقدمهم فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني وأردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبي بكر المعروف بابن الداية، وكان رضيع نور الدين، وحصروا قلعة جعبر، فلم يظفروا منها بشيء، وما زالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عنها عوضا مدينة سروج بأعمالها والملاحة من بلد حلب، وعشرين ألف دينار معجلة وباب بزاعة

ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ثم ملك صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وستين وخمسمائة، في ربيع الأول، سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر، ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك تمكن الأفرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها، حتى ملكوا بلبيس قهرا في مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها، وقتلوا أهلها وأسروهم ، ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها ، فأحرق شاور مدينة مصر خوفا من أن يملكها الأفرنج وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة ، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما، فأرسل العاضد إلى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الأفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم، فحمل إليهم مائة ألف دينار، وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال وتحصيله، فرحلوا، وجهز نور الدين العسكر مع شيركوه، وأنفق فيهم المال وأعطى شيركوه مائتي ألف

دينار سوى الثيـاب والدواب والأسلحة، وأرسل معه عدة أمـراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيـوب على كره منه، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيـه ذهاب الملك من بيته. وكره صـلاح الدين المسير وفيه سعادتـه وملكه (وعسى ان تكرهـوا شيئا وهو خير لكم وعسـى ان تحبوا شيئا وهو شر لكـم)(البقـرة ٢١٦)ولما قارب شيركوه مصر رحـل الأفرنج من ديـار مصر على أعقابهم إلى بلادهـم، فكـان هذا لمصر فتحا جـديدا ، ووصـل أسد الـديـن شيركوه إلى القـاهرة في رابـع ربيـع الآخر، واجتمـع بالعـاضد وخلع عليـه وعاد إلى خيامـه بالقلعة العـاضدية، وأجـرى عليه وعلى عسكره النفقة الوافرة وشرع شاور يماطـل شيركوه فيما كان بذله لنور الدين مـن تقرير المال وايراد ثلث البـلاد، ومع ذلك فكان شـاور يركب كل يوم إلى أسـد الدين شيركوه ويعـده ويمنيه (وما يعدهـم الشيطان إلا غرورا)(النسـاء ١٢٠)، ثم ان شـاور عزم على ان يعمـل دعوة لشيركـوه وأمرائه ويقبـض عليهم فمنعه ابنه الكـامل بن شاور مـن ذلك، ولما رأى عسكر نـور الدين مـن شاور ذلك عـزموا على الفتك بشـاور واتفق على ذلك صلاح الـدين يوسف وعز الـدين جرديك وغيرهما، وعـرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه، واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده في المخيم، وكان قد مضى لزيارة قبر الشـافعي رضي الله عنه، فلقي صلاح الديـن وجرديك شاور وأعلماه بـرواح شيركوه إلى زيارة الشافعـي، وساروا جميعا إلى شيركـوه فوثب صـلاح الد يـن وجرديك على شـاور وألقياه إلى الأرض عن فـرسه، وأمسكاه في سـابع ربيع الآخـر من هذه السنـة فهرب أصحابـه عنه وأرسلا أعلما شيركوه بما فعـلاه، فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ذلك، وسمـع العاضـد الخبر فأرسـل إلى شيركوه يطلـب منه انفـاذ رأس شاور، فقتلـه وأرسل إلى العاضـد، ودخل بعـد ذلك القصر عند العـاضد فخلـع عليـه خلعـة الـوزارة ولقبه الملـك المنصـور أمير الجيـوش، وسـار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كـان فيها شاور، واستقر في الأمر، وكتب لـه منشورا، أولـه بعـد البسملة : «مـن عبد اللـه ووليـه أبي محمد الإمـام

العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة أسد الدين أبي الحارث شيركوه العاضدي عضد الله به الدين، وأمتع الله بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سلام عليك.

إنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد وآله الطاهرين، والأئمة المهديين ويسلم تسليما»ثم ذكر تفويض أمور الخلافة إليه، ووصايا أضربنا عنها للإختصار، وكتب العاضد بخطه على ظهر المنشور: « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الافتخار بأن اعتزت خدمتك الى النبوة»

ومدحت الشعراء أسد الدين، ووصل إليه من الشام مديح العماد الكاتب قصيدة أولها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من
نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم
من المدى في العلا ما حزت بالخبب
ملكت من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد أمكنت اسد الدين العزيمة من
فتح البلاد فبادر نحوها وثب

في شيركوه وقتله شاور يقول عرقلة الدمشقي :

لقد فاز بالملك العظيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير

هـو الأسـد الضـاري الـذي جـل خطبـه
وشـاور كلـب للـرجـال عقـور
بغـى وطغـى حتـى لقـد قـال صحبـه
على مثلهـا كـان اللعين يـدور
فـلا رحـم الـرحمن تـربـة قبره .
ولازال فيـه منكـر ونكير

أما الكامل ابن شاور لما قتل أبوه فقد دخل القصر، فكان آخر العهد به .

ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله (حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) (الأنعام ٤٤)وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام ، وكان شيركوه وأيوب ابنا شادي من بلد دوين .

قال ابن الأثير وأصلهما من الأكراد الروادية، فقصدا العراق، وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد ، وكان أيوب أكبر من شيركوه، فجعله بهروز مستحفظا قلعة تكريت ولما انكسر عماد الدين زنكي من عسكر الخليفة ، ومر على تكريت خدمه أيوب وشيركوه، ثم ان شيركوه قتل انسانا بتكريت، فأخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد الدين زنكي وأحسن إليهما وأعطاهما إقطاعات جميلة ، ولما ملك قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظا لها ولما حاصر عسكر دمشق بعلبك بعد موت زنكي سلمها أيوب لهم على إقطاعات كثيرة شرطوها له، وبقي أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق ، وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بعد موت أبيه زنكي، وأقطعه نور الدين حمص والرحبة لما رأى من شجاعته وزاده عليها، وجعله مقدم عسكره ، فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب، فساعد أيوب نور الدين على

ملك دمشق، وبقيا مع نور الـدين إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها، وتوفي في هذه السنة على ما ذكرنا

ولما تـوفي شيركوه،وكان معه صـلاح الدين يوسف ابـن اخيه أيوب بـن شادي، وكان قـد سار معه على كره. قال صـلاح الدين أمرني نـور الدين بالمسير مع عمي شيركوه بحضرته : يـا يوسف تجهز للمسير، فقلت: والله لو أعطيت ملـك مصر ما سرت إليها، فلقد قـاسيت بالاسكندريـة ما لا أنساه أبـدا، فقال لنور الديـن: لا بد من مسيره معـي، فأمرني نور الـدين وأنا أستقيـل، فقال نـور الديـن لابد مـن مسيرك مع عمـك ، فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به، فكأنما أساق إلى الموت.

ولما مـات شيركوه طلـب جماعة مـن مـن الأمراء النـورية التقـدم على العسكر، وولاية الـوزاره العاضدية، منهـم : عين الدولة الياروقـي، وقطب الديـن ينال المنبجـي، وسيف الـدين علي بـن أحمد المشطوب الهكـاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صـلاح الدين، فأرسل العاضد أحضر صـلاح الـدين وولاه الـوزارة، ولقبـه بـا لملـك الناصر، فلـم يطعـه الأمراء المذكورون، وكان مع صلاح الـدين الفقيه عيسى الهكاري، فسعى إلى المشطوب حتـى أماله إلى صـلاح الديـن ، ثم قصد الحارمـي، وقال: هـذا ابن اختـك، وعزه وملكـه لك فمال إليـه أيضـا، ثم فعـل بالبـاقين كذلـك، فكلهم أطاع غير عين الـدولة الياروقي فـإنه قال: أنـا لا أخدم يوسف، وعـاد إلى نور الدين بالشـام، وثبتت قدم صلاح الـدين على انه نـائب نـور الديـن، وكـان نـور الديـن يكـاتـب صـلاح الديـن بـالأمير الأسفهسـلار، ويكتب عـلامتـه على رأس الكتـاب تعظيما عن أن يكتـب اسمه، وكـان لا يفرده بكتاب بـل يكتب إلى الأمير صـلاح الدين وكـافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا .

ثـم أرسل صـلاح الديـن يطلـب من نـور الـدين أبـاه أيوب وأهلـه،

فأرسلهم إليه نور الدين، فأعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر،

ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله، فأرسلهم إليه نور الدين، فأعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر، وتمكن من البلاد، وضعف أمر العاضد، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص لباس الجد، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله تعالى.

قال ابن الأثير مؤلف كتاب الكامل : رأيت كثيرا ممن ابتدأ الملك ينتقل إلى غير عقبة ، فإن معاوية تغلب وملك فانتقل الملك إلى بني مروان بعده، ثم ملك السفاح من بني العباس، فانتقل الملك إلى عقب أخيه المنصور، ثم السامانية أول من ابتدى بالملك نصر بن أحمد، فانتقل الملك إلى أخيه إسماعيل وعقبة، ثم عماد الدولة بن بويه ملك فانتقل الملك الى عقب أخيه ركن الدولة، ثم ملك طغريل السلجوقي فانتقل ملكه إلى عقب أخيه ، ثم شيركوه ملك فانتقل الملك إلى ابن أخيه

ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه بل انتقل إلى أخيه العادل وعقبه، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب، وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى أولا، وأخذ الملك وعيون أهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبة ذلك .

ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل مؤتمن الخلافة، وكان مقدم السودان، فاجتمعت السودان، فهم حفاظ القصر، في عدد كثير وكان بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين، انهزم فيها السودان وقتل منهم خلق كثير، وتبعهم صلاح الدين فأجلاهم قتلا وتهجيجا، وحكم صلاح الدين على القصر، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان خصيا أبيض، وبقي لا يجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين .

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

فيها سارت الأفرنج إلى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وأخرج على ذلك أموالا عظيمة، فحصروها خمسين يوما، وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام، فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها. قال صلاح الدين: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلي مدة إقامة الأفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب وغيرها .

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مرة ثم رحل عنه. وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام ، فقام نور الدين في عمارة الأسوار وحفظ البلاد أتم قيام، وكذلك خربت بلاد الافرنج، فخافوا من نور الدين، واشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ما خربت من بلادهم

وفيها في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، وكان مرضه حمى حادة، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود إلى أخيه الذي هو أصغر منه، وهو سيف الدين غازي بن مودود، فسار عماد الدين زنكي إلى عمه نور الدين مستنصرا به، وتوفي قطب الدين وعمره أربعون سنة تقريبا، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا، وكان من أحسن الملوك سيرة

وفي سنة ست وستين

سار نور الدين محمود بن زنكي إلى الموصل وهي بيد أخيه غازي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر، فاستولى عليها نور الدين وملكها، ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها، وأطلق المكوس منها، ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازي، وأعطى سنجار لعماد الدين وهو

أكبر من أخيه، فقال كمال الدين الشهرزوري: هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكي لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين، فيحصل الخلف وتطمع الأعداء.

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من مصر فغزا بلاد الأفرنج قرب عسقلان والرملة، وعاد إلى مصر، ثم خرج إلى إيلة وحصرها، وهي للأفرنج على ساحل البحر الشرقي، ونقل إليها المراكب وحصرها برا وبحرا وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر، واستباح أهلها وما فيها، وعاد إلى مصر .

ولما استقر صلاح الدين بمصر كان بمصر دار الشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية، وكذلك دار العزل مدرسة للشافعية، وعزل قضاة المصريين، وكانوا شيعة ورتب قضاة شافعية، وذلك في العشرين من جمادى الآخرة، وكذلك اشترى تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين منازل العز، وبناها مدرسة للشافعية

ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

وفيها ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله، وكان سبب الخطبة العباسية بمصر، أنه لما تمكن صلاح الدين بمصر وحكم على القصر، وأقام فيه قراقوش الأسدي وكان خصيا أبيض، وبلغ نور الدين ذلك أرسل إلى صلاح الدين حتما جزما بقطع الخطبة العلوية وإقامة الخطبة العباسية، فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة، فلم

يلتفت نور الدين إلى ذلك، وأصر عليه وكان العاضد قد مرض فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء، ويقطعوا خطبة العاضد فامتثلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته، وتوفي العاضد يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع خطبته

ولما توفي العاضد جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه، وكانت كثرته تخرج عن الاحصاء، وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق الثمينة والكتب والتحف، فمن ذلك الجبل الياقوت، وكان وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا

قال ابن الأثير مؤلف الكامل : أنا رأيته ووزنته، ومما حكي أنه كان بالقصر طبل للقولنج إذا ضرب الانسان به ضرط فكسر، ولم يعلموا به إلا بعد ذلك،ونقل صلاح الدين أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من عبد وأمة فباع البعض، وأعتق البعض، وذهب البعض، وخلا القصر من سكانه، وكأن لم يغن بالأمس.

ولما إشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه، فظن ذلك خديعة ولم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم لتخلفه عنه، وجميع من خطب له منهم أربعة عشر خليفة: المهدي، والقائم ،والمنصور،والمعز، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد، وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسلجماسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد في هذه السنة أعني سنة سبع وستين وخمسمائة مائتان واثنتان وسبعون سنة تقريبا، وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا واستردت، ولم تحل إلا وتمررت. ولم تصف إلا وتكدرت. بل صفوها لم يخل من الكدر .

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ضربت لها البشائر عدة أيام، وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواص الخدم إلى نور الدين وصلاح الدين والخطباء، وسيرت الأعلام السود، وكان العاضد المذكور قد رأى في منامه أن عقربا خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاضد، ولدغته فاستيقظ العاضد مرعوبا واستدعى من يعبر الرؤيا وقص ما رآه عليه، فعبر له بوصول أذى إليه من شخص بذلك المسجد فتقدم العاضد الى والي مصر باحضار من بذلك المسجد، فأحضر إليه شخصا صوفيا يقال له نجم الدين الخبوشاني، فاستخبره العاضد عن مقدمه، وسبب مقامه بالمسجد المذكور، فخبره بالصحيح في ذلك، ورآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه، فوصله بمال وقال له: ادع لنا يا شيخ وأمره بالانصراف، فلما أراد السلطان صلاح الدين إزالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى في ذلك فأفتاه بذلك جماعة من الفقهاء، وكان نجم الدين الخبوشاني المذكور من جملتهم فبالغ في الفتيا وصرح في خطه بتعديد مساويهم وسلب عنهم الايمان وأطال الكلام في ذلك ، فصحت بذلك رؤيا العاضد .

وفي هذه السنة جرى بين نور الدين وصلاح الدين الوحشة في الباطن: كان صلاح الدين سار ونازل الشوبك، وهي للأفرنج ثم رحل عنها خوفا أن يأخذه فلا يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر فتركه ولم يفتحه لذلك وبلغ نور الدين فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين، ولما استقر صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال: بلغني أن نور الدين يقصدنا فما الرأي ؟ فقال تقي الدين عمر ابن أخيه: نقاتله ونصده، وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب، فأنكر على تقي الدين ذلك، وقال: أنا والدكم لو رأيت نور الدين نزلت وقبلت الأرض بين يديه، بل اكتب وقل لنور الدين إنه لو جاءني من عندك انسان واحد، وربط المنديل في عنقي وجرني إليك سارعت إلى ذلك، وانفضوا

على ذلـك ، ثـم اجتمع أيـوب بـابنـه صـلاح الـدين خلـوة، وقـال لـه: لوقصدنا نـور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتلـه،، ولكن إن أظهرنا ذلك يترك نـور الدين جميع مـا هو فيه ويقصـدنا ولا ندري ما يكـون من ذلك، وإذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقـت بما يحصل به الكفاية من عند الله فكان كما قال .

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

وفي هذه السنة سارت طائفة مـن الترك من ديار مصر مع مملوك لتقي عمـر بن شـاهنشـاه بـن أيوب اسمـه قـراقـوش إلى إفريقيـة، ونـزل على طرابلـس الغرب فحاصرهـا مدة، ثـم فتحها واستولى عليهـا، وملك كثيرا من بلاد إفريقية.

وفيهـا سار نـور الديـن إلى بلاد قليـج أرسـلان بن مسعـود بن قليـج أرسلان، واستولى على مرعـش وبهسنا ومرزبان وسيواس فأرسـل إليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلـب الصلح فقال نور الدين لا أرضـى إلا بأن ترد ملطية على ذي النـون بن الداشمنـد، وكان قليج أرسـلان قد أخذهـا منه فبذل لـه سيواس، فـاصطلح معـه نور الديـن فلما مات نـور الديـن عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس وطرد ابن الداشمند

وفيها سار صـلاح الدين من مصر الى الكرك وحصرها وكـان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك، وسار نـور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم، وهـو بالقرب من الكـرك ، فخاف صلاح الديـن من الاجتماع بنور الدين، فـرحل عن الكرك عائدا إلى مصر، وأرسل تحفـا إلى نور الدين واعتذر بأن أباه أيوب مريـض وخشي أن يموت، فتذهب مصر، فقبل نور الدين عذره في الظاهر وعلم المقصود.

ولما وصـل صلاح الـدين إلى مصر وجـد أبـاه أيوب قـد مات، وكـان

سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذي المذكور، أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوقع وحمل إلى قصره، وبقي أياما ، ومات في السابع والعشرين من ذي الحجةمن هذه السنة، وكان عاقلا حسن السيرة

ذكر ملك شمس الدين توران شاه بن أيوب اليمن

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه، فإن هزمهم التجأوا إلى تلك المملكة، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى النوبة فلم تعجبهم بلادها، ثم سيره في هذه السنةبعسكر إلى اليمن، وكان صاحب اليمن حينذاك انسانا يسمى عبد النبي، المقدم ذكره في سنة أربع وخمسين وخمسمائة، فتجهز توران شاه ووصل إلى اليمن وجرى بينه وبين عبد النبي قتال فانتصر فيه توران شاه، وهزم عبد النبي، وهجم زبيد وملكها وأسر عبد النبي، ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ناشر، فخرج لقتال توران شاه ، فهجم عدن وملكها وأسر ناشر أيضا ، واستولى توران شاه على بلاد اليمن، واستقرت في ملك صلاح الدين، واستولى على أموال عظيمة لعبد النبي وكذلك من عدن.

ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمني

في هذه السنة في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين فإنهم قصدوا الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخر هم ، فمنهم عبد الصمد الكاتب . والقاضي العويرس. وداعي الدعاة. وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه، وله أشعار حسنة فمنها مما يتعلق بأحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله

قصيدة منها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلي بالعطل
جدعت مارنك الأقنى فانفك لا
ينفك ما بون أهل الشين والخجل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل

وفي هذه السنة توفي الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الشام، وديار الجزيرة، وغير ذلك يوم الأربعاء، حادي عشر شوال بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة،وكان نور الدين شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين، وكان يريد أن يخلي ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود في الشام قبالة الأفرنج، ويسير هو بنفسه إلى مصر، فأتاه أمر الله الذي لامرد له، وكان نور الدين أسمر طويل القامة ليس له لحية إلا في حنكه حسن الصورة، وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب وكذلك كان يخطب له بمصر، وكان مولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبق ذكره الأرض وحسن سيرته وعدله، وكان من الزهد والعبادة على قدر عظيم، وكان يصلي كثيرا من الليل فكان كما قيل:

جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه، وليس عنده فيه تعصب، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام، منها: دمشق، وحمص،وحماة،وحلب، وشيزر، وبعلبك، وغيرها لما تهدمت بالزلزال، وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية، ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله.

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بالملك بعده، وعمره احدى عشرة سنة، وحلف له العسكر بدمشق، وأقام بها، وأطاعه صلاح الدين بمصر،وخطب له بها، وضربت السكة باسمه، وكان المتولي لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد، المعروف بابن المقدم.

ولما مات نور الدين وملك ابنه الملك الصالح، سار من الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، وملك جميع البلاد الجزرية.

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

وفي أول هذه السنة اجتمع على رجل من أهل الصعيد، يقال له الكنز، جمع كثير وأظهروا الخلاف على صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين إليه عسكرا فاقتتلواوقتل الكنز وجماعة معه، وانهزم الباقون.

ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها

في هذه السنة سلخ ربيع الأول ملك صلاح الدين بن أيوب: دمشق، وحمص، وحماة،وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ليكون مقامه بها، فسار الملك الصالح إلى حلب مع سعد الدين كمشتكين، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته، وهو رئيس حلب،واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، فكاتبوا صلاح الدين، واستدعوه ليملكوه عليهم فسار جريدة في

سبعمائة فارس، ولم يلبث أن وصل دمشق فخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه، ونزل بدار أبيه أيوب المعروفة بدار العقيقي، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستماله، فسلم القلعة إليه فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال.

ولما ثبت قدمه، وقرر أمر دمشق استخلف فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، وكانت حمص وحماة، وقلعة بارين، وسلمية وتل خالد، والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع فخر الدين ابن الزعفراني، فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس، وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فلأن قلاعها فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم إلا بارين فإن قلعتها كانت له أيضا، ونزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الأولى وملك المدينة وعصت عليه القلعة، فترك عليها من يضيق عليها ورحل إلى حماة فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض إلا حفظ الملك الصالح عليه وإنما هو نائبه، وقصده من جرديك المسير إلى حلب في رسالة، فاستحلفه جرديك على ذلك، وسار جرديك إلى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح، فجمع أهل حلب وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، فأرسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصرا لحلب إلى مستهل رجب ورحل عنها بسبب نزول الأفرنج على حمص، ونزل صلاح الدين على حماة ثامن رجب وسار

إلى حمص، فرحل الأفرنج عنها، ووصل صلاح الدين إلى حمص وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان من هذه السنة، ثم سار إلى بعلبك فملكها

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، وجعل مقدم الجيش أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ولقبه سلفندار، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة أيضا، فامتنع مصانعة لصلاح الدين، فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار، ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلفندار إلى حلب، وانضم إليهم عسكر حلب، وسار إلى صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة وأن يقر بيده دمشق، ويكون فيها نائبا للملك الصالح، فلم يجيبوا إلى ذلك وساروا إلى قتاله واقتتلواعند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب، وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم، وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم في حلب، وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن السكة، واستبد بالسلطنة، فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام، وللملك الصالح ما بقي بيده منهم فصالحهم على ذلك، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال من هذه السنة.

وفي العشر الأخير من شوال ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان فخر الدين المذكور من أكابر الأمراء النورية.

ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة

وفيها عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بتل السلطان، فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين . وغيرهما وتمت على سيف الدين غازي الهزيمة حتى وصل إلى الموصل مرعوبا، وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع، فثبته وزيره، وأقام بالموصل واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم، وغنم ما فيها، وسار الى بزاعه وحصرها وتسلمها، ثم سار الى منبج فحصرها في آخر شوال، وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي شديد البغض لصلاح الدين وفتحها عنوة، وأسر ينال وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه، فسار ينال إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى عزاز ونازلها ثالث ذي القعدة وتسلمها حادي عشر ذي الحجة، فوثب الإسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضربه بسكين في رأسه فجرحه،فأمسك صلاح الدين الإسماعيلي، وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الإسماعيلي على تلك الحال، ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل أيضا، ونجا السلطان الى خيمته مذعورا وعرض جنده وأبعد من أنكره منهم، ولما ملك السلطان عزاز رحل عنها ونازل حلب في منتصف ذي الحجة وحصرها وبها الملك الصالح، وانقضت هذه السنة، وهو محاصر لحلب، فسألوه في الصلح فأجابهم إليه، وأخرجوا إليه بنتا صغيرة لنور الدين فأكرمها وأعطاها شيئا كثيرا وقال لها :ما ترومين؟ فقالت : اريد قلعة عزاز، وكانوا قد علموها ذلك فسلمها السلطان

إليهم، واستقر الصلح، ورحل السلطان من حلب في العشرين من محرم سنة اثنتين وسبعين.

وفي سنة احدى وسبعين في رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن إلى الشام، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

وفيها قصد السلطان بلد الاسماعيلية في قلعة مصياف، فأرسل مقدم الاسماعيلية إلى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماة يسأله أن يسعى في الصلح فسأله الحارمي الصفح عنهم فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم، وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ووصل الى مصر فإنه كان بعد عهده بها بعد أن استقر له ملك الشام، ولما وصل إلى مصر في هذه السنة أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة على جبل المقطم،

ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع القاسمي ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين.

وفي هذه السنة أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة بمصر، وعمل بالقاهرة مارستان.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

وفي جمادى الأولى منها سار السلطان من مصر إلى الساحل لغزو الأفرنج، فوصل إلى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر فنهب وتفرق عسكره في الإغارات، وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر إلا بالأفرنج قد طلعت عليه، فقاتلهم أشد قتال، وكان لتقي الدين بن شاهنشاه ولد اسمه أحمد من أحسن الشباب، أول ما تكاملت لحيته،

فأمره أبوه تقي الدين بالحملة فحمل عليهم وقاتلهم فأثر فيهم أثرا كبيرا، وعاد سالما، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الأفرنج السلطان فمضى منهزما إلى مصر على البرية ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشا شديدا، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الأفرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون في الاغارات أسرى، وأسر الفقيه عيسى وكان من أكبر أصحاب السلطان، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين بستين ألف دينار، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة.

قال الشيخ عز الدين علي بن الأثير، مؤلف الكامل: رأيت كتابا بخط يد صلاح الدين إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق، يذكر له الوقعة وفي أوله:

ذكرتك والخطي يخطر بيننا
وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه: « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله سبحانه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى»

وفي هذه السنة سار الفرنج وحصروا مدينة حماة في جمادى الأولى، وطمع الأفرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته من الأفرنج، ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه وليس عنده كثير من العسكر، وكان توران شاه أيضا كثير الانهماك في اللذات، مائلا إلى الراحات، ولما حصروا حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال السلطان وهو مريض، واشتد حصار الأفرنج لحماة، وطال زحفهم عليها حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرا، ثم جد المسلمون في القتال وأخرجوا الأفرنج إلى ظاهر السور، وعقب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي، وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام.

وفي هذه السنة قبض الملك الصالح ابن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين، وكان قد تغلب على الأمر، وكانت حارم لكمشتكين، فأرسل الملك الصالح إليهم فلم يسلموها إليه، فأمر كمشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه، فأمر بتعذيب كمشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه، فمات من العذاب، وأصر أصحابه على الامتناع، ووصل الأفرنج إلى حارم بعد رحيلهم عن حماة وحصرواحارم مدة أربعة أشهر، فأرسل الملك الصالح مالا للأفرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم، وقد بلغ أهلها الجهد، وبعد أن رحل الأفرنج عنها أرسل الملك الصالح إليها واستناب بقلعة حارم مملوكا لأبيه اسمه سرخك .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

وفي هذه السنة طلب توران شاه من أخيه السلطان بعلبك، وكان السلطان قد أعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بالمقدم لما سلم دمشق إلى صلاح الدين ولم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك، فأرسل الى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلمها، فأرسل السلطان وحصره ببعلبك، وطال حصارها، فأجاب ابن المقدم الى تسليمها على عوض، فعوض عنها وتسلمها السلطان وأقطعها أخاه

وفيها كان بالبلاد غلاء عام وتبعه وباء شديد، وفيها سير السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر إلى حماة، وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص، وأمرهما بحفظ بلادهما، فاستقر كل منهما ببلده.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

وفيها سار السلطان وفتح حصنا كان بناه الأفرنج عند مخاضة الأحزان

بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب، وفيها كان حرب بين عسكر السلطان ومقدمهم تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وبين عسكر قليج أرسلان صاحب الروم، وسببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين ابن المقدم، فطمع فيه قليج وأرسل إليه عسكرا ليحصروه، وكانوا قريب عشرين ألفا وسار إليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم، وكان تقي الدين يفتخر ويقول: هزمت بألف عشرين ألفا

ذكر وفاة المستضيء وخلافة الامام الناصر وهو رابع ثلاثينهم

في هذه السنة ثاني ذي القعدة توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، وأمه أم ولد أرمينية، وكانت خلافته تسع سنين وسبعة عشر يوما، وكان حسن السيرة، وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبو بكر منصور المعروف بابن العطار، بعد عضد الدين الوزير، فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار، وأخذ البيعة لولده الإمام الناصر لدين الله، ولما استقرت البيعة للإمام الناصر حكم استاذ الدار مجد الدين أبو الفضل، وقبض في سابع ذي القعدة على ابن العطار، ونقل إلى التاج، وأخرج ميتا على رأس حمال ليلة الأربعاء ثاني عشر ذي القعدة ، فثارت به العامة وألقوه من على رأس الحمال وشدوا في ذكره حبلا وسحبوه في البلد، وكانوا يضعون في يده مغرفة، يعني أنها قلم، وقد غمست تلك المغرفة في العذرة، ويقولون: وقع لنا يا مولانا،هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم، وكفه عن أموالهم، ثم خلص منهم ودفن.

وفي هذه السنة في ذي القعدة نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك، فطلب عوضها الإسكندرية، فأجابه السلطان إلى ذلك، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، فسار إليها فرخشاه وسار شمس الدولة توران شاه إلى الإسكندرية وأقام بها إلى أن مات

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل
ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

وفي هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية، وكان مرضه السل وطال، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر، وكان حسن الصورة، مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلا عادلا عفيفا شديد الغيرة، لايدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغارا، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان عفيفا عن أموال الرعية مع شح كان فيه، وأوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره، وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز.

وفي هذه السنة سار السلطان إلى جهة قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ووصل إلى رعبان ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرمني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقها .

وفيها توفي شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية، وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما، وكان أجود الناس وأسخاهم كفا، يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن ودخل الإسكندرية، ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مئتي ألف دينار مصرية، فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل مصر في هذه السنة في شعبان، واستخلف بالشام ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

وفيها عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للإستيلاء على تلك النواحي الشرقية، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان بدمشق فجمع جموعا وقصد بلاد الكرك وأغار عليها، وأقام في مقابلة البرنس، ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة.

وفيها وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف فخشي السلطان صلاح الدين على اليمن فجهز إليه عسكرا مع جماعة من أمرائه فوصلوا إلى اليمن واستولوا عليه، وكان نواب توران شاه على عدن عز الدين عثمان، وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكناني من بيت صاحب شيزر.

ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب

في هذه السنة في رجب توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب حلب، وعمره نحو تسع عشرة سنة، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الأطباء الخمر فمات ولم يستعمله، وكان حليما عفيف اليد والفرج واللسان، ملازما لأمور الدين لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب، وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيماز من الموصل إلى حلب واستقر في ملكها، ولما استقر مسعود في ملك حلب كاتبه أخوه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في أن يعطيه حلب ويأخذ منه سنجار، فأشار قيماز بذلك

فلم يمكن مسعود إلا موافقته فأجاب إلى ذلك؛ فسار عماد الدين إلى حلب وتسلمها، وسلم سنجار إلى أخيه مسعود، وعاد مسعود إلى الموصل.

ذكر مسير السلطان صلاح الدين إلى الشام

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

وفيها خامس محرم سار صلاح الدين من مصر إلى الشام، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه أخذ كل منهم يقول شيئا في الوداع وفراقه، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتكدر المجلس على الحاضرين ، فلم يعد صلاح الدين بعدها إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الأفرنج وغنم، ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة، ولما سار صلاح الدين إلى الشام اجتمعت الأفرنج قريب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه نائب السلطان الفرصة وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتحه وأغار على ما يجاوره من بلاد الأفرنج، وأرسل إلى السلطان وبشره بذلك

ذكر إرسال سيف الاسلام إلى اليمن

في هذه السنة سير السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها، وكان بها حطان بن منقذ الكناني، وعز

الـدين عثمان الـزنجيلي قـد عادا إلى ولايتهـا فـإن الأمير الذي كـان سيره السلطان نـائبا إلى اليمـن تولى وعـزلهما، فعادت بين حطـان وعثمان الفتن قائمـة، فوصل سيف الإسـلام إلى زبيد فتحصن حطان في بعـض القلاع فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتـى نزل إليه فأحسن صحبته، ثم إن حطـان طلب دستـورا إلى الشام فلـم يجبـه إلا بعد جهـد، فجهز حطـان أثقالـه قدامـه ودخل حطـان ليودع سيـف الإسلام فقبـض عليه وأرسـل فـاسترجع أثقـالـه، وأخذ جميـع أموالـه، وكـان من جملـة مـا أخذ سيـف الإسلام سبعون غلاف زردية مملوءة ذهبـا عينا، ثم سجن حطان في بعض قـلاع اليمن فكـان آخـر العهد بـه، فـأما عثمان الـزنجيلي فـإنه لما جـرى لحطان ذلـك خاف وسار نحـو الشام، وسير أمـواله في البحر فصـادفهم مركب فيهـا أصحاب سيف الإسلام فـأخذوا كل مالعثمان، وصفـت بلاد اليمن لسيف الإسلام.

-١٠١٢١-

ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما استولى عليه من البلاد

في هذه السنة سار السلطان من دمشق في ربيع الأول ونزل قريب طبرية، وشن الغارات على بلاد الأفرنج مثل بانياس وجينين والغور، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق، ثم سار عنها إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها،ثم عاد إلى دمشق، ثم سار من دمشق إلى البلاد الجزرية وعبر الفرات من البيرة فسار معه مظفر الدين بن زين الدين، وكان حينئذ صاحب حران، وكاتب السلطان ملوك تلك الأطراف واستمالهم، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وصار معه، ونازل السلطان الرها وحصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبوري صاحب حران، ثم سار السلطان إلى الرقة وأخذ صاحبها قطب الدين ينال بن حسان، فسار ينال إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم سار صلاح الدين إلى الخابور وملك قرقيسياء وماكسين وعربان والخابور واستولى على خابور جميعة، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم ملك القلعة، ثم أقطع نصيبين أميرا كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين، وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار وشحنوها بالرجال والسلاح، فحصر الموصل وأقام عليها منجنيقا فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق، وضايق الموصل فنزل السلطان محاذاة باب كندة، ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر، ونزل تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين على باب العمادي وجرى القتال بينهم، وكان ذلك في شهر رجب فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل إلى سنجار وحاصرها وملكها، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى، ثم سار السلطان إلى حران وعزل في طريقه عن نصيبين أبا الهيجاء السمين

- ١٠١٢٢ -

ذكر غير من الحوادث

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا في بحر أيلة، وساروا في البحر فرقتان فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل، وبغتوا المسلمين في تلك النواحي فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر افرنجا قط، وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبا عن أخيه السلطان، فعمر أسطولا في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين لؤلؤ، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفرا شجاعا، فسار لؤلؤ مجدا في طلبهم، وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة حرسها الله تعالى، فسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابغ، فأدركهم بساحل الحوراء، وتقاتلوا أشد قتال فظفره الله تعالى بهم وقتل لؤلؤ أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم

وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقته من بين أهله، وكان فرخشاه شجاعا كريما فاضلا وله شعر جيد، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية، فأرسل إلى دمشق شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور.

وفيها توفي بدمشق مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الفقيه الشافعي، ولد سنة خمس وخمسمائة، وهو الملقب قطب الدين، وكان إماما فاضلا في العلوم الدينية، قدم إلى دمشق وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين، وكان السلطان يقرئها أولاده الصغار.

ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

وفيها ملك السلطان حصن آمد بعد حصار وقتال في العشر الأول من محرم، وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داوود بن سكمان بن أرتق صاحب حصن كيفا، ثم سار إلى الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عينتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد سلم نور الدين عينتاب إلى اسماعيل المذكور فبقيت معه إلى الآن، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان، ومن جملة أمرائه، ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي، وطال الحصار عليه، وكان قد كثرت اقتراحات أمراء حلب عليه ، وقد ضجر من ذلك، وكره حلب لذلك، فأجاب السلطان إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج واتفقوا على ذلك، وسلم حلب إلى السلطان في صفر من هذه السنة، فكان ينادي أهل حلب على عماد الدين المذكور:« يا حمار، بعت حلب بسنجار.» واشترط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه، ولا يحتج بحجة عن ذلك، ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي، قاضي دمشق، مدح السلطان بقصيدة منها:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوك بوري بن أيوب أخو

السلطـان الأصغر وكـان كريما شجـاعـا طعن في ركبتـه فانفلقـت. فمات منها.

ولما استقر الصلـح عمل عماد الـدين زنكـي دعوة للسلطـان واحتفل، فبينما هم في سرورهـم إذ جاءهـم إنسان فـأسر إلى السلطان بمـوت أخيه بوري فـوجد عليه في قلبه وجـدا عظيما وأمر بتجهيزه، ولم يعلـم السلطان في ذلك الوقت أحدا ممن كان في الدعـوة بذلك لئلا يتنكد عليهم ما هم فيه، وكـان يقول السلطان: ما وقعـت علينا حلب رخيصة بمـوت بوري، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم.

ولما ملـك السلطـان حلـب أرسل إلى حـارم وبها سرخـك الـذي ولاه الملك الصالح في تسليم حارم، وجـرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حـال وكاتـب سرخك الأفـرنج، فـوثب عليـه أهل القلعـة وقبضوا عليـه وسلموا حـارم الى السلطان، فتسلمهـا وقرر أمر حلـب وبلادهـا، وأقطع اعزاز أميرا يقال له سليمان بن جندر

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة قبض عـز الدين بن مسعود صاحـب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيماز.

ولما فرغ السلطان من تقـرير أمر حلب جعل فيها ولـده الملك الظاهر غازي، وسار إلى دمشـق وتجهز منها للغزو فعبر نهر الأردن تـاسع جمادى الآخرة فـأغار على بيسان وحـرقها وشن الغـارات على تلك النواحـي، ثم تجهز السلطان للكرك وأرسل إلى نائبـه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقيه على الكـرك، فسار واجتمعا عليها وحصر الكرك وضيـق عليه، ثم رحل عنهـا في منتصف شعبـان، وسار معـه أخوه، وأرسـل السلطان ابـن أخيه الملـك المظفر تقـي الديـن عمر إلى مصر نـائبا عنـه موضـع الملك

العادل، ووصل السلطان إلى دمشق،وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها، وسيره إليها في شهر رمضان من هذه السنة، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

وفي هذه السنة في أواخرها توفي شاه أرمن سكمان بن ظهير الدين إبراهيم بن سكمان القطبي صاحب خلاط، وقد تقدم ذكر ملك شاه أرمن المذكور في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وكان عمر سكمان لما توفي أربعا وستين سنة، ولما مات سكمان كان بكتمر مملوك أبيه بميافارقين، فلما سمع بكتمر بموته سار من ميافارقين ووصل إلى خلاط وكان أكثر أهلها ومماليك شاه أرمن متفقين معه، وأول وصوله استولى على خلاط وتملكها وجلس على كرسي شاه أرمن واستقر في مملكة خلاط حتى قتل في سنة تسع وخمسمائة حسبما نذكر ان شاء الله تعالى.

ذكر غزو السلطان الكرك

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة

وفيها في ربيع الآخر سار السلطان من دمشق للغزاة، وكتب إلى مصر، فسارعت عساكرها إليه ونازل الكرك وحاصره وضيق على من به وملك ربض الكرك وبقيت القلعة وليس بينها وبين الربض غير خندق عميق وقصد السلطان طمه، فلم يقدر لكثرة المقاتلة، فجمعت الأفرنج فارسها وراجلها وقصدوه ولم يمكن السلطان إلا الرحيل فرحل عن الكرك وسار إليهم فأقاموا في أماكن وعرة وأقام السلطان قبالتهم، وسار من الأفرنج جماعة ودخلوا الكرك، فعلم بامتناعه عليه وسار إلى نابلس ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبي فأكثر، ثم نزل إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ثم سار إلى جينين ثم عاد إلى دمشق.

وفي هذه السنة توفي شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعيد أحمد، وكان قد سار من عند الخليفة إلى السلطان في رسالة ومعه شهاب الدين بشير ليصلح بين صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلم ينتظم حال، واتفق أنهما مرضا بدمشق، وطلبا المسير إلى العراق، وسارا في الحر فمات بشير في السخنة، ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة، ودفن بمشهد البوق، وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا.

وفيها في محرم أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قيماز من الحبس، وأحسن إليه.

ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة

وفيها حصر السلطان الموصل وهو حصاره الثاني، فأرسل إليه عز الدين والدته وابنة عمه نور الدين بن زنكي وغيرهما من النساءوجماعة يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين، لا سيما وفيهن بنت نور الدين، وحاصر الموصل وضايقها، وبلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخرمن هذه السنة، فسار عن الموصل إلى جهة خلاط باستدعاء أهلها ليملكها.

وفي هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وآمد، وملك بعده ولده سكمان، ولقب قطب الدين، وكان صغيرا، فقام بتدبيره القوام ابن سماق الأسعردي، وأحضر سكمان إلى السلطان وهو نازل على ميافارقين فأقره على ما كان بيد والده، وأقام معه أميرا من أصحاب سكمان المذكور.

ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميافارقين

لما رحل ا لسلطـان عن الموصل جعل طـريقه على ميافارقين، وكـانت لصـاحب مـارديـن الذي تـوفي وفيهـا مـن يحفظها مـن جهـة شاه أرمـن صـاحب خـلاط المتـوفى، فحاصرهـا السلطـان وملكها في سلـخ جمادى الأولى، ثم إن السلطان رجـع عن قصد خلاط إلى الموصل فجـاءته رسل عز الديـن مسعود يسأل الصلح، واتفق حينئذ أن السلطـان مرض وسار من كفر زمار عائدا إلى حران، فلحقته رسل صاحب الموصل بالإجابة إلى ما طلـب، وهو أن يسلم صاحب الموصل السلطـان : شهرزور وأعمالها، وولاية القراملي وجميع ما وراء الزاب، وأن يخطـب للسلطان صلاح الدين على جميـع منـابـر الموصـل ومـا بيـده، وأن يضرب اسمـه على الـدراهـم والدنـانير، وتسلم السلطـان ذلك واستقر الصلـح وأمنت البـلاد، ووصل السلطان إلى حران وأقام بها مريضا واشتـد به المرض حتى أيسوا منه، ثم إنه عـوفي وعاد إلى دمشـق سنة اثنتين وثمانين مـن محرم. ولما اشتد مـرض السلطان سار ابـن عمه محمد بن شيركو ه بن شـاذي صاحب حمص إلى حمص، وكاتـب بعض أكـابر دمشق في أن يسلمـوا إليه دمشـق إذا مات السلطان.

وفي هـذه السنة ليلـة عيـد الأضحى شرب بحمـص صـاحبها نـاصر الديـن محمد بـن شيركوه بن شـاذي فأصبح ميتـا، قيل إن السلطـان هو الذي دس عليه من سقاه سما لما بلغه مكـاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيـده على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنتا عشر سنـة، وخلف صاحـب حمص شيئا كثيرا مـن الدواب والآلات وغيرها، فـاستعرضهـا السلطان عنـد نزولـه بحمص في عـوده من حـران وأخذ أكثرها، ولم يترك إلا ما لا خير فيه .

ذكر نقل الملك العادل من حلب وإخراج الملك الأفضل ابن السلطان من مصر إلى دمشق

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

وفيها أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر، وأقطعه دمشق، وسببه أن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان كان نائب عمه بمصر، وكان معه الملك الأفضل، فأرسل تقي الدين يشتكي من الأفضل إنني لا أتمكن من استخراج الخراج، فإنني إذا أحضرت من عليه الخراج وأردت عقوبته يطلقه الملك الأفضل، فأرسل السلطان أخرج ابنه الأفضل من مصر وأقطعه دمشق، وتغير السلطان على تقي الدين في الباطن فإنه ظن أنه إنما أخرج ولده من مصر ليمتلك مصر إذا مات السلطان، ثم أحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل معه ولده العزيزعثمان بن السلطان نائبا عنه بمصر، واستدعى تقي الدين من مصر فقيل إنه توقف عن الحضور وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد إفريقية وبرقة من المغرب، وبلغ السلطان ذلك فساءه، وأرسل يستدعي تقي الدين ويلاطفه فحضر، ولما حضر تقي الدين إلى السلطان زاده على حماة منبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها، واستقر العادل والعزيز عثمان في مصر، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها.

ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل

وفي هذه السنة في أولها توفي البهلوان محمد بن الدكز صاحب بلد الجبل، وهمذان، والري، وأصفهان، وأذربيجان، وأرانية وغيرها من البلاد، وكان عادلا حسن السيرة وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان واسمه

عثمان، وكان السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان، وله خطبة في بلاده، وليس له من الأمر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل وكثر جمعه واستولى على بعض البلاد، وجرت بينه وبين قزل حروب .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم، فأرسل السلطان يطلب منه اطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك، فلم يفعل، فنذر السلطان أنه إن أظفره الله به قتله بيده.

ـ ذكر غزوات السلطان وفتوحاته

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وفيها جمع السلطان العساكر، وسار بفرقة من العسكر، وضايق الكرك خوفا على الحجاج من صاحب الكرك، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل فأغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية، وغنموا شيئا كثيرا.

ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف، وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس، وكان قد هادن السلطان، ودخل في طاعته فأرسلت الأفرنج إلى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه، فصار معهم واجتمع الأفرنج للقاء السلطان.

ذكر وقعة حطين وهي الواقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس

ولما أخذ السلطان مدينة طبرية اجتمعت الأفرنج وملوكهم بفارسهم وراجلهم، وساروا إلى السلطان، فركب السلطان من عند طبرية وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال، ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على مقدمة المسلمين وهناك تقي الدين صاحب حماة فأفرج له وعطف عليهم ونجا القومص ووصل طرابلس، وبقي مدة يسيرة ومات غبنا، ونصر الله تعالى المسلمين، وأحدقوا بالأفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلا وأسرا، وكان من جملة من أسر ملك الأفرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن الهنفري، ومقدم الداوية وجماعة من الاسبتارية ،وما أصيب الأفرنج منذ خرجوا إلى الشام في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمصيبة مثل هذه الواقعة.

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته، وأحضر ملك الأفرنج، وأجلسه إلى جانبه، وكان الحر والعطش به شديدا فسقاه السلطان ماء مثلوجا، فسقى ملك الأفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك، فقال له السلطان: هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيكون أمانا له، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الأفرنج، فسكن جاشه، ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان، ثم أرسل إلى أخيه العادل فنازل مجدل يابا وفتحه عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلاثا والفولة غيرها من البلاد المجاورة لعكا بالسيف، وغنموا وقتلوا، وأسروا أهل هذه الأماكن، وأرسل فرقة إلى نابلس فملكوا قلعتها بالأمان، ثم سار الملك العادل بعد فتح

مجدل يابا إلى يافا وفتحهاعنوة بالسيف ثم سار السلطان إلى تبنين ففتحها بالأمان ، ثم سار إلى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لتسع بقين من جماذى الأولى من هذه السنة، ثم سار إلى بيروت فحاصرها وتسلمها في السابع والعشرين من جمادى الأولى بالأمان وكان حصرها مدة ثمانية أيام، وكان صاحب جبيل من جملة الأسرى، فبذل جبيل بأن يسلمها ويطلق سراحه فأجيب إلى ذلك، وكان صاحب جبيل من أعظم الأفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين، ولم تكن عاقبة اطلاقه حميدة، وأرسل السلطان وتسلم جبيل وأطلقه.

وفيها حضر المركيس في سفينة إلى عكا وهي للمسلمين، ولم يعلم المركيس بذلك، واتفق هجوع الهوا، فراسل المركيس الملك الأفضل وهو بعكا يقترح أمرا بعدأمر، والملك الأفضل يجيب إلى ذلك المركيس إلى أن هب الهواء،فأقلع المركيس إلى صور، وكان وصول المركيس إلى صور واطلاق الأفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالأمان وحملهم إلى صور من أعظم أسباب الضرر الذي حصل حتى زاحت عكا، وقوي الأفرنج بذلك.

ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما، وتسلمها بالأمان سلخ جمادى الآخرة، ثم بث السلطان عسكره ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وغير ذلك.

ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر، وضايق السلطان السور بالنقابين، واشتد القتال، ونقبوا السور، وطلب الأفرنج الأمان فلم يجبهم السلطان إلى ذلك، وقال لاآخذها إلا بالسيف مثل ما أخذها الأفرنج من المسلمين، فعاودوه في الأمان، وعرفوه ما هم عليه من الكثرة وأنهم إن أيسوا من الأمان قاتلوا خلاف ذلك القتال، فأجابهم السلطان إلى ذلك وشرط أن يؤدي كل من بها من الرجال

عشرة دنانير، وتؤدي النساء خمسة، ويؤدوا عن كل طفل دينارين، وأن من عجز عن ذلك يكون أسيرا، فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب، وكان يوما مشهودا، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور، فخان المرتبون في ذلك، ولم يحملوا إلا القليل.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب مذهب فتسلق المسلمون واقتلعوه، فسمع لذلك ضجة لم بعهد مثلها من الأفرنج بالتفجع والتوجع، وكان الأفرنج قد عملوا غربي المسجد الأقصى هريا ومستراحا، فأمر السلطان بإزالة ذلك وإعادة الجامع إلى ما كان عليه، وكان نور الدين محمود بن زنكي قد عمل منبرا بحلب تعب عليه مدة،وقال: هذا لأجل القدس، فأرسل السلطان أحضر المنبر من حلب وجعله في المسجد الأقصى، وأقام السلطان بعد فتح القدس بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله، وتقدم بعمل الربط والمدارس الشفعوية.

ثم رحل السلطان إلى عكا ورحل منها إلى صور، وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال وحفر خندقها، ونزل السلطان على صور تاسع عشر رمضان وحاصرها وضايقها، وطلب الأسطول، فوصل إليه في عشر شوال، فاتفق أن الأفرنج كبسوهم في الشواني، وأخذوا خمس شوان، ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا، وأخذ الباقون، وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في آخر شوال، أول كانون الأول، وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور، فسار كل واحد إلى بلده، وبقي السلطان بعكا في حلقته وأرسل إلى هونين وفتحها بالأمان

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة سار شمس الدين محمد بن المقدم بعد فتح القدس حاجا، وكان هو أمير الحاج الشامي ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج في عام واحد، فسار ووقف بعرفات، ولما أفاض أرسل إليه طاشتكين أمير الحاج العراقي يمنعه من الإفاضة قبله، فلم يلتفت إليه فسار العراقيون واقتتلوا مع الشاميين، فقتل بينهم جماعة، وابن المقدم بمنع أصحابه من القتال، فجرح ومات شهيدا، ودفن بمقبرة المعلى.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فشتى السلطان في هذه السنة بعكا، ثم سار بمن معه وقصد كوكب وجعل على حصارها أميرا يقال له قايماز النجمي، وسار منها في ربيع الأول ودخل دمشق ففرح الناس بقدومه، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام، وسار من دمشق منتصف ربيع الأول، ونزل على بحيرة قدس غربي حمص فأتته العساكر بها، فأولهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين، ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الأكراد وشن الغارات على بلاد الأفرنج، وسار من حصن الأكراد، فنزل على انطرسوس فوجد الأفرنج قد أخذوا أنطرسوس فسار إلى مرقية، فوجدهم قد أخلوها أيضا، فسار تحت المرقب وهو للاسبتارية فرجده لا يرام ولا لأحد فيه مطمع، فسار إلى جبلة ووصل إليها ثامن جمادى الأولى وتسلمها حالة وصوله، فجعل فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، ثم سار السلطان إلى اللاذقية فوصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى، ولها قلعتان فحصر القلعتين، ولما ملك السلطان اللاذقية سلمها إلى الملك المظفر تقي الدين فعمرها وحصن قلعتها، وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع

والغرامة عليها، كما فعل بقلعة حماة، ثم رحل السلطان عن اللاذقية في التاسع والعشرين من جمادى الأولى إلى صهيون فحاصرها وضايقها، وطلب أهلها الأمان فلم يجبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوا إلى ذلك، وتسلم السلطان قلعة صهيون وسلمها إلى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين، ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملكوا حصن بلاطنس وكان الأفرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه، وملكوا حصن العيد، وحصن الجماهريين، ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ووصل إلى قلعة بكاس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر فحصرها ووجدها منيعة وضايقها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الفزع وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان، فأرسل السلطان الملك الظاهر صاحب حلب فحاصر سرمينية وضايقها وملكها واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم الحصن وعفى آثره، وكان في الحصن وفي الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة، ثم سار السلطان من الشغر إلى برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها بالزحف وملكها بالسيف في السابع والعشرين من جمادى الآخرة وسبى وأسر وقتل أهلها.

قال مؤلف الكامل ابن الأثير: كنت مع السلطان في مسيره وفتحه هذه البلاد طالبا للغزاة فأحكي ذلك عن مشاهدة، ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد، وهو على العاصي بالقرب من أنطاكية، فأقام عليه أياما حتى تلاحق به من تأخر من العسكر، ثم سار إلى دربساك ونزل عليها ثامن رجب وحاصرها وضايقها وتسلمها بالأمان على شرط أن لا يخرج منها أحد إلا بثيابه فقط، وتسلمها تاسع عشر رجب، ثم سار عن دربساك إلى بغراس فحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان دربساك، وأرسل بيمند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح، وبذل اطلاق كل أسير عنده، فأجابه السلطان إلى ذلك

واصطلحوا ثمانية أشهر وكان صاحب أنطاكية حينئذ أعظم ملوك الأفرنج في هذه البلاد، فإن أهل طرابلس سلموا إليه طرابلس.

ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة، سار إلى حلب ثالث شعبان، وسار منها إلى دمشق وأعطى عماد الدين زنكي دستورا، وكذلك أعطى غيره من العساكر الشرقية وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي، وكان مقيما هناك، وكان من عباد الله تعالى الصالحين، وله كرامات ظاهرة، وكان مع السلطان أبو فليتة الأمير قاسم بن مهنا الحسني صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وشهد معه مشاهده وفتوحاته، وكان السلطان يتبرك برؤيته ويتيمن بصحبته ويرجع إلى قوله، ودخل السلطان دمشق في شهر رمضان المعظم، فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: إن العمر قصير والأجل غير مأمون، وكان السلطان لما سار إلى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحاصرها، وخلى أخاه العادل في تلك الجهات يباشر ذلك، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان، فأمر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسلمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد .

ثم سار السلطان من دمشق في منتصف رمضان إلى صفد فحصرها في ذي القعدة، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين، ظهر ذلك فيما بعد، ثم سار السلطان إلى القدس فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار إلى عكا فأقام فيها حتى انسلخت السنة .

وفي هذه السنة أرسل قزل بن الدكز يستنجد بالخليفة الإمام الناصر على طغريل بن أرسلان بن طغريل السلجوقي، ويحذره عاقبة أمره،

فأرسل الخليفـة عسكرا إلى طغريل والتقوا ثامـن ربيع الأول قرب همذان، فانهزم عسكر الخليفـة، وغنم طغريل أموالهم، وأسر مقـدم العسكر جلال ابن عبد الله وزير الخليفة.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

وفيهـا سار صـلاح الـدين ونـزل بمرج عيـون، وحضر إليـه صاحـب شقيف أرنـون وبذل له تسلم الشقيـف بعد مدة ضربها خديعـة منه، فلما بقي للمـدة ثلاثة أيام استحضره السلطـان وكان اسم صاحـب الشقيف أرنـاط ، فقـال له السلطـان في التسليـم فقـال: لا يوافقنـي عليـه أهلي، فأمسكه السلطان وبعثه إلى دمشق، فحبس

ذكر حصار الأفرنج عكا

كان قد اجتمع بصـورأهل البلاد التي أخذها السلطـان بالأمان، فكثر جمعهـم حتى صـاروا في عالم لاتحصـى كثـرته، وأرسلـوا الى البحر يبكـون ويستنجـدون، وصوروا صـورة المسيح وصـورة عـربي يضرب المسيح وقـد ادمـاه، وقالـوا: هـذا نبي العـرب يضرب المسيح، فخـرجـت النساء مـن بيوتهن، ووصل من الأفرنج في البحـر عالم لايحصون كثرة، وساروا الى عكا من صـور، ونازلـوها في منتصـف رجب مـن هذه السنـة، وضايقـوا عكا واحاطـوا بسورهـا من البحـر الى البحر، ولم يبـق للمسلمين إليها طـريق، فسار اليهـم السلطان ونـزل قريب الافـرنج وقـاتلهم في مستهـل شعبان، وباتـوا على ذلك واصبحـوا فحمل تقي الـدين صـاحب حماة مـن ميمنة السلطـان على الأفرنـج فـأزالهم عـن موقفهـم والتصـق بـالسور، وانفتـح الطريق الى المدينـة يدخل المسلمون ويخرجون، وأدخـل السلطان الى عكا عسكـر نجدة، وكـان من جملتهـم ابو الهيجـاء السمين، وبقي المسلمـون يغادون القتال ويراوحونه الى العشريـن من شعبان، ثم كان بين المسلمين وبينهـم مـوقعة عظيمـة، فـإن الأفـرنـج اجتمعـوا وضربوا مـع السلطـان

مصـاف، وحملوا على القلـب فأزالـوه، وأخذوا يقتلـون في المسلمين الى أن بلغوا خيمة السلطـان، وانحاز السلطان الى جانب وانضـاف اليه جماعة، وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتـال الميمنة، فحمل السلطان على الأفرنج الذيـن خرقـوا القلب وعطف عليهـم العسكر فأفنـوهم قتـلاً، وكان قتلى الافرنـج نحو عشرة آلاف نفس، ووصـل المنهزمون مـن المسلمين بعضهم الى طبرية وبعضهم وصل الى دمشق.

وجافـت الارض بعد هـذه الوقعـة، ولحق السلطان مـرض وحدث لـه قولنج، فأشار عليه الامراء بالانتقـال من ذلك الموضع فوافقهم ورحل الى عكا رابـع عشر شهر رمضـان الى الخروبة، فلما رحـل تمكن الافـرنج مـن حصـار عكا وانبسطـوا في تلـك الأرض، وفي تلـك الحال وصل اسطـول المسلمين من البحر مـع حسام الدين لـؤلؤ ـ وكان شهماً ـ فظفر ببطسة للافـرنج فأخـذها ودخل بها الى عكا، فقـويت قلوب المسلمين، وكـذلك وصـل الملـك العادل بعسكـر مصر الى أخيـه السلطـان فقويـت نفـوس المسلمين بوصوله.

ذكر غير ذلك من الحوادث

فيها توفي بالخروبـة الفقيه عيسى، وكان مع السلطان، وهـو من أعيان عسكـره، وكان جنـديـا فقيها شجـاعا، وكـان مـن أصحاب الشيـخ أبي القاسم البرزي.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

وفيها رحـل السلطان عن الخروبة وعـاد إلى قتال الأفرنـج على عكا، وكان الأفـرنج قـد عملوا قرب سـور عكا ثلاثـة أبراج طـول البرج ستون ذراعـا، جاؤوا بخشبهـا من جـزائر البحر، وعملـوها طبقـات وشحنوهـا بالسـلاح والمقاتلة، وألبسـوها جلود البقـر والطين بالخل لئلا تعمـل فيها

النار، فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الأول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح، ثم أحرقوا الثاني والثالث، وانبسطت نفوس المسلمين بذلك بعد الكآبة، ووصلت إلى السلطان العساكر من البلاد .

وبلغ المسلمين وصول ملك الألمان، وكان قد سار من بلاده وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، فاهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية، فسلط الله تعالى على الألمان الغلاء والوباء فهلك أكثرهم في الطريق، ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن نزل في نهر هناك يغتسل فغرق، وأقاموا ابنه مقامه، فرجع من عسكره طائفة إلى بلادهم، ولم يصل مع ابن ملك الألمان إلى الأفرنج الذين على عكا غير قدر ألف مقاتل، وكفى الله المسلمين شرهم، وبقي السلطان والأفرنج على عكا يتناوشون القتال إلى العشرين من جمادى الآخرة،فخرجت الأفرنج من خنادقهم بالفارس والراجل، وأزالوا الملك العادل عن موضعه، وكان معه عسكر مصر، فعطف عليهم المسلمون وقتلوا ممن الأفرنج خلقا كثيرا، فعادوا إلى خنادقهم،وحصل للسلطان مغص فانقطع في خيمته، ولولا ذلك لكانت الفيصلة ولكن إذا أراد الله أمرافلا مرد له

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة لما قوي الشتاء، واشتدت الرياح أرسل الأفرنج المحاصرون عكا مراكبهم إلى صور خوفا عليها أن تنكسر، وانفتح الطريق إلى عكا في البحر وأرسل البدل إليها، وكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين إليها، فحصل التفريط بذلك لضعف البدل.

وفيها في ثامن شوال توفي زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل، وكان مع السلطان بعسكره، ولما توفي أقطع السلطان إربل أخاه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك

وأضاف إليـه شهر زور وأعمالها، وارتجع مـا كان بيـد مظفر الـدين، وهـو حران والرها، وسار مظفر الدين إلى إربل وملكها.

وفيها أقطـع السلطان مـا كان بيد مظفـر الدين، وهـو: حران والـرها، وسمسياط والموزر، الملك المظفـر تقي الدين عمر زيـادة على ما في يده، وهو: ميـافارقين، ومـن الشام حماة، والمعرة، وسلميـة ومنبج، وقلعـة نجم، وجبلة، واللاذقية، وبلاطنس وبكسرائيل.

- ١٠١٤٠ -

ذكر استيلاء الأفرنج على عكا

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

واستمر حصار الأفرنج لعكا إلى هذه السنة، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر، وحفروا عليهم خندقا فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم، وكانوا محاصرين لعكا، وهم كالمحصورين، من خارجهم من السلطان، واشتد حصارهم لعكا وضعف من بها عن حفظ البلد وعجز السلطان عن دفع العدو عنهم، فخرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وطلب الأمان من الأفرنج على مال وأسرى يقومون بها للأفرنج، فأجابوهم إلى ذلك وصعدت أعلام الأفرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة، واستولوا على البلد بما فيه، وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد، وقالوا إنما نحبسهم ليقوموا بالمال، والأسرى،وصليب الصلبوت، وكتبوا إلى السلطان بذلك فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك، وطلب منهم إطلاق المسلمين فلم يجيبوا إلى ذلك، فعلم منهم الغدر واستمر أسر المسلمين، ثم قتل الأفرنج منهم جماعة كثيرة، واستمر الباقون في الأسر.

وبعد استيلاء الأفرنج على عكا وتقرير أمرها رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية،والمسلمون يساورونهم ويتخطفون منهم، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم، ووصلوا إلى سوق المسلمين فقتلوا من السوقة خلقا كثيرا، ثم سار الأفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون، فملكوها.

ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة، لئلا يحصل لها ما حصل لعكا، فسار إليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين في تقليع أسوارها وتخريبها فدكها إلى الأرض، ولما فرغ السلطان من تخريب عسقلان، رحل

ثاني شهر رمضان إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد، ثم سار إلى القدس وقرر أموره، وعاد إلى مخيمه بالنطرون ثامن شهر رمضان، ثم تراسل الأفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل بأخت ملك الأنكتار، ويكون للملك العادل القدس ، ولامرأته عكا، فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل، فلم يتفق بينهم حال، ثم رحل الأفرنج من يافا إلى الرملة وبقوا كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات، فلقوا من ذلك شدة شديدة، وأقبل الشتاء وحالت الأحوال بينهم، فلما رأى السلطان ذلك وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور، وسار إلى القدس لسبع بقين من ذي القعدة، ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه، وأخذ السلطان في تعمير القدس وتحصينه وأمر العسكر بنقل الحجارة، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدي به العسكر، فكان يجتمع عند العمال في اليوم الواحد ما يكفيهم عدة أيام .

ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر

كان الملك المظفر قد سار إلى البلاد المرتجعة من كوكبوري التي زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات، وهي حران وغيرها، فامتدت عين الملك المظفر إلى بلاد مجاوريه،واستولى على السويداء وحاني، والتقى مع بكتمر صاحب خلاط فكسره وحاصره بخلاط وتملك معظم البلاد، ثم رحل عنها ونازل ملا زكرد وهي لبكتمر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد عليه حتى توفي به يوم الجمعة لإحدى عشر ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة، وأخفى الملك المنصور وفاته ورحل عن ملازكرد ووصل إلى حماة ودفنه بظاهرها، وبنى إلى جانب التربة مدرسة، مشهورة هناك،

وكان الملك المظفر شجاعا شديد البأس، ركنا عظيما من أركان البيت

الأيوبي، وكان عنده فضل وأدب، وله شعر حسن، واتفق في ليلة الجمعة التي توفي فيها الملك المظفر أن توفي حسام الدين محمد بن لاجين، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان فأصيب السلطان في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته.

ولما مات الملك المظفر راسل ابنه الملك المنصور السلطان واشترط شروطا نسبه السلطان فيها الى العصيان، وكاد أمره يضمحل بالكلية، فراسل الملك المنصور عنه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان، فما برح العادل بأخيه السلطان يراجع ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان، وقرر للملك المنصور حماة، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه العادل، بعد أن شرط السلطان أن العادل ينزل عن كل ماله من الأقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء، ونصف خاصه بمصر، وأن يكون عليه في كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس، ولما استقر ذلك سار العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها، وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة، أعني سنة ثمان وثمانين، ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته، فلما رأى السلطان الملك المنصور نهض واعتنقه وغشيه البكاء وأكرمه وأنزله في مقدمة العسكر.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة في شعبان قتل قزل أرسلان، واسمه عثمان بن الدكز، وهو الذي ملك: أذربيجان، وهمذان، وأصفهان، والري بعد أخيه محمد ابن البهلوان، وكان قد قوي عليه السلطان طغريل السلجوقي وهزم عسكر بغداد كما تقدم ذكره، ثم إن قزل أرسلان تغلب واعتقل السلطان طغريل في بعض البلاد، وسار قزل أرسلان بعد ذلك إلى أصفهان

وتعصب على الشفعوية، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم، وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة ودخل لينام على فراشه، وتفرق عنه أصحابه، فدخل إليه من قتله على فراشه ولم يعلم قاتله.

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى صلاح الدين، وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه وألزمه بأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك وسار إلى السلطان ملتجئا فأكرمه السلطان، وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة.

قال ابن الأثير: لما ركب صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه، ترجل معز الدين، وترجل السلطان، ولما ركب السلطان عضده قيصر شاه وأركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك، فسوى ثياب السلطان أيضا، فقال بعض الحاضرين في نفسه : ما بقيت تبالي يا بن أيوب بأي موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي ، ويصلح قماشك ابن أتابك زنكي .

وفيها قتل أبو الفتح يحيى الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم الفيلسوف بقلعة حلب محبوسا، أمر بخنقة الملك الظاهر غازي، بأمر والده السلطان، قرأ المذكور الأصولين والحكمة بمراغة على مجد الدين، ثم سافر إلى حلب وكان علمه أكبر من عقلة، فنسب إلى انحلال العقيدة، وأنه يعتقد مذهب الفلاسفة، فأفتى الفقهاء بإباحة دمه لما ظهر من سوء مذهبه، واشتهر عنه، وكان أشدهم في ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهبل.

حكى الشيخ سيف الدين الآمدي قال: اجتمعت بالسهرودي في

حلب فقـال لي: لابد أن أملـك الأرض، فقلت: من أيـن لك هـذا؟قال: رأيت في المنـام كأني شربت ماء البحـر، فقلت: لعل ذلك يكـون اشتهار علمك وما يناسـب هذا، فرأيته لا يرجع عما وقـع في نفسه ووجدته كثير العلـم قليـل العقـل، وكـان عمره لما قتـل ثمان وثـلاثين سنـة ولـه عـدة مصنفات في الحكمة منهـا التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطـارحات، وكتاب الهيـاكل، وحكمة الإشراق، وكـان يزعـم أنه يعرف السيميـاء، وله نظم حسن.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

وفيها سـار الأفرنج إلى عسقلان وشرعـوا في عمارتها في محرم، والسلطان بـالقـدس، وفيها قتـل المركيـس صـاحـب صـور لعنه اللـه تعـالى، قتلـه الباطنية، وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان إلى صور.

ذكر عقد الهدنة مع الأفرنج وعود السلطان إلى دمشق

وسبب ذلك أن ملـك الأنكتار مرض، وطال عليـه البيكار، فكتب إلى الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح، فلم يجب السلطان إلى ذلـك، ثـم اتفـق رأي السلطـان على ذلـك لطـول البيكـار، وضجـر العسكر وكثرة نفقاتهم فأجاب السلطـان إلى ذلك، واستقر أمر الهدنة في يوم السبـت ثامن عشر شعبان، وتحالفـوا على ذلك في يوم الأربعـاء الثاني والعشرين مـن شعبان، ولم يحلـف ملك الأنكتار، بـل أخذوا يـده واعتذر بأن الملوك لا يحلفون، وقنع السلطان بذلـك، وحلف الكندهري ابن أخته وخليفته في الساحل، وكذلك حلـف غيره من عظماء الأفرنج، ووصل ابن الهنفري وباليـان إلى خدمة السلطان ومعهما جماعة مـن المقدمين، وأخذوا يد السلطان، واستحلفوا الملك العادل والملكين الأفضل والظاهر، والملك المنصور، والملـك المجاهد شيركـوه صاحب حمص، والأمجد بهرام شـاه بن

فرخشاه صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، والأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار، وعقدت الهدنة عامة في البحر والبر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان.

وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الأفرنج يافا وعملها ، وقيسارية وعملها ، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأن تكون عسقلان خرابا، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية في عقد هدنته، واشترط الأفرنج دخول صاحب أنطاكية، وطرابلس في عقد هدنتهم، وأن تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، فاستقرت القاعدة على ذلك.

ثم رحل السلطان إلى القدس في رابع شهر رمضان وتفقد أحواله بتسديد أسواره، وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصندحنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يتملك الأفرنج القدس، ثم لما ملك الأفرنج القدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد.

ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة من الحجارين لتخريب عسقلان، وأمر أن يخرج من بها من الأفرنج، وعزم على الحج والإحرام من القدس، وكتب إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن بذلك، ثم ثبطه الأمراء، وقالوا لا تعتمد على هدنة الأفرنج خوفا من غدرهم فانتقض عزمه عن ذلك.

ثم رحل السلطان عن القدس لخمس مضين من شوال إلى نابلس،

ثم إلى بيسان،ثم إلى كوكب، فبات بقلعتها، ثم رحل إلى طبرية، ولقيه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي وقد خلص من الأسر، وكان قد أسر بعكا لما أخذها الأفرنج مع من أسر، فسار قراقوش مع السلطان إلى دمشق، ثم سار منها إلى مصر.

ثم سار السلطان إلى بيروت ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية يوم السبت الحادي والعشرين من شوال، فأكرمه السلطان وفارقه في غد ذلك اليوم، وسار السلطان إلى دمشق ودخلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال، وفرح الناس به لأن غيبته عنهم كانت مدة أربع سنين، وأقام العدل والإحسان بدمشق، وأعطى السلطان العساكر الدستور، فودعه ولده الملك الظاهر وداعا لا لقاء بعده وسار إلى حلب، وبقي عند السلطان بدمشق ولده الأفضل والقاضي الفاضل،وكان الملك العادل قد استأذن السلطان وسار من القدس إلى الكرك لينظر في مصالحه، ثم عاد إلى دمشق طالبا البلاد الشرقية التي صارت له بعد تقي الدين، فوصل إلى دمشق في الحادي والعشرين من ذي القعدة وخرج السلطان للقائه، وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفي الأمير سيف الدين المشطوب بنابلس، وكانت إقطاعه فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد ابن المشطوب وأميرين معه.

ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وأخبار الذين تولوا بعده

في هذه السنة أعني سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، في منتصف شعبان توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، وكان ملكه في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة وهيبة عظيمة، وعدل وافر

وغزوات كثيرة، وكان لـه عشرة بنين قد ولى كل واحد منهم قطـرامن بلاد الروم، وأكبرهم قطب الـدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكـور، وكان قد أعطاه أبـوه سيواس ،فسولت له نفسه القبـض على أبيه وأخوتـه والانفراد بـالسلطنة، وسـاعده على ذلـك صاحـب أرزنكـان، فسار قطـب الديـن ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية، وقال لوالده وهو في قبضته: أنـا بين يديك أنفـذ أوامرك، ثم إنه أشهـد على والده بأنـه جعله ولي عهـده، ثم سـار إلى حرب أخيـه نور الـديـن سلطان شـاه صاحـب قيساريـة، ووالده في القبضـة معه وهـو يظهر أن مـا يفعله إنما هـو بأمـر والده، فخرج عسكـر قيسارية لحربه فوجـد أبوه عز الديـن قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصـة فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية، فأكـرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطـب الدين ملكشاه إلى قونيـة وخطب لنفسه بـالسلطنة وبقي أبـوه يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منهم واحـد ينتقل إلى الآخر حتى حصـل عند ولده غياث الـدين كيخسرو بن قليج أرسـلان صاحب برغلو، فقويّ أبـاه قليج وأعطاه وجمع له وحشد،وسار معـه إلى قونية فملكها وأخذها مـن ملكشاه، ثم سار إلى اقصرا، واتفـق أن عـز الديـن قليـج أرسـلان مـرض ومات في التـاريـخ المذكور، فأخـذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قـونية فدفنه بها، واتفـق موت ملكشاه بعد موت أبيـه بقليل فاستقر كيخسرو في ملك قونيـة وأثبت أنه ولي عهد أبيه، ثم إن ركن الديـن سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخـذ منه قونية، فهـرب كيخسرو إلى الشام مستجيرا بالملك الظاهـر صاحب حلب، ثم مات ركـن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج أرسلان بـن سليمان، فرجع كيخسرو إلى بلاد الروم وأزال ملك ابـن سليمان وملك بـلاد الروم جميعـا، واستقرت لـه السلطنة ببـلاد الـروم وبقـي كـذلـك إلى أن قتل وملـك بعـده ابنـه عـز الـديـن كيكـاووس بن كيخسرو، ثـم توفي كيكـاوس وملك بعـده أخوه السلطـان عـلاء الـديـن كيقبـاد ابـن كيخسرو، وتـوفي كيقبـاذ سنـة أربـع وثـلاثين

وستمائة،وملك بعده ولده غياث الـدين كيخسرو، وكسره التتر سنة إحدى وأربعين وستمائة، وتضعضع حينئذ ملـك السلاطين السلجـوقيـة ببـلاد الروم، ثم مات غياث الدين كيخسرو وانقضـى بموته سلاطين بلاد الروم في الحقيقـة، لأن مـن صار بعـده لم يكـن لـه مـن السلطنـة غير مجرد الاسـم،وخلف كيخسرو المذكـور صبيين هما ركـن الديـن، وعـز الديـن، فملكا معًا مدة مـديدة، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنـة، وهرب أخوه عز الديـن إلى القسطنطينية، وتغلب على ركن الـدين معين الديـن البرواناه ، والبلاد في الحقيـقة للتتر، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين وأقام ابنـا لركن الـدين يخطـب له بـالسلطنة والحكـم للبرواناه، وهـو نائب للتتر على مـا نذكره إن شاء الله تعالى

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هـذه السنة غـزا شهـاب الديـن الغوري الهنـد فغنـم وقتل مـا لا يحصى، وفيهـا خرج السلطان طغـريل من الحبـس بعد قتل قـزل أرسلان ابن ألـدكز، وكان قزل قـد اعتقله حسبما تقدم ذكره في سنـة سبع وثمانين وخمسمائة، وفيهـا توفي راشـد الديـن سنان بـن محمد، وكنيتـه أبو الحسـن صاحب دعوة الإسماعيلية بقلاع الشام، وأصله من البصرة.

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف ابن أيوب

ثم دخلـت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطـان بدمشـق على أكمل ما يكون من المسرة، وخرج إلى شرقـي دمشق متصيدا، وغاب خمسة عشر يـوما، وصحبتـه أخـوه الملـك العادل، ثـم عـاد إلى دمشـق وودعه أخـوه العادل وداعـا لا لقاء بعده، فمضى إلى الكـرك، وأقام به حتى بلغـه وفاة السلطان، وأقـام السلطان بـدمشق، وركب في يـوم الجمعة خـامس عشر

صفر وتلقى الحجاج ، وكان عادته أن لا يركب إلا وهو لابس كزاغند، فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم، ولم يلبس الكزاغند ، ثم ذكره وهو راكب فطلب الكزاغند فلم يجده قد حملوه معه، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن، ثم عاد السلطان بين البساتين إلى جهة المنيبع، ودخل إلى القلعة على الجسر،وكانت هذه آخر ركباته فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم، وغشيته نصف الليل حمى صفراوية، وأخذ المرض في التزايد وفصده الأطباء في الرابع، فاشتد مرضه وحدث به في التاسع رعشة وغاب ذهنه، وامتنع من تناول المشروب، واشتد الإرجاف في البلد، وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته، وحقن في العاشر حقنتين فحصل له راحة، وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا ، ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش، واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر، وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده في القلعة بحيث إن احتضر في الليل ذكره بالشهادة،وتوفي السلطان في الليلة المذكورة، أعني في الليلة المسفرة عن نهار الأربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح، وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر وفاته، ووصل القاضي بهاء الدين بن شداد بعد وفاته وانتقاله إلى رحمة الله تعالى وكرامته،وغسله الفقيه الدولعي خطيب دمشق، وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الأربعاء المذكور في تابوت مسجى بثوب، وجميع ما احتاجه من الثياب في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من جهة حل عرفها،وصلى الناس عليه، ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضا فيها، وكان نزوله إلى جدثه وقت صلاة العصر من النهار المذكور.

وكان الملك الأفضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عندما اشتد مرضه وجلس للعزاء في القلعة، وأرسل الملك الأفضل الكتب بوفاة

والده إلى أخيه العزيز عثمان بمصر، وإلى أخيه الظاهر غازي بحلب وإلى عمه الملك العادل أبي بكر بالكرك،

ثم إن الملك الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت دارا لرجل صالح، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ومشى الملك الأفضل بين يدي تابوته وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل ووضع قدام المنبر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين، ثم دفن وجلس ابنه الملك الأفضل في الجامع للعزاء ثلاثة أيام، وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة مالا عظيما.

وكان مولده السلطان صلاح الدين بتكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة، وملكه للشام قريبا من تسع عشرة سنة، وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين علي بن يوسف، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين ، وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منهما، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر.

ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزائنه غير سبعة وأربعين درهما، وجرم واحد صوري، وهذا من رجل له الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف دارا ولا عقارا.

قال العماد الكاتب: حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش، فكان اثني عشر ألف رأس، وذلك غير

ما أطلقه من ثمن الخيل المصابة في القتال، فلم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به.

ولم يؤخر صلاة عن وقتها، ولا صلى إلا جماعة، وكان إذا عزم على أمر توكل على الله، ولا يفضل يوما على يوم، وكان كثير سماع الحديث النبوي، وقرأ مختصرا في الفقه تصنيف سليم الرازي، وكان حسن الخلق صبورا على ما يكره، كثير التغافل عن أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره و لايعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان يوما جالسا فرمى بعض المماليك بعضا بسرموزة فأخطأته، ووصلت إلى السلطان ووقفت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها، وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد بمجلسه إلا بخير، وطاهر اللسان فما ولع بشتم قط.

قال العماد الكاتب: مات بموت السلطان الرجال، وفات بفواته الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الأرزاق، وادلهمت الآفاق، وفجع الزمان بواحده وسلطانه، ورزىء الإسلام بمشيد أركانه.

ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان

ولما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة اليها ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية الملك العزيز عثمان، وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب، وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر، وببعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي، وبيد

الملك خضر ابن السلطان صلاح الدين بصرى وهو في خدمة أخيه الملك الأفضل، وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون منهم: سابق الدين عثمان ابن الداية بيده شيزر وأبو قبيس، وناصر الدين منكورس ابن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية، وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر، وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون ، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين المقدم بيده بغراس وكفر طاب وفامية٠

والملك الأفضل هو الاكبر من أولاد السلطان، والمعهود إليه بالسلطنة، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير، مضنف المثل السائر، وهو أخو عز الدين بن الأثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ففارقوه الى أخويه العزيز والظاهر٠

قال العماد الكاتب: وتفرد الوزير في توزره، ومد الجزري بجزره، ولما اجتمعت أكابر الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة، ووقعوا في أخيه الأفضل، فمال الى ذلك، وحصلت الوحشة بين الأخوين: الأفضل والعزيز٠

وفي هذه السنة بعد موت السلطان قدم الملك العادل من الكرك الى دمشق، وأقام فيها وظيفة العزاء على أخيه، ثم توجه الى بلاده التي وراء الفرات٠

ذكر حركة عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى البلاد الشرقية التي بيد الملك العادل وعوده وموته

في هذه السنة لما مات السلطان صلاح الدين كاتب عز الدين مسعود ابن مودود بن عماد الدين زنكي ابن آق سنقر صاحب الموصل ملوك البلاد المجاورين للموصل يستنجدهم، ولذلك اتفق مع أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار وسار إلى جهة حران وغيرها، فلحق عز الدين مسعود اسهال قوي، وضعف فترك العسكر مع أخيه عماد الدين وعاد إلى الموصل وصحبته مجاهد الدين قايماز، فحلف العسكر عز الدين لابنه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، وقوي بعز الدين مسعود المرض وتوفي في السابع والعشرين من شعبان في هذه السنة، فكانت مدة مابين وفاته ووفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة، وكانت مدة ملك عز الدين مسعود للموصل ثلاث عشرة سنة وستة أشهر، وكان دينا خيرا كثير الإحسان، وكان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين يشبه جده عماد الدين زنكي، واستقر في ملك الموصل بعده ولده أرسلان شاه، وكان القيم بأمره مجاهد الدين قايماز

ذكر قتل بكتمر صاحب أخلاط

في هذه السنة في أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب أخلاط، وكان بين قتله وبين موت السلطان صلاح الدين شهران، ولما بلغ بكتمر موت السلطان صلاح الدين أسرف في إظهار الشماته بموت السلطان، وضرب البشائر ببلاده، وفرح فرحا كثيرا وعمل تختا يجلس عليه، ولقب نفسه السلطان المعظم صلاح الدين، وكان اسمه بكتمر فسمى نفسه الملك العزيز، فلم يمهله الله تعالى. وكان هذا بكتمر من مماليك ظهير الدين شاه أرمن وكان له خشداش اسمه هزار ديناري، وكان قد قوي وتزوج ابنة بكتمر، وطمع في الملك فوضع على بكتمر من

قتله، ولما قتل ملك بعده هزار دينـاري خلاط وأعمالها واسم هزار ديناري المذكور آق سنقر، ولقبـه بدر الدين، وجلبـه تاجر جرجـاني اسمه علي إلى خلاط فاشتراه منـه شاه أرمن سكمان بن ابـراهيم، وأعجب به شـاه أرمن فجعله سـاقيا له ولقبه هـزار ديناري، وبقي على ذلـك برهة من الـزمان، فلما تولى بكتمـر على مملكة خلاط بقـي المذكور من أكبر الأمـراء، وتزوج ببنت بكتمر عينا خـاتون، فلما قتل بكتمر خلف ولدا فـأخذ هزار ديناري المذكور ولـد بكتمر وأمه واعتقلهما بقلعـة إرزاس بموش، وكان عمـر ابن بكتمر إذ ذاك نحو سبع سنين، واستمر بدر الدين آق سنقر هزار ديناري في مملكـة خـلاط حتـى تـوفي في سنـة أربـع وتسعين وخمسمائة، حسبما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك

في هذه السنة شتـى شهاب الدين الغـوري في بر شاور وجهز مملـوكه أيبك في عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ففتح وغنم، وعاد منصورا ومؤيدا.

وفيها: توفي سلطان شاه بن أرسلان بـن اطسز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد ملك مـرو وخراسان، ولما مات انفرد أخوه تكـش بالمملكة، وقد تقدم ذكرهما في سنة ثمان وستين وخمسمائة.

وفيها: مـات الأمير داود بن عيسى بن محمـد بن أبي هاشـم أمير مكة ومازالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكثر تارة حتى مات.

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة

ذكر قتل طغريل وملك خوارزم شاه الري

كان طغـريل بـن أرسلان بن محمـد بن ملكشاه بـن ألب أرسـلان بن

داود بن ميكائيل السلجوقي قد حبسه قزل أرسلان بن ألدكز، وخرج طغريل من الحبس في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وملك همذان وغيرها، وجرى حرب بينه وبين مظفر الدين أزبك بن البهلوان محمد بن ألدكز، وقيل بل هو قطلغ اينانج أخو أزبك المذكور، فانهزم ابن البهلوان، ثم إن ابن البهلوان بعد هزيمته استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش، فخاف منه فلم يجتمع بخوارزم شاه، فسار خوارزم شاه تكش وملك الري، وذلك في سنة ثمان وثمانين، وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فصالح طغريل السلجوقي، وعاد تكش إلى خوارزم، وبقي الأمر كذلك حتى مات سلطان شاه في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزانته وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور وولى ابنه الأكبر ملكشاه بن تكش مرو، ولما دخلت سنة تسعين سار تكش إلى حرب طغريل السلجوقي، فسار طغريل إلى لقائه قبل أن يجمع عساكره، والتقى العسكران بالقرب من الري، وحمل طغريل بنفسه فقتل وكان قتله في الرابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وحمل رأس طغريل إلى تكش، فأرسله إلى بغداد فنصب بها عدة أيام وسار تكش، فملك همذان وتلك البلاد جميعها، وسلم بعضها إلى ابن البهلوان، وأقطع بعضها لمماليكه ورجع إلى خوارزم، وهذا طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق هو آخر السلاطين السلجوقية الذين ملكوا بلاد العجم، وقد تقدم ذكر ابتداء الدولة السلجوقية في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وأول من ملك منهم العراق وأزال دولة بني بوية طغريل بك ابن ميكائيل بن سلجوق ثم ملك بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل ثم ابنه ملكشاه ابن ألب أرسلان، ثم ابنه محمود بن ملكشاه وكان طفلا فقامت بتدبير المملكة أم محمود تركان خاتون، ومات محمود وهو ابن سبع سنين، وملك أخوه بركيارق بن ملكشاه، ثم أخوه محمد بن ملكشاه، ثم ابنه محمود بن محمد المذكور، ثم ابنه داود بن محمود بن

محمد المذكور مـدة يسيرة، ثم عمه طغريـل بن محمد ، ثم أخـوه مسعود ابن محمـد، ثم ان ابن أخيـه ملكشاه بن محمود بـن محمد أيامـا يسيرة، ثم أخوه محمد بن محمـود، ثم بعد محمد المذكور اختلفت، العسـاكر وقام من بنـي سلجوق ثـلاثـة: أحدهـم ملكشـاه بن محمـود أخـو محمد المذكـور، والثـاني سليمان شـاه بن محمـد بـن السلطـان ملكشـاه، وهو عـم محمـد المذكـور، والثـالث أرسـلان شـاه بـن طغـريـل بن محمـد ابـن السلطـان ملكشاه، وهـو عم محمد المذكـور ،والثالث أرسلان شـاه بن طغريـل بن محمـد ابن السلطـان ملكشـاه، وكـان ألدكـز متـزوجـا بأم أرسـلان شـاه المذكور، فقوي عليها سليمان شاه واستقر في همذان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ثم قبـض سليمان شاه وقتـل وكذلـك سم ملكشـاه بن محمـود المذكـور ومات بـأصفهان في السنـة المذكـورة، أعني سنـة خمس وخمسين وخمسمائة، وانفرد بـالسلطنة أرسـلان شاه بـن طغريـل ربيب ألـدكز، ثـم ملك بعده ابنه طغريل بن أرسلان شـاه بن طغريل المذكور في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وجـرى له مـاذكرنـاه حتـى قتله تكـش في هذه السنـة أعنـي سنة تسعين وخمسمائة وانقـرضت بـه الدولـة السلجوقيـة من تلـك البلاد........

وفي هـذه السنـة —أعنـي سنـة تسعين— استحكمـت الـوحشـة بين الأخوين العـزيز والأفضل ابني السلطـان صلاح الدين، فسـار العزيز في عسكـر مصر وحصر أخاه الأفضـل بدمشـق، فأرسـل الأفضل إلى عمـه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه الملـك المنصور صاحب حماة يستنجدهم فساروا إلى دمشق وأصلحـوا بين الأخوين، ورجع العـزيز إلى مصر ورجع كل ملك إلى بلده، وأقبل الملـك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغاني والأوتار ليلا ونهارا، وأشاع ندماؤه أن عمه الملك العادل حسن له ذلك وكان يعلمه بالخفية فأنشده العادل:

فـــــــــــلا خير في اللـــــــــــــ

ـــــــــــذات مـــــــــــن دونها ستر

فقبل وصيـة عمه وتظاهـر بذلك وفـوض أمر المملكة إلى وزيـره ضياء الدين بن الأثير الجزري يدبرها برأيـه الفاسد، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبـة عن ذلك وأزال المنكـرات وواظب على الصلـوات، وشرع في نسخ مصحف بيده.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

وفيها:عـاود الملك العـزيز عثمان صـاحب مصر قصـد الشام ومنـازلة أخيه الملك الأفضل فسار ونزل الفـوار من أرض السواد من بلاد دمشق، فاضطـرب بعض عسكـر العزيـز عليه وهم طـائفة مـن الأمراء الأسـدية وفارقـوه، فبادر العزيـز العود إلى مصر بمن بقـي معه من العسكـر، وكان الملك الأفضل قد استنجد بعمه الملك العادل لما قصده أخوه العزيز، فلما رحـل العزيـز عائدا إلى مصر رحـل الملـك الأفضل وعمـه العادل ومـن انضم إليهما من الأسدية، وساروا في إثر العزيز طالبين مصر فساروا حتى نـزلوا على بلبيـس وقد تـرك فيها العـزيز جماعـة من الصـلاحية، وقصـد الملك الأفضل مناجزتهم بالقتال فمنعـه العادل عن ذلك فقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيـلاء عليها فمنعـه عمه العـادل أيضـا من ذلـك، وقـال مصر لك متـى شئـت، وكاتـب العـادل العزيـز في البـاطن وأمـره بإرسال القاضي الفاضل ليصلح بين الأخـوين، وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابستهم لما رأى من فساد أحـوالهم فدخل عليه الملك العزيز وسـأله، فتـوجـه القاضي الفـاضـل مـن القاهـرة إلى عنـد الملك العـادل واجتمع بـه واتفقا على أن يصلحـا بين الأخويـن، فأصلحـا بينهما، وأقام الملـك العـادل بمصر عند العـزيـز ابـن أخيـه ليقـرر أمور مملكتـه وعـاد الأفضل إلى دمشق.

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

وفيها: نقل الملك الأفضل أباه السلطان صلاح الدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة في صفر فكان مدة لبثه بالقلعة ثلاث سنين، ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة وأموره مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري، وقد اختلفت الأحوال به، وكثر شاكوه وقل شاكروه.

ذكر انتزاع دمشق من الملك الأفضل

لما بلغ الملك العادل في مصروالملك العزيز اضطراب الأمور على الملك الأفضل، اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذا دمشق، وأن يسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه، فخرجا وسارا من مصر، فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين، وهو أحد أمرائه، وكان فلك الدين أخا الملك العادل لأمه، واجتمع فلك الدين بالملك العادل فأكرمه وأظهر الإجابة إلى ماطلبه، وأتم العادل والعزيز السير حتى نزلا على دمشق، وقد حصنها الملك الأفضل فكاتب بعض الأمراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه، وأنهم يسلمون المدينة إليه، فزحف الملك العادل والملك العزيز ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من هذه السنة، فدخل الملك العزيز من باب الفرج والملك العادل من باب توما فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة، وانتقل منها بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره ضياء الدين بن الأثير مختفيا في صندوق خوفا عليه من القتل، وكان الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين صاحب بصرى مع أخيه الأفضل ومعاضدا له، فأخذت منه بصرى أيضا فلحق بأخيه الملك الظاهر، فأقام عنده بحلب وأعطي الأفضل صرخد، فسار إليها بأهله واستوطنها، ودخل الملك العزيز إلى دمشق يوم الأربعاء رابع شعبان ثم سلم دمشق إلى عمه الملك العادل على حكم ماكان وقع عليه الإتفاق

بينهما، وتسلمها الملك العادل، ورحل الملك العـزيز من دمشق عشية يوم الإثنين تاسـع شعبان، وكانـت مدة ملك الملـك الأفضل لدمشـق ثلاث سنين وشهـرا، وأبقـى الـملك العـادل السكـة والخطبـة بدمشـق للملـك العزيز، ولما استقر الأفضل بصرخد كتـب إلى الخليفة الإمام الناصر يشكو من عمه العادل أبي بكر، وأخيه العزيز عثمان وأول الكتاب:

مـــولاي إن أبــــا بكـــر وصــــاحبـــه
عثمان قـــد غصبــا بـــالسيـف حـــق علي

فــانظـر إلى حـــظ هــذا الإســم كيـف لقـــي
مـــن الأواخــــر مـــالاقـــى مـــن الأول

فكتب الإمام الناصر جوابه:

وافى كتــابــك يــابــن يـوســف معلنــا
بـــالصـــدق يخبر أن أصلـــك طـــاهـــر

غصبـــواعليـــاحقـــه إذلم يكـــن
بعـــدالنبـــي لـــه بيثـــرب نـــاصر

فــــاصبر فــــإن غــــداحســـابهم
وابشر فنـــــاصرك الإمــــام النـــــاصر

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة سيف الاسلام

..........في هـذه السنة في شـوال توفي سيـف الاسـلام ظهير الديـن طغتكين بن أيـوب صاحـب اليمن، ولما مات سيـف الاسلام كـان ولده الملك العزيز اسماعيل بالسرين، فبعث إليـه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفـاة والده ومضوا به إلى ممالك أبيه فسلموهـا إليه، وكانت وفاة سيـف الاسلام بزبيد، وكـان شديد السيرة مضيقـا على رعيته يشتري أموال التجـار لنفسه ويبيعهـا كيف شاء، وجمع مـن الأموال مـالا يحصى حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

في هذه السنة في المحرم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ابن آق سنقر صاحب سنجار، والخابور، والرقة، وكان حسن السيرة متواضعا يحب أهل العلم، إلا أنه كان بخيلا شديد البخل، وملك بعده ولده قطب الدين محمد بن زنكي، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرنقش مملوك أبيه.

وفيها: في جمادى الأولى سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى نصيبين فاستولى عليها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي، فأرسل قطب الدين محمد واستنجد بالملك العادل، فسار الملك العادل إلى البلاد الجزرية، ففارق نور الدين أرسلان شاه نصيبين وعاد إلى الموصل، فعاد قطب الدين محمد بن زنكي وتسلم نصيبين............

وفيها: وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت، وسار الملك العادل ونزل بتل العجول، وأتته النجدة من مصر، ووصل إليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس، ثم سار الملك العادل إلى يافا وهجمها بالسيف وملكها وقتل الرجال المقاتلة، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها، ونازلت الفرنج تبنين، فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر، فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر واجتمع بعمه الملك العادل على تبنين، فرحل الفرنج على أعقابهم إلى صور خائبين، ثم عاد الملك العزيز إلى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل، وجعل إليه أمر الحرب والصلح، ومات في هذه المدة سنقر الكبير، فجعل الملك العزيز أمر القدس إلى صارم الدين خطلغ مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

ثم طاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين، ورجع الملك العادل إلى دمشق، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى ماردين وحصرها وصاحبها حينئذ يولق أرسلان بن إيلغازي بن ألبي ابن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق، وليس ليولق أرسلان من الحكم شيء وانما الحكم إلى مملوك والده البقش............

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة العزيز صاحب مصر

في هذه السنة في منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم توفي الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان قد طلع إلى الصيد، فركض خلف ذئب، فتقنطر وحم سابع المحرم في جهة الفيوم، فعاد إلى الأهرام وقد اشتدت حماه، ثم توجه إلى القاهرة فدخلها يوم عاشوراء وحدث به يرقان وقرحة في المعي، واحتبس طبعه فمات في التاريخ المذكور، وكانت مدة مملكته ست سنين إلا شهرا، وكان عمره سبعا وعشرين سنة وأشهرا، وكان في غاية السماحة والكرم والعدل، والرفق بالرعية، والإحسان إليهم، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة، وكان الغالب على دولة العزيز فخر الدين جهاركس، فأقام في الملك ولد الملك العزيز الملك المنصور محمد، واتفقت الأمراء على إحضار واحد من بني أيوب ليقوم بالملك، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل، فأشار بالملك الأفضل وهو حينئذ بصرخد، فأرسلوا إليه فسار مجدا ووصل إلى مصر على أنه أتابك الملك المنصور بن الملك العزيز، وكان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وشهورا، وكان مسير الملك الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر في تسعة عشر نفرا متنكرا خوفا من أصحاب عمه الملك العادل، فإن غالب تلك البلاد كانت له، فوصل بلبيس خامس ربيع الأول، ثم سار

الملك الأفضل إلى القاهرة، فخرج الملك المنصور بن العزيز للقائه فترجل له عمه الملك الأفضل ودخل بين يديه إلى دار الوزارة، وهي كانت مقر السلطنة، ولما وصل الملك الأفضل إلى بلبيس التقاه العسكر، فتنكر منه فخر الدين جهاركس، وفارقه وتبعه عدة من العسكر، وساروا إلى الشام وكاتبوا الملك العادل، وهو محاصر ماردين، وأرسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين، فبرز الملك الأفضل من مصر وسار إلى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره إلى دمشق، فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل، وسار العادل وسبق الأفضل ودخل دمشق قبل نزول الأفضل عليها بيومين، ونزل الملك الأفضل على دمشق ثالث عشر شعبان من هذه السنة، وزحف من الغد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكره المدينة حتى وصل إلى باب البريد، ولم يمدهم العسكر فتكاثر أصحاب الملك العادل وأخرجوهم من البلد، ثم تخاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة، ثم وصل إلى الملك الأفضل أخوه الظاهر صاحب حلب فعاد إلى مضايقة دمشق، ودام الحصار عليها، وقلت الأقوات عند الملك العادل وعلى أهل البلد، وأشرف الأفضل والظاهر على ملك دمشق وعزم العادل على تسليم البلد لولا ماحصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف، وخرجت السنة وهم على ذلك، وكان منهم ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة على بارين

وفي شهر رمضان من هذه السنة قصد الملك المنصور صاحب حماة

بارين وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وحاصرها،وكان عز الدين ابراهيم مع الملك العادل محصورا معه بدمشق، ونصب الملك المنصور عليها المجانيق وانجرح الملك المنصور حال الزحف، ثم فتحها في التاسع والعشرين من ذي القعدة وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها............

وفي هذه السنة رحل عسكر الملك العادل مع ابنه الملك الكامل عن حصار ماردين............

وفي هذه السنة في ربيع الأول توفي مجاهد الدين قايماز بقلعة الموصل وهو الحاكم في دولة نور الدين أرسلان، حتى قبض عليه مسعود، ثم أخرجه بعد مدة وكان قايماز عاقلا أديبا فاضلا في الفقه على مذهب أبي حنيفه، وبنى عدة جوامع وربط ومدارس...........

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسائة

والملكان الأفضل والظاهر محاصران لمدينة دمشق، واتفق وقوع الخلف بين الأخوين الأفضل والظاهر، وسببه أنه كان للملك الظاهر مملوك يحبه اسمه أيبك، ففقد ووجد عليه الملك الظاهر وجدا عظيما، وتوهم أنه دخل دمشق فأرسل من تكشف خبر، واطلع الملك العادل وهو محصور على القضية فأرسل إلى الظاهر يقول له ان محمود بن الشكري أفسد مملوكك وحمله إلى الأفضل أخيك فقبض الظاهر على ابن الشكري فظهر المملوك عنده، فتغير الظاهر على أخيه الأفضل وترك قتال العادل، وظهر الفشل في العسكر فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق، وأقاما بمرج الصفر إلى أواخر صفر، ثم سارا إلى رأس الماء ليقيما به إلى أن ينسلخ الشتاء، ثم انثنى عزمهما وسار الأفضل إلى مصر، والظاهر إلى حلب على القريتين، ولما تفرقا خرج الملك العادل من دمشق وسار في إثر الأفضل

إلى مصر، ولما وصل الأفضل إلى مصر تفرقت عساكره في بلادهم لأجل الربيع فأدركه عمه العادل، فخرج الأفضل بمن بقي عنده من العسكر وضرب معه مصافا بالسايح فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهرة، ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام فأجاب الأفضل إلى تسليمها على أن يعوض عنها ميافارقين وحاني وسمسياط، فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به، وكان دخول العادل إلى القاهرة في الحادي والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة.

وقال ابن الأثير: كان دخول العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر فيها، وتوفي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في سابع عشر ربيع الآخر، وقيل إن مولد القاضي الفاضل سنة ست وعشرين وخمسمائة فكان عمره نحو سبعين سنة، ثم سافر الملك الأفضل إلى صرخد وأقام العادل بمصر على أنه أتابك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة، ثم أزال الملك المنصور محمد المذكور واستقل العادل في السلطنة، ولما استقرت المملكة للملك العادل أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماة يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بعرين من ابن المقدم، فقبل الملك العادل عذره، وأمره برد بعرين إلى ابن المقدم فاعتذر الملك المنصور عنها بقربها من حماة، ونزل عن منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضا عن بعرين، فرضي ابن المقدم بذلك لأنهما خير من بعرين بكثير، وتسلمهما عز الدين ابراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، وكان له أيضا فامية وكفر طاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة، وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج إلى البيكار، والتزم صاحب حلب بذلك،

وقصر النيل في هذه السنة تقصيرا عظيما حتى أنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعا............

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

لما دخلت هذه السنة كان بالديار المصرية الملك العادل، وعنده ابنه الملك الكامل محمد وهو نائبه بها، وبحلب الملك الظاهر، وهو مجد في تحصين حلب خوفا من عمه الملك العادل، وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل نائب أبيه بها، وبالشرق الملك ابراهيم ابن الملك العادل، وبميافارقين الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل.

وفي هذه السنة: توفي عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، وصارت البلاد بعده وهي منبج، وقلعة نجم، وفامية، وكفر طاب، لأخيه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، ولما استقر شمس الدين عبد الملك بمنبج سار إليها الملك الظاهر صاحب حلب وحصرها وملك منبج، وعصى عبد الملك بن المقدم بالقلعة فحصره ونزل عبد الملك بالأمان، فاعتقله الملك الظاهر، وملك قلعة منبج، وبعد أن فرغ من منبج سار إلى قلعة نجم، وبها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها في آخر رجب من هذه السنة، وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماة يبذل له منبج وقلعة نجم على ان يصير معه على الملك العادل، فاعتذر صاحب حماة باليمين التي في عنقه للملك العادل، فلما آيس الملك الظاهر منه سار إلى المعرة، وأقطع بلادها، واستولى على كفر طاب، وكانت لابن المقدم، ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم، وأرسل الملك الظاهر أحضر عبد الملك ابن المقدم من حلب، وكان معتقلا بها، وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضربهم قدام قراقوش ليسلم فامية، فامتنع قراقوش فأمر الملك

الظـاهـر بضرب عبـد الملـك بـن المقـدم فضرب ضربـا شـديـدا وبقـي يستغيث، فـأمر قـراقوش فضربت النقـارات على قلعة فـامية لئـلا يسمع أهل البلد صراخه ولم يسلم القلعة، فرحـل عنها الملك الظاهر، وتوجه إلى حماة، وحـاصرها لثـلاث بقين مـن شعبان مـن هـذه السنة، ونـزل شمالي البلد، وشعـث التربة التقوية وبعـض البساتين، وزحف من جهـة الباب الغربي، وقـاتل قتـالا شديدا، ثـم زحف وجرح الملـك الظاهـر بسهم في ساقـه، واستمرت الحرب إلى أيـام من رمضـان، فلما لم يحصل على غـرض صالـح الملك المنصور وعلى مـال يحمله إليه قيل إنـه ثلاثون ألـف دينار صورية، ثم رحل الملك الظاهـر إلى دمشق، وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنـازلها الملك الظـاهر هـو وأخوه الملـك الأفضل، وانضـم إليهما فـارس الديـن ميمون القصري صـاحب نـابلـس ومن وافقـه من الأمـراء الصلاحيـة، واستقرت القاعـدة بين الأخويـن الأفضل والظاهـر أنهما متى ملكـا دمشق يتسلمهـا الملـك الأفضل، ثـم يسيران ويـأخذان مصر مـن الملك العادل، ويتسلمها الملك الأفضـل، وتسلم دمشق حينئذ إلى الملك الظـاهر صـاحـب حلب، بحيـث تبقـى مصر للملك الأفضـل، ويصير الشام جميعه للملك الظـاهر، وكان قد تخلف من أكابـر الأمراء الصلاحية عنهما: فخر الدين جهاركس، وزين الديـن قراجا، فأرسل الملك الأفضل وسلم صرخـد إلى زين الديـن قراجا، ونقل الملـك الأفضل والدتـه وأهله إلى حمص عنـد شيركوه، وبلـغ الملـك العادل حصـار الأخـوين دمشـق، فخـرج بعسـاكـر مصر، وأقـام بنـابلـس ولم يجسر على قتـالهما، واشتـدت مضايقة الأخويـن الأفضل والظاهر لدمشق، وتعلق النقـابون بسورها فلما شاهد الملك الظاهر صاحـب حلب ذلك حسد أخاه الملك الأفضل على دمشق، وقـال له: أريـد أن تسلم إلي دمشـق الآن، فقال لـه الأفضل: إن حريمي حريمـك وهم على الأرض وليس لنا موضع نقيـم فيه وهب هذه البلد لـك فاجعله إلي إلى حين تملـك مصر وتأخذه، فـامتنع الظاهـر من قبـول ذلـك، وكان قتـال العسكـر والأمـراء الصـلاحية إنما كـان لأجـل

الأفضـل، فقال لهم الأفضـل: إن كـان قتالكـم لأجلي فـاتـركوا القتـال، وصالحوا الملك العادل، وإن كان قتالكم لأجـل أخي الملك الظاهر فأنتم وإيـاه، فقالـوا: إنما قتالنـا لأجلك وتخلـوا عن القتـال، وأرسلوا وصـالحوا الملـك العـادل، وخـرجـت السنة وهـم محاصرون دمشـق، وقـد تفـرقـت العسـاكـر، فرحـل الملـك الظـاهـر عـن دمشق في أول المحـرم سنـة ثمان وتسعين، وسار الأفضل إلى حمص.

وفي هذه السنـة: أعني سنـة سبع وتسعين تـوفي عماد الديـن الكاتـب محمد بـن عبد الله بن حامـد الأصفهاني، وكان فاضـلا في الفقه والأدب، والخلاف، والتاريخ، وله النظم البديع، والنثـر الفائق، وكتب لنور الدين، ولصلاح الـدين، ولـه التصانيف الحسنـة منها: البرق الشـامي، وخـريدة القصر، وكان مـولده سنة تسـع عشرة وخمسمائة، وكان عمـره نيفا وسبعين سنة..........

وفيها: كان بمصر غلاء شديد بسبب نقص النيل، وفيها: كان بالجزيرة والشام والسواحل زلزلة عظيمة فهدمت مدنا كثيرة.

وفيهـا: في رمضان تـوفي أبـو الفرج عبـد الـرحمن بن علي بـن الجوزي الحنبلي الواعظ المشهور وتصانيفـه مشهورة، وكان كثير الوقيعة في العلماء، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

في هـذه السنة بعـد رحيـل الملك الأفضـل والظـاهـر عن دمشـق كما ذكرنا، قدم إليهـا الملك العادل، وكان قد سار ميمـون القصري مع الملك الظاهـر فأقطعه اعزاز، وفيهـا: خرب الملك الظاهـر قلعة منبج خوفـا من انتزاعهـا منه، وأقطع منبـج بعد ذلك عماد الديـن أحمد بن سيف الـدين علي بن أحمد المشطوب. وفيهـا أرسل قراقوش نائب عبد الملـك بن محمد

ابن عبد الملك بن المقدم بفامية إلى الملك الظاهر يبذل له تسليم فامية بشرط أن يعطي شمس الدين عبد الملك بن المقدم أقطاعا يرضاه فأقطعه الملك الظاهر الراوندان، وكفر طاب، ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة، وتسلم فامية، ثم إن عبد الملك بن المقدم عصى بالراوندان، فسار إليه الملك الظاهر واستنزله منها وأبعده، فلحق ابن المقدم بالملك العادل فأحسن إليه.

وفيها: سار الملك العادل من دمشق ووصل إلى حماة ونزل على تل صفرون، وقام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب فاستعد للحصار بحلب، وراسل عمه ولاطفه وأهدى إليه، ووقعت بينهما مراسلات، ووقع الصلح وانتزعت منه مفردة المعرة، واستقرت للملك المنصور صاحب حماة، وأخذت من الملك الظاهر أيضا قلعة نجم وسلمت إلى الملك الأفضل، وكان له سروج وسميساط، وسلم الملك العادل حران ومامعها لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى وسيره إلى الشرق، وكان بميافارقين الملك الأوحد ابن الملك العادل، وبقلعة جعبر الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن الملك العادل، ولما استقر الصلح بين الملك العادل والظاهر رجع الملك العادل إلى دمشق وأقام بها، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية، والديار المصرية كلها في سلك ملكه، وخطب له على منابرها وضربت السكة فيها باسمه.

وفي هذه السنة أرسل السلطان الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف وأمره بحصار ماردين فحصرها وضايقها، ثم سعى الملك الظاهر إلى الملك العادل في الصلح فأجاب إلى أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة ألف وخمسين ألف دينار، ويخطب له ببلاده ويضرب بالسكة باسمه، ويكون بخدمته متى طلبه، فأجيب إلى ذلك، واستقر الصلح عليه.

وفيها أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر إلى الشام، فسار بوالدته وأخوته، وأقام بحلب عند عمه الملك الظاهر.

وفيها سار الملك المنصور صاحب حماة إلى بعرين مرابطا للفرنج، وأقام بها وكتب الملك العادل إلى صاحب بعلبك وإلى صاحب حمص بانجاده فأنجداه، واجتمعت الفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور ببعرين، واتقعوا معه في ثالث شهر رمضان من هذه السنة واقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل وأسر من خيلهم جماعة وكان يوما مشهودا ....

ثم خرج من حصن الأكراد والمرقب الاسبتار، وانضم إليهم جموع من السواحل واتقعوا مع الملك المنصور صاحب حماة وهو نازل ببعرين في الحادي والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوما، فانتصر ثانيا، وانهزمت الفرنج هزيمة شنيعة، وأسر الملك المنصور وقتل منهم عدة كثيرة..............

وفي هذه السنة ولد الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور محمد صاحب حماة من ملكة خاتون بنت السلطان الملك العادل أبي بكر ابن أيوب وسمي عمر، وإنما سمى محمودا بعد ذلك، وكانت ولادته بقلعة حماة ظهر يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان من هذه السنة.

وفي هذه السنة أرسل الملك العادل وانتزع ماكان بيد الملك الأفضل وهي رأس عين، وسروج، وقلعة نجم، ولم يترك بيده غير سميساط فقط، فأرسل الملك الأفضل والدته فدخلت على الملك المنصور صاحب حماة ليرسل معها من يشفع في الملك الأفضل عند الملك العادل في ابقاء ماكان بيده، وتوجهت أم الملك الأفضل، وتوجه معها من حماة القاضي زين الدين ابن الهندي إلى الملك العادل فلم يجبها الملك العادل ورجعت خائبة.

قال عز الدين بن الأثير مؤلف الكـامل: وقد عوقب البيت الصلاحي بمثل مافعلـه والدهـم السلطان صلاح الـدين لما خرجت إليـه نساء بيت الأتابـك ومن جملتهن بنـت نور الديـن الشهيد يشفعن في إبقـاء الموصل على عـز الديـن مسعود، فـردهن ولم يجب إلى سـؤالهن، ثم نـدم رحمه الله تعالى على ردهن، فجرى للملك الأفضل ابـن السلطان صلاح الدين مع عمه مثـل ذلك، ولما جـرى ذلك أقـام الملك الأفضـل بسميساط وقطـع خطبة عمه الملك العادل، وخطب للسلطـان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود السلجوقي صاحب بلاد الروم..........

وفي هذه السنة استـولى الكرج على مدينة دوين من أذربيجـان ونهبوها وقتلوا أهلهـا، وكانت هي وجميـع أذربيجان للأمير أبي بكر بـن البهلوان، وكـان مشغـولا ليـلا ونهارا بشرب الخمـر، ولايلتفـت إلى تـدبير مملكتـه، ووبخه أمراؤه ونوابه على ذلك فلم يلتفت.

وفيها. توفيت زمرد أم الخليفة الإمام الناصر، وكانت كثيرة المعروف.

ثم دخلت سنة ستمائة

والملك العادل بدمشق وفيها كانـت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج.

وفيهـا نازل ابـن لاوون ملك الأرمـن أنطاكيـة فتحرك الملـك الظاهـر صاحب حلب ووصل إلى حارم، فرحل ابن لاوون عن أنطاكية على عقبه.

وفيهـا خطب قطـب الديـن محمد بـن عماد الـدين زنكـي بن مـودود صاحب سنجار للملك العادل ببلاده وانتمى إليه، فصعب على ابن عمه نور الدين أرسـلان شاه بن مسعود بن مودود وقصـد نصيبين وهي لقطب الد ين واستولى على مـدينتها، فاستنجد قطب الديـن با لملك الأشرف بن

العادل، فسار إليه واجتمع معه أخوه الملك الأوحد صاحب ميافارقين والتقى الفريقان بقرية يقال لها بوشره، فانهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل هزيمة قبيحة، ودخل إلى الموصل وليس معه غير أربعة أنفس، وكانت هذه الواقعة أول ماعرفت من سعادة الملك الأشرف ابن العادل، فإنه لم ينهزم له راية بعد ذلك، واستقرت بلاد قطب الدين محمد بن زنكي عليه، ووقع الصلح بينهم في أول سنة احدى وستمائة.

وفيها اجتمع الفرنج لقصد بيت المقدس، فخرج السلطان الملك العادل من دمشق وجمع العساكر، ونزل على الطور في قبالة الفرنج ودام ذلك إلى آخر السنة.

وفيها استولت الفرنج على قسطنطينية، وكانت قسطنطينية بيد الروم من قديم الزمان، فلما كانت هذه السنة اجتمعت الفرنج وقصدتها في جموع عظيمة وحاصروها فملكوها وأزالوا يد الروم عنها، ولم تزل بأيدي الفرنج إلى سنة ستين وستمائة فقصدتها الروم واستعادوها من الفرنج.

وفيها توفي السلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن يبغو أرسلان بن سلجوق، سلطان بلاد الروم في سادس ذي القعدة حسبما قدمنا ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وكان مرضه بالقولنج، وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكورية، وهي أنقرة، وكان ركن الدين المذكور يميل إلى مذهب الفلاسفة ويحسن إلى طائفتهم ويقدمهم، ولما مات ركن الدين ملك ولده قليج أرسلان بن سليمان، وكان صغيرا، فلم يستثبت أمره، وكان ماسنذكره إن شاء الله تعالى..........

وفيها خرج أسطول للفرنج فاستولوا على مدينة فوه من الديار المصرية فنهبوها خمسة أيام، وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت مصر والشام

والجزيرة، وبلاد الروم، وصقلية، وقبرس، والعراق، وغيرها وخربت سور مدينة صور.

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة

في هذه السنة كانت الهدنة بين الملك العادل والفرنج، وسلم إلى الفرنج يافا، ونزل عن مناصفات لد، والرملة، ولما استقرت الهدنة أعطى العساكر دستورا وسار العادل إلى مصر وأقام بدار الوزارة.

وفيها أغارت الفرنج على حماة، ووصلوا إلى قرب حماة إلى قرية الرقيطا، وامتلأت أيديهم من المكاسب وأسروا من أهل حماة شهاب الدين بن البلاعي، وكان فقيها شجاعا تولى بر حماة مرة، وسلمية أخرى، وحمل إلى طرابلس فهرب وتعلق بجبال بعلبك، ووصل إلى أهله بحماة سالما، ثم وقعت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج، وفيها بعد الهدنة توجه الملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، وكان عنده استشعار من السلطان الملك العادل، فلما وصل إليه بالقاهرة أحسن إليه إحسانا كبيرا، وأقام في خدمته شهورا ثم خلع عليه وعلى أصحابه، وعاد إلى حماة.

وفيها ملك السلطان غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان بلاد الروم، وكان لما تغلب أخوه ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان على البلاد قد هرب كيخسرو المذكور إلى الملك الظاهر صاحب حلب، ثم تركه، وسار إلى قسطنطينية فأحسن إليه صاحبها، وأقام بالقسطنطينية إلى أن مات أخوه ركن الدين سليمان، وتولى ابنه قليج أرسلان، فسار كيخسرو من قسطنطينية وأزال أمر ابن أخيه، وملك بلاد الروم، واستقر أمره.

وفيها؛ كانت الحرب بين الأمير قتادة الحسني أمير مكة، وبين الأمير سالم بن قاسم الحسني، أمير المدينة وكانت الحرب بينهما سجالا.

ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة

والملك العادل بالديار المصرية والممالك بحالها..............

في هذه السنة توفي الأمير مجير الدين طاشتكين أمير الحاج، وكان قد ولاه الخليفة على جميع خورستان، وكان خيرا صالحا، وكان يتشيع وفيها تزوج ابو بكر بن البهلوان بابنة ملك الكرج، وذلك لاشتغاله بالشرب عن تدبير المملكة، فعدل إلى المصاهرة والهدنة، فكف الكرج عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة

في هذه السنة سار الملك العادل من مصر إلى الشام، ونازل في طريقه عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى، ثم وصل إلى دمشق، ثم سار منها ونزل بظاهر حمص على بحيرة قدس، واستدعى بالعساكر فأتته من كل جهة، وأقام على البحيرة حتى خرج رمضان، ثم سار ونازل حصن الأكراد، وفتح برج أعزاز وأخذ منه سلاحا ومالا، وخمسمائة رجل، ثم سار ونازل طرابلس ونصب عليها المجانيق، وعاث العسكر في بلادها وقطع قناتها، ثم عاد في أواخر ذي الحجة إلى بحيرة قدس بظاهر حمص............

وفيها في ثالث شعبان ملك غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم أنطالية ـ باللام - وهي مدينة للروم على ساحل البحر. وفيها قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر، وكان أتابك قتلغ مملوك شاه أرمن فقبض عليه ابن بكتمر، فثارت عليه أرباب الدولة وقبضوه، وملكوا بلبان مملوك شاه أرمن ابن سقمان صاحب خلاط حسبما تقدم ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستمائة

والملك العادل نازل على بحيرة قدس، ثم وقع الهدنة بينه وبين صاحب طرابلس، وعاد الملك العادل إلى دمشق وأقام بها.

ذكر استيلاء الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل على خلاط

في هذه السنة ملك الملك الأوحد أيوب ابن الملك العادل خلاط، وكان صاحب خلاط بلبان حسبما قدمنا ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فسار الملك الأوحد من ميافارقين وملك مدينة موش، ثم اقتتل هو وبلبان صاحب خلاط، فانهزم بلبان واستنجد بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقي، فسار طغريل شاه واجتمع به بلبان فهزما الملك الأوحد، ثم غدر طغريل شاه ببلبان فقتله غدرا ليملك بلاده، وقصد خلاط فلم يسلموها إليه، وقصد منازكرد فلم تسلم إليه، فرجع طغريل شاه إلى بلاده فكاتب أهل خلاط الملك الأوحد، فسار إليهم وتسلم خلاط وبلادها بعد إياسه منها واستقر ملكه بها.

وفي هذه السنة لما استقر الملك العادل بدمشق وصل إليه التشريف من الخليفة الإمام الناصر صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردي، فبالغ الملك العادل في إكرام الشيخ، والتقاه إلى القصير، ووصل من صاحبي حلب وحماة ذهب لينثر على الملك العادل إذا لبس الخلعة، فلبسها الملك العادل، ونثر ذلك الذهب، وكان يوما مشهودا، والخلعة جبة أطلس أسود بطراز مذهب، وعمامة سوداء بطراز مذهب وطوق ذهب مجوهر وتطوق به الملك العادل، وسيف جميع قرابه ملبس ذهبا تقلد به، وحصان أشهب بمركب ذهب ونشر على رأسه علم أسود

مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة، ثـم خلع رسول الخليفة على كل واحد من الملك الأشرف، والملك المعظم ابني الملـك العادل عمامة سوداء وثوبا أسود واسـع الكم، وكـذلك على الوزيـر صفي الديـن بن شكـر، وركب الملك العـادل وولداه ووزيره بـالخلع، ودخـل القلعة، وكذلـك وصل إلى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبـلاد التي تحت حكمه، وخوطب الملك العادل فيـه شاهنشاه ملـك الملوك خليـل أمير المؤمنين، ثم توجـه الشيخ شهاب الـدين إلى مصر فخلع على الملـك الكامل بها، وجـرى فيها نظير ماجـرى في دمشق مـن الاحتفال، ثـم عاد السهـروردي إلى بغداد مكـرما معظما.

وفي هـذه السنـة اهتم الملـك العـادل بعمارة قلعـة دمشق، وألـزم كـل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها..........

ثم دخلت سنة خمس وستمائة.

والملك العادل بدمشق وعنده ولداه الملك الأشرف والمعظم

ذكر قدوم الأشرف إلى حلب متوجها إلى بلاده الشرقية

وفي هـذه السنة تـوجه الملـك الأشرف موسـى ابن الملـك العادل مـن دمشـق راجعـا إلى بلاده الشرقيـة، ولما وصـل إلى حلـب تلقاه صـاحبهـا الملك الظـاهر، وأنـزله بـالقلعة وبالـغ في إكرامـه، وقام لـلأشرف ولجميع عسكره بجميع مايحتاجون إليـه من الطعام والشراب والحلوى والعلوفات، وكان يحمـل إليه في كـل يوم خلعـة كاملـة، وهي غـلالة وقبـاء وسراويل وكمة وفـروة، وسيف وحصـان ومنطقة ومنـديل وسكين ودلكـش، وخمس خلع لأصحـابه، وأقـام على ذلك خمسة وعشريـن يوما، وقـدم له تقـدمه وهي مـائة ألف درهم، ومـائة بقجة مـع مائة مملوك فمنهـا عشر بقج في

كل واحـدة منها ثـلاثة أثواب أطلـس، وثوبـان خطاي، وعلى كـل بقجة جلـد قندس كبير، ومنهـا عشر في كـل واحـدة منها عشرة أثـواب عتـابي خوارزمـي، وعلى كل بقجـة جلد قنـدس كبير، ومنها عشر في كـل واحدة خمسة أثواب عتـابي بغدادي وموصلي، وعليها عشرة جلـود قندس صغار، ومنها عشرون في كل واحدة خمس قطع مرسوسي ودبيقي، ومنها أربعون في كل واحـدة منها خمسة أقبيـة وخمس كمام، وحمل إليه خمس حصن عـربية بعـدتها، وعشرين اكـديشا، وأربعـة قطـر بغال، وخمس بغـلات فائقـات بالسروج واللجم المكفتـة، وقطارين من الجمال، وخلع على أصحـابه مائة وخمسين خلعـة، وقـاد إلى أكثـرهـم بغلات وأكـاديـش، ثـم سـار الملـك الأشرف إلى بلاده.

وفي هذه السنـة أمر الملك الظـاهر صاحب حلـب بإجراء القنـاة من حيـلان إلى حلب، وغـرم على ذلـك أمـوالا كثيرة وبقي البلـد يجري الماء فيـه، وفي هذه السنـة، وصـل غياث الـدين كيسخـرو بـن قليج أرسـلان السلجـوقـي صاحـب بـلاد الـروم إلى مـرعـش، لقصد بـلاد ابـن لاوون الأرمني، وأرسـل إليه الملك الظاهـر نجدة، فدخل كيخسرو إلى بـلاد ابن لاوون، وعاث فيها ونهب وفتح حصنا يعرف بفرقوس.

ذكر مقتل صاحب الجزيرة

في هذه السنة قتـل معز الدين سنجر شـاه بن سيف الديـن غازي بن مودود بن عماد الـدين بن زنكي بن آق سنقـر صاحب جزيـرة ابن عمر، وقـد تقدم ذكـر ولايته في سنـة ست وسبعين وخمسمائة قتلـه ابنه غـازي، وكان سنجـر شاه ظالما قبيـح السيرة جدا لايتمنـع عن قبيح يفعلـه من القتل، وقطع الألسنـة والأنوف والآذان وحلق اللحى، وتعـدى ظلمه إلى أولاده وحـريمـه، فبعـث ابنيه محمـودا ومـودودا إلى قلعـة فحبسهما فيهـا، وحبس ابنـه المذكور غـازي في دار في المدينة، وضيـق عليه، وكـان بتلك

الدار هوام كثيرة فاصطاد غازي المذكور منها حية وأرسلها إلى أبيه في منديل لعله يرق عليه فلم يزده ذلك إلا قسوة، فأعمل غازي الحيلة حتى هرب، وكان له واحد يخدمه فقرر معه أن يسافر ويظهر أنه غازي بن معز الدين سنجر شاه ليأمنه أبوه فمضى ذلك الإنسان إلى الموصل فأعطي شيئا وسافر منها، واتصل ذلك بسنجر شاه فاطمأن، وتوصل ابنه غازي حتى دخل إلى دار أبيه واختفى عند بعض سراري أبيه، وعلم به جماعة منهم، وكتموا ذلك عن سنجر شاه لبغضهم فيه، واتفق ان سنجر شاه شرب يوما بظاهر البلد وشرع يقترح على المغنين الأشعار الفراقية، وهو يبكي، ودخل داره سكران إلى عند الحظية التي ابنه مخبأ عندها، ثم قام معز الدين سنجر شاه ودخل الخلاء فهجم عليه ابنه غازي فضربه أربعةعشرة ضربة بالسكين، ثم ذبحه وتركه ملقى، ودخل غازي الحمام وقعد يلعب مع الجواري، فلو أحضر الجند واستحلفهم في ذلك الوقت لتم له الأمر، وملك البلاد، ولكنه تنكر واطمأن، فخرج بعض الخدم وأعلم أستاذ الدار فجمع الناس وهجم على غازي وقتله، وحلف العسكر لأخيه محمود بن سنجر شاه، ولقب معز الدين بلقب أبيه، ووصل معز الدين محمود بن سنجر شاه بن زنكي، واستقر ملكه بالجزيرة، وقبض على جواري أبيه فغرقهن في دجلة، ثم قبض محمود بعد ذلك أخاه مودودا.

ثم دخلت سنة ست وستمائة

في هذه السنة سار الملك العادل من دمشق، وقطع الفرات، وجمع العساكر والملوك من أولاده، ونزل حران ووصل إليه بها الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقي، صاحب آمد وحصن كيفا، وسار الملك العادل من حران، ونازل سنجار، وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي فحاصرها، وطال الأمر في ذلك، ثم خامرت العساكر التي صحبة الملك العادل،

ونقض الملك الظاهر صاحب حلب الصلح معه، فرحل عن سنجار، وعاد إلى حران، واستولى الملك العادل على نصيبين، وكانت لقطب الدين محمد المذكور، وكذلك استولى على الخابور.

وفي هذه السنة توفي الملك المؤيد نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين...........

ثم دخلت سنة سبع وستمائة

وفيها عاد السلطان الملك العادل من البلاد الشرقية إلى دمشق، وفيها قصدت الكرج خلاط وحصروا الملك الأوحد ابن الملك العادل بها، واتفق أن ملك الكرج شرب وسكر فحسن له السكر أنه تقدم إلى خلاط في عشرين فارسا، فخرج إليه المسلمون فتقنطر وأخذ أسيرا، وحمل إلى الملك الأوحد، فرد على الملك الأوحد عدة قلاع، وبذل إطلاق خمسة آلاف أسير ومائة ألف دينار، وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة، وشرط أن يزوج ابنته بالملك الأوحد، فتسلم ذلك منه، وأقام وتحالفا وأطلق.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

في هذه السنة توفي نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل في آخر رجب، وكان مرضه قد طال، وملك الموصل سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا، ولما اشتد مرضه انحدر إلى العين القيارة ليستحم بها، وعاد إلى الموصل في سيارة فتوفي في الطريق ليلا، وكان أسمر حسن الوجه قد أسرع إليه الشيب، وكان شديد الهيبة على أصحابه، وكان عنده قلة صبر في أموره، واستقر في ملكه بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن

أرسلان شاه بن مسعود، وكان عمر القاهر عشر سنين، وقام بتدبير مملكته بدر الدين لولو، وكان لولو مملوك والده أرسلان شاه وأستاذ داره، وهذا لولو هو الذي ملك الموصل على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وكان لأرسلان شاه ولد آخر أصغر من القاهر اسمه عماد الدين زنكي ملكه أبوه قلعتي العقر وشوش، وهما بالقرب من الموصل.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبسوا له سراويلها، وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق، ويجعلوه قدوتهم.

وفيها سار الملك العادل بعد وصوله إلى دمشق، ومقامه إلى الديار المصرية، وأقام بدار الوزارة.

وفيها توفي فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وكبيرهم.

ذكر وفاة الملك الأوحد صاحب خلاط

في هذه السنة توفي الملك الأوحد أيوب بن الملك العادل، فسار أخوه الملك الأشرف وملك خلاط، واستقل بملكها مضافا إلى مابيده من البلاد الشرقية، فعظم شأنه ولقب شاه أرمن.

وفي هذه السنة قتل غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم، وقتله ملك الأشكري،وملك بعده ابنه كيكاوس بن كيخسرو بن قليج أرسلان، حسبما تقدم ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة

في هذه السنة قبض الملك المعظم عيسى بن الملك العادل على عز الدين سامة صاحب قلعتي كوكب وعجلون، بأمر أبيه الملك العادل، وحبسه في الكرك إلى أن مات بها، وحاصر القلعتين المذكورتين، وتسلمها من غلمان سامة وأمر الملك العادل بتخريب كوكب وتعفية أثرها فخربت وبقيت خرابا، وأبقى عجلون وانقرضت الصلاحية بهذا سامة، وملك الملك المعظم بلاد جهاركس وهي بانياس ومامعها لأخيه شقيقه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، وأعطى صرخد مملوكه عز الدين أيبك المعظمي.

وفي هذه السنة عاد الملك العادل إلى الشام وأعطى ولده الملك المظفر غازي الرها مع ميافارقين.

وفيها أرسل الملك الظاهر القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الملك العادل، فاستعطف خاطره، وخطب ابنته ضيفة خاتون ابنة الملك العادل، فزوجها من الملك الظاهر، وزال ماكان بينهما من الاحن.............

ثم دخلت سنة تسع وستمائة

في هذه السنة في المحرم عقد الملك الظاهر على ضيفة خاتون بنت الملك العادل، وكان المهر خمسين ألف دينار، وتوجهت من دمشق في المحرم إلى حلب فاحتفل الملك الظاهر لملتقاها، وقدم لها أشياء كثيرة نفيسة.

وفيها عمر الملك العادل قلعة الطور، وجمع لها الصناع من البلاد والعسكر حتى تمت.

وفي هذه السنة سار طغريل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم وحاصر ابن أخيه سلطان الروم كيكاوس بسيواس، فاستنجد كيكاوس بالأشرف بن العادل، فخاف عمه طغريل ورحل عنه، وكان لكيكاوس أخ اسمه كيقباذ، فلما جرى ماذكرناه سار كيقباذ واستولى على أنكورية من بلاد أخيه كيكاوس، فسار كيكاوس وحصره وفتح أنكورية وقبض أمرائه وحلق لحاهم ورؤوسهم، وأركب كل واحد منهم فرسا وأركب قدامه وخلفه قحبتين وبيد كل منهما معلاق تصفعه به، وبين يدي كل واحد منهم مناد ينادي هذا جزاء من خان سلطانهم.

ثم دخلت سنة عشر وستمائة

في هذه السنة ظفر عز الدين كيكاوس بن كيخسرو صاحب بلاد الروم بعمه طغريل شاه، فأخذ بلاده وقتله وذبح أكثر أمرائه، وقصد قتل أخيه علاء الدين كيقباذ، فشفع فيه بعض أصحابه فعفا عنه.

وفيها في رمضان توفي بحلب فارس الدين ميمون القصري، وهو آخر من بقي من كبراء الأمراء الصلاحية، وهو منسوب إلى قصر الخلفاء بمصر، كان قد أخذه السلطان صلاح الدين من هناك وفيها ولد للملك الظاهر من ضيفة خاتون بنت الملك العادل ولده الملك العزيز غياث الدين محمد..........

ثم دخلت سنة إحدى عشر وستمائة

في هذه السنة توفي دلدرم بن ياروق، صاحب تل باشر، وولي تل باشر بعده ابنه فتح الدين............

وفيها أسرت التركمان ملك الأشكري، وهو قاتل غياث الدين كيخسرو فحمل إلى ابنه كيكاوس بن كيخسرو، فأراد قتله فبذل له في

نفسه أموالا عظيمة، وسلم إلى كيكاوس قلاعا وبلادا لم يملكها المسلمون قط.

وفيها عاد الملك العادل من الشام إلى مصر..............

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

ذكر وفاة الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب.

ولما كانت صبيحة يوم السبت وهو الخامس والعشرون من جمادى الأولى من هذه السنة. ابتدأ بالملك الظاهر المذكور حمى حادة، ولما اشتد مرضه أحضر القضاة والأكابر وكتب نسخة يمين ان يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز، ثم بعده لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن غازي، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين، وحلف الأمراء والأكابر على ذلك، وجعل الحكم في الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم، وأعذق به جميع أمور الدولة، وفي الثالث عشر من جمادى الآخرة أقطع الملك الظافر خضر المعروف بالمشمر كفر سودا، وأخرج من حلب في ليلته بالتوكيل، وأخرج علم الدين قيصر الملك الظاهر ومنع الناس الدخول إليه، وتوفي في ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة، وكان مولده بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة فكان عمره أربعا وأربعين سنة وشهورا، وكانت مدة ملكه لحلب من حين وهبها له أبوه إحدى وثلاثين سنة، وكان فيه بطش وإقدام على سفك الدماء ثم أقصر عنه، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصلاحي، وكان ذكيا فطنا، وترتب الملك العزيز في المملكة ورجع الأمور كلها إلى شهاب الدين طغريل الخادم، فدبر الأمور وأحسن السياسة، وكان عمر الملك

العزيز لما قـرر في المملكة سنتين وأشهرا، وعمر أخيه الملك الصـالح نحو اثنتي عشرة سنة.

وفي هذه السنة توفي تاج الدين زيد بن الحسن بن زيد الكندي، وكان إمـاما في النحـو واللغة، ولـه الإسنـاد العالي في الحديـث، وكان ذا فنـون كثيرة في أنواع العلم، وهو بغدادي المولد والمنشأ، وانتقل وأقام بدمشق.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة

والسلطان الملـك العادل بالـديار المصرية، وقـد اجتمعت الفرنـج من داخل البحر ووصلوا إلى عكا في جمع عظيـم، ولما بلغ الملك العادل ذلك خرج بعساكر مصر، وسار حتى نزل على نـابلس، فسارت الفرنج إليه، ولم يكن معه من العساكر مايقدر به على مقـاتلتهم فاندفع قدامهم إلى عقبة أفيـق، فـأغاروا على بـلاد المسلمين، ووصلـت غـارتهم إلى نوى مـن بلـد السواد، ونهبـوا مابين بيسـان ونابلس، وبثـوا سراياهـم فقتلوا وغنمـوا من المسلمين مايفـوت الحصر، وعادوا إلى مـرج عكا وكانـت قوة هـذا النهب مابين منتصف رمضـان وعيد الفطر من هذه السنة، وأقـام الملك العادل بمـرج الصفر، وسـارت الفرنـج وحصروا حصـن الطور، وهـو الذي بنـاه الملك العادل على مـاتقدم ذكره، ثـم رحلـوا عنه وانقضت السنة والفـرنج بجموعهم في عكا.......

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

والملك العادل بمـرج الصفر، وجموع الفرنج بمرج عكا، ثـم ساروا منها إلى الديـار المصرية، ونزلـوا على دمياط، وسار الملـك الكامل ابـن الملك العـادل مـن مصر، ونزل قبـالتهـم، واستمـر الحال كـذلك أربعـة أشهـر، وأرسل الملـك العادل العسـاكر التي عنـده إلى عند ابنـه الملك الكـامل،

فوصلت إليه أولا فأولا، ولما اجتمعت العساكر عند الملك الكامل، أخذ في قتال الفرنج ودفعهم عن دمياط.

ذكر وفاة الملك القاهر صاحب الموصل

في هذه السنة توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، صاحب الموصل، وكانت وفاته لثلاث بقين من ربيع الأول، وكانت مدة ملكه سبع سنين وتسعة أشهر، وانقرض بموته ملك البيت الأتابكي، وخلف ولدين أكبرهما اسمه أرسلان شاه، وكان عمره حينئذ نحو عشر سنين، فأوصى بالملك له، وأن يقوم بتدبير مملكته بدرالدين لؤلؤ فنصبه بدر الدين لؤلؤ في المملكة، وجعل الخطبة والسكة باسمه، وقام لؤلؤ بتدبير المملكة أحسن قيام.

ذكر وفاة كيكاوس بن كيخسرو صاحب بلاد الروم

ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب، وأجلس ابنه العزيز في المملكة، وكان طفلا طمع صاحب بلاد الروم كيكاوس في الاستيلاء على حلب، فاستدعى الملك الأفضل صاحب سميساط، واتفق معه كيكاوس أن يفتح حلب وبلادها، ويسلمها إلى الملك الأفضل، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الملك الأشرف ابن الملك العادل ويتسلمها كيكاوس، وتحالفا على ذلك وسار كيكاوس إلى جهة حلب، ومعه الملك الأفضل ووصلا إلى رعبان واستولى عليها كيكاوس وسلمها إلى الملك الأفضل، فمالت إليه قلوب أهل البلاد لذلك، ثم سار إلى تل باشر وبها ابن دلدرم ففتحها، ولم يسلمها إلى الملك الأفضل، وأخذها كيكاوس لنفسه، فنفر خاطر الملك الأفضل وخواطر أهل البلاد بسبب ذلك، ووصل الملك

الأشرف ابن الملك العادل إلى حلب لدفع كيكاوس عن البلاد، ووصل إليه بها الأمير مانع بن حديثه أمير العرب في جمع عظيم، وكان قد سار كيكاوس إلى منبج وتسلمها لنفسه أيضا، وسار الملك الأشرف بالجموع التي معه، ونزل وادي بزاعا وأتقع بعض عسكره مع مقدمة عسكر كيكاوس، فانهزمت مقدمة عسكر كيكاوس، وأخذ من عسكر كيكاوس عدة أسرى، فأرسلوا إلى حلب ودقت البشائر لها، ولما بلغ ذلك كيكاوس، وهو بمنبج ولى منهزما مرعوبا، وتبعه الملك الأشرف يتخطف أطراف عسكره، ثم حاصر الأشرف تل باشر واسترجعها، وكذلك استرجع رعبان وغيرها، وتوجه الملك الأفضل إلى سميساط، ولم يتحرك بعدها في طلب ملك إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وستمائة، على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وعاد الملك الأشرف إلى حلب، وقد بلغه وفاة أبيه.

ذكر وفاة السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب

كان الملك العادل نازلا بمرج الصفر، وقد أرسل العساكر إلى ولده الملك الكامل بالديار المصرية، ثم رحل الملك العادل من مرج الصفر إلى عالقين وهي عند عقبة أفيق، فنزل بها ومرض، واشتد مرضه ثم توفي هناك إلى رحمة الله تعالى سابع جمادى الآخرة من هذه السنة أعني سنة خمس عشرة وستمائة، وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة، وكان عمره خمسا وسبعين سنة، وكانت مدة ملكه لدمشق ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت مدة ملكه لمصر نحو تسع عشرة سنة، وكان الملك العادل رحمه الله تعالى حازما متيقظا، غزير العقل، سديد الآراء، ذا مكر وخديعة، صبورا حليما يسمع مايكره ويغضي عنه، وأتته السعادة واتسع ملكه، وكثرت أولاده، ورأى فيهم مايحب، ولم ير أحد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم في أولاده من الملك والظفر مارآه الملك العادل في أولاده، ولقد أجاد شرف الدين بن عنين في قصيدته التي مدح بها الملك العادل التي

مطلعها:

مـــاذا على طيـــف الأحبـــة لـــو سرى
وعليهـــم لـــو ســـامحوني بـــالكـــرى

ومنها:

العـــادل الملـــك الـــذي أسماؤه
في كـــل نـــاحيـــة تشرف منبرا
مـــا في أبي بكـــر لمعتقـــد الهدى
شـــك يـــريـــب بـــأنـــه خير الـــورى
بين الملـــوك الغـــابـــريـــن وبينـــه
في الفضـــل مـــا بين الثـــريـــا والثـــرى
نسجـــت خـــلائقـــه الحميـــدة مـــا أتـــى
في الكتـــب عـــن كسرى الملـــوك وقيصرا

ومنها في وصف أولاده:

لا تسمعـــن حـــديـــث ملـــك غيره
يـــروى فكـــل الصيـــد في جـــوف الفـــرا
ولـــه الملـــوك بكـــل أرض منهـــم
ملـــك يجر إلى الأعـــادي عسكـــرا
مـــن كـــل وضـــاح الجبين تخالـــه
بـــدرا فـــإن شهـــد الـــوغـــى فغضنفـــرا

وخلف الملك العادل ستة عشر ولـدا ذكرا غير البنات، ولما توفي الملك العـادل لم يكـن عنده أحـد مـن أولاده حـاضرا، فحضر إليه ابنـه الملـك المعظم عيسى، وكان بنـابلس بعد وفاته، وكتم موتـه وأخذه ميتا في محفة، وعاد بـه إلى دمشق واحتوى الملـك المعظم على جميع مـاكان مع أبيـه من الجواهـر والسلاح والخيـول، وغير ذلـك، ولما وصـل دمشق حلـف جميـع الناس له، وأظهر مـوت أبيه، وجلس للعزاء، وكتب إلى الملوك مـن أخوته وغيرهـم يخبرهم بمـوته، وكـان في خـزانة الملـك العادل لما تـوفي سبعمائة

ألف دينـار عينا، ولما بلغ الملـك الكامل موت أبيـه وهو في قتال الفـرنج عظـم عليه ذلـك جدا، واختلفـت العسـاكر عليـه فتـأخر عـن منزلتـه، وطمعت الفـرنج، ونهبت بعـض أثقال المسلمين، وكـان في العسكر عماد الدين أحمد ابن سيف الديـن علي بن أحمد المشطوب، وكان مقدما عظيما في الأكراد الهكارية، فعزم على خلع الملـك الكامل من السلطنة، وحصل في العسكـر اختلاف كثير حتـى عزم الملـك الكـامل على مفـارقة البـلاد واللحوق باليمن، وبلـغ الملك المعظم عيسى بن العادل ذلـك فرحل من الشام ووصل إلى أخيـه الملك الكامل، وأخرج عماد الديـن ابن المشطوب ونفاه من العسكر إلى الشـام، فانتظم أمر السلطان الملك الكـامل، وقوي مضايقـة الفرنج لدميـاط وضعف أهلها بسبب مـاذكرناه من الفتنـة التي حصلت في عسكر الملك الكامل من ابن المشطوب.

ذكر استيلاء عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر على بعض القلاع المضافة إلى مملكة الموصل

قد تقدم في سنـة سبع وستمائة أن أرسلان شاه عند وفاتـه جعل مملكة الموصل لـولده القاهـر مسعود، وأعطى ولـده الأصغر عماد الديـن زنكي المذكـور قلعتـي العقر وشـوش، فلما مـات أخـوه القـاهر وأجلـس ولـده أرسلان شـاه ابن القاهر في المملكـة، وكان به قروح وأمـراض، تحرك عمه عماد الديـن زنكي بن أرسـلان شاه وقصـد العمادية، واستولى عليهـا، ثم استولى على قلاع الهكـارية والزوزان، فاستنجـد بدر الدين لـؤلؤ المستولي على ملك الموصل وتدبير أرسلان شاه بـالملك الأشرف ابن الملك العادل، ودخل في طـاعته، فـأنجده الملك الأشرف بعسكـر، وساروا إلى زنكـي بن أرسـلان شاه فهـزموه، وكـان زنكي المذكـور مزوجـا ببنت مظفـر الديـن كـوكبوري صـاحب إربـل، وأم البنت ربيعـة خـاتون بنـت أيوب أخـت السلطان الملـك العادل زوجة مظفـر الديـن، فكان مظفر الـدين لايترك

ممكنا في نجـدة صهره زنكـي المذكور ويبالـغ في عداوة بدر الـدين لـؤلؤ لأجل صهره.........

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

والملـك الأشرف مقيم بظـاهر حلـب يدبـر أمـر جندهـا وأقطاعـاتها، والملـك الكامـل بمصر في مقابلـة الفـرنج، وهـم محدقون محاصرون لثغـر دمياط، وكتب الملك الكامل متواصلة إلى اخوته في طلب النجدة.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

وفي هذه السنة تـوفي نور الدين أرسـلان ابن الملك القاهـر مسعود بن أرسلان شـاه بن مسعـود بن مودود بـن عماد الديـن زنكي بـن آق سنقر، وكان لايـزال مريضا فـأقام بدر الـدين لؤلـؤ في الملك بعده أخـاه ناصر الدين محمود بـن الملك القاهر، وكان عمره يومئـذ نحو ثلاث سنين، وهو آخر من خطب له مـن بيت أتابك بالسلطنة، وكان أبوه القـاهر آخر من كان له استقلال بالملك منهم، ثـم إن هذا الصبي مات بعد مدة واستقل بدر الـدين لؤلـؤ بالملك وأتتـه السعادة، وطـالت مدة ملكـه إلى أن توفي بالموصل، بعد أخذ التتر بغداد، على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة صاحب سنجار

وقد تقدم ذكر ولايته في سنة أربع وتسعين وخمسمائة

وفي هذه السنـة: توفي قطـب الديـن محمد بـن عماد الديـن زنكي بـن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقـر صاحب سنجار فملك سنجار بعده ولـده عماد الديـن شاهنشـاه بن محمـد، وكان قطـب الديـن حسن السيرة في رعيته وبقـي عماد الديـن شاهنشاه في الملـك شهورا، ثـم وثب

عليه أخوه محمود بن محمد فذبحـه وملك سنجار، وهذا محمود هو آخـر من ملـك سنجـار من البيـت الأتـابكي

ذكر تخريب القدس

وفي هذه السنة: أرسل الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشـق الحجـارين والنقـابين إلى القـدس، فخـرب أسـواره، وكانـت قـد حصنت إلى الغايـة، فانتقل منه عـالم عظيم، وكان سبب ذلـك أن الملك المعظـم لما رأى قـوة الفـرنـج وتغلبهـم على دميـاط خشي أن يقصـدوا القدس، فلا يقدر على منعهم فخربه لذلك.

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

ولم تزل الفـرنج يضايقـون دمياط حتى هجمـوها في هذه السنـة عاشر رمضـان، وقتلـوا وأسروا مـن بها، وجعلـوا الجامـع كنيسـة، واشتـد طمـع الفـرنج في الـديار المصريـة، وحين أخذت دميـاط ابتنى الملـك الكامـل مدينـة وسماها المنصـورة عند مفترق البحـرين الآخـذ أحدهما إلى دميـاط والآخر إلى أشمون طناح، ونزل فيها بعساكره............

ذكر توجه الملك المظفر محمود ابن صاحب حماة إلى مصر وموت والدته

في هذه السنة حلـف الملك المنصور صاحب حماة الناس لـولده الملك المظفـر محمـود، وجعلـه ولي عهـده، وجـرد عسكـرا والطـواشي مـرشـد المنصوري نجدة إلى الملـك الكامل بديار مصر فسـار إليه، ولما وصل إلى الملك الكـامل أكـرمه وأنزلـه في ميمنة عسكره،وهي منـزلة أبيـه وجدة في الأيام الناصرية الصـلاحية، وبعد توجه الملك المظفر ماتـت والدته ملكة خاتون بنت الملك العادل.

قال القاضي جمال الدين مؤلف مفرج الكروب: وحضرت العزاء وعمري اثنتا عشرة سنة، ورأيت الملك المنصور وهو لابس الحداد على زوجته المذكورة، وهو ثوب أزرق وعمامة زرقاء، وأنشدته الشعراء المراثي فمن ذلك قصيدة قالها حسام الدين خشترين، وهو جندي كردي مطلعها:

الطرف في لجة والقلب في سعر
له دخان زفير طار بالشرر

ومنها في لبس الملك المنصور الحداد مطلعها :

ما كنت أعلم أن الشمس قد غربت
حتى رأيت الدجى ملقى على القمر
لو كان من مات يفدى قبلها الفدى
أم المظفر آلاف من البشر

ذكر وفاة كيكاوس وملك أخيه كيقباذ

في هذه السنة توفي الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، صاحب بلاد الروم، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة سبع وستمائة، وكان قد تعلق به مرض السل واشتد مرضه، ومات فملك بعده أخوه كيقباذ بن كيخسرو، وكان كيقباذ محبوسا قد حبسه أخوه كيكاوس، فأخرجه الجند وملكوه.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة توفي أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري الضرير النحوي الحاسب اللغوي وكان حنبليا صحب ابن الخشاب النحوي وغيره، وفيها توفي أبو الحسن علي بن القاسم بن علي ابن الحسن الدمشقي الحافظ ابن الحافظ ابن الحافظ المعروف بابن

عساكر، وكان قد قصد خراسان وسمع بها الحديث فأكثر وعاد إلى بغداد، وكان قد وقع على القفل الذي هو فيه في الطريق حرامية، وجرحوا ابن عساكر المذكور، ووصل على تلك الحال إلى بغداد وبقي بها حتى توفي في هذه السنة في جمادى الأولى رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

والفرنج متملكون على دمياط والسلطان الملك الكامل مستقر في المنصورة مرابط للجهاد والملك الأشرف في حران، وكان الملك الأشرف قد أقطع عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب رأس عين، فخرج على الملك الأشرف وجمع ابن المشطوب المذكور جمعا وحسن لصاحب سنجار محمود بن قطب الدين الخروج عن طاعة الأشرف أيضا، فخرج بدر الدين لؤلؤ من الموصل، وحصر ابن المشطوب بتل أعفر، وأخذه بالأمان، ثم قبض عليه، وأعلم الملك الأشرف بذلك فسر به غاية السرور، واستمر عماد الدين أحمد بن سيف الدين بن المشطوب في الحبس، ثم سار الملك الأشرف من حران واستولى على دنيسر، وقصد سنجار، فأتته رسل صاحبها محمود بن قطب الدين يسأل أن يعطى الرقة عوض سنجار ليسلم سنجار إلى الملك الأشرف فأجاب الملك الأشرف إلى ذلك وتسلم سنجار في مستهل جمادى الأولى، وسلم إليه الرقة، وهذا كان من سعادة الملك الأشرف فإن أباه الملك العادل نازل سنجار في جموع عظيمة، وطال عليها مقامه، فلم يملكها، وملكها ابنه الملك الأشرف بأهون سعي، وبعد أن فرغ الملك الأشرف من سنجار، سار إلى الموصل، ووصل إليها في تاسع عشر جمادى الأولى، وكان يوم وصوله إليها يوما مشهودا، وكتب إلى مظفر الدين صاحب إربل يأمره أن يعيد صهره عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي على بدر الدين لؤلؤ القلاع التي استولى عليها، فأعادها جميعها، وترك في يده منها العمادية، واستقر الصلح بين الملك الأشرف

وبين مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل وعماد الدين زنكي بن أرسلان شاه صاحب العقر، وشوش، والعمادية، وكذلك استقر الصلح بينهم وبين صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، ولما استقر ذلك رحل الملك الأشرف عن الموصل ثاني شهر رمضان من هذه السنة، وعاد إلى سنجار، وسلم بدر الدين لؤلؤ قلعة تلعفر إلى الملك الأشرف، ونقل الملك الأشرف ابن المشطوب من حبس الموصل وحطه مقيدا في جب بمدينة حران حتى مات سنة تسع عشرة وستمائة، ولقي بغيه وخروجه مرة بعد أخرى.

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماة بقلعة حماة في ذي القعدة، وكان مدة مرضه إحدى وعشرين يوما بحمى حادة وورم دماغه، وكان شجاعا عالما يحب العلماء، ورد إليه منهم جماعة كثيرة مثل الشيخ سيف الدين علي الآمدي، وكان في خدمة الملك المنصور قريب مائتي متعمم من: النحاة، والفقهاء، والمشتغلين بغير ذلك، وصنف الملك المنصور عدة مصنفات مثل المضمار في التاريخ، وطبقات الشعراء، وكان معتنيا بعمارة بلده، والنظر في مصالحه وهو الذي بني الجسر الذي هو بظاهر حماة خارج باب حمص، واستقر له بعد وفاة والده من البلاد: حماة، والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، ولما فتح بارين وكانت بيد ابراهيم ابن المقدم ألزمه عمه السلطان الملك العادل أن يردها عليه، فأجاب إلى تسليم منبج وقلعة نجم عوضا عنها، وهما خير من بارين بكثير، اختار ذلك لقرب بارين من بلده، وجرت له حروب مع الفرنج، وانتصر فيها وكان ينظم الشعر.

ذكر استيلاء الملك الناصر ابن الملك المنصور على حماة

ولما توفي الملك المنصور كان ولده الملك المظفر المعهود إليه بالسلطنة عند خاله الملك الكامل بديار مصر في مقابلة الفرنج، وكان ولده الآخر الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان عند خاله الآخر الملك المعظم صاحب دمشق وهو في الساحل في الجهاد، وقد فتح قيسارية وهدمها وسار إلى عثليث ونازلها، وكان الوزير بحماة زين الدين بن فريج، فاتفق هو والكبراء على استدعاء الملك الناصر لعلمهم بلين عريكته وشدة بأس الملك المظفر، فأرسلوا إلى الملك الناصر وهو مع الملك المعظم كما ذكرنا، فمنعه الملك المعظم من التوجه إلا بتقرير مال عليه يحمله إلى الملك المعظم في كل سنة قيل إن مبلغه أربعمائة ألف درهم، فلما أجاب الملك الناصر إلى ذلك وحلف عليه أطلقه الملك المعظم فقدم الملك الناصر إلى حماة، واجتمع بالوزير زين الدين بن فريج والجماعة الذين كاتبوه، فاستحلفوه على ما أرادوا، وأصعدوه إلى القلعة، ثم ركب من القلعة بالسناجق السلطانية، وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة، لأن مولده سنة ستمائة، ولما استقر الملك الناصر في ملك حماة، وبلغ أخاه الملك المظفر ذلك، استأذن الملك الكامل في المضي إلى حماة ظنا منه أنه إذا وصل إليها يسلمونها إليه بحكم الأيمان التي كانت له في أعناقهم، فأعطاه الملك الكامل الدستور، وسار الملك المظفر حتى وصل إلى الغور، فوجد خاله الملك المعظم صاحب دمشق هناك فأخبره أن أخاه الملك الناصر قد ملك حماة ويخشى عليه أنه إن وصل إليه يعتقله، فسار الملك المظفر إلى دمشق، وأقام بداره المعروفة بالزنجيلي وكتب الملك المعظم والملك المظفر إلى أكابر حماة في تسليمها إلى الملك المظفر، فلم يحصل منهم إجابة فعاد الملك المظفر إلى مصر، وأقام في خدمة الملك الكامل، وأقطعه أقطاعا بمصر، إلى أن كان ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل على خلاط وميافارقين

كان قد استقر بيد الملك المظفر المذكور: الرها، وسروج، وكانت ميافارقين، وخلاط بيد الملك الأشرف، ولم يكن للملك الأشرف ولد، فجعل أخاه الملك المظفر غازي ولي عهده، وأعطاه ميافارقين وخلاط وبلادها، وهي إقليم عظيم يضاهي ديار مصر، وأخذ الملك الأشرف منه الرها وسروج.

وفي هذه السنة توفي بالموصل الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان فقيها فاضلا من بيت كبير بخراسان، وخلف أربعة بنين عرفوا بأولاد الشيخ، تقدموا عند السلطان الملك الكامل، وسنذكر بعض أخبارهم في موضعها إن شاء الله تعالى، وكان الشيخ صدر الدين المذكور قد توجه رسولا إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فمات هناك...........

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة

ذكر عود دمياط إلى المسلمين

وفي هذه السنة قوي طمع الفرنج المتملكين دمياط في ملك الديار المصرية، وتقدموا عن دمياط إلى جهة مصر، ووصلوا إلى المنصورة، واشتد القتال بين الفريقين برا وبحرا، وكتب السلطان الملك الكامل متواترة إلى أخوته، وأهل بيته يستحثهم على إنجاده، فسار الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق إلى أخيه الملك الأشرف، وهو ببلاده الشرقية واستنجده وطلب منه المسير إلى أخيهما الملك الكامل، فجمع الملك الأشرف عساكره واستصحب عسكر حلب، وكذلك استصحب

معه الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور صاحب حماة، وكان الملك الناصر خائفا من السلطان الملك الكامل أن ينتزع حماة منه، ويسلمها إلى أخيه الملك المظفر، فحلف الملك الأشرف للملك الناصر صاحب حماة أنه مايمكن أخاه السلطان الملك الكامل من التعرض إليه، فسار معه بعسكر حماة، وكذلك سار صحبة الملك الأشرف كل من صاحب بعلبك الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي، وسار الملك المعظم عيسى بعسكر دمشق، ووصلوا إلى الملك الكامل وهو في قتال الفرنج على المنصورة، فركب والتقى أخويه ومن في صحبتهما من الملوك، وأكرمهم وقويت نفوس المسلمين وضعفت نفس الفرنج بما شاهدوه من كثرة عساكر الاسلام وتجملهم، واشتد القتال بين الفريقين ورسل الملك الكامل وأخويه مترددة إلى الفرنج في الصلح، وبذل المسلمون لهم تسليم: القدس، وعسقلان، وطبرية، واللاذقية، وجبلة، وجميع مافتحه السلطان صلاح الدين من الساحل ماعدا الكرك والشوبك، على أن يجيبوا إلى الصلح ويسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم يرض الفرنج بذلك، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب أسوار القدس، فإن الملك المعظم عيسى خربها كما تقدم ذكره، وقالوا لابد من تسليم الكرك والشوبك، وبينا الأمر متردد في الصلح والفرنج ممتنعون من الصلح إذ عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج من بر دمياط. ففجروا فجرة عظيمة من النيل، وكان ذلك في قوة زيادته، والفرنج لاخبرة لهم بأمر النيل، فركب الماء تلك الأرض، وصار حائلا بين الفرنج وبين دمياط، وانقطع عنهم الميرة والمدد، فهلكوا جوعا، وبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع مابذله المسلمون لهم ويسلموا دمياط، ويعقدوا مدة للصلح، وكان فيهم عدة ملوك كبار نحو عشرين ملكا، فاختلفت الآراء بين يدي السلطان الملك الكامل في أمرهم، فبعضهم قال لانعطيهم أمانا ونأخذهم ونتسلم بهم مابقي

بأيديهم من الساحل مثل عكا وغيرها، ثم اتفقت آراؤهم على إجابتهم إلى الأمان لطول مدة البيكار، وتضجر العساكر لأنهم كان لهم ثلاث سنين وشهور في القتال معهم، فأجابهم الملك الكامل إلى ذلك وطلب الفرنج رهينة من الملك الكامل، فبعث ابنه الملك الصالح أيوب وعمره يومئذ خمس عشرة سنة إلى الفرنج رهينة، وحضر من الفرنج رهينة على ذلك ملك عكا ونائب البابا صاحب رومية الكبرى وكندريس، وغيرهم من الملوك، وكان ذلك سابع رجب من هذه السنة، واستحضر الملك الكامل ملوك الفرنج المذكورين وجلس لهم مجلسا عظيما، ووقف بين يديه الملوك من أخوته وأهل بيته جميعهم، وسلمت دمياط إلى المسلمين تاسع عشر رجب من هذه السنة، وقد حصنها الفرنج إلى غاية مايكون، وولاها السلطان الملك الكامل الأمير شجاع الدين جلدك التقوي، وهو من مماليك الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وهنأت الشعراء الملك الكامل بهذا الفتح العظيم، ثم سار السلطان الملك الكامل، ودخل دمياط ومعه أخوته وأهل بيته، وكان يوما مشهودا، ثم توجه إلى القاهرة، وأذن للملوك في الرجوع إلى بلادهم، فتوجه الملك الأشرف إلى الشرق، وانتزع الرقة من محمود، وقيل اسمه عمر بن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، ولقي بغيه على أخيه، فإنا ذكرنا كيف وثب على أخيه وقتله، وأخذ سنجار، ثم أقام الملك الأشرف بالرقة، وورد إليه الملك الناصر صاحب حماة فأقام عنده مدة ثم عاد إلى بلاده.

ذكر وفاة صاحب آمد

وفي هذه السنة توفي الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب آمد وحصن كيفا بالقولنج، وقام في الملك بعده ولده الملك المسعود، وهو الذي انتزع منه

الملك الكامل آمد، وكان الملك الصالح المذكور قبيح السيرة، وقد أورد ابن الأثير وفاته في سنة تسع عشرة..........

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

في هذه السنة استقل بدر الدين لؤلؤ بملك الموصل، وتوفي الطفل الذي كان قد نصبه في المملكة وهو ناصر الدين محمود بن الملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، وسمى لؤلؤ نفسه الملك الرحيم، وكان قد اعتضد بالملك الأشرف ابن الملك العادل، فدافع عنه ونصره وقلع لؤلؤ البيت الأتابكي بالكلية واستمر مالكا للموصل نيفا وأربعين سنة، سوى ماتقدم له من الاستيلاء والتحكم في أيام أستاذه نور الدين أرسلان شاه وابنه الملك القاهر مسعود.

وفي هذه السنة سار الملك الأشرف إلى خدمة أخيه الملك الكامل، وأقام عنده بمصر متنزها إلى أن خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة فوض الأتابك طغريل الخادم مدبر مملكة حلب إلى الملك الصالح أحمد بن الظاهر أمر الشغر وبكاس، فسار الملك الصالح من حلب، واستولى عليهما، وأضاف إليه الروج ومعرة مصرين.

وفي هذه السنة قصد الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حماة، لأن الملك الناصر صاحب حماة كان قد التزم له بمال يحمله إليه إذا ملك حماة، فلم يف له، فقصد الملك المعظم حماة ونزل بجبرين، وغلقت أبواب حماة، فقصدها الملك المعظم، وجرى بينهم قتال قليل، ثم ارتحل الملك المعظم إلى سلمية فاستولى على حواصلها وولى عليها، ثم توجه إلى المعرة فاستولى عليها وأقام فيها واليا من جهته، وقرر أمورها ثم عاد إلى سلمية، فأقام بها حتى خرجت هذه السنة في قصد منازلة حماة.

وفي هـذه السنة: حـج من اليمـن الملك المسعـود بن يـوسف الملقـب أطسز، وهـو اسم تـركي، والعامـة تسميه أقسيـس، وكان قـد استولى على اليمن سنـة اثنتي عشرة وستمائة، وقبـض على سليمان شاه بـن شاهنشـاه ابن عمـر بن شاهشـاه بن أيوب، وحـج في هذه السنة، فلما وقـف الملك المسعود في هذه السنة بعـرفة وتقدمت أعلام الخليفة الإمـام الناصر لترفع على الجبل تقـدم الملك المسعـود بعساكره ومنـع من ذلـك، وأمر بتقـديم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل على أعلام الخليفة، فلم يقدر أصحاب الخليفة على منعه مـن ذلك ثم عاد الملك المسعود إلى اليمـن، وبلغ ذلك الخليفة فعظـم عليه، وأرسل يشكـو إلى الملك الكامـل فاعتذر عـن ذلك فقبل عـذره، وأقام الملك المسعود في اليمـن مدة يسيرة، ثم عـاد إلى مكة ليستولي عليهـا، فقابلـه الحسن بـن قتادة فـانتصر الملك المسعـود وانهزم الحسـن بن قتـادة، واستقـرت مكة في ملـك الملـك المسعود وولى عليهـا وذلك في ربيع الأول من سنة عشرين وستمائة ثم عاد إلى اليمن.

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة

والأشرف بديار مصر عنـد أخيه الملك الكامل وأخـوهما الملك المعظم بسلمية مستـول عليها وعلى المعـرة، عازم على حصـار حماة، وبلغ الملـك الأشرف مافعله أخـوه المعظم بصاحب حماة، فعظم عليه ذلـك واتفق مع أخيـه الكامـل على الإنكـار على الملك المعظـم وهـو بسلميـة وقال لـه: السلطان يـأمرك بـالرحيـل، فقال: السمـع والطاعـة وكانـت أطماعه قـد قـويـت في الاستيـلاء على حماة، فـرحـل مغضبـا على أخـويـه الكـامـل والأشرف، ورجعت المعـرة وسلمية للناصر، وكـان الملك المظفر محمـود بن الملك المنصـور محمد بن تقـي الدين عمر بـن شاهنشاه بـن أيوب مقيما عند الملك الكـامل بالديار المصريـة كما تقدم ذكره، وكان الملـك الكامل يؤثـر تمليكه حماة، لكن الملـك الأشرف غير مجيب إلى ذلـك لانتماء الملك النـاصر صـاحـب حماة إليـه، وجـرى بين الكـامـل والأشرف في ذلـك

مراجعات كثيرة آخرها أنهما اتفقا على نزع سلمية من يد الناصر قليج أرسلان وتسليمها إلى أخيه الملك المظفر، فتسلمها الملك المظفر، وأرسل إليها وهو بمصر نائبا من جهته حسام الدين أبا علي ابن محمد بن علي الهذباني، واستقر بيد الملك الناصر حماة والمعرة، وبعرين، ثم سار الأشرف من مصر، واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الملك الكامل للملك العزيز صاحب حلب، وعمره يومئذ عشر سنين، ووصل الأشرف بذلك إلى حلب، وأركب الملك العزيز في دست السلطنة، وفي هذه السنة لما وصل الملك الأشرف بالخلعة المذكورة إلى حلب، اتفق مع الملك الأشرف كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية، فأرسلوا عسكرا وهدمها إلى الأرض............

ذكر حادثة غريبة

كان أهل مملكة الكرج قد مات ملكهم ولم يبق من بيت الملك غير امرأة فملكوها، وطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك ويكون من أهل بيت المملكة فلم يجدوا فيهم أحدا يصلح لذلك، وكان صاحب أرزن الروم مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقي من بيت كبير مشهور، فأرسل يخطب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من إجابته إلا أن يتنصر فأمر ولده فتنصر، وسار إلى الكرج وتزوج ملكتهم، وكانت هذه الملكة تهوى مملوكا لها ويعلم ابن طغريل شاه بذلك وتكامن فدخل يوما إلى البيت فوجد المملوك نائما معها في الفراش، فلم يصبر المذكور على ذلك فأنكر عليها فأخذته زوجته واعتقلته في بعض القلاع، ثم أحضرت رجلين كانا قد وصفا لها بحسن الصورة فتزوجت أحدهما ثم فارقته، وأحضرت انسانا من كنجة مسلما وهويته وسألته ان يتنصر لتتزوج به فلم يجب إلى ذلك، وتردد الرسل بينهما في ذلك مدة فلم يجبها إلى التنصر..........

-١٠٢٠٠-

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

ذكر عصيان المظفر غازي بن العادل على أخيه الملك الأشرف

كان الملك الأشرف قد أنعم على أخيه الملك المظفر غازي بخلاط، وهي مملكة عظيمة،وهي إقليم أرمينية وكان قد حصل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الكامل والأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة، كما قدمنا ذكره، فأرسل المعظم وحسن لأخيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الملك الأشرف، فأجاب الملك المظفر إلى ذلك، وخالف أخاه الملك الأشرف، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازي صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كجك، وكان بدر الدين لؤلؤ منتميا إلى الملك الأشرف، فسار مظفر الدين صاحب إربل وحصر الموصل عشرة أيام، وكان نزوله على الموصل ثالث عشر جمادى الآخرة من هذه السنة، ليشغل الملك الأشرف عن قصد أخيه بخلاط، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها، فلم يلتفت الملك الأشرف إلى محاصرة الموصل، وسار إلى خلاط وحصر أخاه شهاب الدين غازي، فسلمت إليه مدينة خلاط، وانحصر أخوه غازي بقلعتها إلى الليل، فنزل من القلعة إلى أخيه الملك الأشرف واعتذر إليه، فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميافارقين وارتجع باقي البلاد منه، وكان استيلاء الملك الأشرف على خلاط، وأخذها من أخيه في جمادى الآخرة من هذه السنة.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة

ذكر وفاة الملك الأفضل نور الدين علي ابن السلطان صلاح الدين يوسف

في هذه السنة توفي الملك الأفضل المذكور، وليس بيده غير سميساط فقط، وكان موته فجأة وعمره سبع وخمسون سنة، وكان الملك الأفضل فاضلا حسن السيرة، وتجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة، وكان مع ذلك قليل الحظ، وله الأشعار الحسنة فمنها يعرض إلى سوء حظه قوله:

يامن يسود شعره بخضابه
لعساه من أهل الشبيبة يحصل
ها فاختضب بسواد حظي مرة
ولك الأمان بأنه لاينصل

ولما أخذت منه دمشق كتب إلى بعض أصحابه كتابا منه: أما أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم وسبب ذلك:

أي صديق سألت عنه ففي الذ
ل وتحت الخمول في الوطن
وأي ضد سألت حالته
سمعت مالا تحبه أذني

ذكر وفاة الإمام الناصر

وفي أول شوال من هذه السنة توفي الخليفة الناصر لدين الله، وكانت مدة خلافته نحو سبع وأربعين سنة وعمي في آخر عمره، وكان موته بالدوسنطاريا، وهو الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن

المستضىء حسن ابن المستنجد يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر أحمد ابن المقتدي عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن القائم عبد الله ابن القادر أحمد ابن الأمير اسحق ابن المقتدر جعفر ابنْ المكتفي علي ابن المعتضد أحمد ابن الأمير الموفق—قيل اسمه طلحة وقيل محمد— ابن المتوكل جعفر ابن المعتصم محمد ابن الرشيد هرون ابن المهدي محمد ابن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب بن هاشم وكان عمر الإمام الناصر نحو سبعين سنة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالما لهم خرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد وكان يتشيع وكان منصرف الهمة إلى رمي البندق والطيور المناسيب ويلبس سراويلات الفتوة ومنع رمي البندق إلا من ينسب إليه، فأجابه الناس إلى ذلك إلا انسانا واحدا يقال له ابن السفت وهرب من بغداد إلى الشام، وقد نسب الإمام الناصر أنه هو الذي كاتب التتر وأطمعهم في البلاد، بسبب ماكان بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة، ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق.

ذكر خلافة ابنه الظاهر

وهو خامس ثلاثينهم ولما توفي الإمام الناصر بويع ولده الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد، فأظهر العدل، وأزال المكوس، وأخرج المحبوسين وظهر للناس، وكان الناصر ومن قبله لايظهرون إلا نادرا، ولم تطل مدته في الخلافة غير تسعة أشهر.....

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

فيها سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق، ونازل حمص، وكان قد اتفق مع جلال الدين ابن خوارزم شاه ومع مظفر

الـدين صـاحب إربـل على أن يكونـوا يدا واحـدة، وكان الملـك الأشرف ببلاده الشرقية، ثم رحل المعظم عـن حمص إلى دمشق بسبب كثرة مامات من خيلـه وخيل عسكـره، وورد عليه أخـوه الملك الأشرف طلبـا للصلح وقطعا للفتـن فبقي مكـرما ظاهـرا، وهو في الباطـن كالأسير معـه، وأقام الملك الأشرف عنـد أخيه المعظم إلى أن انقضـت هذه السنة، وأمـا الملك الكامـل فإنه كـان بمصر وقد تخيـل من بعض عسكـره فما أمكنه الخروج عنها.

وفي هذه السنـة فتح السلطان جـلال الديـن تفليس من الكـرج وهي من المدن العظـام، وفي هذه السنة سار جـلال الدين ونازل خـلاط وهي منازلته الأولى، فطـال القتال بينهم وكان نـائب الأشرف بخلاط الحاجب حسـام الديـن علي الموصلي، وكان نـزولـه عليها ثـالث عشر ذي القعـدة ورحل عنها لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة بسبب كثرة الثلوج.

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

وفي رابـع عشر رجب مـن هذه السنـة توفي الخليفـة الظاهـر بأمـر الله محمد بن الناصر لـدين الله، وكان متواضعا محسنا إلى الـرعية جدا، وأبطل عدة مظالم، منهـا أنه كان بخزانة الخليفـة صنجة زائدة يقبضون بها المال ويعطون بـالصنجة التي يتعامـل بها الناس، وكان زيادة الصنجـة في كل دينار حبـة، فخرج توقيـع الظاهر بـإبطال ذلك وأولـه: (ويل للمطففين. الـذيـن إذا اكتـالـوا على النـاس يستوفـون. وإذا كـالـوهـم أو وزنـوهـم يخسرون)(المطففون ١ ـــ٣) وعمـل صنجه المخزن مثـل صنجة المسلمين، وكان مضـادا لأبيه الناصر في كثير مـن أحواله منهـا أن مدة خلافـة أبيه كـانت طـويلة، ومـدة خلافتـه كانـت قصيرة، وكان أبـوه متشيعا، وكـان الظاهر سنيا، وكـان أبوه ظالما جماعا للمال، وكان الظاهـر في غـاية العدل وبذل الأموال للمحبوسين على الديون وللعلماء.

ذكر خلافة المستنصر

وهو سادس ثلاثينهم، ولما توفي الظاهر ولي الخلافة بعده ولده الأكبر المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، وكان للظاهر ولد آخر يقال له الخفاجي في غاية الشجاعة، وبقي حيا حتى أخذت التتر بغداد، وقتل مع من قتل، ولما تولى المستنصر الخلافة سلك في العدل والإحسان مسلك ابيه الظاهر.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة سار علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى بلاد الملك المسعود الأرتقي صاحب آمد، فنزل كيقباذ بملطية وهي من بلاد كيقباذ، وأرسل عسكرا ففتحوا حصن منصور وحصن الكختا، وكانا لصاحب آمد المذكور.

وفيها في خامس عشر الحجة نازل جلال الدين مدينة خلاط وهي للملك الأشرف وبها نائبه حسام الدين علي الحاجب، وهي منازلته الثانية، وجرى بينهم قتال شديد، وأدركه البرد، فرحل عنها في السنة المذكورة.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

والملك الكامل بديار مصر، وجلال الدين خوارزم شاه مالك أذربيجان وأران، وبعض بلاد الكرج، وعراق العجم وغيرها، وهو موافق الملك المعظم على حرب أخويه الكامل والأشرف، والرسل لاتنقطع بين المعظم وجلال الدين، والملك الأشرف مقيم كالأسير عند أخيه الملك المعظم، ولما رأى الملك الأشرف حاله مع أخيه المعظم، وأنه لاخلاص له منه إلا بإجابته إلى مايريد، أجابه كالمكره إلى ماطلبه منه، وحلف له أن

يعاضده، ويكون معه على أخيهما الملك الكامل، وأن يكون معه على صاحبي حماة وحمص، فلما حلف له على ذلك أطلقه الملك المعظم، فرحل الملك الأشرف في جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت مدة مقامه مع المعظم نحو عشرة أشهر، ولما استقر الملك الأشرف ببلاده رجع عن جميع ماتقرر بينه وبين أخيه الملك المعظم، وتأول في أيمانه التي حلفها أنه مكره، ولما تحقق الملك الكامل اعتضاد أخيه الملك المعظم بجلال الدين خاف من ذلك، وكاتب الانبرطور ملك الفرنج في أن يقدم إلى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه، ووعد الانبرطور بأن يعطيه القدس، فسار الانبرطور إلى عكا، فبلغ المعظم ذلك فكاتب أخاه الأشرف واستعطفه، وفي هذه السنة انتزع الاتابك طغريل الشغر وبكاس من الملك الصالح أحمد ابن الملك الظاهر، وعوضه عنها بعينتاب والراوندان.

وفيها سار الحاجب حسام الدين علي، نائب الملك الأشرف بخلاط بعساكر الملك الأشرف إلى بلاد جلال الدين واستولى على: خوي، وسلماس، ونقجوان.

ذكر وفاة الملك المعظم صاحب دمشق

في هـذه السنة في ذي القعـدة تـوفي الملك المعظـم عيسـى ابن الملـك العـادل أبي بكر بـن أيـوب بقلعة دمشـق بـالدوسنطـاريـا، وعمره تسـع وأربعـون سنـة، وكانـت مـدة ملكـه دمشـق تسع سنين وشهـورا، وكـان شجـاعـا، وكان عسكـره في غـايـة التجمـل، وكـان يجامل أخـاه الملـك الكامـل، ويخطب لـه ببلاده، ولايـذكر اسمـه معه، وكـان الملك المعظـم قليل التكلـف جدا في غـالـب الأوقات لايـركـب بالسنـاجق السلطـانية، وكان يـركـب وعلى رأسه كلـوته صفراء بـلا شاش، ويتخرق الأسـواق من غير أن يطرق بين يـديه، كما جـرت عادة الملوك، ولما كثـر مثل هـذا منه صار الانسان إذا فعـل أمرا لايتكلف له يقـال قد فعله بالمعظمـي، وكان عالما فاضـلا في الفقه والنحو، وكان شيخـه في النحو تاج الديـن زيد بن الحسن الكنـدي، وفي الفقه جمال الديـن الحصيري، وكان حنفيـا متعصبا لمذهبـه، وخالـف جميع أهـل بيته فـإنهم كانـوا شافعيـة، ولما توفي الملـك المعظم تـرتب في مملكته وأعمالها بعـده ولده الملـك الناصر صلاح الـدين داود، وقام بتدبير مملكتـه مملوك والده وأستاذ داره الأمير عز الـدين أيبك المعظمي، وكان لأيبك المذكور صرخد.........

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

في هذه السنـة أرسل الملـك الكامـل، صاحـب مصر، يطلب مـن ابن أخيـه الملـك الناصر داود ابـن الملـك المعظـم صـاحب دمشـق حصـن الشوبـك، فلم يعطـه الملك النـاصر ذلك، ولاأجـابه إليـه، فسار الملـك الكـامـل من مصر في هـذه السنـة في رمضـان إلى الشام، ونـزل على تـل العجول بظاهر غزة، وولى على نابلس والقـدس وغيرهما من بلاد ابن أخيه الملك النـاصر داود المذكور صاحب دمشـق حينئذ، وكان صحبـة الملك الكامـل الملك المظفر محمود بـن السلطان الملك المنصور صـاحب حماة،

وهـو موعـود من الملـك الكامـل انه ينتـزع حماة من أخيـه الناصر قليـج أرسلان ابن الملك المنصور ويسلمها إليه.

ولما قصد الملك الكامل انتزاع بلاد الملـك الناصر ابن المعظم صاحب دمشق استنجد الناصر داود بعمه الملـك الأشرف، وأرسل إليه وهو ببلاده الشرقيـة، فقدم الملـك الأشرف إلى دمشـق، ودخـل هو والنـاصر داود إلى قلعة دمشق راكبين.

قال القـاضي جمال الديـن ابن واصـل: كنت إذ ذاك حـاضرا بدمشـق ورأيـت الملـك الأشرف راكبـا مع ابـن أخيـه، وعلى رأس الملـك الأشرف شـاش علـم كبير، ووسطـه مشدود بمنـديـل، وكـان وصـول الأشرف إلى دمشق في العشر الأخير مـن رمضان من هـذه السنة، ووصل إلى خـدمته بدمشق الملك المجاهد شيركـوه، فإنه كان من المنتمين إلى الملك الأشرف، ثـم وقـع الاتفـاق أن يسير الناصر داود وشيركـوه مـع الملـك الأشرف إلى نـابلس، فيقيـم الناصر داود بنـابلـس، ويتوجـه الملك الأشرف إلى أخيـه الكامل إلى غزة شافعا في ابـن أخيهما الناصر داود، ففعلوا ذلك ولما وصل الملك الأشرف إلى أخيه الكـامل وقع اتفاقهما في الباطـن على أخذ دمشق من ابـن أخيهما الناصر داود وتعويضـه عنها، بحران والـرها، والرقـة، من بـلاد الملك الأشرف، وأن تستقـر دمشق للملـك الأشرف، ويكون لـه إلى عقبة أفيـق، وماعـدا ذلك مـن بلاد دمشـق يكون للملـك الكامـل، وان تنتزع حماة مـن الملك الناصر قليج أرسـلان وتعطى للملك المظفـر محمود ابن الملك المنصور وأن تنتزع سلمية من المظفـر محمود، وكانت اقطاعه لما كان مقيما بمصر عنـد الملك الكـامل، وتعطـى لشيركوه صـاحب حمص، وخرجـت السنة والأشرف عند أخيـه الكامل بظـاهر غزة، وقـد اتفقا على ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة عاود التتر إلى قصد البلاد التي بيد جلال الدين بن خوارزم شاه، وجرت بينه وبينهم حروب كثيرة كان في أكثرها الظفر للتتر.

وفيها قدم الانمبرطور إلى عكا بجموعه، وكان الملك الكامل قد أرسل إليه فخر الدين ابن الشيخ يستدعيه إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم، فوصل الانمبرطور وقد مات المعظم، فنشب به الملك الكامل، ولما وصل الانمبرطور استولى على صيدا وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج، وسورها خراب، فعمر الفرنج سورها، واستولوا عليها، والانمبرطور معناه ملك الأمراء بالفرنجية، وإنما اسم الانمبرطور المذكور فرديك، وكان صاحب جزيرة صقلية ومن البر الطويل بلاد انبولية والانبردية.

قال القاضي جمال الدين بن واصل: لقد رأيت تلك البلاد لما توجهت رسولا من الملك الظاهر بيبرس الصالحي إلى الانمبرطور ملك تلك البلاد، قال: وكان الانمبرطور من بين ملوك الفرنج فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب، مائلا إلى المسلمين لأن منشأة بجزيرة صقلية، وغالب أهلها مسلمون، وترددت الرسل بين الملك الكامل وبين الانمبرطور إلى أن خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة بعد فراغ جلال الدين من التتر قصد جلال الدين المذكور بلاد خلاط ونهب القرى وقتل وخرب البلاد وفعل الأفعال القبيحة.............

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

ولما جرى بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف الاتفاق على نزع دمشق من الناصر داود، وبلغ الناصر داود ذلك، وهو

بنابلس، فرحل إلى دمشق وكان قد لحقه بالغور عمه الملك الأشرف وعرفه ماأمر به عمه الملك الكامل، وأنه لايمكنه الخروج عن مرسومه، فلم يلتفت الناصر داود إلى ذلك، وسار إلى دمشق، وسار الأشرف في أثره، وحصره بدمشق، والملك الكامل مشتغل بمراسلة الانمبرطور إلى تسليم القدس إليه على أن تستمر أسواره خرابا، ولايعمرها الفرنج، ولايتعرضوا إلى قبة الصخرة، ولا إلى الجامع الأقصى، ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين، ويكون لهم من القرايا ماهو على الطريق من عكا إلى القدس فقط، ووقع الاتفاق على ذلك، وتحالفا عليه وتسلم الانمبرطور القدس في هذه السنة في ر بيع الآخر على هذه القاعدة التي ذكرناها، وكان ذلك والملك الناصر محصور بدمشق، وعمه الأشرف محاصره بأمر الملك الكامل، فأخذ الناصر داود في التشنيع على عمه بذلك، وكان بدمشق الشيخ شمس الدين يوسف سبط أبي الفرج ابن الجوزي، واعظا وله قبول عند الناس، فأمره الناصر داود بعمل مجلس وعظ يذكر فيه فضائل بيت المقدس، وماحل بالمسلمين من تسلميه إلى الفرنج، ففعل ذلك وكان مجلسا عظيما، ومن جملة ماأنشد قصيدة تائية ضمنها بيت دعبل الخزاعي وهو:

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات

فارتفع بكاء الناس وضجيجهم.

ذكر انتزاع دمشق

ولما عقد الملك الكامل الهدنة مع الانمبرطور وخلا سره من جهة الفرنج سار إلى دمشق، ووصل إليها في جمادى الأولى من هذه السنة، واشتد الحصار على دمشق، ووصل إلى الملك الكامل رسول الملك العزيز صاحب حلب، وخطب بنت الملك الكامل فزوجه بنته فاطمة خاتون

التي هي من الست السوداء أم ولده أبي بكر العادل بن الكامل، ثم استولى الملك الكامل على دمشق، وعوض الناصر داود عنها: بالكرك، والبلقاء، والصلت، والأغوار، والشوبك، وأخذ الملك الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينت للناصر، وهي: حران، والرها، وغيرهما التي كانت بيد الملك الأشرف، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل في قبولها فقبلها، وتسلم دمشق الملك الأشرف، وتسلم الكامل من الأشرف البلاد الشرقية المذكورة..........

ذكر القبض على الحاجب علي نائب الملك الأشرف بخلاط وقتله

وفي هذه السنة أرسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك الأشرفي، وهو أكبر أمير عنده، إلى خلاط فقبض على الحاجب علي الموصلي وحبسه ثم قتله، وكان حسام الدين علي الحاجب المذكور، من أهل الموصل، وخدم الملك الأشرف فجعله نائبه بخلاط فأحسن إلى الرعية وحفظ البلد، واستولى على عدة بلاد من أذربيجان مثل نقجوان وغيرها على ماتقدم ذكره، فقبض عليه الملك الأشرف وقتله، وهذا الحاجب حسام الدين المذكور كان كثير الخير والمعروف، بنى الخان الذي بين حران ونصيبين، وبنى الخان الذي بين حمص ودمشق، وهو الخان المعروف بخان بريج العطش، وهرب مملوك لحسام الدين الحاجب المذكور لما قتل استاذه ولحق بجلال الدين، فلما ملك جلال الدين خلاط على ماسنذكره قبض على أيبك المذكور وسلمه إلى المذكور، فقتله وأخذ بثأر استاذه.

ذكر استيلاء الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد على حماة

ولما سلم الملك الكامل دمشق إلى أخيه الملك الأشرف، سار من دمشق ونزل على مجمع المروج، ثم نزل سلمية، وأرسل عسكرا نازلوا حماة وبها صاحبها الملك الناصر قليج أرسلان، وكان فيه جبن، ولو عصى بحماة وطلب عنها عوضا كثيرا لأجابه الملك الكامل إليه، ولكنه خاف، وكان في العسكر الذين نازلوه شيركوه صاحب حمص، فأرسل الناصر صاحب حماة يقول لشيركوه: إني أريد أن أخرج إليك بالليل لتحضرني عند السلطان الملك الكامل، وخرج الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفرتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب المذكور إلى شيركوه في العشر الأخير من رمضان هذه السنة، وأخذه شيركوه ومضى به إلى الملك الكامل، وهو نازل على سلمية فحين رأى الملك الكامل قليج أرسلان المذكور شتمه وأمر باعتقاله، وأن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الملك الكامل، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلموها إلى عسكر السلطان الملك الكامل، فامتنع من ذلك الطواشيان بشر ومرشد المنصوريان، وكان بقلعة حماة أخ للملك الناصر يلقب الملك المعز ابن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة، وقالوا للملك الكامل لانسلم حماة لغير أحد من أولاد تقي الدين، فأرسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة اتفق مع غلمان أبيك وتسلم حماة، وكان الملك المظفر نازلا على حماة من جملة العسكر الكاملي، فراسل الملك المظفر الحكام بحماة فحلفوا ووعدوا الملك المظفر أن يحضر بجماعته خاصة وقت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له، فحضر الملك المظفر سحر الليلة التي عينوها ففتحوا له باب النصر،ودخل الملك المظفر ومضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الاكرام داخل باب المغار، وهي الآن مدرسة تعرف بالخاتونية، وقفتها عمة مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور،

وحضر أهل حماة وهنـؤوا الملك المظفر بملك حماة، وكـان ذلك في العشر الأخير من رمضـان من هذه السنة، وكـان مدة ملك الملك النـاصر قليج أرسـلان حماة تسع سنين إلا نحـو شهـريـن، وأقام الملـك المظفـر في دار الإكرام يـومين، وصعد في اليـوم الثالث إلى القلعـة وتسلمها، وجـاء عيد الفطر من هذه السنـة والملك المظفر مالك حماة، وعمره يـومئذ نحو سبع وعشرين سنة لأن مـولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكـان أخوه الملك الناصر قليج أرسلان أصغر منه بسنـة، ولما ملك الملك المظفر حماة فوض تدبير أمورهـا صغيرها وكبيرها إلى الأمير سيف الديـن علي الهذباني، وكان سيف الـدين علي ابن أبي علي المذكـور، قد خـدم الملك المظفر بعـد ابن عمه حسام الدين ابن أبي علي الـذي كان نائب الملك المظفر بسلمية، لما سلمت إليه وهو بمصر، عند الملك الكـامل، ثم حصل بين الملك المظفر وبين حسـام الديـن ابن أبي علي وحشـة، ففارقـه حسام الـدين المذكـور واتصل بخـدمة الملك الصـالح نجم الـدين أيـوب ابن الملك الكـامل، وحظـي عنـده وصـار استـاذ داره، وخدم ابـن عمـه سيـف الـديـن علي المذكور الملك المظفر ، وكان يقول لـه: اشتهى أراك صاحب حماة، وأكون بعين واحـدة فأصيبت عين سيف الـديـن علي على حصار حماة لما نـازلها عسكر الملك الكامل، وبقي بفرد عين، فحظـي عند الملك المظفر لذلك، ولكفاية سيف الدين المذكور وحسن تدبيره.

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة انتزع الملـك الكامل سلمية منه، وسلمها إلى شيركوه صاحب حمص على ماكـان وقع عليه الاتفاق من قبل ذلك، ثـم إن الملك الكـامل رسـم للملك المظفـر أن يعطى أخـاه الملك الناصر قليج أرسلان بـارين بكمالها، فامتثل ذلك، وسلم قلعـة بارين إلى أخيـه الملك النـاصر، ولم يبـق بيد الملـك المظفـر غير حماة والمعرة، وكـان بحماة تقديـر أربعمائة ألف درهـم للملك الناصر، وكـان قد رسـم الملك الكامل للملك المظفر أن يعطي المال المذكـور أخاه الملك الناصر، فماطل المظفـر في ذلك ولم يحصـل للملـك النـاصر من ذلـك شيء، ولما استقـر

الملك المظفر بحماة مدحه الشيخ شرف الدين عبد العزيز محمد بن عبد المحسن الأنصاري الدمشقي بقصيدة من جملتها:

تناهى إليك الملك واشتد كاهله
وحل بك الراجي فحطت رواحله

ترحلت عن مصر فأمحل ربعها
ولما حللت الشام روض ماحله

وعزت حماة في حمى أنت غابه
بصولته تحمي كليب ووائله

وقد طال ما ظلت بتدبير أهوج
يخيب مرجيه ويحرم سائله

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة، رحل الملك الكامل عن سلمية إلى البلاد الشرقية التي أخذها من أخيه الملك الأشرف عوضا عن دمشق، فنظر في مصالحها، ثم سافر الملك المظفر من حماة ولحق الملك الكامل وهو بالشرق، وعقد له الملك الكامل العقد هناك على ابنته غازية خاتون بنت الملك الكامل، وهي شقيقة الملك المسعود صاحب اليمن، وهي والدة الملك المنصور صاحب حماة، وأخيه الملك الأفضل نور الدين علي ابني الملك المظفر محمود ، ثم عاد الملك المظفر إلى حماة وقد قضيت أمانيه بملك حماة ووصلته بخاله الملك الكامل، وكان يتمنى ذلك لما كان بالديار المصرية، وكان يصحبه وهو بمصر رجل من أهلها يقال له الزكي القومصي، فاتفق وهما بمصر وقد جرى ذكر ملك الملك المظفر حماة وزواجه بنت خاله الملك الكامل فأنشده الزكي القومصي:

متى أراك كما أهوى وأنت ومن
تهوى كأنكما روحان في بدن

هناك أنشد والأقدار مصغية
هنيت بالملك والأحباب والوطن

فقال له الملك المظفر: إن صار ذلك يازكي أعطيتك ألف دينار

مصرية، فلما ملـك الملك المظفر حماة أعطـى الزكـي ماوعده بـه، ولما فرغ الملك الكـامل مـن تقريـر أمر البلاد الشرقيـة وهي: حـران ومامعهـا من البلاد مثل: رأس عين، والرها، وغير ذلك عاد إلى الديار المصرية.

وفي هـذه السنـة أرسـل الملك الأشرف أخـاه صـاحـب بصرى الملـك الصالح اسماعيـل بن الملك العادل بعسكر فنازل بعلبـك، وبها صاحبها الملـك الأمجد بهرام شاه بـن فـرخشـاه بن شـاهنشـاه بـن أيوب واستمـر الحصار عليه.

وفيها سـار جلال الـدين ملك الخوارزميـة وحاصر خـلاط وبها أيبك نائب الملك الأشرف إلى أن خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

ذكر عمارة شميميس

في هذه السنـة شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعـة شمَيميس، وكـان لما سلـم إليـه الملـك الكـامل سلمية قـد استـأذنـه في عمارة تـل شميميـس قلعـة، فأذن لـه بـذلـك، ولما أراد شيركوه عمارتـه أراد الملـك المظفر صاحب حماة منعـه من ذلك، ثم لم يمكنه ذلك لكونـه بأمر الملك الكامل.

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفي هذه السنة سلـم الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بـن شاهنشاه ابن أيـوب بعلبك إلى الملك الأشرف لطول الحصـار عليه، وعوضـه الملك الأشرف عنها الـزبداني وقصير دمشـق الذي هو شماليهـا ومواضـع أخر،

وتوجه الملك الأمجد وأقام بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة، وهي التي ينزلها النواب.

ذكر مقتل الملك الأمجد

لما أخذ منه بعلبك ونزل بداره المذكورة كان قد حبس بعض مماليكه في مرقد عنده بالدار، وجلس الملك الأمجد قدام باب المرقد يلعب بالنرد، ففتح المملوك المذكور الباب ومعه سيف وضرب به استاذه الملك الأمجد فقتله، ثم طلع المملوك الى سطح الدار وألقى نفسه الى وسطها فمات، ودفن الملك الأمجد بمدرسة والده التي على الشرف، وكانت مدة ملكه بعلبك تسعا وأربعين سنة، لأن عم أبيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملكه بعلبك سنة ثمان وسبعين وخمسمائة لما مات أبوه فرخشاه، وانتزعت منه هذه السنة فذلك خمسون سنة إلا سنة، وكان الملك الأمجد أشعر بني أيوب وشعره مشهور.

ذكر ملك جلال الدين خلاط

في هذه السنة لما طال حصار جلال الدين على خلاط واشتد مضايقتها هجمها بالسيف، وفعل في أهلها مايفعلونه التتر من القتل والاسترقاق والنهب ثم قبض على نائب الملك الأشرف بها، وهو مملوكه أيبك، وسلمه إلى مملوك حسام الدين الحاجب علي الموصلي، فقتله وأخذ بثأر أستاذه.

ذكر كسرة جلال الدين من الملك الأشرف

ولما جرى من جلال الدين ماجرى من أخذ خلاط اتفق صاحب الروم كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان والملك الأشرف ابن الملك العادل، فجمع الملك الأشرف عساكر الشام وسار إلى سيواس، واجتمع

فيها بملك بلاد الروم علاء الدين كيقباذ المذكور، وسار إلى جهة خلاط والتقى الفريقان في التاسع والعشرين من رمضان من هذه السنة، فولى الخوارزميون وجلال الدين منهزمين، وهلك غالب عسكره قتلا وترديا من رؤوس جبال كانت في طريقهم، وضعف جلال الدين بعدها، وقويت عليه التتر، وارتجع الملك الأشرف خلاط وهي خراب يباب، ثم وقعت المراسلة بين الملك الأشرف وكيقباذ وجلال الدين وتصالحوا وتحالفوا على مابأيديهم، وأن لايتعرض أحد منهم إلى مابيد الآخر.

وفي هذه السنة استولى الملك المظفر غازي ابن الملك العادل على أرزن من ديار بكر، وهي غير أرزن الروم، وكان صاحب أرزن ديار بكر يقال له حسام الدين من بيت قديم في الملك، فأخذها منه الملك المظفر غازي المذكور وعوضه عن أرزن بمدينة حاني، وهذا حسام الدين من بيت كبير يقال لهم بيت الأحدب، وأرزن لم تزل بأيديهم من أيام السلطان ملك شاه السلجوقي إلى الآن فسبحان من لايزول ملكه.

وفيها جمعت الفرنج من حصن الأكراد وقصدوا حماة، فخرج إليهم الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة والتقاهم عند قرية بين حماة وبارين يقال لها لفيون، وكسرهم كسرة عظيمة، ودخل الملك المظفر محمود حماة مؤيدا منصورا.

وفيها ولد الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

والسلطان الملك الكامل بديار مصر، وأخوه الملك الأشرف بدمشق في ملاذه، وقد تخلى عن البلاد الشرقية، فإن حران ومامعها صارت لأخيه الملك الكامل ، وخلاط صارت خرابا يبابا، ولم يكن للملك الأشرف ابن ذكر، فاقتنع بدمشق واشتغل باللهو والملاذ، وفيها سار الملك الأشرف من

دمشق إلى عند أخيه الملك الكامل، وأقام عنده بالديار المصرية متنزها.

ذكر قصد التتر بلاد الاسلام

وفي هذه السنة عاودت التتر قصد بلاد الاسلام، وسفكوا وخربوا مثل ماتقدم ذكره، وكان قد ضعف جلال الدين لقبح سيرته، وسوء تدبيره، ولم يترك له صديقا من ملوك الأطراف، وعادى الجميع، وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلف عليه لما حصل لجلال الدين من فساد عقله، وسببه أنه كان له مملوك يحبه محبة شديدة، واتفق موت ذلك المملوك، فحزن عليه حزنا شديدا لم يسمع بمثله، وأمر أهل توريز بالخروج والنواح واللطم عليه، وكان إذا قدم إليه الطعام يرسل منه إلى المملوك الميت ولا يتجاسر احد أن يتفوه أنه ميت، فكانوا يحملون إليه الطعام ويقولون إنه يقبل الأرض وهو يقول: إني الآن أصلح مما كنت، فأنف أمراؤه من ذلك، وخرج بعضهم عن طاعته، فضعف امر جلال الدين لذلك ولكسرته من الملك الأشرف، فتمكنت التتر من البلاد، واستولوا على مراغة، وهو استيلاؤهم الثاني.

ذكر قتل جلال الدين

ولما تمكن التتر من بلاد أذربيجان، سار جلال الدين يريد ديار بكر ليسير إلى الخليفة ويلتجىء إليه، ويعتضد بملوك الأطراف على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم، فنزل بالقرب من آمد فلم يشعر إلا والتتر قد كبسوه ليلا وخالطوا مخيمه، فهرب جلال الدين وقتل على مانشرحه إن شاء الله تعالى، ولما قتل تمكنت التتر من البلاد، وساقوا حتى وصلوا في هذه السنة إلى الفرات، واضطرب الشام بسبب وصولهم إلى الفرات ، ثم شنوا الغارات في ديار بكر والجزيرة، وفعلوا من القتل والتخريب مثل ماتقدم..........

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

والسلطانان الكامل والأشرف بالديار المصرية، والملك المظفر بحماة مالكها ومعها المعرة، وأخوه الملك الناصر قليج أرسلان ببارين مالكها، والعزيز محمد بن الظاهر غازي قد استقل بملك حلب والتتر قد استولوا على بلاد العجم كلها، والخليفة المستنصر بالعراق، ثم ارتحل في هذه السنة الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف من ديار مصر وسارا إلى البلاد الشرقية، فسار الملك الكامل إلى الشوبك واحتفل له الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب احتفالا عظيما بالضيافات والاقامات والتقادم، وحصل بينهما الاتحاد التام، وكان نزول الملك الكامل باللجون قرب الكرك، وهي منزلة الحجاج،في العشر الأخير من شعبان هذه السنة ووصل إليه باللجون صاحب حماة الملك المظفر محمود ملتقيا، وسافر الناصر داود مع الملك الكامل بعسكره إلى دمشق، واستصحب الملك الكامل معه ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وجعل نائبه بمصر ولده وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبا بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، ثم سار الملك الكامل سيف الدين أبا بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، ثم سار الملك الكامل ونزل سلمية واجتمع معه ملوك أهل بيته في جمع عظيم، ثم سار بهم إلى آمد وحصرها، وتسلمها من صاحبها الملك المسعود بن الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود ابن سقمان بن أرتق، ومحمد بن قرا أرسلان المذكور هو الذي ملكه السلطان صلاح الدين آمد بعد انتزاعها من ابن نيسان، وكان سبب انتزاع الملك الكامل آمد من الملك المسعود المذكور لسوء سيرة الملك المسعود وتعرضه لحريم الناس، وكان له عجوز قوادة يقال لها الازاء، تؤلف بينه وبين نساء الناس الأكابر، ونساء الملوك، ولما نزل الملك المسعود إلى خدمة الملك الكامل وسلم آمد وبلادها إليه ومن جملة معاقلها حصن كيفا وهو في غاية الحصانة، أحسن الملك الكامل إلى

الملك المسعود وأعطاه اقطاعات جليلة بديار مصر، ثم بدت منه أمور اعتقله الملك الكامل بسببها، ولم يزل الملك المسعود معتقلا إلى أن مات الملك الكامل، فخرج من الاعتقال، واتصل بحماة فأحسن إليه الملك المظفر محمود صاحب حماة، ثم سافر الملك المسعود المذكور الى الشرق واتصل بالتتر فقتلوه، ولما تسلم الملك الكامل آمد وبلادها رتب فيها النواب من جهته، وجعل فيها ولده الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وجعل معه شمس الدين صواب العادلي، وخرجت هذه السنة والملك الكامل بالشرق، ولما خرج الملك الكامل من مصر في هذه السنة خرج صحبته بنتاه فاطمة خاتون زوجة الملك العزيز صاحب حلب، وغازية خاتون زوجة الملك المظفر صاحب حماة بنتا الملك الكامل، وحملت كل منهما إلى بعلها، واحتفل لدخولهما بحماة وحلب.......

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة

في هذه السنة رجع السلطان الملك الكامل من البلاد الشرقية بعد ترتيب أمورها، وسار إلى ديار مصر، ورجع كل ملك إلى بلده.

ذكر استيلاء الملك العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب على شيزر

وكانت شيزر بيد شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين عثمان بن الداية، وكان سابق الدين عثمان بن الداية المذكور واخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكي، ثم اعتقل الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الشهيد سابق الدين عثمان ابن الداية وشمس الدين أخاه، فأنكر السلطان صلاح الدين عليه ذلك، وجعله حجة لقصد الشام وانتزاعه من الملك الصالح اسماعيل، فاتصل أولاد الداية بخدمة السلطان صلاح الدين، وصاروا من أكبر أمرائه، وكانت شيزر

اقطاع سابق الدين المذكور، فأقره السلطان صلاح الدين عليها وزاده أبا قبيس لما قتل صاحبها خمارتكين، ثم ملك شيزر بعده ولده مسعود بن عثمان حتى مات، وصارت لولده شهاب الدين يوسف المذكور إلى هذه السنة، فسار الملك العزيز صاحب حلب بأمر الملك الكامل وحاصر شيزر، وقدم إليه وهو على حصارها الملك المظفر محمود صاحب حماة مساعدا له، فسلم شهاب الدين يوسف شيزر إلى الملك العزيز، ونزل إلى خدمته، فتسلمها في هذه السنة، وهنى الملك العزيز يحيى بن خالد بن القيسراني بقوله:

يا مالكا عم أهل الأرض نائله
وخص إحسانه الداني مع القاصي

لما رأت شيزر آيات نصرك في
أرجائها ألقت العاصي إلى العاصي

ثم ولى الملك العزيز على شيزر، وأحسن إلى الملك المظفر محمود صاحب حماة، ورحل كل منهما إلى بلده.

وفي هذه السنة استأذن الملك المظفر محمود صاحب حماة الملك الكامل في انتزاع بارين من أخيه قليج أرسلان لأنه خشي أن يسلمها إلى الفرنج، لضعف قليج أرسلان عن مقاومتهم، فأذن الملك الكامل له في ذلك، فسار الملك المظفر من حماة وحاصر بارين وانتزعها من أخيه قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولما نزل قليج أرسلان إلى أخيه الملك المظفر أحسن إليه وسأله في الاقامة عنده بحماة فامتنع، وسار إلى مصر، فبذل له الملك الكامل اقطاعا جليلا وأطلق له أملاك جده بدمشق، ثم بدا منه مالا يليق من الكلام فاعتقله الملك الكامل إلى أن مات قليج أرسلان المذكور في الحبس سنة خمس وثلاثين وستمائة، قبل موت الملك الكامل بأيام.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة توفي مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين علي كجك، وقد تقدم ذكر ملكه إربل بعد موت أخيه نور الدين يوسف بن زين الدين علي في سنة ست وثمانين وخمسمائة، لما كانا في خدمة السلطان صلاح الدين في الجهاد بالساحل، فبقي مالكها من تلك السنة إلى هذه السنة، ولما مات مظفر الدين المذكور لم يكن له ولد فوصى بإربل وبلادها للخليفة المستنصر، فتسلمها الخليفة بعد موت مظفر الدين المذكور، وكان مظفر الدين ملكا شجاعا وفيه عسف في استخراج الأموال من الرعية، وكان يحتفل بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، وينفق فيه الأموال الجليلة.

وفيها في شعبان توفي الشيخ عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر في رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ونشأ بها ثم سار إلى الموصل مع والده وأخوته، وسمع بها من أبي الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي، ومن في طبقته، وقدم بغداد مرارا حاجا ورسولا من صاحب الموصل وسمع من الشيخين يعيش بن صدقة، وعبد الوهاب بن علي الصوفي وغيرهما، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة، ثم عاد إلى الموصل وانقطع في بيته للتوفر على العلم، وكان إماما في علم الحديث، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيرا بأنساب العرب وأخبارهم، صنف في التاريخ كتابا كبيرا سماه الكامل، وهو المنقول منه غالب هذا المختصر ابتدأ فيه من أول الزمان إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وله كتاب أخبار الصحابة في ست مجلدات، واختصر كتاب الانساب للسمعاني وهو الموجود في أيدي الناس دون كتاب السمعاني، وورد إلى حلب في سنة ست وعشرين وستمائة ونزل عند الطواشي طغريل الأتابك بحلب، فأكرمه إكراما زائدا، ثم سافر إلى

دمشق سنة سبع وعشرين، ثم عاد إلى حلب في سنة ثمان وعشرين، ثم توجه إلى الموصل فتوفي بها في التاريخ المذكور، ونسبة الجزيرة إلى ابن عمر، وهو رجل من أهل برقعيد من أعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر بنى هذه المدينة فأضيفت إليه.

ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وستمائة

في هذه السنة في المحرم توفي شهاب الدين طغريل الأتابك بحلب.

ذكر مسير السلطان الملك الكامل من مصر إلى قتال كيقباذ ملك بلاد الروم

في هذه السنة وقع من كيقباذ بن كيخسرو، ملك بلاد الروم التعرض إلى بلاد خلاط، فرحل الملك الكامل بعساكره من مصر، واجتمعت عليه الملوك من أهل بيته، ونزل شمالي سلمية في شهر رمضان من هذه السنة، ثم سار بجموعه ونزل على النهر الأزرق في حدود بلد الروم، وقد ضرب في عسكره ستة عشر دهليزا، لستة عشر ملكا في خدمته منهم أخوته: الملك الأشرف موسى صاحب دمشق، والملك المظفر غازي صاحب ميافارقين، والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر، والصالح اسماعيل أولاد الملك العادل، والملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين ، كان قد أرسله ابن أخيه الملك العزيز صاحب حلب مقدما على عسكر حلب إلى خدمة السلطان الملك الكامل، والملك الزاهر صاحب البيرة داود بن السلطان صلاح الدين، وأخوه الملك الأفضل موسى صاحب سميساط ابن السلطان صلاح الدين، وكان قد ملكها بعد أخيه الملك الأفضل علي، والملك المظفر محمود صاحب حماة

ابـن الملك المنصـور محمد، والملـك الصالـح أحمد صاحـب عينتاب ابـن الملك الظاهـر صاحب حلب، والملـك الناصر داود صاحب الكـرك ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، والملـك المجاهد شيركوه صاحب حمص ابـن محمد بـن شيركـوه، وكان قـد حفظ كيقبـاذ ملـك بلاد الـروم الدربندات بالرجال والمقاتلة، فلـم يتمكن السلطان من الدخول إلى بلاد الروم مـن جهة النهـر الأزرق، وأرسل بعـض العسكر إلى حصـن منصور وهو مـن بلاد كيقباذ فهدمـوه، ورحل السلطان وقطع الفـرات، وسار إلى السويـدا، وقدم جـاسته تقـدير ألفين وخمسمائة فـارس مع الملـك المظفر صاحـب حماة، فسار الملـك المظفر بهم إلى خـرتبرت، وسار كيقبـاذ ملك الـروم إليهـم واقتتلـوا فانهزم العسكـر الكـاملي، وانحصر الملـك المظفـر صاحب حماة في خرتبرت مع جملة مـن العسكر، وجد كيقباذ في حصارهم والملـك الكامـل بـالسويـدا، وقد أحـس مـن الملوك الـذيـن في خدمتـه بالمخـامرة والتقاعـد، فإن شيركوه صـاحب حمص سعى إليهـم، وقال إن السلطان ذكـر أنه متـى ملك بـلاد الروم فرقها على الملـوك من أهـل بيته عوض مـابأيـدهم مـن الشام، ويأخـذ الشام جميعـه لينفرد بملـك الشام ومصر، فتقاعدوا عن القتـال وفسدت نياتهم وعلم الملك الكامـل بذلك، فما أمكنه التحرك إلى قتـال كيقباذ لذلك ودام الحصـار على الملك المظفر صاحب حماة، فطلب الأمان فأمنه كيقباذ، ونـزل إليه الملك المظفر فأكرمه كيقباذ وخلع عليه ونـادمه وتسلم كيقباذ خرتبرت وأخذهـا من صاحبها، وكان مـن الأرتقية قـرايب أصحـاب ماردين، وكان قـد دخل في طـاعة الملـك الكامـل، وصارت خـرتبرت من بـلاد كيقباذ، وكـان نزول المظفـر صاحـب حماة من خرتبرت يوم الأحـد لسبع بقين من ذي القعـدة، وأقام عند كيقباذ يومين، ثم أطلقه وسـار من عنده لخمس بقين من ذي القعدة من هذه السنـة، أعني سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ووصـل بمن معه إلى الملك الكامل وهـو بالسويدا من بلاد آمد ففرح بـه، وقوى نفرة السلطان الملك الكامل يومئذ من الناصر داود صـاحب الكرك، فألزمه بطلاق بنته فطلقها الناصر داود، وأثبت الملك الكامل طلاقها منه.

وفي هذه السنة استتم بناء قلعة المعرة، وكان قد أشار سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني على الملك المظفر صاحب حماة ببنائها، فبناها وتمت الآن وشحنها بالرجال والسلاح ولم يكن ذلك مصلحة، لأن الحلبيين حاصروها فيما بعد، وأخذوها وخربت المعرة بسببها..........

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

والملك الكامل بالبلاد الشرقية وقد انثنى عزمه عن قصد بلاد الروم للتخاذل الذي حصل في عسكره ، ثم رحل وعاد إلى مصر، وعاد كل واحد من الملوك إلى بلده.

وفيها: توفي الملك الزاهر داود صاحب البيرة ابن السلطان صلاح الدين ، وكان قد مرض في العسكر الكاملي، فحمل إلى البيرة مريضا وتوفي بها، وملك البيرة بعده ابن أخيه الملك العزيز محمد صاحب حلب، وكان الزاهر المذكور شقيق الظاهر صاحب حلب.

وفيها توفي القاضي بهاء الدين بن شداد في صفر، وكان عمره نحو ثلاث وتسعين سنة، وصحب السلطان صلاح الدين وكان قاضي عسكره، ولما توفي صلاح الدين كان عمر القاضي المذكور نحو خمسين سنة، ونال القاضي بهاء الدين المذكور من المنزلة عند أولاد صلاح الدين وعند الأتابك طغريل مالم ينلها أحد، ولم يكن في آبائه من اسمه شداد، بل لعل ذلك في نسب أمه فاشتهر به، وغلب عليه، وأصله من الموصل، وكان فاضلا دينا، وكان اقطاعة على الملك العزيز مايزيد على مائة ألف درهم في السنة.

وفيها: لما سارت الملوك إلى بلادهم من خدمة الملك الكامل، وصل الملك المظفر صاحب حماة ودخلها لخمس بقين من ربيع الأول من هذه

السنة، واتفق مولد ولده الملك المنصور محمد بعد مقدمه بيومين في الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فتضاعف السرور بقدوم الوالد والولد، قال الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد قصيدة طويلة في ذلك فمنها:

غدا الملك محروس الذرى والقواعد
بأشرف مولود لأشرف والد

حبينا به يوم الخميس كأنه
خميس بدا للناس في شخص واحد

وسميته باسم النبي محمد
وجديه فاستوفى جميع المحامد

أي باسم جديه الملك الكامل محمد والد والدته، والملك المنصور محمد صاحب حماة والد والده ومنها:

كأني به في سدة الملك جالسا
وقد ساد في أوصافه كل سائد

ووافاك من أبنائه وبينهم
بأنجم سعد نورها غير خامد

إلا أيها الملك المظفر دعوتي
ستوري بها زندي ويشتد ساعدي

هنيئا لك الملك الذي بقدومه
ترحل عنا كل هم معاود

وفيها: لما تفرقت العساكر الكاملية قصد كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم حران والرها وحاصرهما واستولى عليهما وكانا للسلطان الملك الكامل.

وفيها: توفي بالقاهرة القاسم بن عمر بن علي الحموي، المصري الدار،

المعروف بابـن الفارض، وله أشعار جيـدة منها قصيدته التـي عملها على طريقة الفقراء وهي مقدار ستمائة بيت.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

في هـذه السنـة سـار النـاصر داود مـن الكـرك إلى بغـداد ملتجئـا إلى الخليفة المستنصر، لما حصـل عنده مـن الخوف من عمـه الملك الكـامل، وقدم إلى الخليفـة تحفا عظيمة وجواهـر نفيسة، فأكرمـه الخليفة المستنصر، وخلع عليه وعلى أصحـابه، وكان الناصر داود يظـن أن الخليفة يستحضره في ملأ من الناس، كما استحضر مظفر الديـن صاحب إربل، فلم يحصل له ذلك، وألح في طلب ذلك من الخليفة، فلم يجبه.........

وكان الخليفة متـوقفا على استحضار داود رعاية لخاطر الملـك الكامل، فجمع بين المصلحتين واستحضره ليلا، ثم عاد الملك الناصر إلى الكرك.

وفي هـذه السنة: سـار السلطـان الملك الكـامـل من مصر إلى البـلاد الشرقيـة، واسترجع حـران والـرها مـن يـد كيقباذ صـاحـب بلاد الـروم، وأمسك أجناد كيقباذ ونـوابه الذين كانوا بهما وقيـدهم وأرسلهم إلى مصر، فلم يستحسـن ذلك منه، ثـم عاد الملك الكـامل إلى دمشق، وأقـام عند أخيه الملك الأشرف حتى خرجت هذه السنة........

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة

فيها عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية.

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب

وفي هذه السنـة كان قد خـرج الملك العزيز محمـد ابن الملك الظـاهر

غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى حارم للصيد ورمى البندق، واغتسل بماء بارد فحم ودخل إلى حلب وقد قويت به الحمى، واشتد مرضه وتوفي في ربيع الأول من هذه السنة، وكان عمره ثلاث وعشرين سنة وشهورا، وكان حسن السيرة في رعيته، ولما توفي تقرر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد، وعمره نحو سبع سنين، وقام بتدبير الدولة شمس الدين لؤلؤ الأرمني، وعز الدين عمر بن مجلي، وجمال الدولة إقبال الخاتوني والمرجع في الأمور إلى والدة الملك العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل.

وفي هذه السنة توفي علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم، وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق.

وفي هذه السنة قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف، وكان ابتداؤها مافعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الملك الكامل بلاد الروم، فاتفق الملك الأشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الملك الكامل،ومع باقي الملوك على خلاف الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماة، فلما امتنع تهدده الملك الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه، فقدم خوفا من ذلك إلى دمشق، وحلف للملك الأشرف ووافقه على قتال الملك الكامل، وكاتب الملك الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم، واتفق معه على قتال أخيه الملك الكامل إن خرج من مصر، وأرسل الملك الأشرف يقول للناصر داود صاحب الكرك: إنك إن وافقتني جعلتك ولي عهدي وأوصيت لك بدمشق، وزوجتك بابنتي، فلم يوافقه الناصر على ذلك لسوء حظه، ورحل إلى الديار المصرية إلى خدمة الملك الكامل، وصار معه على ملوك الشام، فسر به اللمك الكامل وجدد عقده على ابنته عاشور التي طلقها منه، وأركب الناصر داود بسناجق

السلطنة ووعـده انه ينتزع دمشقَ مـن الملك الأشرف أخيه ويعطيه إيـاها، وأمر الملـك الكامل أمـراء مصر وولده الملك العـادل أبا بكر ابـن الملك الكامل فحملوا الغاشية بين يدي الملك الناصر داود، وبالغ في إكرامه.

وفي هذه السنة تـوجه عسكر حلب مـع الملك المعظم توران شـاه عم الملك العـزيز، فحاصروا بغراس، وكـان قد عمرهـا الداوية بعد مـافتحها السلطان صـلاح الدين وخربها، وأشرف عسكـر حلب على أخذهـا، ثم رحلوا عنها بسبب الهدنـة مع صاحب أنطاكية، ثـم إن الفرنج أغاروا على ربض دربسـاك، وهي حينئذ لصـاحب حلـب، فوقع بهم عسكـر حلب وولى الفـرنـج منهزمين، وكثـر فيهـم القتـل والأسر، وعاد عسكـر حلـب بالأسرى ورؤوس الفرنج، وكانت هذه الوقعة من أجل الوقائع.

وفي هذه السنة استخدم الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وهو بالبـلاد الشرقية، وهي: آمـد، وحصن كيفا، وحران وغيرهـا نائبا عـن أبيه الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي، فـإنهم بعد قتله ساروا إلى كيقباذ ملك بلاد الـروم وخدموا عنده، وكان فيهـم عدة مقدمين مثل بـركة خان وكشلوخان وصاروخان، وفرخان، وبردي خان، فلما مات كيقباذ وتولى ابنه كيخسرو قبض على بـركة خـان وهو أكبر مقدميهـم، ففارقـت الخوارزمية حينئذ خدمتـه، وساروا عن الروم، ونهبـوا ماكان على طريقهـم، فاستمالهم الملك الصـالح نجـم الدين أيـوب ابن الملك الكـامل، واستـأذن أباه في استخدامهم، فأذن له واستخدمهم.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة

وقـد استحكمت الـوحشة بين الأخـوين الكـامل والأشرف، وقـد لحق الملـك الأشرف الذرب، وضعـف بسببـه، وعهد بـالملـك إلى أخيه الملـك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل صاحب بصرى.

ذكر وفاة الملك الأشرف

وفي هذه السنة توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، وكان قد مرض بالذرب واشتد به حتى توفي في المحرم من هذه السنة، وتملك دمشق أخوه الصالح اسماعيل بعهد منه، وكان مدة ملك الأشرف دمشق ثمان سنين وشهورا وعمره نحو ستين سنة، وكان مفرط السخاء يطلق الأموال الجليلة النفيسة، وكان ميمون النقيبة لم تنهزم له راية، وكان سعيدا، ويتفق له أشياء خارقة للعقل، وكان حسن العقيدة وبنى بدمشق قصورا ومنتزهات حسنة، وكان منهمكا في اللذات وسماع الأغاني، فلما مرض أقلع عن ذلك وأقبل على الاستغفار إلى ان توفي ودفن في تربته بجانب الجامع، ولم يخلف من الأولاد إلا بنتا واحدة تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، وكان سبب الوحشة بينه وبين أخيه الملك الكامل، بعد ماكان بينهما من المصافاة، أن الملك الأشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها، وكانت لاتفي بما يحتاجه وما يبذله، وقت قدوم أخيه الملك الكامل إلى دمشق، وأيضا لما فتح الملك الكامل آمد وبلادها لم يزده منها شيئا، وأيضا بلغه أن الملك الكامل يريد أن ينفرد بمصر والشام، وينتزع دمشق منه، فتغير بسبب ذلك.

ولما استقر الملك الصالح اسماعيل في ملك دمشق، كتب إلى الملوك من أهله، وإلى كيخسرو صاحب بلاد الروم في اتفاقهم معه على أخيه الملك الكامل، فوافقوه على ذلك إلا الملك المظفر صاحب حماة، وأرسل الملك المظفر رسولا إلى الملك الكامل يعرفه انتماؤه إليه، وأنه إنما وافق الملك الأشرف خوفا منه، فقبل الملك الكامل عذره، وتحقق صدق ولائه، ووعده بانتزاع سلمية من صاحب حمص وتسليمها إليه.

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى دمشق واستيلائه عليها ومايتعلق بذلك

لما بلغ الملك الكامل وفاة أخيه الملك الأشرف سار إلى دمشق، ومعه الناصر داود صاحب الكرك، وهو لايشك ان الملك الكامل يسلم إليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما، وأما الملك الصالح اسماعيل فإنه استعد للحصار، ووصل إليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص، ونازل الملك الكامل دمشق، وأخرج الملك الصالح اسماعيل النفاطين فأحرق العقيبة جميعها ومابها من خانات وأسواق، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجالة يزيدون علي خمسين رجلا، نجدة للصالح اسماعيل، وظفر بهم الملك الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم، وحال نزول الملك الكامل على دمشق أرسل توقيعا للملك المظفر صاحب حماة بسلمية، فتسلمها الملك المظفر، واستقرت نوابه بها، وكان نزول الملك الكامل على دمشق في جمادى الأولى من هذه السنة في قوة الشتاء، ثم سلم الملك الصالح اسماعيل دمشق إلى أخيه الملك الكامل، وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافا إلى بصرى، وكان قد ورد من الخليفة المستنصر محيي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين ابن الجوزي رسولا للتوفيق بين الملوك ، فتسلم الملك الكامل دمشق لاحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، وكان الملك الكامل شديد الحنق على شيركوه صاحب حمص فأمر العسكر فبرزوا لقصد حمص، وأرسل إلى صاحب حماة وأمره بالمسير إليها فبرز الملك المظفر من حماة، ونزل على الرستن، واشتد خوف شيركوه صاحب حمص وتخضع للملك الكامل وأرسل إليه نساءه ودخلن على الملك الكامل، فلم يلتفت إلى ذلك، ثم بعد استقرار الملك الكامل في دمشق لم يلبث غير أيام حتى مرض، واشتد مرضه وكان سببه إنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام، فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدتة وتورمت منها، وحصل له حمى ونهاه الأطباء عن القيء وخوفوه منه فلم يقبل وتقيأ فمات لوقته،

وعمره نحو ستين سنة وكانت وفاته لتسع بقين من رجب من هذه السنة أعني سنة خمس وثلاثين وستمائة، وكان بين موته وموت أخيه الملك الأشرف نحو ستة أشهر وكانت مدة ملكه لمصر من حين مات أبوه عشرين سنة، وكان بها نائبا قبل ذلك قريبا من عشرين سنة، فحكم في مصر نائبا وملكا نحو أربعين سنة، وأشبه حاله حال معاوية بن أبي سفيان، فإنه حكم في الشام نائبا نحو عشرين، وملكا نحو عشرين، وكان الملك الكامل ملكا جليلا مهيبا حازما، حسن التدبير، وأمنت الطرق في أيامه، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه، واستوزر في أول ملكه وزير أبيه صفي الدين بن شكر، فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده، وكان يخرج الملك الكامل بنفسه فينظر في أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها، فعمرت في أيامه ديار مصر أتم العمارة، وكان محبا للعلماء ومجالستهم، وكانت عنده مسائل غريبة في الفقه والنحو يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا في خدمته، وكان كثير السماع للأحاديث النبوية، وتقدم عنده بسببها الشيخ عمر بن دحية، وبنى له دار الحديث بين القصرين في الجانب الغربي، وكانت سوق الآداب والعلوم عنده نافقة رحمه الله تعالى، وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حموية من أكابر دولته، وهم الأمير فخر الدين ابن الشيخ، وأخوته عماد الدين وكمال الدين ومعين الدين أولاد الشيخ المذكور، وكل من أولاد الشيخ المذكور حاز فضيلتي السيف والقلم، فكان يباشر التدريس ويتقدم على الجيش.

ولما مات السلطان الملك الكامل بدمشق كان معه بها الملك الناصر داود صاحب الكرك ،فاتفقت آراء الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وهو حينئذ نائب أبيه بمصر، فحلف له جميع العسكر، وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائبا عن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق

وهددوه إن أقام، وتـأخر مع الجواد يونس بعض العسكـر ومقدمهم عماد الدين ابن الشيخ، وبقي يباشر الأمور مع الملك الجواد.

ولما بلغ شيركـوه صاحب حمص وفاة الملـك الكامل فرح فـرحا عظيما، وأتاه فرج ما كان يطمع نفسـه به ، وأظهر سرورا عظيما ولعب بالكرة على خلاف العادة وهوفي عشر السبعين، وأما الملك المظفـر صاحب حماة فإنه حزن لـذلك حزنـا عظيما، ورحل من الـرستن، وعاد إلى حماة، وأقـام فيها للعـزاء، وأرسل صـاحـب حمص ارتجع سلمية مـن نـواب الملك المظفـر، وقطع القنـاة الواصلة من سلميـة إلى حماة فيبست بساتينها، ثـم عزم على قطع النهـر العاصي عـن حماة فسد مخرجـه من بحيرة قـدس التي بظـاهر حمص فبطلـت نـواعير حماة والطـواحين، وذهب مـاء العـاصي في أوديـة بجـوانـب البحيرة ثـم لما لم يجد لـه الماء مسلكـــا عـاد فهـدم مـاعملـه صاحـب حمص، وجرى كما كان أولا، وكـذلك كـان قد حصل لصـاحـب حلب ولعسكـرها الخوف من الملـك الكامل، فلما بلغهـم موته أمنـوا من ذلك.

ذكر استيلاء الحلبيين على المعرة وحصارهم حماة

ولما بلـغ الحلبيين موت الكـامل اتفقـت آراؤهم على أخـذ المعرة، ثـم أخـذ حماة من الملـك المظفر صـاحـب حماة لموافقته الملـك الكامـل على قصدهم، ووصل عسكـر حلب إلى المعرة وانتزعوها مـن يد الملك المظفر صاحـب حماة، وحاصروا قلعتها وخـرجت المعـرة حينئذ عن ملـك الملك المظفر صاحب حماة، ثـم سار عسكر حلب ومقدمهم المعظـم توران شاه ابن صـلاح الديـن إلى حماة بعد استيـلائهم على المعـرة، ونازلـوا حماة وبها صاحبها الملـك المظفر، ونهب العسكر الحلبي بـلاد حماة، واستمر الحصار على حماة حتى خرجت هذه السنة.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة عقد لسلطان الروم غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو العقد على غازية خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب، وهي صغيرة حينئذ، وتولى القبول عن ملك بلاد الروم قاضي دوقات، ثم عقد للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب العقد على أخت كيخسرو وهي ملكة خاتون بنت كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان، وأم ملكة خاتون المذكورة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان قد زوجها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بكيقباذ المذكور، وخطب لغياث الدين كيخسرو بحلب.

وفيها خرجت الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح أيوب بعد موت أبيه الملك الكامل، ونهبوا البلاد.

وفيها سار لؤلؤ صاحب الموصل، وحاصر الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بسنجار، فأرسل الملك الصالح واسترضى الخوارزمية، وبذل لهم حران والرها فعادوا إلى طاعته، واتقع مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فانهزم لؤلؤ وعسكره هزيمة قبيحة، وغنم عسكر الملك الصالح منهم شيئا كثيرا.

وفي هذه السنة جرى بين الملك الناصر داود صاحب الكرك، وبين الملك الجواد يونس المتولي على دمشق مصاف بين جينين ونابلس، انتصر فيه الملك الجواد يونس، وانهزم الملك الناصر داود هزيمة قبيحة، وقوي الملك الجواد بسبب هذه الوقعة، وتمكن من دمشق ونهب عسكر الملك الناصر وأثقاله.

وفي أواخر هذه السنة ولد والدي الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك المظفر صاحب حماة.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة

في هذه السنة رحل عسكر حلب المحاصر لحماة بعد مولد الملك الأفضل، وكان قد طالت مدة حصارهم لحماة وضجروا، فتقدمت إليهم ضيفة خاتون صاحبة حلب بنت الملك العادل بالرحيل عنها فرحلوا، وضاق الأمر على الملك المظفر في هذا الحصار، وانفق فيه أموالا كثيرة، واستمرت المعرة في يد الحلبيين، وسلمية في يد صاحب حمص، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة وبعرين، ولما جرى ذلك خاف الملك المظفر أن تخرج بعرين بسبب قلعتها، فتقدم بهدمها فهدمت إلى الأرض في هذه السنة.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفي هذه السنة في جمادى الآخرة استولى الملك الصالح أيوب ابن السلطان الملك الكامل على دمشق وأعمالها، بتسليم الملك الجواد يونس، وأخذ العوض عنها: سنجار، والرقة، وعانة، وكان سبب ذلك أن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر لما علم باستيلاء الملك الجواد على دمشق، أرسل إليه عماد الدين ابن الشيخ لينتزع دمشق منه، وأن يعوضه عنها إقطاعا بمصر، فمال الجواد يونس إلى تسليمها إلى الملك الصالح حسبما ذكرناه، وجهز على عماد الدين ابن الشيخ من وقف له بقصة، فلما أخذها عماد الدين منه ضربه ذلك الرجل بسكين فقتله، ولما وصل الملك الصالح أيوب إلى دمشق وصل معه الملك المظفر صاحب حماة معاضدا له، وكان قد لاقاه إلى اثناء الطريق، واستقر الملك الصالح أيوب المذكور في ملك دمشق، وسار الجواد يونس إلى البلاد الشرقية المذكورة فتسلمها.

ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها، وسأله الملك المظفر صاحب حماة في منازلة حمص وأخذها من شيركوه، فبرز إلى الثنية وكان قد نازلت الخوارزمية وصاحب حماة حمص،، فأرسل شيركوه مالا كثيرا وفرقه في الخوارزمية، فرحلوا عنه إلى البلاد الشرقية، ورحل صاحب حماة إلى حماة، ثم كر الملك الصالح عائداً إلى دمشق طالبا مصر، وسار من دمشق إلى خربة اللصوص وعيد بها عيد رمضان، ووصل إليه بعض عساكر مصر مقفزين.

ولما خرج الملك الصالح من دمشق جعل نائبه فيها ولده الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح، وشرع الملك الصالح يكاتب عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه إليه، وعمه اسماعيل المذكور يتحجج ويعتذر عن الحضور ويظهر له أنه معه،وهو يعمل في الباطن على ملك دمشق، وأخذها من الصالح أيوب، وكان قد سافر الملك الناصر صاحب الكرك إلى مصر واتفق مع الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل على قتال الملك الصالح أيوب، ووصل أيضا في هذه السنة محيي الدين ابن الجوزي رسولا من الخليفة ليصلح بين الأخوين العادل صاحب مصر والصالح أيوب المستولي على دمشق، وهذا محيي الدين هو الذي حضر ليصلح بين الكامل والأشرف، فاتفق أنه مات في حضوره في سنة أربع وثلاثين وخمس وثلاثين أربعة من السلاطين العظماء وهم: الملك الكامل صاحب مصر، وأخوه الأشرف صاحب دمشق، والعزيز صاحب حلب، وكيقباذ صاحب بلاد الروم، فقال في ذلك ابن المسجف أحد شعراء دمشق:

يا إمام الهدى أبا جعفر المنـ ... ـصور يا من له الفخار الانيل

ما جرى من رسولك الآن محيي الـ ... ـدين في هذه البلاد قليل

جاء والأرض بالسلاطين تزهى
وغدا والديار منهم طلول

أقفر الروم والشآم، ومصر
أفهذا مغسل أم رسول

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة

في هذه السنة في صفر سار الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص بجموعهما وهجموا دمشق، وحصروا القلعة وتسلمها الصالح اسماعيل، وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب،وكان الملك الصالح أيوب بنابلس لقصد الاستيلاء على ديار مصر، وكان قد بلغه سعي عمه اسماعيل في الباطن، وكان للصالح أيوب طبيب يثق به يقال له الحكيم سعد الدين الدمشقي، فأرسله الصالح أيوب إلى بعلبك ومعه قفص من حمام نابلس ليطالعه بأخبار الصالح صاحب بعلبك، وحال وصول الحكيم المذكور علم به صاحب بعلبك فاستحضره وأكرمه وسرق الحمام التي لنابلس، وجعل موضعها حمام بعلبك ولم يشعر الطبيب المذكور بذلك، فصار الطبيب المذكور يكتب ان عمك اسماعيل قد جمع وهو في نية قصد دمشق ويطبق فيقعد الطير ببعلبك فيأخذ الصالح اسماعيل البطاقة ويزور على الحكيم إن عمك اسماعيل قد جمع ليعاضدك، وهو واصل إليك ويسرحه على حمام نابلس فيعتمد الصالح أيوب على بطاقة الحكيم، ويترك مايرد إليه من غيره من الأخبار، واتفق أيضا ان الملك المظفر صاحب حماة علم بسعي الصالح اسماعيل صاحب بعلبك في أخذ دمشق مع خلوها ممن يحفظها، فجهز نائبه سيف الدين علي بن أبي علي، ومعه جماعة من عسكر حماة وغيرهم، وجهز معه من السلاح والمال شيئا كثيرا ليصل إلى دمشق ويحفظها لصاحبها، وأظهر الملك المظفر وابن أبي علي أنهما قد اختصما، وأن ابن أبي علي قد غضب،واجتمع معه هذه الجماعة وقد

قصدوا فراق صاحب حماة لأنه يريد أن يسلم حماة للفرنج، كل ذلك خوفا من صاحب حمص شيركوه لئلا يقصد ابن أبي علي ويمنعه، فلم تخف عن شيركوه هذه الحيلة، ولما وصل ابن أبي علي إلى بحيرة حمص قصده شيركوه وأظهر أنه مصدقه فيما ذكر، وسأله الدخول إلى حمص ليضيفه وأخذ ابن أبي علي معه، وأرسل من استدعى باقي أصحاب ابن أبي علي إلى الضيافة فمنهم من سمع ودخل إلى حمص، ومنهم من هرب فسلم، فلما حصلوا عنده بحمص قبض على ابن أبي علي وعلى جميع من دخل حمص من الحمويين، واستولى على جميع ماكان معهم من السلاح والخزانة وبقي يعذبهم ويطلب منهم أموالهم حتى استصفاها، ومات ابن أبي علي وغيره في حبسه بحمص، والذي سلم وبقي إلى بعد موت شيركوه خلص، ولما جرى ذلك ضعف الملك المظفر صاحب حماة ضعفا كثيرا.

وأما الملك الصالح أيوب فلما بلغه قصد عمه اسماعيل دمشق، رحل من نابلس إلى الغور، فبلغه استيلاء عمه على قلعة دمشق، واعتقال ولده المغيث عمر، ففسدت نيات عساكره عليه وشرعت الأمراء ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح اسماعيل بدمشق، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير مماليكه واستاذ داره حسام الدين ابن أبي علي، وأصبح الملك الصالح أيوب لايدري مايفعل ولاله موضع يقصده، فقصد نابلس، ونزل بها بمن بقي معه وسمع الناصر داود بذلك، وكان قد وصل من مصر إلى الكرك فنزل بعسكره وأمسك الملك الصالح أيوب وأرسله إلى الكرك واعتقله بها، وأمر بالقيام في خدمته بكل مايختاره، ولما اعتقل الصالح أيوب بالكرك تفرق عنه باقي أصحابه ومماليكه، ولم يبق منهم معه غير عدة يسيرة، ولماجرى ذلك أرسل أخو الصالح الملك العادل أبو بكر صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر داود، فلم يسلمه الناصر داود، فأرسل الملك العادل وتهدد الملك الناصر بأخذ بلاده فلم يلتفت إلى ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة بعد اعتقال الملك الصالح بالكرك قصد الناصر داود القدس، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل، فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وخرب برج داود أيضا، فإنه لما خربت القدس أولا لم يخرب برج داود فخربه في هذه المرة.

وفي هذه السنة توفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص ابن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي، وكانت مدة ملكه بحمص نحو ست وخمسين سنة، لأن صلاح الدين ملكه حمص سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، بعد موت أبيه محمد بن شيركوه، وكان عمره يومئذ نحو اثنتي عشرة سنة، وكان شيركوه المذكور عسوفا لرعيته، وملك حمص بعده ولده الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه.

وفي هذه السنة استولى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل على سنجار، وأخذها من الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل.

ذكر خروج الملك الصالح أيوب من الاعتقال والقبض على أخيه الملك العادل صاحب مصر وملك الملك الصالح أيوب ديار مصر

وفي هذه السنة في أواخر رمضان أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب، واجتمعت عليه مماليكه، وكاتبه إليها زهير، وسار الناصر داود وصحبته الصالح أيوب إلى قبة الصخرة، وتحالفا بها على أن تكون ديار مصر للصالح، ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود، ولما تملك الصالح أيوب لم يف للناصر بذلك وكان يتأول في يمينه أنه كان مكرها، ثم سارا إلى غزة، فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وعلى والدته ذلك،

وبرز بعسكر مصر، ونـزل على بلبيس لقصد الناصر داود والصـالح أخيه، وأرسل إلى عمه الصالح اسماعيل المستولي على دمشق أن يبرز ويقصدهما من جهة الشـام، وأن يستأصلهما فسار الصالح اسماعيل بعسـاكر دمشق، ونزل الفـوار، فبينما الناصر داود والصـالح أيـوب في هذه الشـدة وهما بين عسكـريـن قـد أحـاطـا بهما، إذ ركبـت جماعـة مـن المماليـك الأشرفيـة، ومقـدمهم أيبـك الأسمر، وأحـاطوا بـدهليـز الملك العـادل أبي بكر ابـن الملك الكامـل، وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليـه من يحفظه، وأرسلوا إلى الملـك الصالح أيـوب يستدعونه،فـأتاه فرج لم يسمـع بمثله، وسار الملـك الصالـح أيوب والملـك الناصر داود إلى مصر، وبقـي في كل يـوم يلتقي الملـك الصالـح فوج بعـد فـوج من الأمـراء والعسكر، وكـان القبض على الملك العـادل ليلة الجمعة ثامن ذي القعدة مـن هذه السنة، فكانـت مدة ملكـه نحو سنتين، ودخـل الملك الصـالح أيـوب إلى قلعة الجبل بكرة الأحـد لست بقين من الشهر المذكور، وزينت لـه البلاد وفرح الناس بمقدمـه، وحصل للملك المظفر صاحـب حماة من السرور والفرح بملـك الملك الصـالح مصر مـالا يمكـن شرحه، فـإنه مـازال على ولائه حتـى أنه لما أمسـك بالكـرك كان يخطـب له بحماة وبـلادها، ولما استقـر الملك الصـالح أيوب في ملـك مصر وصحبته الناصر داود، حصـل عند كـل واحد منهما استشعـار من صـاحبه، وخـاف الناصر داود ان يقبـض عليه، فطلب دستورا، وتوجه إلى بلاده الكرك وغيرها.

ذكر وفاة صاحب ماردين

في هذه السنـة، وقيل في سنـة ست وثـلاثين، توفي نـاصر الديـن أرتق أرسلان بن ايلغـازي ابن البي بن تمرتـاش بن ايلغازي بن أرتـق صاحب ماردين، وكان يلقـب الملك المنصور، وملـك المذكور مـاردين بعـد أخيه حسام الـدين يـولق أرسـلان حسبما تقدم ذكـره في سنة ثمانين وخمسمائة، وبقـي أرتق أرسـلان متغلبا عليـه مملوك والـده البقش حتـى قتله أرتـق

أرسلان في سنة إحدى وستمائة، واستقل أرتق أرسلان بملك ماردين حتى توفي في هذه السنة، ولما مات الملك المنصور أرتق أرسلان ملك بعده ابنه الملك السعيد نجم الدين غازي بن أرتق أرسلان المذكور حتى توفي في سنة ثلاث وخمسين وستمائة ظنا، ثم ملك بعده في السنة المذكورة ابنه الملك المظفر قرا أرسلان بن غازي بن أرتق أرسلان، وكانت وفاة المظفر قرا أرسلان المذكور سنة إحدى وتسعين وستمائة ظنا، ثم ملك بعده ولده الأكبر شمس الدين داود بن قرا أرسلان سنة وتسعة أشهر، ثم توفي وملك بعده أخوه الملك المنصور نجم الدين غازي بن قرا أرسلان في سنة ثلاث وتسعين وستمائة ظنا، ونقلت وفيات المذكورين حسبما هو مشروح من تقويم رجل من ماردين ذكر فيه تواريخ بني أرتق، ولم أتحقق صحة ذلك، وسنذكر في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وفاة الملك المنصور غازي المذكور في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة

في هذه السنة قبض الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بعد استقراره في ملك مصر على أيبك الأسمر، مقدم المماليك الأشرفية وعلى غيره من الأمراء والمماليك الذين قبضوا على أخيه، وأودعهم الحبوس، وأخذ في إنشاء مماليكه، وشرع الملك الصالح أيوب المذكور من هذه السنة في بناء قلعة الجزيرة واتخذها مسكنا لنفسه.

وفيها نزل الملك الحافظ أرسلان شاه ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب عن قلعة جعبر، وبالس، وسلمهما إلى أخته ضيفة خاتون صاحبة حلب، وتسلم عوض ذلك أعزاز وبلادا معها تساوي ما نزل عنه، وكان سبب ذلك أن الملك الحافظ المذكور أصابه فالج، وخشي من أولاده،

وتغلبهم عليه، ففعل ذلك لأنه كان ببلاد قريبة إلى حلب لايمكنهم التعرض إليه.

وفي هذه السنة كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الملك الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب، فخرج إليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين، ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة، وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين، وأسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور، واستولى الخوارزميون على أثقال الحلبيين وأسروا منهم عدة كثيرة، ثم كانوا يقتلون بعضهم ليشتري غيرهم نفسه منهم بماله، فأخذوا بذلك شيئا كثيرا، ثم نزل الخوارزمية بعد ذلك على حيلان، وكثر عيثهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب، وجفل أهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب، واستعد أهلها للحصار، وارتكب الخوارزمية من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبه التتر، ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة، وفعلوا من القتل والنهب مثل ماتقدم ذكره، ثم رجعوا إلى بلادهم وهي حران ومامعها، بعد أن أخربوا بلد حلب.

ذكر عود الخوارزمية إلى بلد حلب وغيرها

ثم إن الخوارزمية رحلوا من حران، وقطعوا الفرات من الرقة، ووصلوا إلى الجبول، ثم إلى تل اعزاز، ثم سرمين، ثم إلى المعرة وهم ينهبون مايجدونه، فإن الناس جفلوا من بين أيديهم، وكان قد وصل الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحلبيين، فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية، واستمرت الخوارزمية على ماهم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل

السلطان، ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة ولم يتعرضوا إلى نهب لانتماء صاحبها الملك المظفر إلى الملك الصالح أيوب، ثم سارت الخوارزمية إلى سلمية، ثم إلى الرصافة طالبين الرقة، وسار عسكر حلب من تل السلطان إليهم ولحقتهم العرب فأرمت الخوارزمية ماكان معهم من المكاسب وسيبوا الأسرى، ووصلت الخوارزمية إلى الفرات في أواخر شعبان في هذه السنة، ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص ابراهيم قاطع صفين، فعمل لهم الخوارزمية ستائر، ووقع القتال بينهم إلى الليل فقطع الخوارزمية الفرات وساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة وقطعوا الفرات منها وقصدوا الخوارزمية، واتقعوا قريب الرها لتسع بقين من رمضان هذه السنة، فولى الخوارزمية منهزمين، وركب صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بينهم، ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها، وهربت الخوارزمية إلى بلد عانة، وبادر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى نصيبين ودارا وكانتا للخوارزمية فاستولى عليهما وخلص من كان بهما من الأسرى، وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيرا في بلدة دارا من حين أسروه في كسرة الحلبيين، فحمله بدر الدين لؤلؤ إلى الموصل، وقدم له ثيابا وتحفا وبعث به إلى عسكر حلب، واستولى عسكر حلب على الرقة، والرها، وسروج، ورأس عين، ومامع ذلك، واستولى صاحب حمص المنصور ابراهيم على بلد الخابور، ثم سار عسكر حلب ووصل إليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب بآمد وتسلموها منه، وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم، ولم يزل ذلك بيده حتى توفي أبوه الملك الصالح أيوب بمصر، وسار إليها المعظم المذكور على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وبقي ولد المعظم، وهو الملك الموحد عبد الله بن المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مالكا لحصن كيفا إلى أيام التتر وطالت مدته بها.

ذكر ماكان من الملك الجواد يونس

في هذه السنة كان هلاك الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، وصورة ماجرى له أنه كان قد استولى بعد ملك دمشق على سنجار، وعانة، فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه، وسار لؤلؤ صاحب الموصل وحاصر سنجار، ويونس المذكور غائب عنها واستولى عليها، ولم يبق بيد يونس من البلاد شيء، فسار على البرية إلى غزة، وأرسل إلى الملك الصالح أيوب صاحب مصر يسأله في المصير إليه، فلم يجبه إلى ذلك، فسار يونس حينئذ ودخل إلى عكا وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح اسماعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالا للفرنج وتسلم الملك الجواد يونس المذكور من الفرنج واعتقله، ثم خنقه.

وفي هذه السنة ولى الملك الصالح أيوب الشيخ عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام القضاء بمصر والوجه القبلي، وكان عز الدين المذكور بدمشق، فلما قوي خوف الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر، سلم الصالح اسماعيل: صفد، والشقيف، إلى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه الصالح أيوب، فعظم ذلك على المسلمين وأكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام التشنيع على الصالح اسماعيل بسبب ذلك، وكذلك جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب، ثم خافا من الصالح اسماعيل، فسار عز الدين بن عبد السلام إلى مصر وتولى بها القضاء كرها، وسار جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب إلى الكرك، وأقام عند الملك الناصر داود صاحب الكرك ونظم له مقدمته الكافية في النحو، ثم بعد ذلك سافر ابن الحاجب إلى الديار المصرية.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة

والصالح اسماعيل صاحب دمشق، والمنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وصاحبة حلب متفقون على عداوة الملك الصالح أيوب صاحب مصر، ولم يوافقهم صاحب حماة على ذلك، واخلص في الانتماء إلى صاحب مصر.

وفي هذه السنة اتقعت الخوارزمية مع الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين ابن الملك العادل، وفيها في شعبان أصاب جدي الملك المظفر صاحب حماة الفالج وهو جالس بين أصحابه في قلعة حماة، وبقي أياما لايتكلم ولايتحرك، وكان ذلك في أواخر فصل الشتاء، وأرجف الناس بموته، وقام بتدبير المملكة مملوكه وأستاذ داره سيف الدين طغريل، ثم خف مرض الملك المظفر وفتح عينيه وصار يتكلم باللفظة واللفظتين لايكاد يفهم، وكان العاطب الجانب الأيمن منه، وبعث إليه الصالح صاحب مصر طبيبا حاذقا نصرانيا يقال له النفيس ابن طليب، فلم تنجع فيه المداواة واستمر على ذلك إلى أن توفي بعد سنتين وكسر على ماسنذكرة إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة في ذي الحجة توفي الملك الحافظ نور الدين أرسلان ابن الملك العادل بن أيوب بأعزاز، وهي التي تعوضها عن قلعة جعبر، ونقل إلى حلب فدفن في الفردوس، وتسلم نواب الملك الناصر يوسف صاحب حلب قلعة أعزاز وأعمالها......

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة

وفي هذه السنة كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين، وبين عسكر حلب، ومعهم المنصور ابراهيم صاحب

حمص مصاف قريب الخابور عند المجدل، في يوم الخميس لثلاث بقين من صفر هذه السنة، فولى المظفر غازي والخوارزمية منهزمين أقبح هزيمة، ونهب منهم عسكر حلب شيئا كثيرا، ونهبت وطاقات الخوارزمية ونساؤهم أيضا، ونزل الملك المنصور ابراهيم في خيمة الملك المظفر غازي، واحتوى على خزانته ووطاقه، ووصل عسكر حلب وصاحب حمص إلى حلب في مستهل جمادى الأولى، مؤيدين منصورين.

ذكر وفاة الملكة ضيفة خاتون صاحبة حلب وهي والدة الملك العزيز

وفي هذه السنة في ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى، توفيت ضيفة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان مرضها قرحة في مراق البطن وحمى، ودفنت بقلعة حلب، وكان مولدها سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب حين كانت حلب لأبيها الملك العادل، قبل أن ينتزعها منه أخوه السلطان صلاح الدين ويعطيها ابنه الظاهر غازي، فاتفق مولدها ووفاتها بقلعة حلب، ولما ولدت كان عند أبيها الملك العادل ضيف فسماها ضيفة، فكانت مدة عمرها نحو تسع وخمسين سنة، وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد تزوج قبل ضيفة خاتون بأختها غازية وتوفيت، فلما توفيت غازية تزوج باختها ضيفة خاتون المذكورة، وكانت ضيفة خاتون قد ملكت حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز، وتصرفت في الملك تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام، وكانت مدة ملكها نحو ست سنين، ولما توفيت كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز نحو ثلاث عشرة سنة،فأشهد عليه أنه بلغ، وحكم واستقل بمملكه حلب، وماهو مضاف إليها، والمرجع في الأمور إلى جمال الدين إقبال الأسود الخصي الخاتوني.

ذكر وفاة المستنصر بالله

في هذه السنة توفي المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر محمد ابن الإمام الناصر أحمد، بكرة الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهرا، وكان حسن السيرة عادلا في الرعية، وهو الذي بنى المدرسة ببغداد المسماة بالمستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي، مما يلي دار الخلافة، وجعل لها أوقافا جليلة على أنواع البر، ولما مات المستنصر اتفقت آراء أرباب الدولة مثل الدوادار والشرابي على تقليد الخلافة ولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله وهو سابع ثلاثينهم، وآخرهم.وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور، وكان عبد الله المستعصم ضعيف الرأي، فاستبد كبراء دولته بالأمر، وحسنوا له قطع الأجناد، وجمع المال، ومداراة التتر، ففعل ذلك وقطع أكثر العساكر.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة

في هذه السنة قصدت التتر بلاد غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقي، صاحب بلاد الروم، فأرسل واستنجد بالحلبيين، فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي، وجمع العساكر من كل جهة والتقى مع التتر، فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة، وقتل التتر وأسروا منهم خلقا كثيرا، وتحكمت التتر، واستولوا أيضا على خلاط وآمد وبلادهما، وهرب غياث الدين كيخسرو إلى بعض المعاقل، ثم أرسل إلى التتر وطلب الأمان، ودخل في طاعتهم، ثم توفي غياث الدين كيخسرو المذكور بعد ذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى، وخلف صغيرين وهما ركن الدين، وعز الدين، ثم هرب عز الدين إلى قسطنطينية، وبقي ركن الدين في الملك تحت حكم التتر، والحاكم البرواناه معين الدين سليمان، والبرواناه لقبه

وهو اسم الحاجب بالعجمي، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين وأقام في الملك ولدا له صغيرا،

وفيها: كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر والصالح اسماعيل صاحب دمشق في الصلح، وأن يطلق الصالح اسماعيل المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وحسام الدين بن أبي علي الهذباني، وكانا معتقلين عند الملك الصالح اسماعيل، فأطلق حسام الدين ابن أبي علي وجهزه إلى مصر، واستمر الملك المغيث ابن الصالح أيوب في الاعتقال، واتفق الصالح اسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك، واعتضد بالفرنج، وسلما أيضا إلى الفرنج عسقلان وطبرية، فعمر الفرنج قلعتيهما، وسلما أيضا إليهم القدس بما فيه من المزارات.

قال القاضي جمال الدين بن واصل ومررت إذ ذاك بالقدس، متوجها إلى مصر، ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قناني الخمر للقربان.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة

ذكر المصاف الذي كان بين عسكر مصر ومعهم الخوارزمية وبين عسكر دمشق ومعهم الفرنج وصاحب حمص

في هذه السنة وصلت الخوارزمية إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح اسماعيل، وكان مسيرهم على حارم والروج إلى أطراف بلاد دمشق، حتى وصلوا إلى غزة، ووصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس، مملوك الملك الصالح أيوب وكان من أكبر مماليكه، وهو الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك، وأرسل الملك الصالح اسماعيل عسكر دمشق مع الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وسار صاحب حمص جريدة ودخل

عكا، فاستدعى الفرنج على ماكان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل، واجتمعوا أيضاً بصاحب حمص، وعسكر دمشق والكرك، ولم يحضر الناصر داود ذلك، والتقى الفريقان بظاهر غزة، فولى عسكر دمشق منهم خلقا عظيما، واستولى الملك الصالح أيوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس، ووصلت الأسرى والرؤوس إلى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام، ثم أرسل الملك الصالح صاحب مصر باقي عسكر مصر مع معين الدين ابن الشيخ، واجتمع إليه من بالشام من عسكر مصر والخوارزمية، وساروا إلى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح اسماعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وخرجت هذه السنة وهم محاصروها.

ذكر وفاة صاحب حماة

في هذه السنة توفي جدي الملك المظفر صاحب حماة تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، يوم السبت ثامن جمادى الأولى من هذه السنة أعني سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وكانت مدة مملكته لحماة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام، وكان منها مريضا بالفالج سنتين وتسعة أشهر وأياما، وكانت وفاته وهو مفلوج بحمى حادة عرضت له وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة، لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان شهما شجاعا فطنا ذكيا، وكان يحب أهل الفضائل والعلوم، استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف، وكان مهندسا فاضلا في العلوم الرياضية، فبنى للملك المظفر المذكور أبراجا بحماة وطاحونا على النهر العاصي، وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعملت هذه الكرة بحماة.

قال القاضي جمال الدين بن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين

على عملهـا، وكان الملك المظفـر يحضر ونحن نـرسمها ويسألنـا عن مواضيـع، ولما مات الملـك المظفر صـاحب حماه ملك بعـده الملك المنصور محمـد بن ملك المظفر محمود المـذكور، وعمره حينئـذ عشر سنين وشهـر واحد وثـلاثـة عشر يـوما، والقـائم بتـدبير المملكـة سيف الــــــديــــــن طغــــــرل مملــــــوك الملك المظفر، ومشاركه الشيخ شرف الديـن عبد العزيز بن محمد المعروف بشيخ الشيـوخ، والطواشي مرشـد، والوزير بهاء الديـن بن التاج، ومـرجع الجميع إلى والدة الملك المنصور غازية خاتون بنت الملك الكامل.

وفيها: بلـغ الملك الصالـح نجم الدين أيـوب وفاة ابنه الملـك المغيث فتح الدين عمر في حبس الصالح اسماعيـل صاحب دمشق، فاشتد حزن الصالح أيوب عليه وحنقه على الصالح اسماعيل.

وفي هذه السنـة: توفي الملـك المظفر شهـاب الديـن غازي ابـن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب ميـافارقين، واستقر بعده في ملكه ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن غازي.

وفيهـا: سير من حماة الشيـخ تـاج الديـن أحمد بـن محمد بـن نصر الله المعروف بيتـه ببني المغيرك رسولا إلى الخليفة ببغـداد، وصحبته تقدمـه من السلطان الملك المنصور صاحب حماة.

وفيها: توفي القاضي شهـاب الدين ابراهيم بن عبـد الله بن عبد المنعم ابن علي بـن محمد الشـافعي، عرف بـابن أبي الـدم قاضي حماة، وكـان قد توجـه في الرسلية إلى بغداد فمـرض في المعرة، وعاد إلى حماة مريضـا فتوفي بها، وهو الذي ألف التاريخ الكبير المظفري وغيره.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة

فيها سير الصالح اسماعيل وزيره أمين الدولة الذي كان سامريا، وأسلم إلى العراق مستشفعا بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه، فلم يجب الخليفة إلى ذلك، وكان أمين الدولة غالبا على الملك الصالح اسماعيل المذكور بحيث لايخرج عن رأيه.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفيها تسلم عسكر الملك الصالح أيوب ومقدمهم معين الدين ابن الشيخ دمشق من الصالح اسماعيل ابن الملك العادل، وكان محصورا معه بدمشق ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، فتسلم دمشق على ان يستقر بيد الملك الصالح اسماعيل بعلبك وبصرى، والسواد، ويستقر بيد صاحب حمص حمص وماهو مضاف إليها، فأجابهما معين الدين ابن الشيخ إلى ذلك، ووصل إلى دمشق حسام الدين ابن أبي علي بمن كان معه من العسكر المصري، واتفق بعد تسليم دمشق أن معين الدين ابن الشيخ مرض وتوفي بها، وبقي حسام الدين بن أبي علي نائبا بدمشق للملك الصالح أيوب، ثم إن الخوارزمية خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح اسماعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والاقطاعات مايرضي خاطرهم، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب، وصاروا مع الملك الصالح اسماعيل وانضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك، وساروا إلى دمشق وحصروها، وغلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثلها، وقام حسام الدين بن أبي علي الهذباني في حفظ دمشق أتم قيام، وخرجت السنة والأمر على ذلك.

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة قصدت التتر بغداد، وخرجت عساكر بغداد للقائهم، ولم يكن للتتر بهم طاقة، فولى التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل.

وفي هذه السنة توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب، أخت السلطان صلاح الدين بدمشق بدار العقيقي، وكانت قد جاوزت ثمانين سنة، وبنت مدرسة للحنابلة بجبل الصالحية.

وفيها توفي الشيخ تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن الصلاح الفقيه المحدث.

وفيها توفي علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي شرح قصيدة الشاطبى في القراءات، وشرح المفصل للزمخشري، وسمى شرحه المفضل في شرح المفصل، وله مجموع سماه كتاب سفر السعادة وسفير الافادة، ذكر فيه مسائل مشكلة في النحو، وعدة من أبيات المعاني، ولغة غريبة.

وفي هذه السنة لما تسلم دمشق الملك الصالح أيوب، تسلم نواب الملك المنصور صاحب حماة سلمية، وانتزعوها من صاحب حمص، واستقرت سلمية في هذه السنة في ملك الملك المنصور صاحب حماة.

وفيها توفي الشيخ موفق الدين أبو البقاء يعيش بن محمد بن علي الموصلي الأصل، الحلبي المولد والمنشأ، النحوي ويعرف بابن الصائغ وكان ظريفا حسن المحاضرة شرح المفصل شرحا مستوفى ليس في الشروح مثله وله غير ذلك، وولد في رمضان سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة بحلب وتوفي بها في التاريخ المذكور ودفن بالمقام.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة

ذكر كسرة الخوارزمية على القصب واستيلاء الصالح أيوب على بعلبك

كنا قد ذكرنا اتفاق الخوارزمية مع الصالح اسماعيل والناصر داود، ومحاصرتهم دمشق، وبها حسام الدين بن أبي علي، ولما وقع ذلك اتفق الحلبيون والملك المنصور ابراهيم صاحب حمص، وصاروا مع الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وقصدوا الخوارزمية، فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا إلى نحو الحلبيين وصاحب حمص، والتقوا على القصب في هذه السنة، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها، وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان، وحمل رأسه إلى حلب، ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشلو خان الخوارزمي، فلحقوا بالتتر، وصاروا معهم، وانقطع منهم جماعة، وتفرقوا في الشام وخدموا به، وكفى الله الناس شرهم، ولما وصل خبر كسرتهم إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فرح فرحا عظيما، ودقت البشائر بمصر، وزال ماكان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حمص، وحصل بينهما التصافي بسبب ذلك، وأما الصالح اسماعيل فإنه سار إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب، واستجار به، وأرسل الصالح أيوب يطلبه، فلم يسلمه الملك الناصر إليه، ولما جرى ذلك رحل حسام الدين بن أبي علي الهذباني بمن عنده من العسكر بدمشق، ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح اسماعيل وحاصرها وتسلمها بالأمان، وحمل أولاد الصالح اسماعيل إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الملك الصالح اسماعيل وأستاذ ناصر الدين يغمور، فاعتقلا بمصر أيضا، وزينت القاهرة ومصر، ودقت البشائر بهما لفتح بعلبك واتفق في هذه الأيام وفاة صاحب عجلون، وهو سيف الدين بن قليج،

فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضا، ولما جرى ماذكرناه أرسل الملك الصالح أيوب عسكرا مع الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ، وكان فخر الدين ابن الشيخ قد اعتقله الملك العادل أبو بكر ابن الملك الكامل، ثم لما ملك الملك الصالح أيوب مصر أفرج عنه وأمره بملازمة بيته فلازمه مدة، ثم قدمه في هذه السنة على العسكر وجهزه إلى حرب الملك الناصر داود صاحب الكرك، فسار فخر الدين المذكور واستولى على جميع بلاد الملك الناصر داود وولى عليها، وسار إلى الكرك وحاصرها وخرب ضياعها، وضعف الملك الناصر ضعفا بالغا ولم يبق بيده غير الكرك وحدها.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة حبس الصالح أيوب مملوكه بيبرس، وهو الذي كان معه لما اعتقل في الكرك، وسببه ان بيبرس المذكور مال إلى الخوارزمية وإلى الناصر داود وصار معهم على أستاذه لما جرده إلى غزة كما تقدم ذكره، فأرسل أستاذه الصالح أيوب واستماله فوصل إليه فاعتقله في هذه السنة، وكان آخر العهد به.

وفيها أرسل الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص ابن شيركوه، وطلب دستورا من الملك الصالح أيوب ليصل إلى بابه وينتظم في سلك خدمته، وكان قد حصل بابراهيم المذكور السل وسار على تلك الحالة من حمص متوجها إلى الديار المصرية ووصل إلى دمشق فقوي به المرض، وتوفي في دمشق فنقل إلى حمص ودفن بها، وملك بعده ولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور ابراهيم المذكور.

وفي هذه السنة بعد فتوح دمشق وبعلبك استدعى الملك الصالح أيوب خدمة حسام الدين بن أبي علي إلى مصر، وأرسل موضعه نائبا

بدمشق الأمير جمال الدين بن مطروح، ولما وصل حسام الدين بن أبي علي إلى مصر استنابه الملك الصالح بها،وسار الملك الصالح أيوب إلى دمشق، ثم سار إلى بعلبك، ثم عاد إلى دمشق، ووصل إلى خدمة الملك الصالح أيوب بدمشق الملك المنصور محمد صاحب حماة، والملك الأشرف موسى صاحب حمص فأكرمهما وقربهما،ثم أعطاهما الدستور فعادا إلى بلادهما، واستمر الملك الصالح بالشام حتى خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة توفي عماد الدين داود بن موشك بالكرك وكان جامعا لمكارم الأخلاق.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة

وفيها عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشام إلى الديار المصرية.

وفيها فتح فخر الدين ابن الشيخ قلعتي عسقلان وطبرية، والملك الصالح بالشام،بعد محاصرتهما مدة، وكنا قد ذكرنا تسليمهما إلى الفرنج في سنة إحدى وأربعين وستمائة، فعمروها واستمرتا بأيدي الفرنج حتى فتحتا في هذه السنة.

وفيها سلم الأشرف صاحب حمص شميميس للملك الصالح أيوب، فعظم ذلك على الحلبيين لئلا يحصل الطمع للملك الصالح في ملك باقي الشام.

وفيها توفي الملك العادل أبو بكر ابن السلطان الملك الكامل بالحبس، وأمه الست السوداء تعرف ببنت الفقيه نصر، وكان مسجونا من حين قبض عليه ببلبيس إلى هذه الغاية، فكانت مدة مقامه بالسجن نحو ثمان

سنين، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وخلف ولدا صغيرا وهو الملك المغيث فتح الدين عمر، وهو الذي ملك الكرك فيما بعد، ثم قتله الملك الظاهر بيبرس على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة توجه الطواشي مرشد المنصوري، ومجاهد الدين أمير جندار من حماة إلى حلب، وأحضرا بنت الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر صاحب حلب، وهي عائشة خاتون زوج الملك المنصور صاحب حماة، وحضرت معها أمها فاطمة خاتون بنت السلطان الملك الكامل ابن العادل، ووصلت إلى حماة في العشر الأوسط من رمضان من هذه السنة، أعني سنة خمس وأربعين وستمائة، ووصلت في تجمل عظيم، واحتفل للقائها بحماة احتفالا عظيما.

وفي هذه السنة توفي علاء الدين قرا سنقر الساقي العادلي، أحد مماليك الملك العادل بن أيوب، وصارت مماليكه بالولاء للملك الصالح أيوب، ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحي، الذي صار له ملك مصر والشام على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.......

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة

فيها أرسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرا مع شمس الدين لؤلؤ الأرمني، فحاصروا الملك الأشرف موسى بحمص مدة شهرين، فسلم إليهم حمص وتعوض عنها بتل باشر مضافا إلى مابيده من تدمر والرحبة، ولما بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب ذلك شق عليه، وسار إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين، وكان قد حصل له مرض وورم في مأبطه، ثم فتح وحصل منه ناصور، ووصل الملك الصالح إلى دمشق، وأرسل عسكرا إلى حمص مع حسام الدين ابن أبي علي وفخر الدين ابن الشيخ، فنازلوا حمص وحصروها، ونصبوا عليها منجنيقا مغربيا يرمي

بحجر زنتها مائة وأربعون رطلا بالشامي، مع عدة منجنيقات أخر، وكان الشتاء والبرد قويا، واستمر عليها الحصار واتفق حينئذ وصول الخبر إلى الملك الصالح وهو بدمشق بوصول الفرنج إلى جهة دمياط، وكان أيضا قد قوي مرضه، ووصل أيضا نجم الدين الباذرائي رسول الخليفة، وسعى في الصلح بين الملك الصالح والحلبيين، وأن تستقر حمص بيد الحلبيين، فأجاب الملك الصالح إلى ذلك وأمر العسكر فرحلوا عن حمص بعد أن أشرفوا على أخذها، ثم رحل الملك الصالح عن دمشق في محفة لقوة مرضه، واستناب بدمشق جمال الدين بن يغمور، وعزل ابن مطروح، وأرسل حسام الدين ابن أبي علي قدامه ليسبقه إلى مصر وينوب عنه بها.

وفيها في يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من السنة المذكورة، أعني سنة ست وأربعين وستمائة توفي أبو عمرو عثمان بن عمر ابن أبي بكر بن يونس المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين، وكان والده عمر حاجبا للأمير عز الدين بن موسك الصلاحي، وكان كرديا واشتغل ولده أبو عمرو المذكور بالقاهرة في صغره بالقرآن والفقه على مذهب مالك بن أنس وبالعربية، وبرع في علومه وأتقنها ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها وأكب الخلق على الاشتغال عليه، ثم عاد إلى القاهرة ثم انتقل إلى الاسكندرية فتوفي بها وكان مولد الشيخ أبي عمرو المذكور في أواخر سنة سبعين وخمسمائة بأسنا بليدة بالصعيد، وكان الشيخ أبو عمرو المذكور متفننا في علوم شتى، وكان الاغلب عليه علم العربية وأصول الفقه، صنف في العربية مقدمته الكافية، واختصر كتاب الأحكام للآمدي في أصول الفقه، فطبق ذكر هذين الكتابين أعني: الكافية، ومختصره في أصول الفقه جميع البلاد خصوصا بلاد العجم، وأكب الناس على الاشتغال بهما إلى زماننا هذا، وله غيرهما عدة مصنفات.

وفيها أعني في سنة ست وأربعين وستمائة توفي عز الدين أيبك المعظمي، في محبسه بالقاهرة، وكان المذكور قد ملك صرخد في سنة ثمان وستمائة حسبما تقدم ذكره في السنة المذكورة، وقال ابن خلكان: إنه ملك صرخد في سنة احدى عشرة وستمائة، قال: لأن أستاذه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب حج في السنة المذكورة، وأخذ صرخد من صاحبها ابن قراجا، وأعطاها مملوكه أيبك المذكور، والظاهر أن الأول أصح،واستمرت في يد أيبك إلى سنة أربع وأربعين وستمائة، فأخذها الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل من أيبك المذكور، وأمسك أيبك في السنة المذكورة، وحمله إلى القاهرة وحبسه في دار الطواشي صواب، واستمر معتقلا بها حتى توفي معتقلا في هذه السنة في أوائل جمادى ا لأولى، ودفن خارج باب النصر في تربة شمس الدولة،ثم نقل إلى الشام ودفن في تربة كان قد أنشأها بظاهر دمشق على الشرف الاعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير رحمه الله تعالى، هكذا نقلت ذلك من وفيات الاعيان.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة

ذكر ملك الفرنج دمياط ونزول الملك الصالح أشمون طناح

وفي هذه السنة سار ريد افرنس، وهو من أعظم ملوك الفرنج، وريد بلغتهم هو الملك أي ملك افرنس، وافرنس أمة عظيمة من أمم الفرنج، وكان جمع ريد افرنس نحو خمسين ألف مقاتل، وشتى في جزيرة قبرس، ثم سار ووصل في هذه السنة إلى دمياط، وكان قد شحنها الملك الصالح بـآلات عظيمة وذخائر وافرة، وجعل فيها بني كنانة، وهم مشهورون

بالشجاعة، وكان قد أرسل الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كثيرة من العسكر ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط، ولما وصلت الفرنج عبر فخر الدين ابن الشيخ من البر الغربي إلى البر الشرقي، ووصل الفرنج إلى البر الغربي لتسع بقين من صفر هذه السنة، ولما جرى ذلك هربت بنو كنانة وأهل دمياط منها، وأخلوا دمياط وتركوا أبوابها مفتحة، فتملكها الفرنج بغير قتال واستولوا على مابها من الذخائر والسلاحات، وكان هذا من أعظم المصائب، وعظم ذلك على الملك الصالح، وأمر بشنق بني كنانة فشنقوا عن آخرهم، ووصل الملك الصالح إلى المنصورة ونزل بها يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر هذه السنة، وقد اشتد مرضه وهو السل والقرحة التي كانت به وقد ايس منه.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على الكرك

وفي هذه السنة سار الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب من الكرك إلى حلب، لما ضاقت عليه الأمور مستجيرا بالملك الناصر صاحب حلب، وكان قد بقي عند الناصر داود من الجوهر مقدار كثير، قال: كان يساوي مائة ألف دينار إذا بيع بالهوان، فلما وصل إلى جلب سير الجوهر المذكور إلى بغداد وأودعه عند الخليفة المستعصم، ووصل اليه خط الخليفة بتسليمه، فلم تقع عينه عليه بعد ذلك، ولما سار الناصر داود عن الكرك استناب عليها ابنه عيسى، ولقبه الملك المعظم، وكان له ولدان آخران أكبر من عيسى المذكور هما: الامجد حسن والظاهر شاذي، فغضب الأخوان المذكوران من تقديم أخيهما عيسى عليهما، وبعد سفر أبيهما قبضا على أخيهما عيسى، وتوجه الأمجد حسن إلى الملك الصالح أيوب، وهو مريض على المنصورة، وبذل له تسليم الكرك على اقطاع له ولأخيه بديار مصر، فأحسن إليه الصالح أيوب وأعطاهما اقطاعا أرضاهما، وأرسل إلى الكرك

وتسلمها يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة، وفرح الملك الصالح بالكرك فرحا عظيما مع ماهو فيه من المرض، لما كان في خاطره من صاحبها.

ذكر وفاة الملك الصالح أيوب

وفي هذه السنة توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان هذه السنة، أعني سبع وأربعين وستمائة، وكانت مدة مملكته للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما، وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة، وكان مهيبا عالي الهمة عفيفا طاهر اللسان والذيل، شديد الوقار كثير الصمت، وجمع من المماليك الترك مالم يجتمع لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه وسماهم البحرية، وكان لايجسر أن يخاطبه أحد إلاّ جوابا، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص توضع بين يديه مع الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين، وكان لايستقل أحد من أهل دولته بأمر من الامور إلا بعد مشاورته بالقصص، وكان غاويا بالعمارة، بنى قلعة الجزيرة، وبنى الصالحية، وهي بلدة بالسايح، وبنى له بها قصورا للتصيد، وبنى قصرا عظيما بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش، وكانت أم الملك الصالح أيوب المذكور جارية سوداء تسمى ورد المنى غشيها السلطان الملك الكامل فحملت بالملك الصالح، وكان للملك الصالح ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر، توفي في حبس الصالح اسماعيل وكان قد توفي ولده الآخر قبله، ولم يكن قد بقى له غير المعظم تورانشاه بحصن كيفا، ومات الملك الصالح ولم يوص بالملك إلى احد فلما توفي أحضرت شجر

الدر، وهي جارية الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ والطواشي جمال الدين محسنا، وعرفتهما بموت السلطان، فكتموا ذلك خوفا من الفرنج، وجمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا، وللأمير فخر الدين ابن الشيخ بأتابكية العسكر، وكتبت إلى حسام الدين بن أبي علي، وهو النائب بمصر بمثل ذلك، فحلفت الأمراء والاجناد والكبراء بالعسكر وبمصر وبالقاهرة على ذلك في العشر الأوسط من شعبان هذه السنة، وكان بعد ذلك تخرج الكتب والمراسم وعليها علامة الملك الصالح، وكان يكتبها خادم يقال له السهيلي فلا يشك أحد في أنه خط السلطان، فأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصدا لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا، ولما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن

أرباب الدولة لايجسرون أن يتفوهوا بذلك، وتقدم الفرنج عن دمياط إلى المنصورة، وجرى بينهم وبين المسلمين في مستهل رمضان من هذه السنة وقعة عظيمة استشهد فيها جماعة من كبار المسلمين، ونزلت الفرنج بحر مساح، ثم قربوا من المسلمين، ثم إن الفرنج كبسوا المسلمين على المنصورة بكرة الثلاثاء لخمس مضين من ذي القعدة، وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدين ابن حمويه في الحمام بالمنصورة فركب مسرعا وصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه، وكان سعيدا في الدنيا ومات شهيدا، ثم حملت المسلمون والترك البحرية على الفرنج فردوهم على أعقابهم، واستمرت بهم الهزيمة، وأما الملك المعظم تورانشاه فإنه سار من حصن كيفا ووصل إلى دمشق في رمضان من هذه السنة، أعني سنة سبع وأربعين وستمائة، ثم اشتد القتال بين المسلمين والفرنج براً وبحراً، ووقعت مراكب المسلمين على الفرنج وأخذوا منهم اثنين وثلاثين مركبا، منها تسع شواني، فضعفت الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل وأن يسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم تقع الاجابة إلى ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة وقع الحرب بين صاحب الموصل بدرالدين لؤلؤ، وبين الملك الناصر صاحب حلب، فأرسل اليه الملك الناصر عسكراً والتقوا مع المواصلة بظاهر نصيبين، فانهزمت المواصلة هزيمة قبيحة، واستولى الحلبيون على أثقال لؤلؤ صاحب الموصل وخيمه، وتسلم الحلبيون نصيبين وأخذوها من صاحب الموصل، ثم ساروا إلى دارا فنازلوها وتسلموها وخربوها بعد حصار ثلاثة أشهر، ثم تسلموا قرقيسيا وعادوا إلى حلب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة

ذكر هزيمة الفرنج وأسر ملكهم

لما أقام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط، فإن المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم، فلم يبق لهم صبر على المقام، فرحلوا الأربعاء لثلاث مضين من المحرم متوجهين إلى دمياط، وركب المسلمون أكتافهم، ولما أسفر صباح الأربعاء خالطهم المسلمون، وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم إلا القليل، وبلغت عدة القتلى من الفرنج ثلاثين ألفا على ماقيل، وإنحاز ريد افرنس ومن معه من الملوك إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي محسن الصالحي، ثم احتيط عليهم وأحضروا إلى المنصورة، وقيد ريد افرنس وجعل في الدار التي كان ينزلها كاتب الانشاء فخر الدين ابن لقمان، ووكل به الطواشي صبيح المعظمي، ولما جرى ذلك رحل الملك المعظم بالعساكر من المنصورة ونزل بفارسكور، ونصب بها برج خشب للملك المعظم.

ذكر مقتل الملك المعظم

وفي هذه السنة يوم الاثنين لليلة بقيت من المحرم قتل الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وسبب ذلك ان المذكور أطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد مانفر قلبه منه، واعتمد على بطانته الذين وصلوا معه من حصن كيفا، وكانوا اطرافا أراذل، فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور، وهجموا عليه بالسيوف، وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس، الذي صار سلطانا فيما بعد على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، فهرب الملك المعظم منهم إلى البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور على ماتقدم ذكره، فأطلقوا في البرج النار فخرج الملك المعظم من البرج هاربا طالبا البحر ليركب في حراقته، فحالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فأدركوه وأتموا قتله في نهار الاثنين المذكور، وكانت مدة اقامته في المملكة من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياما، ولماجرى ذلك اجتمعت الامراء واتفقوا على أن يقيموا شجر الدر زوجة الملك الصالح في المملكة، وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي المعروف بالتركماني أتابك العسكر، وحلفوا على ذلك، وخطب لشجر الدر على المنابر، وضربت السكة باسمها، وكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل، وكانت شجر الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا ومات صغيرا، وكان اسمه خليل فسميت والدة خليل، وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل، ولما استقر ذلك وقع الحديث مع ريد افرنس في تسليم دمياط بالافراج عنه، فتقدم ريد افرنس إلى من بها من نوابه في تسليمها فسلموها، وصعد إليها العلم السلطاني يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر من هذه السنة، أعني سنة

ثمان وأربعين وستمائة، وأطلق ريد افرنس فركب في البحر بمن سلم معه نهار السبت غد الجمعة المذكورة، وأقلعوا إلى عكا ووردت البشرى بهذا الفتح العظيم إلى سائر الاقطار، وفي واقعة ريد افرنس يقول جمال الدين يحيى بن مطروح أبياتا منها:

قل للفرنسيس اذا جئته
مقال صدق عن قوول نصيح
اتيت مصرا تبتغي ملكها
تحسب ان الزمر يا طبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم
بحسن تدبيرك بطن الضريح

. خمسون ألفا لا يرى منهم
غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمروا عودة
لأخذ ثار أو بقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باقي والطواشي صبيح

ثم عادت ا لعساكر، ودخلت القاهرة يوم الخميس تاسع صفر من السنة المذكورة، وأرسل المصريون رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه، وكان الملك السعيد ابن الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل صاحب الصبيبة قد سلمها إلى الملك الصالح أيوب، فلما جرى ذلك قصد قلعة الصبيبة فسلمت إليه، وكان من الملك السعيد ماسنذكره ان شاء الله تعالى.

ذكر ملك الملك المغيث الكرك

كان الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكـامل محمـد ابن الملـك العادل أبي بكـر بـن أيوب، قـد أرسله الملـك المعظم تـورانشاه لماوصـل الى الديار المصريـة إلى ا لشوبـك، واعتقله بها، وكان النـائب على الكرك والشـوبك بدر الـدين الصـوابي الصالحي، فلما جرى مـاذكرناه مـن قتل الملك المعظـم، ولما استقر عليه الحال بـادر بدر الـدين الصـوابي المذكـور فأفـرج عـن المغيـث، وملكه القلعتين الكـرك والشوبك، وقام في خدمته أتم قيام.

ذكر استيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق

ولما جـرى مـاذكرنـاه ولم يجب أمـراء دمشـق إلى ذلـك كاتـب الامـراء القيمرية الذين بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابـن السلطان الملك الناصر صلاح الدين، فسار إليهـم وملك دمشق ودخلهـا في يوم السبت لثمان مضين مـن ربيع الآخر مـن هذه السنـة، ولما استقر الناصر المذكـور في ملك دمشـق خلع على جمال الـدين ابـن يغمور، وعلى الأمـراء القيمريـة بها، وأحسن إليهـم واعتقل جماعة من الأمراء مماليك الملـك الصالح، وعصت عليه: بعلبك، وعجلون، وشميميس مـدة مديدة، ثم سلمـت جميعها إليه، ولما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضـوا على من عندهم من القيمريـة، وعلى كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين.

ذكر سلطنة أيبك التركماني

ثـم إن كبراء الـدولة اتفقـوا على إقـامـة عـز الديـن أيبـك الجاشنكير الصالحي في السلطنة، لأنه اذا استقر أمر المملكة في امرأة على ماهو عليه

الحال تفسد الأمور، فأقاموا أيبك المذكور وركب بالسناجق السلطانية، وحملت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر من هذه السنة، ولقب بالملك المعز، وأبطلت السكة والخطبة التي كانت باسم شجر الدر.

ذكر عقد السلطنة للملك الاشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن المعروف باقسيس

ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن ايوب.

ثم اجتمعت الامراء واتفقوا على أنه لابد من إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة، واجتمعوا على إقامة موسى المذكور ولقبوه الملك الأشرف، وأن يكون أيبك التركماني أتابكه، وأجلس الأشرف موسى المذكور في دست السلطنة، وحضرت الأمراء في خدمته يوم السبت لخمس مضين من جمادى الأولى من هذه السنة، وكان بغزة حينئذ جماعة من عسكر مصر مقدمهم خاص ترك، فسار إليهم عسكر دمشق فاندفعوا من غزة إلى الصالحية بالسايح، واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك، وخطبوا له بالصالحية يوم الجمعة لأربع مضين من جمادى الآخرة من هذه السنة، ولما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر، ونادوا بالقاهرة ومصر إن البلاد للخليفة المستعصم، ثم جددت الأيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة ولأيبك التركماني بالأتابكية، وفي يوم الأحد لخمس مضين من رجب رحل فارس الدين أقطاي الصالحي الجمدار متوجها إلى جهة غزة ومعه تقدير ألفي فارس، وكان أقطاي المذكور مقدم البحرية، فلما وصل إلى غزة اندفع من كان بها من جهة الملك الناصر بين يديه.

ذكر تخريب دمياط

وفي هـذه السنة اتفقـت آراء أكابـر الدولـة، وهدمـوا سور دميـاط في العشر الأخير من شعبـان هـذه السنة لما حصـل للمسلمين عليهـا مـن الشدة مرة بعد أخرى، وبنوا مدينة بالقرب منها في البر وسموها المنشية، وأسوار دمياط التي هدمت من عمارة المتوكل الخليفة العباسي.

ذكر القبض على الناصر داود

وفي هذه السنة مستهـل شعبان قبض الناصر يوسف صـاحب دمشق وحلب على الناصر داود الذي كان صـاحب الكرك، وبعث به إلى حمص فاعتقل، وذلك لأشياء بلغت الناصر يوسف عن المذكور خاف منها.

ذكر مسير السلطان الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الديار المصرية وكسرته

وفي هذه السنـة سار الملـك الناصر صلاح الـدين يـوسف ابـن الملك العـزيز بعسـاكره مـن دمشـق، وصحبته مـن ملـوك أهل بيتـه: الصالـح اسماعيل بـن العادل بـن أيوب، والأشرف مـوسى صـاحب حمص، وهـو حينئذ صاحب تـل باشر والرحبة وتدمر، والمعظم تـورانشاه ابن السلطان صـلاح الـديـن، وأخـو المعظـم المذكـور نصرة الـديـن، والأمجد حسـن، والظاهر شادي ابنـا الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى بـن العادل بن أيوب، وتقـي الدين عبـاس ابن الملك العـادل بن أيوب، ومقـدم الجيش شمس الدين لـؤلؤ الأرمني، وإليه تدبير المملكة، فرحلـوا من دمشق يوم الأحد منتصـف رمضان مـن هذه السنـة، ولما بلغ المصريين ذلـك اهتموا

لقتاله ودفعه، وبـرزوا إلى السايح وتركوا الاشرف المسمى بـالسلطان بقلعة الجبل، وأفـرج أيبك التركماني حينئذ عن ولـدي الصالح اسماعيل، وكـانا معتقلين مـن حين استيـلاء الملـك الصالـح أيـوب على بعلبـك، وخلـع عليهما ليتـوهـم النـاصر يـوسـف صاحـب دمشـق مـن أبيهما الصـالـح اسماعيل، والتقـى العسكران المصري والشـامي بالقـرب من العبـاسية في يوم الخميس عـاشر ذي القعدة من هذه السنـة، فكانت الكسرة أولا على عسكـر مصر، فخـامر جماعـة مـن المماليـك الترك العـزيزيـة على الملـك الناصرصـاحب دمشـق، وثبت المعـز أيبك التركماني في جماعـة قليلة مـن البحرية، فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر إلى أيبك التركماني ولما انكسر المصريون وتبعتهم العساكر الشـامية، ولـم يشكوا في النصر، بقي الملك النـاصر تحت السناجق السلطانية مـع جماعة يسيرة من المتعممين لايتحـرك من مـوضعه، فحمل المعز التركماني بمـن معه عليـه فولى الملك الناصر منهـزما طالبا جهة الشام، ثـم حمل أيبك المذكور على طلـب شمس الـدين لـؤلؤ فهـزمهـم، وأخذ شمـس الديـن لؤلـؤ أسيرا، فضربـت عنقه بين يـديـه، وكذلـك أسر الأمير ضيـاء الـدين القيمـري، فضربت عنقـه، وأسر يومئذ الملك الصـالـح اسماعيل، والأشرف صـاحب حمص، والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين بن أيوب، وأخوه نصرة الدين، ووصـل عسكر الملـك الناصر في أثـر المنهزمين إلى العبـاسية وضربـوا بها دهليز الملـك الناصر، وهم لايشكـون ان الهزيمة تمت على المصريين، فلما بلغهم هروب الملك النـاصر اختلفت آراؤهم، فمنهم من أشار بـالدخول إلى القـاهـرة وتملكهـا، ولـو فعلوه لماكـان بقـي مـع أيبـك التركماني مـن يقـاتلهـم بـه، وكـان هرب فـإن غـالـب المصريين المنهـزمين وصلـوا إلى الصعيد، ومنهم من أشار بالرجـوع إلى الشام، وكان معهم تاج الملوك بن المعظم، وهـو مجروح وكانت الـوقعة يوم الخميـس، ووصل المنهزمـون من مصر إلى القاهرة في غد الوقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر في ملك الملـك الناصر ديـار مصر، وخطـب له في الجمعـة المذكـورة بقلعة الجبـل

ومصر، وأما القاهرة فلم يقم فيها في ذلك النهار خطبة لأحد، ثم وردت إليهم البشرى بانتصار البحرية ودخل أيبك التركماني والبحرية إلى القاهرة يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة، ومعه الصالح اسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين، فحبسوا بقلعة الجبل، وعقب ذلك أخرج أيبك التركماني أمين الدولة وزير الصالح اسماعيل، واستاذ داره يغمور، وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنقهما على باب قلعة ا لجبل رابع عشر ذي القعدة، وفي ليلة الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة هجم جماعة على الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب وهو يمص قصب سكر، وأخرجوه إلى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه، ودفن هناك وعمره قريب من خمسين سنة، وكانت أمه رومية من حظايا الملك العادل.

وفي هذه السنة بعد هزيمة الملك الناصر صاحب الشام، سار فارس الدين أقطاي بثلاثة آلاف إلى غزة فاستولى عليها، ثم عاد إلى الديار المصرية.........

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة

فيها توفي الصاحب محيي الدين بن مطروح، وكان متقدما عند الملك الصالح أيوب، وكان يتولى له، لما كان الصالح بالشرق، نظر الجيش، ثم استعمله على دمشق، ثم عزله، وولى ابن يغمور، وكان ابن مطروح المذكور فاضلاً في النثر والنظم فمن شعره:

عانقته فسكرت من طيب الشذا
غصن رطيب بالنسيم قد اغتذا

نشــــــوان مــــــــاشرب المدام وانما
أمســـى بخمــــر رضـــاب متنبـــذا
جـاء العـــذول يلـومنـي مـن بعـدمـا
أخـــذ الغـــرام علي فيـــه مـــأخـــذا
لا أرعـــــوي لا انثنـــي لا انتهـــي
عـــن حبـــه فليهـــذ فيـــه مـــن هـــذى
إن عشـت عشـت على الغـــرام وإن أمـت
وجـــدا بـــه وصبـــابـــة يـــا حبـــذا

وفيها جهز الملك الناصر يوسف صاحب الشام عسكراً إلى غزة، وخرج المصريون إلى السائح، وأقاموا كذلك حتى خرجت هذه السنة........

ثم دخلت سنة خمسين وستمائة

ولم يقع لنا فيها مايصلح ان يؤرخ.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة

فيها استقر الصلح بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام وبين البحرية بمصر على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن، وللملك الناصر ماوراء ذلك، وكان نجم الدين الباذرائي رسول الخليفة هو ا لذي حضر من جهة الخليفة، وأصلح بينهم على ذلك، ورجع كل إلى مقره.

وفيها قطع أيبك التركماني خبز حسام الدين ابن أبي علي الهذباني، فطلب دستورا فأعطيه، وسار إلى الشام، فاستخدمه الملك الناصر يوسف بدمشق.

ذكر احوال الملك الناصر صاحب الكرك

وفيها أفرج الملك الناصريوسف عن الملك الناصر داود بن المعظم، الذي كان صاحب الكرك،وكان قد اعتقله بقلعة حمص وذلك بشفاعة الخليفة المستعصم فيه، فأفرج عنه وأمره أن لايسكن في بلاده، فرحل الناصر داود المذكور إلى جهة بغداد، فلم يمكنوه من الوصول إليها وطلب وديعته الجوهر فمنعوه إياها، وكتب الملك الناصر يوسف إلى ملوك الاطراف أنهم لايأووه ولايميروه، فبقي الناصر داود في جهات عانة والحديثة، وضاقت به الأحوال وبمن معه، وانضم إليه جماعة من غزيه، فبقوا يرحلون وينزلون جميعا، ثم لما قوي عليهم الحر ولم يبق بالبرية عشب قصدوا أزوار الفرات يقاسون بق الليل وهواجر النهار،وكان معه أولاده، وكان لولده الظاهر شادي فهد فكان يتصيد في النهار مايزيد على عشرة غزلان، وكان يمضي للملك الناصر داود وأصحابه أياما لايطعمون غير لحوم الغزلان، واتفق أن الاشرف صاحب تل باشر وتدمر والرحبة يومئذ أرسل إلى الناصر داود مركبين موسقين دقيقاً وشعيراً، فأرسل صاحب حمص وتهدده على ذلك، ثم إن الناصر داود قصد مكانا للشرابي، واستجار به فرتب له الشرابي شيئاً دون كفايته، وأذن له في النزول بالأنبار وبينها وبين بغداد ثلاثة أيام، والناصر داود مع ذلك يتضرع إلى الخليفة المستعصم فلا يجيب ضراعته، ويطلب وديعته فلا يرد لهفته، ولايجيبه إلا بالمماطلة والمطاولة، وكانت مدة مقامه متنقلا في

الصحارى مع غزيه قريب ثلاثة أشهر، ثم بعد ذلك أرسل الخليفة وشفع فيه عند الملك الناصر، فأذن له في العود إلى دمشق ورتب له مائة ألف درهم على بحيرة فامية وغيرها، فلم يتحصل له من ذلك إلاّ دون ثلاثين ألف درهم.

وفي هذه السنة وصلت الأخبار من مكة بأن ناراً ظهرت من عدن، وبعض جبالها، بحيث كانت تظهر في الليل دخان عظيم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة........

ذكر مقتل أقطاي

....في هذه السنةاغتال الملك المعز أيبك التركماني المستولي على مصر خوشداشه أقطاي الجمدار، وأوقف له في بعض دهاليز الدور التي بقلعة الجبل ثلاثة مماليك هم: قطز، وبهادر، وسنجر العجمي، فلما مر بهم فارس الدين أقطاي ضربوه بسيوفهم فقتلوه، ولما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر إلى الشام، وكان الفارس أقطاي يمنع أيبك من الاستقلال بالسلطنة، وكان الاسم للملك الاشرف موسى بن يوسف بن يوسف ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فلما قتل أقطاي استقل المعز التركماني بالسلطنة، وأبطل الاشرف موسى المذكور منها بالكلية، وبعث به إلى عماته القطبيات وموسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر، وكان انقضاء دولتهم من الديار المصريةفي هذه السنة على ماشرحناه، ووصلت البحرية إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام وأطمعوه في ملك مصر، فرحل من دمشق بعسكر ونزل عمقا من الغور، وأرسل إلى غزة عسكراً فنزلوا بها، وبرز المعز أيبك صاحب مصر إلى العباسية، وخرجت السنة وهم على ذلك.

وفيها قـدمت ملكـة خاتـون بنت كيقبـاذ ملك بـلاد الروم إلى زوجهـا الملك الناصر يوسف صاحب الشام.

وفيهـا ولى الملك المنصـور صاحـب حماة قضـاء حماة للقاضي شمـس الدين إبراهيم بن هبة الله بـن البارزي، بعد عزل القاضي المحيي حمزة بن محمد.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة

فيها عزمت العزيزية، المقيمون مع المعز أيبك على القبض عليه، وعلم بذلـك واستعد لهم، فهربوا مـن مخيمهم على العباسية على حميـة، واحتيط على وطاقاتهم جميعها.

وفي هذه السنـة مشى نجم الـدين البـاذرائي في الصلح بين المصريين والشـاميين، واتفــق الحال أن يكـون للملـك النـاصر الشــام جميعـه إلى العـريش، ويكـون الحد بير القـاضي، وهو بين الورادة والعـريش، وبيـد المعز أيبك الديار المصرية، وانفصل الحال على ذلك ورجع كل إلى بلده.

وفي هذه السنة أو التـي قبلها تزوج المعز أيبك شجـر الدر أم خليل، التي خطب لها بالسلطنة في ديار مصر.

وفيها طلـب الملك الناصر داود من الملـك الناصر يوسـف دستورا إلى العراق بسبب طلـب وديعته من الخليفة، وهي الجوهر الـذي تقدم ذكره، وأن يمضي إلى الحج فأذن له النـاصر يوسف في ذلك، فسـار الناصر داود إلى كـربـلاء ثـم مضى منهـا إلى الحج، ولما رأى قبر النبـي ﷺ تعلـق في استار الحجرة الشريفة بحضور الناس، وقـال:اشهدوا أن هذا مقامي من رسول الله ﷺ داخلا عليه مستشفعاً بـه إلى ابن عمه المستعصم في أن يرد على وديعتـي، فـأعظم النـاس ذلـك، وجـرت عبراتهم وارتفع بكـاؤهـم،

وكتب بصورة ماجرى مشروح، ورفع إلى أمير الحاج كيخسرو، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وتوجه الناصر داود مع الحاج العراقي وأقام ببغداد.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة

فيها مات كيخسرو ملك بلاد الروم، وأقيم في السلطنة ولداه الصغيران عز الدين كيكاوس، وركن الدين قليج أرسلان.

وفيها توجه كمال الدين المعروف بابن العديم رسولاً من الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الخليفة المستعصم، وصحبته تقدمة جليلة، وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه، ووصل من جهة المعز أيبك صاحب مصر شمس الدين سنقر الأقرع، وهو من مماليك المظفر غازي صاحب ميافارقين إلى بغداد بتقدمة جليلة، وسعى في تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب دمشق، فبقي الخليفة متحيراً، ثم أحضر سكينا من اليشم[حجر كريم] كبيرة وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة مني في أن له خلعة عندي في وقت آخر، وأما في هذا الوقت فلا يمكني، فأخذ كمال الدين بن العديم السكين، وعاد إلى الناصر يوسف بغير خلعة.

ذكر غير ذلك

فيها جرى للناصر داود مع الخليفة ماصورته انه لما أقام ببغداد بعد وصوله مع الحجاج واستشفاعه بالنبي ﷺ في رده وديعته، أرسل الخليفة المستعصم من حاسب الناصر داود المذكور على ماوصله في ترداده إلى بغداد من المضيف مثل اللحم، والخبز، والحطب، والعلف، والتبن، وغير

ذلـك وثمن عليـه ذلك بـأغلى الأثمان، وأرسل إليـه شيئاً نـزراً وألزمـه أن يكتب خطه بقبض وديعتـه وأنه مابقي يستحق عند الخليفـة شيئاً، فكتب خطه بـذلك كـرها، وسـار عن بغـداد وأقام مـع العرب، ثـم أرسل إليـه الناصر يوسـف بن العزيز بن غـازي بن يوسف صاحـب الشام، فطيب قلبه وحلف له، فقدم الناصر داود إلى دمشق ونزل بالصالحية.

وفي هذه السنـة يوم الأحـد ثالث شـوال، توفي سيف الـدين طغـريل، مملوك الملـك المظفر محمود صاحـب حماة، وكان قد زوجه المظفـر المذكور بـأخته، وقـام بتـدبير مملكـة حماة بعد وفـاة الملـك المظفـر حتى تـوفي في التاريخ المذكور.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة

ذكر مقتل المعز أيبك التركماني

وفي هذه السنة في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول، قتل الملك المعز أيبـك التركماني الجاشنكير الصالحي، قتلته امرأتـه شجر الدر، التي كـانت امـرأة أستاذه الملـك الصالـح أيوب، وهـي التي خطـب لها بـالسلطنـة في ديار مصر، وكـان سبـب ذلـك أنـه بلغها أن المعـز أيبـك المذكور قـد خطب بنـت بدر الـدين لؤلـؤ صاحـب الموصل، ويـريد أن يتزوجهـا، فقتلته في الحمام بعـد عوده من لعـب الكرة في النهـار المذكور، وكان الذي قتله سنجر الجوجـري، مملوك الطواشي محسن، والخدام حسبما اتفقـت معهم شجـر الـدر، وأرسلت في تلـك الليلـة أصبـع المعز أيبـك وخاتمه إلى الامير عـز الديـن الحلبي الكبير، وطلبت منـه أن يقوم بـالأمر، فلم يجسر على ذلـك، ولما ظهر الخبر أراد ممـاليك المعـز أيبك قتـل شجر الدر، فحماهـا المماليك الصالحيـة، فاتفقت الكلمة على إقـامة نور الـدين

علي ابـن الملك المعـز أيبك، ولقبـوه الملـك المنصور، وعمـره يومئـذ خمس عشرة سنة، ونقلـت شجر الدر من دار السلطنـة إلى البرج الأحمر، وصلبوا الخدام الذين اتفقـوا معها على قتل المعز أيبك، وهـرب سنجر الجوجري، ثـم ظفروا بـه وصلبوه، واحتيـط على الصاحـب بهاء الديـن علي بن جنـا لكونه وزير شجر الدر، وأخذ خطه بستين ألف دينار.

وفي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر من هذه السنة، اتفقت مماليك المعز أيبك مثـل سيف الـدين قطز، وسنجـر الغتمي وبهادر، وقبضـوا على علم الدين سنجر الحلبـي، وكان صار أتابكاً للملك المنصـور نور الدين علي ابـن الملك المعـز أيبـك، ورتبوا في أتـابكيـة المذكـور أقطاي المستعـرب الصالحي.

وفي سادس عشر ربيـع الآخر مـن السنة المذكـورة قُتلت شجـر الدر، وألقيت خارج البرج، فحملـت إلى تربة كانـت قد عملتها فدفنـت فيها، وكانت تـركية الجنس، وقيل كانـت أرمنية، وكانت مع الملـك الصالح في الاعتقال بالكـرك، وولدت منه ولداً اسمه خليل مـات صغيرا، وبعد أيام من ذلك خنق شرف الدين الفائزي.

ذكر مفارقة البحرية الملك الناصر يوسف صاحب الشام ابن الملك العزيز

وفي هذه السنة نقـل إلى الناصر يوسف أن البحرية يـريدون أن يفتكوا به، فاستوحـش خاطره منهم، وتقدم إليهم بالانتـزاح عن دمشق، فساروا إلى غزة، وانتموا إلى الملـك المغيث فتح الدين عمر ابـن الملك العادل أبي بكر ابـن الملك الكـامل، وانـزعج أهـل مصر لقدوم البحـرية إلى غـزة، ،برزوا إلى العباسية، ووصل من البحريةجماعة مقفزين إلى القاهرة، منهم:

عز الدين الأثرم، فأكرموهم وأفرجوا عن أملاك الأثرم، ولما فارق البحرية الناصر صاحب الشام أرسل عسكراً في أثرهم، فكبس البحرية ذلك العسكر، ونالوا منه، ثم إن عسكر الناصر بعد الكبسة كسروا البحرية فانهزموا إلى البلقاء وإلى زغر ملتجئين إلى الملك المغيث صاحب الكرك، فأنفق فيهم المغيث أموالاً جليلة، وأطمعوه في ملك مصر، فجهزهم بما احتاجوه، وسارت البحرية إلى جهة مصر، وخرجت عساكر مصر لقتالهم، والتقى المصريون مع البحرية، وعسكر المغيث بكرة السبت منتصف ذي القعدة من هذه السنة، فانهزم عسكر المغيث والبحرية، وفيهم بيبرس البندقداري المسمى بعد ذلك الظاهر إلى جهة الكرك.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة وصل من الخليفة المستعصم الخلعة والطوق والتقليد إلى الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز.

وفيها استجار الناصر داود بنجم الدين الباذرائي في أن يتوجه صحبته إلى بغداد، فأخذه صحبته وتوصل الناصر يوسف إلى منعه عن ذلك فلم يتهيأ له، وسار الناصر داود مع الباذرائي إلى قرقيسيا، فأخره الباذرائي ليشاور عليه، فأقام الناصر داود في قرقيسيا ينتظر الاذن بالقدوم إلى بغداد، فلم يؤذن له وطال مقامه، فسافر إلى البرية وقصد تيه بني اسرائيل، وأقام مع عرب تلك البلاد.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة

ذكر استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية

في أول هذه السنة قصد هولاكو ملك التتر بغداد، وملكها في العشرين من المحرم، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمي، كان رافضياً، وكان أهل الكرخ أيضاً روافض، فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جاري عادتهم، فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ، وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي، وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس، فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتر متحصل اقطاعاتهم، وصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس، وأرسل ابن العلقمي إلى التتر أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم، خرج عسكر الخليفة لقتالهم ومقدمهم ركن الدين الدوادار، والتقوا على مرحلتين من بغداد، واقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم عسكر الخليفة، ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم إلى جهة الشام، ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقي ونزل باجو، وهو مقدم كبير، في الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة، وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه، وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال: إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر، وحسن له الخروج إلى هولاكو، فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه، فأنزل في خيمة، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيي الدين بن الجوزي وأولاده، وكذلك بقي يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم، ثم مدوا الجسر وعدّى باجو ومن معه، وبذلوا السيف في بغداد، وهجموا دار الخلافة،

وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف، ولم يسلم إلاّ من كان صغيرا، فأخذ أسيراً، ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً، ثم نودي بالأمان.

وأما الخليفة فإنهم قتلوه، ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله، فقيل خنق، وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات، وقيل غرق في دجلة، والله أعلم بحقيقة ذلك، وكان هذا المستعصم وهو عبد الله أبو أحمد بن المستنصر أبي جعفر المنصور ابن محمد الظاهر ابن الامام الناصر أحمد، وقد تقدم ذكر باقي نسبه عند ذكر وفاة الامام الناصر، ضعيف الرأي، قد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره، تولى الخلافة بعد موت أبيه المستنصر في سنة أربعين وستمائة، وكانت مدة خلافته نحو ست عشرة سنة تقريباً، وهو آخر الخلفاء العباسيين، وكان ابتداء دولتهم في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وهي السنة التي بويع فيها السفاح بالخلافة، وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعاً وعشرين سنة تقريباً،وعدة خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة.

حكى القاضي جمال الدين بن واصل قال: لقد أخبرني من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ماصورته أن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض خلفاء بني أمية عنه أنه يقول إن الخلافة تصير إلى ولده، فأمر الأموي بعلي بن عبد الله فحمل على جمل وطيف به وضرب، وكان يقا ل عند ضربه: هذا جزاء من يفتري ويقول إن الخلافة تكون في ولده، فكان علي بن عبد الله المذكور رحمه الله يقول: أي والله لتكونن الخلافة في ولدي، لاتزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم، فوقع مصداق ذلك، وهو ورود هولاكو وإزالته ملك بني العباس.

ذكر الوقعة بين المغيث صاحب الكرك .وعسكر مصر

كان قد انضمت البحرية إلى المغيث بن العادل بن الكامل، ونزل من الكرك وخيم بغزة، وجمع الجموع، وسار إلى مصر في دست السلطنة، وخرجت عساكر مصر مع مماليك الملك المعز أيبك وأكبرهم سيف الدين قطز الذي صار صاحب مصر، والغتمي، وبهادر، والتقى الفريقان فكانت الكسرة على المغيث ومن معه، فولى منهزما إلى الكرك في أسوأ حال ونهبت أثقاله ودهليزه.

ذكر وفاة الناصر

وفي هذه السنة، أعني سنة ست وخمسين وستمائة، في ليلة السبت السادس والعشرين من جمادى الأولى توفي الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، بظاهر دمشق في قرية يقال لها البويضا، ومولده سنة ثلاث وستمائة فكان عمره نحو ثلاث وخمسين سنة، وكنا قد ذكرنا أخباره في سنة خمس وخمسين، وأنه توجه إلى تيه بني اسرائيل، وصار مع عرب تلك البلاد، وبلغ المغيث صاحب الكرك وصوله إلى تلك الجهة فخشي منه، وأرسل إليه فقبض عليه وحمله إلى بلد الشوبك، وأمر بحفر مطمورة ليحبسه فيها، وبقي الملك الناصر المذكور ممسوكا والمطمورة تحفر قدامه ليحبس فيها، فبينما هو على تلك الحال إذ ورد رسول الخليفة المستعصم يطلبه من بغداد لما قصده التتر، ليقدمه على بعض العساكر لملتقى التتر، فلما ورد رسول الخليفة إلى دمشق جهزوه إلى المغيث صاحب الكرك، ووصل الرسول إلى موضع الملك الناصر قبل أن يتم المطمورة، فأخذه وسار به إلى جهة دمشق، فبلغ الرسول استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة، فتركه الرسول ومضى لشأنه، فسار الناصر داود إلى البويضا، وهي قرية شرقي دمشق، وأقام بها ولحق الناس في الشام في تلك المدة طاعون مات منه الناصر داود

المذكور في التاريخ المذكور، وخرج الملك الناصر يوسف صاحب دمشق إلى البويضا، وأظهر عليه الحزن والتأسف، ونقله ودفنه بالصالحية في تربة والده المعظم، وكان الناصر داود فاضلاً ناظماً ناثراً، وقرأ العلوم العقلية على الشيخ شمس الدين عبد الحميد الخسرو شاهي، تلميذ الامام فخر الدين الرازي، وللناصر داود المذكور أشعار جيدة قد تقدم بعضها ومن شعره أيضا:

عيـــون عـــن السحـــر المبين تبين
لها عنـــد تحريـــك القلـــوب سكـــون

تصـــول ببيـــض وهـــي ســـود فرنـــدها
ذبـــول فتـــور والجفـــون جفـــون

إذا مـــا رأت قلبـــا خليـــاً مـــن الهوى
تقـــول لـــه كـــن مغـــرمـــا فيكـــون

وله أيضاً:

طـــرفي وقلبـــي قـــاتـــل وشهيـــد
ودمـــي على خـــديـــك منـــه شهـــود

أمـــا وحبـــك لســـت أضمـــر سلـــوة
عـــن صبـــوتي ودع الفـــؤاد يبيـــد

منـــي بطيفـــك بعـــد مـــا منـــع الكـــرى
عـــن نـــاظـــري البعـــد والتسهيـــد

ومـــن العجـــائب أن قلبـــك لم يلـــن
لي والحديـــد ألانـــه داود

ومما كتب به في أثناء مكاتبته إلى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، وكان قد أغارت الفرنج على نابلس في أيام الملك الصالح أيوب صاحب مصر

أيـــا ليـــت أمـــي أيـــم طـــول عمـــرهـــا
فلـــم يقضهـــا ربي لمولى ولا بعـــل

ويا ليتها لما قضاها السيد
لبيب أريب طيب الفرع والاصل
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا
فما بشرت يوما بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غدت بي حاملا
أصيبت بما احتفت عليه من الحمل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت
تشد إلى الشدقميات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم
ولم أر في الاسلام ما فيه من خل

ذكر وفاة الصاحبة غازية خاتون والدة الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة في ذي القعدة توفيت الصاحبة غازية خاتون بنت السلطان الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بقلعة حماة رحمها الله تعالى، وكان قدومها إلى حماة في سنة تسع وعشرين وستمائة، وولد لها من الملك المظفر محمود صاحب حماة ثلاث بنين، مات أحدهم صغيراً، وكان اسمه عمر، وبقي الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه والد الملك الأفضل علي، وولد لها منه ثلاث بنات أيضاً، فتوفيت الكبرى منهن، وكان اسمها ملكة خاتون قبل وفاة والدتها بقليل، وتوفيت الصغرى وهي دنيا خاتون بعد وفاة أخيها الملك المنصور، وسنذكر وفاة الباقين في مواضعها إن شاء الله تعالى، وكانت الصاحبة غازية المذكورة من أحسن النساء سيرة وزهداً وعبادة، وحفظت الملك لولدها الملك المنصور حتى كبر، وسلمته إليه قبل وفاتها رحمها الله تعالى.

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هـذه السنة قصـدت التتر ميافـارقين بعد استيـلائهم على بغـداد، وكان صـاحب ميـافارقين حينئذ الملـك الكامل محمـد ابن الملـك المظفر شهـاب الديـن غازي ابـن الملك العـادل أبي بكـر بن أيـوب، وكان قـد ملكهـا بعـد وفـاة أبيـه في سنـة اثنتين وأربعين وستمائة فحـاصره التتر وضايقـوا ميافارقين مضـايقة شديـدة، وصبر أهل ميـافارقين مع الكـامل محمد المذكور على الجوع الشـديد، ودام ذلك حتى كان منه مـاسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها اشتـد الوبـاء بالشـام خصوصاً بدمشـق حتى لم يـوجد مغسـل للموتى.

وفيهـا توفي الصـاحـب بهاء الديـن زهير بن محمـد بـن علي بن يحيـى المهلبي، كـاتب إنشـاء الملك الصـالح أيـوب، ومولـد بهاء الديـن زهير بـوادي نخلـة مـن مكة سنـة إحـدى وثمانين وخمسمائة، وفي آخـر عمـره انكشف حاله وباع موجوده وكتبـه، وأقام في بيته في القاهرة حتى أدركته وفاته بسبب الـوباء العام، في يوم الأحد رابع ذي القعـدة من هذه السنة، أعني سنـة ست وخمسين وستمائة، ودفن بـالقرافـة الصغرى، وكان كـريم الطباع غزير المروءة فاضلاً، حسـن النظم وشعره مشهور كثير، فمن شعره وهو وزن مخترع ليس بخرجة العروض أبيات منها:

يـا مـن لعبـت بـه شمـول ... مـا ألطـف هـذه الشمائل

مـولاي يحق لي بـأني ... عـن حبـك في الهوى أقـاتـل

هـا عبـدك واقفـاً ذليـلا ... بـالبـاب يمـد كـف سـائل

مـــن وصلـــك بـــالقليـــل يـــرضـــى
والطـــل مـــن الحبيـــب وابـــل

وفي هذه السنـة توفي بمصر الشيخ ركن الـدين عبد العظيـم شيخ دار الحديث، وكان من أئمة الحديث المشهورين.

وفيها توفي الشيخ شمس الدين يـوسف سبط جمال الدين بن الجوزي، وكان مـن الوعـاظ الفضلاء ألف تـاريخاً جامعاً سماه مـرآة الزمـان، وفيها توفي سيف الـدين علي بن سابق الـدين قزل، المعروف بابـن المشد، وكان أميراً مقدمـاً في دولة الملـك الناصر يـوسف صـاحب الشـام، وله شعـر حسن فمنه:

بـــاكـــر كـــؤوس المدام واشرب
واستجـــل وجـــه الحبيـــب واطـــرب
ولا تخف للهمـــــــــــوم داء
فهـــــي دواء لـــــــه مجرب
مـــن يـــد ســـاق لـــه رضـــاب
كـــالشهـــد لكـــن جنـــاه أعـــذب

وفيها كان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين، وبين عسكر الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ومقـدمهم الأمير مجير الدين بن أبي زكرى مصاف بظـاهر غزة، انهزم فيـه عسكر النـاصر يوسف، وأسر مجير الـدين المذكور، وقوي أمر البحرية بعد هذه الكسرة، وأكثروا العيث والفساد.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة

فيهـا سار عـز الـديـن كيكاووس، وركـن الـديـن قليج أرسـلان ابنـا كيخسرو بن كيقباذ إلى خدمة هولاكو، وأقاما معه مدة، ثم عادا.

ذكر وفاة بدر الدين صاحب الموصل

في هذه السنة توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان يلقب الملك الرحيم، وكان عمره قد جاوز ثمانين سنة، ولما مات ملك بعده الموصل ولده الملك الصالح بن لؤلؤ، وملك سنجاروولده الآخر علاء الدين بن لؤلؤ، وكان بدر الدين قد صانع هولاكو ودخل في طاعته،وحمل إليه الأموال، ووصل إلى خدمة هولاكو بعد أخذ بغداد ببلاد أذربيجان، وكان صحبة لؤلؤ الشريف العلوي ابن صلايا، فقيل إن لؤلؤ سعى به إلى هولاكو فقتل الشريف المذكور، ولما عاد لؤلؤ إلى الموصل لم يطل مقامه بها حتى مات، وطالت أيام بدر الدين لؤلؤ في ملك الموصل، فإنه كان القائم بأمور استاذه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن أقسنقر، وقام بتدبير ولده الملك القاهر بن أرسلان شاه، ولما توفي الملك القاهر بن أرسلان شاه في سنة خمس عشرة وستمائة انفرد لؤلؤ بتدبير المملكة، وأقام ولدي القاهر الصغيرين واحداً بعد واحد، واستبد بملك الموصل وبلادها ثلاثاً وأربعين سنة تقريباً، ولم يزل في ملكه سعيدا لم تطرقه آفة، ولم يختل لملكه نظام.

ذكر منازلة الملك الناصر يوسف صاحب الشام الكرك

في هذه السنة لما جرى من البحرية ماذكرناه من كسر عسكر الناصر يوسف، سار الناصر المذكور من دمشق بنفسه وعساكره، وسار في صحبته الملك المنصور صاحب حماة بعسكره إلى جهة الكرك، وأقام على بركة زيزاء محاصراً للملك المغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية، ووصل إلى الملك الناصر رسل الملك المغيث صاحب الكرك والقطبية بنت الملك المفضل قطب الدين ابن الملك العادل، يتضرعون

إلى الملك النـاصر ويطلبون رضاه عـن الملك المغيث، فلـم يجب إلى ذلك إلاّ بشرط أن يقبض المغيـث على من عنده من البحـرية، فأجـاب المغيث إلى ذلك، وعلـم بالحال ركـن الدين بيبرس البنـدقداري فهـرب في جماعة من البحرية، ووصل بهم إلى الملك الناصر يـوسف فأحسن إليهم، وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية، ومن جملتهم سنقر الأشقر وتنكز، وبـرامق، وأرسلهـم على الجمال إلى الملـك النـاصر، فبعث بهم إلى حلـب فـاعتقلـوا بها، واستقـر الصلح بين الملـك النـاصر وبين الملـك المغيـث صاحـب الكرك، وكـانت مـدة مقام الملك النـاصر بالعسـاكر على بـركة زيزاء مـايزيـد على شهريـن بقليل، ثـم عاد إلى دمشـق، وأعطى للملـك المنصور صاحب حماة دستوراً فعاد إلى بلده.

ذكر سلطنة قطز

وفي أواخر هـذه السنة أعني سنـة سبع وخمسين وستمائة في أوائل ذي الحجة قبض سيف الدين قطز على ولـد استاذه الملك المنصور نور الدين علي بـن المعز أيبـك، وخلعه مـن السلطنة، وكـان علم الـدين الغتمـي، وسيف الدين بهادر، وهما من كبار المعزيـة غائبين في رمي البندق، فانتهز الفرصة في غيبتهما، وفعـل ذلك، ولما قدم الغتمي وبهادر المذكـوران قبض عليهما قطز أيضـاً، واستقر قطز في ملك الـديار المصرية، وتلقب بـالملك المظفـر، وكان رسـول الملك النـاصر يوسـف صاحـب الشام، وهـو كمال الدين المعروف بـابن العديم قد قدم إلى مصر في أيـام الملك المنصور علي ابـن أيبـك مستنجـداً على التتر، واتفق خلـع علي المذكـور وولايـة قطـز بحضرة كمال الدين بـن العديم، ولما استقر قطز في السلطنـة أعاد جواب الملك النـاصر يوسف انـه ينجده ولايقعد عن نصرتـه، وعاد ابن العـديم بذلك.

ذكر مولد الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة أعني سنة سبع وخمسين وستمائة، في الساعة العاشرة من ليلة الأحد خامس عشر المحرم، وثاني عشر كانون الثاني، ولد محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولقبوه الملك المظفر، بلقب جده، وأم الملك المظفر محمود المذكور عائشة خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهنأ الشيخ شرف الدين عبد العزيز المعروف بشيخ الشيوخ الملك المنصور صاحب حماة بقصيدة طويلة منها

ابشر على رغم العدى والحسد
بأجل مولود وأكرم مولد
بالنعمة الغراء بل بالدولة الزهـ
ـراء بل بالمفخر المتجدد
وافاك بدرا كاملا في ليلة
طلعت عليك نجومها بالأسعد
ما بين محمود المظفر أسفرت
عنه وما بين العزيز محمد

ذكر قصد هولاكو الشام

وفي هذه السنة قدم هولاكو إلى البلاد التي شرقي الفرات، ونازل حران وملكها، واستولى على البلاد الجزرية، وأرسل ولده شموط بن هولاكو إلى الشام، فوصل إلى ظاهر حلب في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة سبع وخمسين وستمائة، وكان الحاكم

في حلب الملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين نائبا عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب لقتالهم، وخرج الملك المعظم، ولم يكن من رأيه الخروج إليهم، وأكمن لهم التتر في بابلى المعروف بباب الله وتقاتلوا عند بانقوسا، فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد، ثم عادوا عليهم، وهرب المسلمون طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد، واختنق في أبواب البلد جماعة من المنهزمين، ثم رحل التتر إلى اعزاز فتسلموها بالأمان.

ذكر ماكان من الملك الناصر عند قصد التتر حلب

ولما بلغ الملك الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب، برز من دمشق إلى برزه في أواخر السنة الماضية، وجفل الناس من بين يدي التتر، وسار من حماة إلى دمشق الملك المنصور صاحب حماة، ونزل معه ببرزه، وكان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقداري من حين هرب من الكرك، والتجأ إلى الناصر، فاجتمع عند الملك الناصر عند برزه أمم عظيمة من العساكر والجفال، ولما دخلت هذه السنة والملك الناصر ببرزه، بلغه أن جماعة من مماليكه قد عزمواعلى اغتياله والفتك به، فهرب الملك الناصر من الدهليز إلى قلعة دمشق، وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا على حمية إلى جهة غزة، وكذلك سار بيبرس البندقداري إلى جهة غزة، وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الملك الناصر، وانما كان قصدهم أن يقبضوا عليه ويسلطنوا أخاه الملك الظاهر غازي ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين لشهامته، ولما جرى ذلك هرب الملك الظاهر المذكور خوفا من أخيه الملك الناصر، وكان الظاهر المذكور شقيق الناصر، أمهما أم ولد تركية، ووصل الملك الظاهر غازي إلى غزة، واجتمع عليه من بها من العسكر وأقاموه سلطانا، ولما جرى ذلك كاتب بيبرس البندقداري الملك المظفر قطز صاحب مصر، فبذل له الأمان ووعده

الوعـود الجميلة، ففارق بيبرس البنـدقداري الشـاميين، وسار إلى مصر في جماعة من أصحابه، فأقبل عليـه الملك المظفر قطز، وأنزله في دار الوزارة، وأقطعه قليوب وأعمالها.

ذكر استيلاء التتر على حلب وعلى الشام جميعه ومسير الملك الناصر عن دمشق ووصول عساكره إلى مصر وانفراد الملك الناصر عنهم

في هذه السنـة أعني سنـة ثمان وخمسين وستمائة، في يوم الأحـد تاسـع صفـر كـان استيـلاء التتر على حلـب، وسببـه أن هـولاكـو عبر الفـرات بجموعـه، ونازل حلـب وأرسل هـولاكو إلى الملـك المعظم تـورانشاه بـن صلاح الـدين نائب السلطنـة بحلب يقول لـه: إنكم تضعفون عـن لقاء المغل، ونحن قصدنا الملك الناصر، والعساكـر فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة، ونتوجـه نحن إلى العسكر، فإن كانت الكسرة على عسكر الاسلام كـانت البلاد لنا وتكونون قـد حقنتم دماء المسلمين، وإن كانـت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين إن شئتـم طردتموهما، وإن شئتـم قتلتموهما، فلـم يجب الملـك المعظم إلى ذلـك، وقـال: ليس لكـم عنـدنا إلا السيـف، وكان رسـول هولاكـو إليهم في ذلـك صاحـب أرزن الـروم، فتعجب مـن هذا الجواب وتـألم لما علـم من هـلاك أهل حلـب بسبب ذلك، وأحاط التتر بحلب ثاني صفـر وهجموا النواثر في غد ذلك اليوم، وقتـل من المسلمين جماعة كثيرة، وممن قتـل أسد الدين ابـن الملك الزاهر بن صـلاح الدين، واشتدت مضايقة التتر للبلـد وهجموه من عند حمام حمدان في ذيـل قلعة الشريـف في يـوم الأحد تـاسـع صفـر، وبذلـوا السيف في المسلمين، وصعـد إلى القلعة خلق عظيم، ودام القتـل والنهب مـن نهار الأحـد المذكـور إلى ا لجمعـة رابـع عشر صفـر المذكـور، فـأمـر هولاكو بـرفع السيف، ونودي بـالأمان، ولم يسلم من أهـل حلب إلاّ من التجأ إلى دار شهاب الـدين ابن عمرون، ودار نجم الديـن أخي مردكين،

ودار البازيار، ودار علم الدين قيصر الموصلي، والخانكاه التي فيها زين الدين الصوفي، وكنيسة اليهود، وذلك لفرمانات كانت بأيديهم، وقيل أنه سلم بهذه الاماكن مايزيد على خمسين ألف نفس، ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها الملك المعظم ومن التجأ اليها من العسكر، واستمر الحصار عليها وكان من ذلك ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك من أحوال حماة وأحوال الملك الناصر بعد أخذ حلب

كان قد تأخر بحماة الطواشي مرشد، لماسار صاحب حماة إلى دمشق، فلما بلغ أهل حماة فتح حلب توجه الطواشي مرشد من حماة إلى عند الملك المنصور صاحب حماة بدمشق، ووصل كبراء حماة إلى حلب ومعهم مفاتيح حماة وحملوها إلى هولاكو، وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة يكون عندهم، فأمنهم هولاكو، وأرسل إلى حماة شحنة رجلاً أعجميا كان يدعي أنه من ذرية خالد بن الوليد، يقال له خسروشاه، فقدم خسروشاه إلى حماة وتولاها وأمن الرعية، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قيماز أمير جندار، فسلم القلعة إليه ودخل في طاعة التتر، ولما بلغ الملك الناصر بدمشق أخذ حلب رحل من دمشق بمن بقي معه من العسكر إلى جهة الديار المصرية، وفي صحبته الملك المنصور صاحب حماة، وأقام بنابلس أياماً، ورحل عنها وترك فيها الأمير مجير الدين بن أبي زكرى، والأمير علي بن شجاع، ومعهما جماعة من العسكر، ثم سار الملك الناصر إلى غزة فانضم إليه مماليكه الذين كانوا أرادوا قتله، وكذلك اصطلح معه أخوه الملك الظاهر غازي، وانضم إليه، وبعد مسير الملك الناصر عن نابلس وصل التتر إليها وكبسوا العسكر الذين بها، وقتلوا مجير الدين والأمير علي بن شجاع، وكانا أميرين جليلين فاضلين، وكان

البحرية قد قبضوا عليهما واعتقلوهما بالكرك وأفرج عنهما المغيث لما وقع الصلح بينه وبين الناصر، ولما بلغ الملك الناصر وهو بغزة ماجرى من كبسة التتر لنابلس رحل من غزة إلى العريش، وسير القاضي برهان الدين ابن الخضر رسولاً إلى الملك المظفر صاحب مصر يطلب منه المعاضدة، ثم سار الملك الناصر، والملك المنصور صاحب حماة، والعسكر ووصلوا إلى قطية، فجرى بها فتنة بين التركمان والأكراد الشهرزورية، ووقع نهب في الجفال، وخاف الملك الناصر أن يدخل مصر فيقبض عليه، فتأخر في قطية، ورحلت العساكر والملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، وتأخر مع الملك الناصر جماعة يسيرة منهم أخوه الظاهر غازي، والملك الصالح بن شيركوه صاحب حمص، وشهاب الدين القيمري، ثم سار الملك بمن معه من قطية إلى جهة تيه بني اسرائيل، ولما وصلت العساكر إلى مصر التقاهم الملك المظفر قطز بالصالحية وطيب قلوبهم، وأرسل إلى الملك المنصور صاحب حماة سنجقاً والتقاه ملتقى حسنا، وطيب قلبه ودخل القاهرة، وأما التتر فانهم استولوا على دمشق، وعلى سائر الشام إلى غزة، واستقرت شحائنهم بهذه البلاد.

ذكر استيلاء التتر على قلعة حلب والمتجددات بالشام

أما قلعة حلب فوثب جماعة من أهلها في مدة الحصار على صفي الدين بن طرزه رئيس حلب، وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز بن أحمد ابن القاضي نجم الدين بن أبي عصرون فقتلوهما، لأنهم اتهموهما بمواطأة التتر، واستمر الحصار على القلعة، واشتدت مضايقة التتر لها نحو شهر ، ثم سلمت بالأمان في يوم الاثنين الحادي عشر من ربيع الأول من هذه السنة، ولما نزل أهلها بالأمان، وكان فيها جماعة من البحرية الذين حبسهم الملك الناصر فمنهم تنكز، وبرامق، وسنقر

الأشقر، فسلمهم هولاكو هم وباقي الترك إلى رجل من التتر يقال له سلطان حق، وهو رجل من أكابر القبجاق هرب من التتر لما غلبت على القبجاق، وقدم إلى حلب فأحسن إليه الملك الناصر، فلم تطب له تلك البلاد، فعاد إلى التتر، وأما العوام والغرباء فنزلوا إلى أماكن الحمى التي قدمنا ذكرها، وأمر هولاكو أن يمضي كل من سلم إلى داره وملكه وأن لايعارض، وجعل النائب بحلب عماد الدين القزويني، ووصل إلى هولاكو على حلب الملك الأشرف صاحب حمص موسى بن ابراهيم شيركوه، وكان قد انفرد الاشرف المذكور عن المسلمين لماتوجه الملك الناصر إلى جهة مصر، ووصل إلى هولاكو بحلب فأكرمه هولاكو، وأعاد عليه حمص، وكان قد أخذها منه الملك الناصر صاحب حلب في سنة ست وأربعين وستمائة وعوضه عنها تل باشر على ماتقدم ذكره، فعادت إليه في هذه السنة، واستقر ملكه بها، وقدم أيضا إلى هولاكو وهو نازل على حلب محيي الدين بن الزكي من دمشق، فأقبل عليه هولاكو، وخلع عليه وولاه قضاء الشام، ولما عاد ابن الزكي المذكور إلى دمشق لبس خلعة هولاكو، وكانت مذهبة وجمع الفقهاء وغيرهم من أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولاكو، واستقر في القضاء، ثم رحل هولاكو إلى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب، فأحضره هولاكو وسلموها إليه فغضب هولاكو من ذلك وأمر بهم فقتل أهل حارم عن آخرهم، وسبى النساء، ثم رحل هولاكو بعد ذلك وعاد إلى الشرق، وأمر عماد الدين القزويني بالرحيل إلى بغداد فسار إليها وجعل مكانه بحلب رجلاً أعجميا، وأمر هولاكو بخراب أسوار قلعة حلب، وأسوار المدينة فخربت عن آخرها، وأعطى هولاكو الأشرف موسى صاحب حمص الدستور ففارقه ووصل إلى حماة ونزل في دار المبارز، وأخذ في خراب سور قلعة حماه بتقدم هولاكو إليه بذلك، فخربت أسوارها وأحرقت زردخانتها، وبيعت الكتب التي كانت بدار السلطنة بقلعة حماة بأبخس الأثمان، وأما أسوار مدينة حماة فلم تخرب لأنه كان بحماة رجل

يقال لـه ابراهيم بن الافـرنجية ضامـن الجهة المفردة بذل لخسروشـاه جملة كثيرة من المال وقـال الفرنـج قريـب منا بحصـن الأكراد ومتـى خربـت أسوار المدينـة لايقدر أهلها على المقام فيهـا، فأخذ منـه المال ولم يتعرض لخراب أسـوار المدينة، وكـان قد أمـر هولاكـو الأشرف موسـى صاحـب حمص بخـراب قلعة حمص أيضـا فلـم يخرب منهـا إلا شيئا قليـلا لأنها مدينته، وأما دمشق فانهم لما ملكوا المدينـة بالامان لم يتعرضوا إلى قتل ولا نهب، وعصـت قلعـة دمشـق عليهم فحـاصرهـا التتر، وجـرى على أهـل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة، وضـايقوا القلعة وأقاموا عليها المجانيق ثـم تسلموها بالامان في منتصف جمادى الأولى مـن هذه السنة، ونهبـوا جميع مـافيها وجـدوا في خراب أسـوار القلعة وإعـدام ما بها مـن الزردخانات، والآلات، ثم توجهوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها.

ذكر استيلاء التتر على ميافارقين وقتل الملك الكامل صاحبها

وفي هـذه السنـة، أعنـي سنـة ثمان وخمسين وستمائة استـولى التتر على ميافارقين، وقـد تقدم ذكر نزولهم عليهـا ومحاصرتها في سنة ست وخمسين، واستمـر الحصار عليهـم مـدة سنتين حتى فنيـت أزوادِهـم، وفني أهلهـا بالوباء وبالقتل، وصاحبها الملـك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابـن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مصابـراً ثابتاً، وضعف من عنده عـن القتال فـاستولى التتر عليها، وقتلوا صاحبها الملـك الكامل المذكور، وحملـوا رأسه على رمح وطيف بـه في البلاد، ومروا بـه على حلب وحماة، ووصلـوا به إلى دمشـق في سابـع عشريـن جمادى الأولى من هـذه السنـة، أعني سنـة ثمان وخمسين وستمائة، وطافـوا به في دمشـق بالمغـاني والطبـول، وعلق رأس المذكـور في شبكـة بسور باب الفـراديس إلى أن

عادت دمشق إلى المسلمين، فدفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس، وفيه يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة أبياتاً منها:

ابن غازي غزا وجاهد قوما ... أثخنوا في العراق والمشرقين

طاهراً عاليا ومات شهيدا ... بعد صبر عليهم عامين

لم يشنه إذ طيف بالرأس منه ... وله أسوة برأس الحسين

ثم واروا في مشهد الرأس ذاك ... الرأس واستعجبوا من الحالين

ذكر اتصال الملك الناصر بالتتر واستيلائهم على عجلون وغيرها من قلاع الشام

أما الملك الناصر يوسف فانه لما انفرد عن العسكر من قطية، وسار إلى تيه بني اسرائيل، بقي متحيرا إلى أين يتوجه، وعزم على التوجه إلى الحجاز، وكان له طبر دار كردي اسمه حسين، فحسن له المضي إلى التتر، وقصد هولاكو فاغتر بقوله ونزل ببركة زيزاء وسار حسين الكردي إلى كتبغا نائب هولاكو، وعرفه بموضع الملك الناصر، فأرسل كتبغا إليه وقبض عليه وأحضره إلى عجلون، وكانت بعد عاصية، فأمرهم الملك الناصر بتسليمها فسلمت إليهم فهدموها، وكنا قد ذكرنا حصار التتر لبعلبك فتسلموها قبيل تسليم عجلون وخربوا قلعتها أيضاً، وكان بالصبيبة صاحبها الملك السعيد ابن الملك العزيز ابن الملك العادل فسلم الصبيبة إليهم، وصار الملك السعيد المذكور معهم، وأعلن بالفسق والفجور وسفك دماء المسلمين، وأما الملك الناصر يوسف فان كتبغا

بعث به إلى هـولاكو، فوصل إلى دمشق ثـم إلى حماة وبها الأشرف صاحب حمص، فخرج إلى لقائه هـو وخسروشاه النائب بحماة، ثم سـار إلى حلب فلما عاينها الملك الناصروماقد حل بها وبأهلها تضاعف تألمه وأنشد:

يعـــز علينـــا أن نـــرى ربعكـــم يبلى
وكـــانـــت بـــه آيـــات حسنكـــم تتلى

ثم سـار إلى الاردو فأقبل عليه هـولاكو، ووعده برده إلى مملكتـه، وكان منه ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك

وفي خـامس عشر شعبـان مـن هذه السنـة أخـرج التتر من الاعتقـال نقيب قلعـة دمشق وواليها، وضربـوا أعناقهما بـداريا، واشتهر عنـد أ هل دمشق خروج العسـاكر من مصر لقتال التتر، فـأوقعوا بالنصارى، وكـانوا قـد استطالـوا على المسلمين بدق النـواقيس وإدخـال الخمر إلى الجامـع، فنهبهـم المسلمون في سـابـع عشرين رمضـان من هـذه السنـة، وأخربـوا كنيسة مـريم، وكـانت كنيسـة عظيمة، وكـانت كنيسـة مريـم في جانـب دمشق الذي فتحـه خالد بن الـوليد بالسيف فبقيـت بيد المسلمين،وكان ملاصـق الجامع كنيسة وهـي من الجانب الذي فتحـه أبو عبيدة بـالامان فبقيت بـأيدي النصـارى، فلما ولي الوليـد بن عبـد الملك الخلافـة خرب الكنيسة الملاصقة للجـامع وأضافها إليه، ولم يعـوض النصارى عنها، فلما ولي عمـر بن عبـد العزيـز عوضهـم بكنيسة مـريم عـن تلك الكنيسـة، فعمروها عمارة عظيمـة، وبقيت كذلك حتى خربها المسلمـون في التاريخ المذكور.

ذكر هزيمة التتر وقتل كتبغا

وفي هذه السنة أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة كانت هزيمة التتر في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان على عين جالوت، وكان من حديثها أنه لما اجتمعت العساكر الاسلامية بمصر، عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر، وسار من مصر بالعساكر الاسلامية، وصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة، وأخوه الملك الأفضل علي، وكان مسيره من الديار المصرية في أوائل رمضان من هذه السنة، ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام ومقدم التتر، مسير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من في الشام من التتر، وسار إلى لقاء المسلمين، وكان الملك السعيد صاحب الصبيبة ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا، وتقارب الجمعان في الغور والتقوا يوم الجمعة المذكور، فانهزمت التتر هزيمة قبيحة، وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه، وتعلق من سلم من التتر برؤوس الجبال، وتبعهم المسلمون فأفنوهم، وهرب من سلم منهم إلى الشرق، وجرد قطز ركن الدين بيبرس البندقداري في إثرهم فتبعهم المسلمون إلى أطراف البلاد الشرقية، وكان أيضا في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص، ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه، ووصل إليه فأكرمه وأقره على مابيده وهو حمص ومضافاتها، وأما الملك السعيد صاحب الصبيبة فإنه أمسك أسيراً، وأحضره بين يدي الملك المظفر قطز، فأمر به فضربت عنقه بسبب ماكان المذكور قد اعتمده من السفك والفسق، ولما انقضى أمر المصاف أحسن المظفر قطز إلى الملك المنصور صاحب حماة وأقره على حماة وبارين وأعاد إليه المعرة، وكانت في أيدي الحلبيين من حين استولوا عليها في سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأخذ سلمية منه وأعطاها أمير العرب، وأتم الملك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمشق، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على

هذا النصر العظيم فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام، ولأنهم ماقصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكرا إلا هزموه، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم، وبقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام، وفي يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر فشنقوا، وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار الملك الناصر يوسف، وهو الذي أوقع الملك الناصر في أيدي التتر وفي هذه النصرة وقدوم قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء:

هلك الكفر في الشام جميعا
واستجد الاسلام بعد دحوضه
با المليك المظفر الملك ار
وع سيف الاسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم
فاعتززنا بسمره وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا
دائما مثل واجبات فروضه

ثم أعطى الملك المظفر قطز صاحب حماة الملك المنصور الدستور، فقدم الملك المنصور قدامه مملوكه ونائبه مبارز الدين أقوش المنصوري إلى حماة، ثم سار الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل ووصلا إلى حماة، ولما استقر الملك المنصور بحماة قبض على جماعة كانوا مع التتر واعتقلهم.......

وكان خسروشاه قد سافر من حماة إلى جهة الشرق، لما بلغه كسرة التتر، ثم جهز الملك المظفر قطز عسكراً إلى حلب لحفظها، ورتب أيضا شمس الدين أقوش البرلي العزيزي أميرا بالسواحل وغزة، ورتب معه جماعة من العزيزية، وكان البرلي المذكور من مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب، وسار في جملة العزيزية مع ولده الملك الناصر يوسف إلى قتال المصريين، وخامر البرلي وجماعة من العزيزية على ابن أستاذهم

الملك الناصر وصاروا مع أيبك التركماني صاحب مصر، ثم إنهم قصدوا اغتيال المعز أيبك التركماني المذكور، وعلم بهم فقبض على بعضهم، وهرب بعضهم، وكان البرلي المذكور من جملة من سلم وهرب إلى الشام فلما وصل الى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون، فلما توجه الملك الناصر بالعسكر إلى الغور مندفعا من بين يدي التتر أخرج البرلي من حبس عجلون، وطيب خاطره، فلما هرب الملك الناصر من قطية دخل شمس الدين أقوش البرلي المذكور مع العساكرإلى مصر، فأحسن إليه الملك المظفر قطز وولاه الآن السواحل وغزة، فلما استقر بدمشق على ماذكرناه، وكان مقر البرلي لماتولى هذه الأعمال بنابلس تارة، وبيت جبرين أخرى، ثم إن الملك المظفر قطز فوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الامير علم الدين سنجر الحلبي، وهو الذي كان أتابكا لعلي بن المعز أيبك، وفوض نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان المذكور قد وصل إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام، ودخل مع العساكر إلى مصر، وصار مع المظفر قطز ففوض إليه نيابة السلطنة بحلب، وكان سببه ان أ خاه الملك الصالح بن لؤلؤ قد صار صاحب الموصل بعد أبيه، فولاه حلب ليكاتبه أخوه بأخبار التتر، ولما استقر السعيد المذكور في نيابة حلب سار سيرة رديئة، وكان دأبة التحيل على أخذ مال الرعية.

ذكر عود الملك المظفر قطز إلى جهة الديار المصرية ومقتله

ولما قرر الملك المظفر قطز المعزي المذكور أمر الشام على ماشرحناه، سار من دمشق إلى جهة البلاد المصرية وكان قد اتفق بيبرس البندقداري الصالحي مع أنص مملوك نجم الدين الرومي الصالحي، والهاروني، وعلم الدين صغن أغلي على قتل المظفر قطز، وساروا معه يتوقعون الفرصة، فلما

وصل قطز إلى القصير بطرف الرمل، وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية، فبينا قطز يسير إذ قامت أرنب بين يديه فساق عليها، وساق هؤلاء المذكورين معه فلما بعدوا، تقدم إليه أنص وشفع عند الملك المظفر قطز في إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى لتقبيل يده، وقبض عليها فحمل عليه بيبرس البندقداري الصالحي حينئذ وضربه بالسيف، واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه، ثم قتلوه بالنشاب وذلك في سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة، فكانتُ مدة ملكه أحد عشر شهراً، وثلاثة عشر يوماً، وساق بيبرس وأولئك المذكورون بعد مقتله حتى وصلوا إلى الدهليز بالصالحية.

ذكر سلطنة بيبرس البندقداري

ولما وصل ركن الدين بيبرس المذكور هو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر قطز إلى الدهليز كما ذكرنا، وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين أقطاي المستعرب، وهو الذي صار أتابكا لعلي بن المعز أيبك بعد الحلبي، فلما تسلطن قطز أقره على نيابة السلطنة، فلما وصل بيبرس البندقداري مع الجماعة الذين قتلوا قطز إلى الدهليز، سألهم أقطاي المستعرب المذكور، وقال: من قتله منكم؟ فقال له بيبرس: أنا، قال له أقطاي: ياخوند اجلس في مرتبة السلطنة، فجلس واستدعيت العساكر للتحليف، فحلفوا له في اليوم الذي قتل فيه قطز، وهو سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة، واستقر بيبرس في السلطنة وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحي، ثم بعد ذلك غير لقبه عن الملك القاهر، وتلقب بالملك الظاهر لأنه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ماتلقب به أحد فطالت مدته، وكان الملك الظاهر المذكور قد سأل من قطز النيابة بحلب فلم يجبه إليها، ليكون ماقدره الله تعالى، ولما حلف الناس للملك الظاهر المذكور بالصالحية، ساق في جماعة من أصحابه وسبق العسكر إلى قلعة

الجبل، ففتحت لـه، ودخلها واستقرت قدمه في المملكة، وكـان قد زينت مصر والقاهرة لمقـدم قطز، فاستمرت الزينة لسلطنـة بيبرس المذكور، وكان مقتل قطز وسلطنة بيبرس في سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة.

ذكر اعادة عمارة قلعة دمشق

وفي هـذه السنـة في العشر الأخير مـن ذي القعـدة، شرع الأمير علـم الدين سنجـر الحلبي نائب السلطنة بدمشـق في عمارة قلعة دمشق، وجمع لها الصناع، وكبراء الدولـة، والناس وعملوا فيها حتى النسـاء أيضا، وكان عند الناس بذلك سرور عظيم.

ذكر سلطنة الحلبي بدمشق

كان علم الـدين سنجر الحلبي قد استنـابه الملك المظفر قطـز بدمشق على مـاتقدم ذكـره، فلما جـرى ماذكـرنـاه من قتـل قطـز وسلطنة الملـك الظاهـر، جمع الحلبي النـاس وحلفهم لنفسـه بالسلطنـة، وذلك في العشر الأول مـن ذي الحجة مـن هذه السنـة، أعني سنـة ثمان وخمسين وستمائة، فأجـابه النـاس إلى ذلك، وحلفوا لـه، ولم يتأخر عنـه أحد، ولقـب نفسه الملك المجـاهد، وخطـب له بالسلطنـة وضربت السكة بـاسمه، وكـاتب الملك المنصـور صاحب حماة في ذلك فلـم يجبه، وقال صاحـب حماة: أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا من كان.

ذكر قبض عسكر حلب على الملك السعيد ابن صاحب الموصل وعودة التتر إلى الشام

وكان الملك السعيد قد قرره قطز بحلب وجرد معه جماعة من العزيزية والناصرية، وكان رديء السيرة، وقد أبغضه العسكر، وبلغ الملك السعيد المذكور مسير التتر إلى البيرة، فجرد إلى جهتهم جماعة قليلة من العسكر وقدم عليهم سابق الدين أمير مجلس الناصري، فأشار عليه كبراء العزيزية والناصرية بأن هذا ماهو مصلحة وأن هؤلاء قليلون فيحصل الطمع بسببهم في البلاد، فلم يلتفت إلى ذلك، وأصر على مسيرهم، فسار سابق الدين أمير مجلس الناصري بمن معه حتى قاربوا البيرة، فوقع عليهم التتر فهرب منهم ودخل البيرة بعد أن قتل غالب من كان معه فازداد غيظ الأمراء على الملك السعيد بسبب ذلك، فاجتمعوا وقبضوا عليه ونهبوا وطاقه،وكان قد برز إلى بابلى المعروف ببا ب الله، ولما استولوا على خزانته لم يجدوا فيها مالا طائلافهددوه بالعذاب إن لم يقر لهم بماله فنبش من تحت أشجار حائط دار ببابلى جملة من المال قيل كانت خمسين ألف دينار مصرية، ففرقت في الأمراء وحمل الملك السعيد المذكور إلى الشغر وبكاس معتقلا، ثم لما اندفع العسكر من بين يدي التتر على ماسنذكره أفرجوا عنه، ولما جرى ذلك اتفقت العزيزية والناصرية وقدموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي، ثم سارت التتر إلى حلب، فاندفع حسام الدين الجوكندار والعسكر الذين معه بين أيديهم إلى جهة حماة، ووصل التتر إلى حلب في أواخر هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة، وملكوها وأخرجوا أهلها إلى قرنبيا واسمها مقر الأنبياء، فسماها العامة قرنبيا، ولما اجتمع المسلمون بقرنبيا بذل التتر فيهم السيف فأفنوا غالبهم، وسلم القليل منهم، ووصل حسام الدين الجوكندار، ومن معه إلى حماة فضيفهم الملك المنصور محمد صاحب حماة، وهو مستشعر خائف من غدرهم، ثم رحلوا من حماة إلى حمص، فلما قارب التتر حماة خرج منها الملك المنصورصاحبها وصحبته أخوه

الملك الأفضل علي، والأمير مبارز الدين وباقي العسكر، واجتمعوا بحمص مع باقي العساكر إلى أن خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة

ذكر كسرة التتر بحمص

وفي يوم الجمعة خامس المحرم من هذه السنة كانت كسرة التتر على حمص، وكان من حديثها أن التتر لما قدموا في آخر السنة الماضية إلى الشام اندفعت العزيزية والناصرية من بين أيديهم، وكذلك الملك المنصور صاحب حماة، ووصلوا إلى حمص، واجتمع بهم الملك الأشرف صاحب حمص، ووقع اتفاقهم على ملتقى التتر، وسار التتر إليهم، والتقوا بظاهر حمص في نهار الجمعة المذكور، وكان التتر أكثر من المسلمين بكثير، ففتح الله تعالى على المسلمين بالنصر، وولى التتر منهزمين، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم كيف شاءوا، ووصل الملك المنصور إلى حماة بعد هذه الوقعة، وانضم من سلم من التتر إلى باقي جماعتهم وكانوانازلين قرب سلمية، واجتمعوا ونزلوا على حماة، وبها صاحبها الملك المنصور، وأخوه الملك الأفضل والعسكر، وأقام التتر على حماة يوماً واحداً، ثم رحلوا عن حماة، وأراد الملك المنصور بعد رحيل التتر المسير إلى دمشق فمنعه العامة حتى استوثقوا منه أنه يعود إليهم عن قريب، فسافر هو وأخوه الملك الأفضل في جماعة قليلة، وبقي الطواشي مرشد صاحب العسكر بحماة، ووصل المنصور بمن معه إلى دمشق، وكذلك توجه الملك الأشرف صاحب حمص إلى دمشق، وأما حسام الدين الجوكندار العزيزي فتوجه أيضاً بمن في صحبته، ولم يدخل دمشق، ونزل بالمرج، ثم سار إلى مصر، وأقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق في

دورهما، والحاكم بها يومئذ سنجر الحلبي الملقب بالسلطان المجاهد، وقد اضطرب أمره ولذلك أقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق ولم يدخلا في طاعته لضعفه وتلاشي أمره، وأما التتر فساروا عن حماة إلى فامية، وكان قد وصل إلى فامية سيف الدين الدنبلي الأشرفي، ومعه جماعة، فأقام بقلعة فامية، وبقي يغير على التتر، فرحلوا عن فامية وتوجهوا إلى الشرق.

ذكر القبض على سنجر الحلبي الملقب الملك المجاهد

وفي هذه السنة جهز الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر عسكرا مع علاء الدين البندقدار، وهو أستاذ الملك الظاهرلقتال علم الدين سنجر الحلبي المستولي على دمشق، فوصلوا إلى دمشق في ثالث عشر صفر من هذه السنة، ولما وصل عسكر مصر إلى دمشق خرج إليهم الحلبي لقتالهم، وكان صاحب حماة وصاحب حمص مقيمين بدمشق ولم يخرجا مع الحلبي لقتالهم ولاأطاعاه لاضطراب أمر الحلبي، واقتتل معهم بظاهر دمشق في ثالث عشر صفر من هذه السنة، أعني سنة تسع وخمسين وستمائة، فولى الحلبي وأصحابه منهزمين ودخل إلى قلعة دمشق إلى أن جنه الليل، فهرب من قلعة دمشق .إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه، وحمل إلى الديار المصرية ، فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس، وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام، مثل: حماة، وحلب، وحمص، وغيرها واستقر ايدكين البندقدار الصالحي في دمشق لتدبير أمورها، ولما استقر الحال على ذلك، رحل الملك المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص، وعادا إلى بلادهما واستقرا بها.

ذكر خروج البرلي عن طاعة الملك الظاهر بيبرس واستيلائه على حلب

وفي هذه السنةبعد استقرار علاء الدين ايدكين البندقدار في دمشق، ورد عليه مرسوم الملك الظاهر بيبرس بالقبض على بهاء الدين بغدي الأشرفي، وعلى شمس الدين أقوش البرلي وغيرهما من العزيزية والناصرية، وبقي علاء الدين ايدكين متوقعا ذلك،فتوجه بغدي إلى علاء الدين ايدكين فحال دخوله عليه قبض على بغدي المذكور، فاجتمعت العزيزية والناصرية إلى أقوش البرلي، وخرجوا من دمشق ليلا علي حمية، ونزلوا بالمرج، وكان أقوش البرلي قد ولاه المظفر غزة، والسواحل على ماقدمنا ذكره، فلما جهز الملك الظاهر البندقدار إلى قتال الحلبي، أرسل إلى البرلي وأمره أن ينضم إليه، فسار البرلي مع البندقدار، وأقام بدمشق فلما قبض على بغدي خرج البرلي إلى المرج، وأرسل علاء الدين ايدكين البندقدار إلى البرلي يطيب قلبه، ويحلف له، فلم يلتفت إلى ذلك، وسار إلى حمص، وطلب من صاحبها الأشرف موسى أن يوافقه على العصيان، فلم يجبه إلى ذلك، ثم توجه إلى حماة، وأرسل يقول للملك المنصور صاحب حماة: إنه لم يبق من البيت الأيوبي غيرك، وقم لنصير معك ونملكك البلاد، فلم يلتفت الملك المنصور إلى ذلك ورده رداً قبيحاً، فاغتاظ البرلي ونزل على حماة وأحرق زرع بيدر العشر، وسار إلى شيزر، ثم إلى جهة حلب، وكان علاء الدين ايدكين البندقدار لما استقر بدمشق، قدجهز عسكرا صحبة فخر الدين الحمصي للكشف عن البيرة، فإن التتر كانوا قد نازلوها، فلما قدم البرلي إلى حلب كان بها فخر الدين الحمصي المذكور، فقال له البرلي: نحن في طاعة الملك الظاهر، فتمضي إلى السلطان وتسأله أن يتركني ومن في صحبتي مقيمين بهذا الطرف، ونكون تحت طاعته من غير أن يكلفني وطيء بساطه، فسار الحمصي إلى جهة مصر ليؤدي هذه الرسالة، فلما سار عن حلب تمكن البرلي واحتاط على مافي حلب من الحواصل، واستبد بالأمر، وجمع العرب والتركمان واستعد

لقتال عسكر مصر، ولما توجه فخر الديـن الحمصي لذلك التقى في الرمل جمال الدين المحمدي الصالحي متوجهاً بمن معه من عسكر مصر لقتال البرلي وإمساكه، فأرسل الحمصي عـرف الملك الظاهر بها طلبـه البرلي، فـأرسل الملـك الظاهـر ينكر على فخـر الـدين الحمصي المذكـور ويأمـره بالانضمام إلى المحمـدي والمسير إلى قتال البرلي، فعاد من وقتـه، ثم رضي الملك الظـاهر عن علـم الديـن سنجر الحلبي وجهـزه وراء المحمدي في جمع مـن العسكر، ثـم أردفه بعـز الديـن الـدمياطـي في جمع آخر، وسـار الجميع إلى جهة البرلي، وسـاروا إلى حلب وطردوه عنها، وانقضـت السنة والأمر على ذلك.

ذكر مقتل الملك الناصر يوسف

وفي هـذه السنـة ورد الخبر بمقتل الملـك النـاصر يـوسف ابـن الملـك العزيز محمد ابن الملك الظاهـر غازي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الديـن يوسـف بن أيوب، وعقد عـزاءه بجامـع دمشق في سـابع جمادى الأولى من هذه السنة، أعنـي سنة تسع وخمسين وستمائة، وصورة الحال في قتله أنـه لماوصل إلى هـولاكو على مـاقدمنـا ذكره، وعـده برده إلى ملكـه، وأقـام عند هـولاكو مـدة، فلما بلغ هـولاكو كسرة عسكـره بعين جالـوت وقتل كتبغا، ثـم كسرة عسكره على حمص ثانيا غضـب من ذلك، وأحضر الملك الناصر المذكور وأخـاه الملك الظاهر غازي وقال لـه أنت قلت إن عسكر الشـام في طاعتك فغدرت بي وقتلـت المغل، فقال الملـك الناصر: لو كنـت بالشـام ماضرب أحـد في وجه عسكـرك بالسيـف، ومن يكـون ببلاد توريز كيـف يحكم على بلاد الشام فاستوفى هـولاكو لعنة الله نامجاه وضربه بهـا، فقال الملـك الناصر: يـاخونـد الصنيعة، فنهـاه أخوه الظـاهر، وقـال: قد حضرت، ثـم رمـاه بفردة ثـانية فقتلـه، ثـم أمر بضرب رقـاب

الباقين فقتلوا الظاهر أخا الملك الناصر، والملك الصالح ابن صاحب حمص، والجماعة الذين كانوا معه، واستبقوا الملك العزيز ابن الملك الناصر لأنه كان صغيراً، فبقي عندهم مدة طويلة وأحسنوا إليه، ثم مات، وكان قد تولى الملك الناصر المذكور مملكة حلب بعد موت أبيه العزيز وعمره سبع سنين، وأقامت جدته ضيفة خاتون بنت الملك العادل بتدبير مملكته واستقل بالملك بعد وفاتها في سنة أربعين وستمائة

وعمره ثلاث عشرة سنة، وزاد ملكه على ملك أبيه وجده فإنه ملك مثل حران والرها والرقة ورأس عين وما مع ذلك من البلاد، وملك حمص، وبعلبك، والأغوار والسواحل إلى غزة، وعظم شأنه وكسر عساكر مصر، وخطب له بمصر وبقلعة الجبل على الوجه الذي تقدم ذكره، وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبر دولته شمس الدين لؤلؤ الأرمني ومخامرة مماليك أبيه العزيزية، وكان يذبح في مطبخه كل يوم أربعمائة رأس غنم، وكانت سماطاته وتجمله في الغاية القصوى، وكان حليما وتجاوز به الحلم الى حد أضر بالمملكة، فإنه لما أمنت قطاع الطريق في أيام مملكته من القتل والقطع تجاوزوا الحد في الفساد بالمملكة، وانقطعت الطرق في أيامه، وبقي لايقدر المسافر على السفر من دمشق إلى حماة وغيرها إلا برفقة من العسكر، وكثر طمع العرب والتركمان في أيامه، وكثرت الحرامية، وكانوا يكبسون الدور، ومع ذلك إذا حضر القاتل إلى بين يدي الملك الناصر المذكور يقول الحي خير من الميت ويطلقه، فأدى ذلك إلى انقطاع الطرقات، وانتشار الحرامية والمفسدين، وكان على ذهن الناصر المذكور شيء كثير من الأدب والشعر، ويروى له أشعار كثيرة منها:

فوالله لو قطعت قلبي تأسفا
وجرعتني كاسات دمعي دما صرفا
لما زادني إلا هوى ومحبة
ولا اتخذت روحي سواك لها ألفا

وبنى بـدمشق مدرسة قـريب الجامع تعـرف بالناصرية، ووقـف عليها وقفا جليلا، وبنى بـالصالحية تربة غرم عليها جملاً مستكثـرة، فدفن فيها كرمـون وهو بعض أمـراء التتر، وكانت منيـة الملك الناصر ببـلاد العجم، وكان مـولد الناصر المذكور في سنـة سبع وعشرين وستمائة، فيكـون عمره اثنتين وثلاثين سنة تقريباً.

ذكر مبايعة شخص بالخلافة واثبات نسبه

وفي هـذه السنة في رجـب قـدم إلى مصر جماعـة من العـرب، ومعهـم شخص أسود اللون اسمـه أحمد، زعموا أنه ابن الامام الظاهـر بالله محمد ابن الامام النـاصر، وأنه خرج من دار الخلافة ببغـداد لماملكها التتر، فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه جماعة مـن الأكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيـز بن عبد السلام، والقاضي تاج الدين عبـد الوهاب بن خلف المعـروف بابن بنت الأعـز، فشهد أولئك العرب ان هـذا الشخص المذكور هو ابـن الظاهر محمد ابـن الامام الناصر، فيكون عـم المستعصم، وأقـام القـاضي جماعة مـن الشهـود واجتمعـوا بـأولئك العـرب وسمعـوا شهاداتهم، ثـم شهدوا بالنسـب بحكم الاستفاضـة، فأثبت القـاضي تاج الـدين نسـب أحمد المذكور، ولقـب المستنصر بـالله أبا القـاسم أحمد بـن الظاهر بـالله محمد، وبايعه الملك الظـاهر والناس بالخلافـة، واهتم الملك الظاهـر بأمره وعمـل له الدهاليـز والجمدارية وآلات الخلافـة، واستخدم عسكراً وغرم على تجهيزه جملا طائلة، قيل إن قدر ماغرمه عليه ألف ألف دينـار، وكانـت العامـة تلقـب الخليفة المذكـور بـالزرابينـي، وبرز الملـك الظاهـر والخليفة الأسـود المذكور في رمضـان من هـذه السنة وتـوجها إلى دمشق وكـان في كل منـزلة يمضي الملك الظـاهر إلى دهليـزه الخاص به، ولما وصلا إلى دمشـق نزل الملك الظـاهر بـالقلعة، ونزل الخليفـة في جبل الصالحيـة، ونزل حول الخليفـة أمراؤه وأجنـاده، ثم جهز الخليفـة بعسكره إلى جهـة بغداد طمعـا في أنه يستـولي على بغداد، ويجتمـع عليه النـاس،

فسار الخليفة الأسود بعسكره من دمشق وركب الملك الظاهر وودعه ووصاه بالتأني في الأمور، ثم عاد الملك الظاهر إلى دمشق من توديع الخليفة، ثم سار إلى الديار المصرية، ودخلها في سابع عشر ذي الحجة من هذه السنة، ووصلت إليه كتب الخليفة بالديار المصرية أنه قد استولى على عانة والحديثة، وولى عليهما، وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم، ثم قبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليه التتر، وقتلوا الخليفة المذكور، وقتلوا أصحابه، ونهبوا ماكان معه، وجاءت الاخبار بذلك.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة لما سار الملك الظاهر إلى الشام أمر القاضي شمس الدين ابن خلكان، فسافر في صحبته من مصر إلى الشام، فعزل عن قضاء دمشق نجم الدين بن صدر الدين ابن سناء الدولة، وكان قطز قد عزل المحيي بن الزكي الذي ولاه هولاكو القضاء، وولى ابن سناء الدولة، فعزله الملك الظاهر في هذه السنة، وولى القضاء شمس الدين ابن خلكان.

وفيها قدم أولاد صاحب الموصل وهم: الملك الصالح اسماعيل، ثم أخوه الملك المجاهد اسحق، صاحب جزيرة ابن عمر، ثم أخوهما الملك المظفر علي صاحب سنجار أولاد لؤلؤ فأحسن الملك الظاهر إليهم وأعطاهم الإقطاعات الجليلة بالديار المصرية، واستمروا في أرغد عيش في طول مدة الملك الظاهر.

وفيها في ربيع الآخر وردت الاخبار من ناحية عكا أن سبع جزائر في

البحر خسف بها وبأهلها، وبقي أهل عكا لابسين السواد وهم يبكون ويستغفرون من الذنوب بزعمهم.

وفيها جهز الملك الظاهر بيبرس بدر الدين الايدمري، فتسلم الشوبك في سلخ ذي الحجة من هذه السنة أعني سنة تسع وخمسين وستمائة، وأخذها من الملك المغيث صاحب الكرك.

ثم دخلت سنة ستين وستمائة

في هذه السنة في نصف رجب وردت جماعة من مماليك الخليفة المستعصم البغاددة، وكانوا قد تأخروا في العراق بعد استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة، وكان مقدمهم يقال له شمس الدين سلار، فأحسن الملك الظاهر بيبرس ملتقاهم وعين لهم الاقطاعات بالديار المصرية.

وفيها في رجب أيضا وصل إلى خدمة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية عماد الدين بن مظفر الدين صاحب صهيون، رسولا من أخيه سيف الدين صاحب صهيون، وصحبته هدية جليلة، فقبلها الملك الظاهر وأحسن إليه.

وفيها جهز الملك الظاهر عسكرا إلى حلب، وكان مقدمهم شمس الدين سنقر الرومي، فأمنت بلاد حلب، وعادت إلى الصلاح، ثم تقدم الملك الظاهر بيبرس إلى سنقر الرومي وإلى صاحب حماة الملك المنصور، وإلى صاحب حمص الملك الأشرف موسى أن يسيروا إلى أنطاكية وبلادها للإغارة عليها، فساروا إليها ونهبوا بلادها وضايقوها، ثم عادوا فتوجهت العساكر المصرية صحبة سنقر الرومي إلى مصر، ووصلوا إليها في تاسع عشرين رمضان من هذه السنة ومعهمماينوف على ثلاثمائة أسير، فقابلهم الملك الظاهر بالاحسان والانعام.

وفيها لماضاقت على أقوش البرلي البلاد، وأخذت منه حلب، ولم يبق بيده غير البيرة دخل في طاعة الملك الظاهر، وسار إليه فكتب الملك الظاهر إلى النواب بالاحسان إليه وترتيب الاقامات له في الطرقات حتى وصل إلى الديار المصرية في ثاني ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة ستين، فتلقاه الملك الظاهر وبالغ في الاحسان إليه وأكثر له العطاء، فسأل أقوش البرلي من الملك الظاهر أن يقبل منه البيرة فلم يفعل، ومازال يعاوده حتى قبلها، وبقي أقوش البرلي العزيزي المذكور مع الملك الظاهر إلى أن تغير عليه وقبضه في رجب سنة احدى وستين وستمائة، فكان آخر العهد به.

وفيها في ذي القعدة قبض الملك الظاهر على نائبه بدمشق، وهو علاء الدين طيبرس الوزيري، وكان قد تولى دمشق بعد مسير علاء الدين ايدكين البندقداري عنها، وسبب القبض عليه أنه بلغ الملك الظاهر عنه أمور كرهها فأرسل إليه عسكراً مع عز الدين الدمياطي وغيره من الأمراء، فلما وصلوا إلى دمشق، خرج طيبرس لتلقيهم، فقبضوا عليه وقيدوه وأرسلوه إلى مصر، فحبسه الملك الظاهر، واستمر الحاج طيبرس في الحبس سنة وشهراً، وكانت مدة ولايته بدمشق سنةوشهر أيضا ، وكان طيبرس المذكور رديء السيرة في أهل دمشق، حتى نزح عنها جماعة كثيرة من ظلمه، وحكم في دمشق بعد قبض طيبرس المذكور علاءالدين ايدغدي الحاج الركني، ثم استناب الملك الظاهر على دمشق الامير جمال الدين أقوش النجيبي الصالحي.

وفيها في يوم الخميس في أواخر ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة ستين وستمائة، جلس الملك الظاهر مجلسا عاما، وأحضر شخصاً كان قد قدم إلى الديار المصرية في سنة تسع وخمسين وستمائة من نسل بني العباس يسمى أحمد، بعد أن ثبت نسبه وبايعه بالخلافة، ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، وقد اختلف في نسبه فالذي هو

مشهور بمصر عند نسابه مصر انه أحمد بن حسن بن أبي بكر ابن الامير أبي على القبي ابن الامير حسن بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر، وقد مر نسب المستظهر مع جملة خلفاء بني العباس، وأما عند الشرفاء العباسيين السلمانيين في درج نسبهم الثابت فقالوا: هو أحمد بن أبي بكر على بن أبي بكر أحمد ابن الامام المسترشد الفضل ابن المستظهر، ولما أثبت الملك الظاهر نسب المذكور نزله في برج محترزا عليه، وأشرك له الدعاء في الخطبة لاغير ذلك.

وفيها جهز الملك المنصور صاحب حماة شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري رسولا إلى الملك الظاهر، ووصل شيخ الشيوخ المذكور فوجد الملك الظاهر عاتباً على صاحب حماة لاشتغاله عن مصالح المسلمين باللهو، وأنكر الملك الظاهر على الشيخ شرف الدين ذلك، ثم انصلح خاطره وحمله ماطيب به قلب صاحبه الملك المنصور، ثم عاد إلى حماة.

وفيها توفي الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، الامام في مذهب الشافعي، وله مصنفات جليلة في المذهب وكانت وفاته بمصر رحمه الله تعالى. وفيها في ذي الحجة توفي الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد المعروف بابن العديم، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة، وكان فاضلا كبير القدر، ألف تاريخ حلب، وغيره من المصنفات، وكان قد قدم إلى مصر لما جفل الناس من التتر، ثم عاد بعد خراب حلب إليها.

ثم دخلت سنة احدى وستين وستمائة

ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام

في هذه السنة في حادي عشر ربيع الآخر سار الملك الظاهر بيبرس

من الديار المصرية إلى الشام، فلاقته والدة الملك المغيث عمر صاحب الكرك بغزة، وتوثقت لابنها الملك المغيث من الملك الظاهر بالأمان، وأحسن إليها، ثم توجهت إلى الكرك وتوجه صحبتها شرف الدين أجاكي المهمندار برسم حمل الاقامات إلى الطرقات برسم الملك المغيث، ثم سار الملك الظاهر من غزة ووصل إلى الطور في ثاني عشر جمادى الأولى من هذه السنة، ووصل إليه على الطور الأشرف موسى صاحب حمص في نصف الشهر المذكور، فأحسن إليه الملك الظاهر وأكرمه.

ذكر حضور الملك المغيث صاحب الكرك وقتله واستيلاء الملك الظاهر بيبرس على الكرك

وفي هذه السنة كان مقتل الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب الكرك، وسببه أنه كان في قلب الملك الظاهر بيبرس منه غيظ عظيم، لأمور كانت بينهما قيل إن المغيث المذكور أكره امرأة الملك الظاهر بيبرس لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق، وهرب الملك الظاهر بيبرس المذكور، وبقيت امرأته في الكرك، والله أعلم بحقيقة ذلك، وكان من حديث مقتله أن الملك الظاهر بيبرس مازال يجتهد على حضور المغيث المذكور وحلف لوالدته على غزة كما تقدم ذكره، وكان عند المغيث شخص يسمى الأمجد وكان يبعثه في الرسالة إلى الملك الظاهر، فكان يبالغ في اكرامه وتقريبه، فاغتر الأمجد بذلك، ومازال على مخدومه الملك المغيث حتى أحضره إلى الملك الظاهر، حكى لي شرف الدين بن مزهر، وكان ابن مزهر المذكور ناظر

خزانة المغيث، قال: لما عزم المغيث على التوجه إلى خدمة الملك الظاهر، لم يكن قد بقي بخزانته شيء من المال، ولاالقماش، وكان لوالدته حواصل بالبلاد فبعناها بأربعة وعشرين ألف درهم واشترينا باثني عشر ألف درهم خلعا من دمشق، وجعلنا في صناديق الخزانة الاثني عشر الالف الأخرى، ونزل المغيث من الكرك، وأنا والأمجد وجماعةمن أصحابه معه في خدمته، قال: وشرعت البريدية تصل إلى الملك المغيث في كل يوم بمكاتبات الملك الظاهر، ويرسل صحبتهم مثل غزلان ونحوها، والمغيث يخلع عليهم حتى نفد ماكان بالخزانة من الخلع، ومن جملة ماكتب إليه بعض المكاتبات:المملوك ينشد في قدوم مولانا:

خليلي هـــل أبصرتما أوسمعتما
بـــأكـــرم مـــن مـــولى تمشـــى إلى عبـــد

قال: وكان الخوف في قلب ا لمغيث شديداً من الملك الظاهر، قال ابن مزهر المذكور ففاتحني في شيء من ذلك بالليل، فقلت له:احلف إلي انك لاتقول للأمجد ماأقوله لك حتى أنصحك، فحلف لي فقلت له: أخرج الساعة من تحت الخام واركب حجرتك النحيلة ولايصبح لك الصباح إلا وأنت قد وصلت إلى الكرك فتعصي فيه، ولاتفكر بأحد، قال ابن مزهر: فغافلني وتحدث مع الأمجد في شيء من ذلك، فقال له الأمجد: هذا رأي ابن مزهر، وإياك من ذلك، وسار المغيث حتى وصل إلى بيسان فركب الملك الظاهر بعساكره والتقاه في يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة فلما شاهد المغيث الملك الظاهر ترجل، فمنعه الملك الظاهر، وأركبه وساق إلى جانبه، وقد تغير وجه ا لملك الظاهر، فلما قارب الدهليز أفرد الملك المغيث عنه وأنزله في خيمة وقبض عليه، وأرسله معتقلا إلى مصر، فكان آخر العهد به، قيل إنه حمل إلى امرأة الملك الظاهر بيبرس بقلعة الجبل فأمرت جواريها فقتلته بالقباقيب، ثم قبض الملك الظاهر على جميع أصحاب المغيث، ومن جملتهم ابن مزهر المذكور، ثم بعد ذلك أفرج عنهم، انتهى كلام ابن مزهر، ولما التقى

الملك الظاهر بيبرس الملك المغيث المذكور وقبض عليه، أحضر الفقهاء والقضاة وأوقفهم على مكاتبات من التتر إلى الملك المغيث أجوبة عما كتب إليهم به في اطماعهم في ملك مصر والشام، وكتب بذلك مشروح، وأثبت على الحكام، وكان للملك المغيث المذكور ولد يقال له الملك العزيز، أعطاه الملك الظاهر اقطاعاً بديار مصر، وأحسن إليه، ثم جهز الملك الظاهر بدر الدين البيسري الشمسي، وعز الدين استاذ الدار إلى الكرك، فتسلمها في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، أعني سنة إحدى وستين وستمائة، ثم سار الملك الظاهر ووصل إلى الكرك ورتب أمورها، ثم عاد إلى الديار المصرية، فوصل إليها في سابع عشر رجب من هذه السنة.

ذكر الاغارة على عكا وغيرها

وفي هذه السنة لما كان الملك الظاهر نازلاً على الطور، أرسل عسكراً هدموا كنيسة الناصرة، وهي من أكبر مواطن عبادات النصارى، لأن منها خرج دين النصرانية، وأغاروا على عكا وبلادها فغنموا وعادوا، ثم ركب الملك الظاهر بنفسه وجماعة اختارهم، وأغار ثانياً على عكا وبلادها، وهدم برجاً كان خارج البلد، وذلك عقيب إغارة عسكره وهدم كنيسة الناصرة.

ذكر القبض على من يذكر

وفيها بعد وصول الملك الظاهر بيبرس إلى مصر، واستقراره في ملكه في رجب قبض على الرشيدي، ثم قبض في ثاني يوم على الدمياطي، والبرلي، وقد تقدمت أخبار البرلي المذكور.

ذكروفاة الاشرف صاحب حمص

وفي هذه السنة بعد عود الملك الأشرف صاحب حمص موسى ابن الملك المنصور ابراهيم ابن الملك المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد ابن شيركوه بن شادي من خدمة الملك الظاهر بيبرس إلى حمص،مرض واشتد به المرض، وتوفي إلى رحمة الله تعالى و أرسل الملك الظاهر وتسلم حمص في ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة احدى وستين وستمائة، وهذا الملك الأشرف موسى هو آخر من ملك حمص من بيت شيركوه، وقد تقدمت أخبار الأشرف موسى المذكور، وأخذ الملك الناصر يوسف صاحب حلب منه حمص بسبب تسليمه شميميس للملك الصالح أيوب صاحب مصر، وأنه تعوض عن حمص تل باشر، ثم أعاد هولاكو عليه حمص، فبقيت في يده حتى توفي في أواخر هذه السنة، وانتقلت حمص إلى مملكة الملك الظاهر بيبرس في ذي القعدة حسبما ذكر، وكان جملة من ملك حمص منهم خمسة ملوك أولهم شيركوه بن شادي، ملكه إياها نور الدين الشهيد، ثم ملكها من بعده ابنه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ثم ملكها بعده ابنه شيركوه ابن محمد، وتلقب بالملك المجاهد، ثم ملكها بعده ابنه ابراهيم بن شيركوه، وتلقب بالملك المنصور، ثم ملكها بعده ابنه موسى بن ابراهيم وتلقب بالملك الأشرف حتى توفي في هذه السنة، وانقرض بموته ملك المذكورين.

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وستمائة

في هذه السنة قبض الأشكري صاحب قسطنطينية على عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن كيقباذ صاحب بلد الروم،وسببه أن عز الدين كيكاوس المذكور كان قد وقع بينه وبين أخيه، فاستظهر أخوه عليه، فهرب كيكاوس وبقي أخوه ركن الدين قليج أرسلان في سلطنة بلاد

الروم، ثم سار كيكاوس المذكور إلى قسطنطينية، فأحسن إليه الأشكري صاحب قسطنطينية وإلى من معه من الأمراء، واستمروا كذلك مدة، فعزمت الأمراء والجماعة الذين كانوا مع عز الدين المذكور على اغتيال الأشكري وقتله، والتغلب على قسطنطينية، وبلغ ذلك الأشكري، فقبض عليهم واعتقل عز الدين كيكاوس بن كيخسرو في بعض القلاع، وكحل الامراء والجماعة الذين كانوا عزموا على ذلك، فأعمى عيونهم وقد تقدم ذكر كيكاوس المذكور، وأخيه قليج أرسلان في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

وفيها في ثامن رمضان توفي الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد ابن محمد بن عبد المحسن الأنصاري المعروف بشيخ الشيوخ بحماة، وكان مولده في جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وكان دينا فاضلاً متقدماً عند الملوك، وله النثر البديع، والنظم الفائق، وكان غزير العقل عارفاً بتدبير المملكة، فمن حسن تدبيره أن الملك الأفضل علي ابن الملك المظفر محمود لما ماتت والدته غازية خاتون بنت الملك الكامل رحمهما الله تعالى حصل عند الملك الأفضل المذكور استشعار من أخيه الملك المنصور محمد صاحب حماة، فعزم أن ينتزح من حماة ويفارق أخاه الملك المنصور، وأذن له أخوه الملك المنصور في ذلك، فاجتمع الشيخ شرف الدين المذكور بالملك الأفضل وعرفه مايعتمده من السلوك مع أخيه الملك المنصور، ثم اجتمع بالملك المنصور وقبح عنده مفارقة أخيه، ومابرح بينهما حتى أزال ماكان في خواطرهما، وصار للملك الافضل في خاطر أخيه الملك المنصور من المحبة والمكانة مايفوق الوصف، وكان ذلك من بركة شرف الدين المذكور وللشيخ شرف الدين المذكور أشعار فائقة قد تقدم ذكر بعضها، وكان مرة مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام بعمان فعمل الشيخ شرف الدين

أفدي حبيباً منذ واجهته
عن وجه بدر التم أغناني

في وجهــــه خــــالان لــــولاهما
مــــابــــت مفتــــونــــا بعمان

وأنشدهما للملـك الناصر فأعجباه إلى الغـاية، وجعل يـردد انشادهما، وقال لكـاتبه كمال الديـن ابن العجمي:هكـذا تكون الفضيلة، فقـال ابن العجمي: إن التورية لاتخدم هنـا لان عمان مجرورة في النظم فلا تخدمه في التـورية،فقـال الملك النـاصر للشيخ شرف الـديـن ماقـاله، فقـال شرف الدين: إن هذا جائز وهو أن يكون المثنـى في حالة الجر على صورة الرفع، واستشهد شرف الدين بقول الشاعر
فــأطــرق اطــراق الشجــاع ولــو رأى
مســاغــا النــابــاه الشجــاع لصمما

واستشهد بغير ذلك فتحقق الملك الناصر فضيلته.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة

ذكر فتوح قيسارية

في هذه السنة ســار الملك الظاهر بيبرس مـن الديار المصرية بعســاكره المتـوافرة إلى جهـاد الفرنـج بالســاحـل، ونازل قيســارية الشــام في تاســع جمادى الأولى، وضــايقهــا وفتحها بعـد ستـة أيـام مـن نزولـه، وذلـك في منتصف الشهر المذكـور، وأمر بها فهدمت، ثم ســار إلى أرسوف، وفتحها في جمادى الآخرة من هذه السنة.

ذكر موت هولاكو

في هذه السنة في تاسع ربيع الآخر مات هولاكو ملك التتر لعنه الله، وهو هولاكو بن طلو بن بن جنكيز خان، وكانت وفاته بالقرب من كورة مراغه، وكانت مدة ملكه البلاد التي سنصفها نحو عشرسنين، وخلف خمسة عشر ولدا ذكرا، ولما مات جلس في الملك بعده ولده ابغا بن هولاكو، واستقرت له البلاد التي كانت بيد والده حال وفاته، وهي: أقليم خراسان وكرسيه نيسابور، واقليم عراق العجم وهو الذي يعرف ببلاد الجبل وكرسيه أصفهان، وأقليم عراق العرب وكرسيه بغداد، وأقليم أذربيجان وكرسيه تبريز، وأقليم خوزستان وكرسيه تستر التي تسميها العامة تشتر، وأقليم فارس وكرسيه شيراز، وأقليم ديار بكر وكرسيه الموصل،وأقليم الروم وكرسيه قونيه، وغير ذلك من البلاد التي ليست في الشهرة مثل هذه الأقاليم العظيمة.

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة أو التي بعدها أمسك الملك الظاهر بيبرس زامل بن علي، أمير العرب بمكاتبة عيسى بن مهنا في حقه.

وفيها في رمضان استولى النائب بالرحبة على قرقيسيا، وهي حصن الزباء التي تقدم خبرها مع جذيمة الأبرش في أوائل الكتاب، وفيه خلاف.

وفيها قبض الملك الظاهر بيبرس على سنقر الرومي. وفيها توفي قاضي القضاة بمصر بدر الدين يوسف بن حسن بن علي السنجاري.

ذكر فتوح صفد وغيرها

في هـذه السنة خـرج الملـك الظاهـر بعسـاكـره المتوافـرة مـن الديـار المصرية، وسـار إلى الشام، وجهـز عسكرا إلى سـاحل طـرابلس، ففتحـوا القليعات وحلبـة، وعرقـة، ونزل الملك الظـاهر على صفـد ثامـن شعبان، وضـايقها بـالـزحـف وآلات الحصار، وقـدم إليـه وهـو على صفد الملـك المنصـور صاحـب حماة، ولاصـق الجنـد القلعة، وكثـر القتـل والجراح في المسلمين، وفتحها في تـاسع عشر شعبـان المذكوربالأمـان،ثم قتـل أهلها عن آخرهم.

ذكر دخول العساكر إلى بلاد الأرمن

وفي هـذه السنة بعـد فـراغ الملـك الظاهـر مـن فتـوح صفد سـار إلى دمشق، فلما دخلها واستقـر فيها جرد عسكراً ضخماً، وقـدم عليهم الملك المنصور صاحـب حماة، وأمرهـم بالمسير إلى بلاد الأرمن، فسـارت العساكر صحبة الملك المنصور المذكور، ووصلـوا إلى بلاد سيس في ذي القعدة من هذه السنة، وكـان صاحب سيس إذ ذاك هيثوم بن قسطنطين بـن باسيل قد حصن الـدربندات بالرجالـة والمناجيق،وجعل عسكره مـع ولديه على الدربندات لقتال العسكر الاسلامي، ومنعـه فداستهم العساكر الاسلامية وأفنوهم قتـلا وأسراً، وقتل ابن صاحـب سيس الواحد، وأسر ابنـه الآخر، وهـو ليفـون بن هيثـوم المذكـور، وانتشرت العسـاكـر الاسلاميـة في بـلاد سيس، وفتحـوا قلعة العـامودين وقتلـوا أهلها، ثم عـادت العساكـر وقد امتلأت أيديهم مـن الغنائم، ولما وصل خبر هذا الفتـح العظيم إلى الملك الظـاهر بيبرس رحـل من دمشـق ووصل إلى حماة، ثـم إلى فاميـة فالتقـى عسـاكـره وقد عـادت منصـورة وأمـر بتسليـم الاسرى وفيهم ليفـون ابـن

صاحب سيس، وكان المذكور لما أسر سلمه الملك المنصور إلى أخيه الملك الأفضل فاحترز عليه وحفظه حتى أحضره بين يدي السلطان، ثم عاد إلى الديار المصرية على طريق الكرك فتقنطر بالملك الظاهر المذكور فرسه عند بركة زيزاء وانكسرت فخذه، وحمل في محفة إلى قلعة الجبل.

ذكر قتل أهل قارا ونهبهم

وفي هذه السنة عند توجه الملك الظاهر من دمشق لملتقى عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس لما نزل على قارة بين دمشق وحمص أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل جماعة منهم لأنهم كانوا نصارى، وكانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم بالخفية من الفرنج، وأخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك في الديار المصرية، فصار منهم أجناد وأمراء.

ثم دخلت سنة خمس وستين و ستمائة

فيها وصل الملك المنصور محمد صاحب حماة إلى خدمة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية، ثم طلب المنصور من الملك الظاهر مرسوما بالتوجه إلى اسكندرية ليراها ويتفرج فيها فرسم له بذلك وأمر أهل اسكندرية باكرامه واحترامه وفرش الشقق بين يدي فرسه، فتوجه الملك المنصور إلى الاسكندرية، وعاد للديار المصرية مكرما محترماً، ثم خلع عليه الملك الظاهر، وأحسن إليه على جاري عادته، ورسم له بالدستور فعاد إلى بلده.

وفيها توجه الملك الظاهر بيبرس إلى الشام فنظر في مصالح صفد ووصل إلى دمشق وأقام بها خمسة أيام، وقوي الارجاف بوصول التتر إلى

الشام، ثـم وردت الأخبار بعـودتهم على عقبهم، فعـاد الملك الظـاهر إلى ديار مصر.

ذكر موت ملك التتر بالبلاد الشمالية

وفي هذه السنـة مات بـركة بـن باطـوخان بـن دوشي خان بـن جنكيز خان، أعظـم ملوك التتر، وكرسي مملكته مـدينة صراي، وكان قـد مال إلى دين الاسلام،ولما مـات جلس في الملك بعده ابن عمه منكـوتمر بن طغان ابن باطو بن دوشي خان بن جنكز خان.

ثم دخلت سنة ست وستين وستمائة

ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام وفتح أنطاكية وغيرها

في هـذه السنة في مستهـل جمادى الآخرة، تـوجـه الملك الظاهر بيبرس بعسـاكره المتـوافـرة إلى الشـام وفتح يـافـا في العشر الأوسـط من الشهـر المذكـور، وأخذهـا مـن الفرنـج، ثـم سار إلى أنطـاكيـة، ونازلها مستهـل رمضان، وزحفت العسـاكر الاسلامية على أنطـاكية فملكوها بـالسيف في يـوم السبـت رابع شهـر رمضـان مـن هـذه السنـة، وقتلوا أهلهـا وسبـوا ذراريهم وغنموا منهـم أموالا جليلة، وكـانت أنطـاكية للبرنس بيمنـد بن بيمند، وله معهـا طرابلس، وكان مقيما بطرابلس لما فتحـت أنطـاكية وفيها في ثالـث عشر رمضان استـولى الملك الظاهـر على بغراس، وسبـب ذلك أنه لما فتح أنطاكيـة هرب أهل بغراس منها وتركوا الحصن خـاليا، فأرسل من استـولى عليها في التاريـخ المذكور وشحنها بـالرجال والعـدد، وصار مـن الحصون الاسـلاميـة، وقد تقـدم ذكـر فتح صـلاح الـدين للحصـن

المذكور وتخريبه ثم عمارة الفرنج له بعد صلاح الدين، ثم حصار عسكر حلب له ورحليهم عنه بعد أن أشرفوا على أخذه.

وفيها في شوال وقع الصلح بين الملك الظاهر، وبين هيثوم صاحب سيس على أنه إذا أحضر هولاكو كما تقدم ذكره، وسلم مع ذلك بهسنا ودربساك، ومرزبان، ورعبان، وشيح الحديد، يطلق له ابنه ليفون، فدخل صاحب سيس على ابغا ملك التتر وطلب منه سنقر الأشقر، فأعطاه إياه، ووصل سنقر الأشقر إلى خدمة الملك الظاهر، وكذلك سلم دربساك وغيرها من المواضع المذكورة خلا بهسنا، وأطلق الملك الظاهر ابن صاحب سيس ليفون بن هيثوم وتوجه إلى والده، ثم عاد الملك الظاهر إلى الديار المصرية، ووصل إليها في ذي الحجة من هذه السنة.

وفيها اتفق معين الدين سليمان البرواناه مع التتارالمقيمين معه ببلاد الروم على قتل ركن الدين قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق سلطان الروم، فخنق التتر ركن الدين المذكور بوتر، وأقام البرواناه مقامه ولده غياث الدين بن ركن الدين قليج أرسلان المذكور، وله من العمر أربع سنين.

ثم دخلت سنة سبع وستين وستمائة

وفي هذه السنة خرج الملك الظاهر إلى الشام، وخيم في خربة اللصوص وتوجه إلى مصر بالخفية، ووصل إليها بغتة، وأهل مصر والنائب بها لايعلمون بذلك إلا بعد أن صار بينهم، ثم عاد إلى الشام.

وفيها تسلم الملك الظاهر بيبرس بلاطنس من عز الدين عثمان صاحب صهيون.

وفيها تـوجه الملـك الظاهر بيبرس إلى الحجـاز الشريف، وكـان رحيله من الفوار في الخامـس والعشرين من شوال، ووصل إلى الكـرك، وأقام به أيـاماً، وتوجه من الكرك في سادس ذي القعـدة الى الشـوبك، ورحل مـن الشوبك في الحادي عشر من الشهر المذكور، ووصل إلى المدينة النبوية في خـامس وعشرينـه، ووصـل إلى مكة في خـامـس ذي الحجة، ووصـل إلى الكرك في سلخ ذي الحجة.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وستمائة

فيها توجه الملـك الظاهر بيبرس من الكرك مستهل المحـرم عند عوده مـن الحج، فوصـل إلى دمشق بغتـة، وتـوجه في يـومه ووصـل إلى حماة في خامس المحرم، وتوجه من سـاعته إلى حلب ولم يعلم به العسكر إلاّ وهو في الموكب معهم، وعـاد إلى دمشق في ثالث عشر المحرم المذكور ثـم توجه إلى القدس، ثم إلى القاهرة فوصل إليها في ثالث صفر من هذه السنة.

وفيها عاد الملك الظاهر إلى الشـام وأغار على عكا، وتوجه إلى دمشق، ثم إلى حماة.

وفيهـا جهـز الملـك الظـاهر عسكـراً إلى بـلاد الاسماعيليـة، فتسلمـوا مصياف في العشر الأوسط من رجب من هـذه السنة، وعاد الملك الظاهر من حماة إلى جهة دمشق فدخلها في الثامـن والعشرين من رجب، ثم عاد إلى مقر ملكه بمصر.

وفيها حصل بين منكـوتمر ابن طغان ملك التتر بـالبلاد الشمالية وبين الأشكـري صاحـب قسطنطينيـة وحشـة، فجهز منكـوتمر إلى قسطنطينيـة جيشاً من التتر، فـوصلوا إليها وعاثوا في بـلادها، ومروا بالقلعـة التي فيها عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ملك بلاد الروم محبوساً كما قدمنا ذكره في

سنة اثنتين وستين وستمائة، فحمله التتر بأهله إلى منكوتمر، فأحسن منكوتمر إلى عز الدين المذكور وزوجه،وأقام معه إلى أن توفي عز الدين المذكور في سنة سبع وسبعين وستمائة، فسار ابنه مسعود بن عز الدين المذكور إلى بلاد الروم، وسار سلطان الروم على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وستين وستمائة

ذكر فتح حصن الأكراد وحصن عكاروالقرين

في هذه السنة توجه الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام، ونازل حصن الأكراد في تاسع شعبان من هذه السنة، وجد في حصاره، واشتد القتال عليه وملكه بالآمان في الرابع والعشرين من شعبان المذكور، ثم رحل إلى حصن عكا ونازله في سابع عشر رمضان من هذه السنة وجد في قتاله وملكه بالآمان سلخ رمضان، المذكور، وعيد الملك الظاهر عليه عيد الفطر فقال محيي الدين بن عبد الظاهر مهنئاً له بفتوح عكار:

يا مليك الأرض بشرا ... ك فقد نلت الاراده

إن عكار يقينا ... هو عكا وزياده

وفيها في شوال تسلم الملك الظاهر قلعة العليقة وبلادها من الاسماعيلية. وفيها توجه الملك الظاهر إلى دمشق، وسار منها في العشر الأخير من شوال إلى حصن القرين، ونازله في ثاني ذي القعدة، وزحف عليه وتسلمه بالأمان، وأمر به فهدم، ثم عاد إلي مصر. وفيها جهز الملك الظاهر مايزيد على عشرة شواني لغزو قبرس، فتكسرت في مرسى

ليميسـول وأسر الفرنـج مـن كان بتلـك الشـواني مـن المسلمين، فاهتـم السلطان بعمارة شوان أخرى فعمل في المدة اليسيرة ضعف ماعدم.

وفيها توفي هيثوم بن قسطنطين صاحـب سيس، وملك بعده ابنه ليفون الذي أسره المسلمون حسبما تقدم ذكره.

وفيها قبـض الملك الظاهر على عـز الدين بغان المعـروف بسم الموت، وعلى المحمدي وغيرهما. وفيهـا توفي القـاضي شمس الـدين بـن البارزي قاضي القضـاة بحماة. وفيها تـوفي الطواشي شجـاع الديـن مرشـد الخادم المنصـوري رحمه الله تعالى، وكـان كثير المعروف، وتـولى تدبير مملكـة حماة مدة، وكان يعتمد عليه الملك الظاهر ويستشيره.

ثم دخلت سنة سبعين وستمائة

فيها توجه الملـك الظاهر إلى الشام وعزل جمال الديـن أقوش النجمي عـن نيابـة السلطنـة بدمشـق، وولى فيهـا علاء الـديـن ايدكين الفخـري الاستاذ دار في مستهل ربيع الأول، ثم توجـه الملك الظاهر إلى حمص، ثم إلى حصن الاكراد ثم عاد إلى دمشق.

وفيها والملك الظـاهر بدمشق أغـارت التتر على عينتاب، وعلى الروج، وقميطون إلى قرب فاميـة، ثم عادوا، واستدعى الملك الظـاهر عسكراً من مصر فوصلوا إليه صحبـة بدر الدين البيسري، فتوجه الملـك الظاهر بهم إلى حلب، ثم عاد إلى الـديار المصرية، فوصل إليها في الثـالث والعشرين من جمادى الأولى. وفيهـا في شوال، عاد الملك الظـاهر بيبرس من الـديار المصرية إلى الشـام، فوصل إلى دمشـق في ثالـث صفر. وفيها تـوفي سيف الدين أحمد بـن مظفر الدين عثمان بن منكيرس صاحـب صهيون، فسلم

ولداه سابــــــــــــق الديــن، وفخر الدين صهيون إلى الملـك الظاهر، وقدما إلى خدمته، وأحسن إليهما، وأعطى سابق الدين إمرة طبلخاناه.

وفيها نازل التتر البيرة، ونصبوا عليها المناجيـق، وضايقوها وسار إليهم الملك الظاهـر وأراد عبور الفرات إلى بر البيرة، فقاتلـه التتر على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتر، فرحلـوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار بحالها، فصارت للمسلمين، ثم عـاد الملك الظاهر فوصل إلى الـديار المصرية في الخامس والعشريـن من جمادى الآخـرة من هـذه السنة. وفيهـا أفرج عـن الدمياطي مـن ا لاعتقال. وفيها تسلمت نواب الملك الظاهر مـاتأخر من حصون الاسماعيلية،وهي: الكهف والمنيقة، وقـدموس، وفيها اعتقل الملك الظـاهر الشيـخ خضر، وكان قـد بلغ المذكـور عنـد الملك الظـاهر أرفـع منزلة، وانبسطت يده، وانفذ أمره في الشـام ومصر، فاعتقله في قاعة بقلعة الجبل مكرما حتى مات.......

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة

.......وفيها وصل الملك الظاهربعساكره إلى دمشق.

وفيها عـاد عمر بـن مخلوف أحـد أمراء العـربان إلى الحبـس بعجلون، وكان مـن حديثـه أن الملك الظـاهر حبسـه بعجلون مقيـداً، فهرب مـن الحبـس المذكـور إلى بـلاد التتر، ثـم أرسل يطلـب الأمـان، فقـال الملـك الظاهـر ماأؤمنه إلا أن يعود إلى عجلـون ويضع القيد في رجلـه كما كان، فعاد عمر إلى عجلون، وجعل القيد في رجله فعفـا عنه الملك الظاهر عند ذلك، وفيها قويت أ خبار التتر لقصد الشام فجفل الناس.

وفيها في جمادى الأولى كـانت ولادة العبد الفقير مؤلـف هذا المختصر

اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بدار ابن الزنجيلي بدمشق المحروسة، فان أهلنا كانوا قد جفلوا من حماة إلى دمشق بسبب أخبار التتر.

وفيها توفي الشيخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن مالك الطائي الجياني النحوي، وله في النحو واللغة مصنفات كثيرة مشهورة، وفيها في ذي القعدة توفي الامير مبارز الدين أقوش المنصوري، مملوك الملك المنصور صاحب حماة، ونائب سلطنته، وكان أميراً جليلا عاقلا شجاعا وهو قبجاقي في الجنس. وفيها في يوم الاثنين ثامن عشر ذي الحجة توفي الشيخ العلامة نصير الدين الطوسي، واسمه محمد بن محمد بن الحسين، الإمام المشهور، وكان يخدم صاحب ألموت، ثم خدم هولاكو وحظي عنده، وعمل لهولاكو رصداً بمراغة وزيجاً، وله مصنفات عديدة كلها نفيسة، منها أقليدس يتضمن الاوضاع، وكذلك المجسطي، وتذكرة في الهيئة لم يصنف في فنها مثلها، وشرح الاشارات، وأجاب عن غالب ايرادات فخر الدين الرازي عليها، وكانت ولادته في حادي عشر جمادى الأولى سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وكانت وفاته ببغداد ودفن في مشهد موسى الجواد.

سنة ثلاث وسبعين وستمائة

فيها توجه الملك الظاهر بيبرس إلى بلاد سيس، فدخلها بعساكره المتوافرة، وغنموا، ثم عادوا إلى دمشق حتى خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وستمائة

فيها نازلت التتر البيرة وكان اسم مقدمهم أقطاي وكان الملك الظاهر

بدمشق فتوجه إلى جهة البيرة فرحل عنها، ولاقى الملك الظاهر الخبر برحليهم، وهو بالقطيفة فأتم السير إلى حلب، ثم عاد إلى مصر. وفيها بعد وصول الملك الظاهر إلى مصر جهز جيشا مع اقسنقر الفارقاني ومعه عز الدين أيبك الأفرم إلى النوبة، فساروا إليها ونهبوا وقتلوا وعادوا بالغنائم. وفيها كان زواج الملك السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس بابنة الامير سيف الدين قلاوون الصالحي، غازية خاتون. وفيها في أواخر السنة المذكورة عاد الملك الظاهر إلى الشام.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستمائة

فيها في المحرم وصل الملك الظاهر بيبرس إلى دمشق، وكان قد خرج من مصر في أواخر سنة أربع وسبعين، وبلغه وصول الأمراء الروميين الوافدين، وهم بيجار الرومي، وبهادر ولده، وأحمد بن بهادر وغيرهم، فسار الملك الظاهر إلى جهة حلب، والتقاهم وأكرمهم، ثم عاد إلى الديار المصرية.

ذكر دخول الملك الظاهر إلى بلاد الروم

وفي هذه السنة عاد الملك الظاهر بيبرس بعساكره المتوافرة إلى الشام، وكان خروجه من مصر في يوم الخميس العشرين من رمضان من هذه السنة، ووصل إلى حلب، ثم إلى النهر الأزرق، ثم سار إلى ابلستين، فوصل إليها في ذي القعدة، والتقى بها جمعا من التتر مقدمهم تناون، وكانوا نقاوة المغل، فالتقى الفريقان في أرض ابلستين يوم الجمعة عاشر ذي القعدة من هذه السنة، فانهزم التتر وأخذتهم سيوف المسلمين ، وقتل

مقدمهم تناون وغالب كبرائهم، وأسر منهم جماعة كثيرة صاروا أمراء، وكان من جملة المأسورين في هذه الوقعة سيف الدين قبجق، وسيف الدين أرسلان، وسنذكر أخبارهما إن شاء الله تعالى. وكان الحاكم بالروم يومئذ معين الدين سليمان البرواناه، وكان يكاتب الملك الظاهر في الباطن، وكان يظن الملك الظاهر أنه إذا وصل إلى قيسارية يصل إليه البرواناه على ماكان قد اتفق معه في الباطن، فلم يحضر البرواناه لما أراده الله من هلاكه على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وأقام الملك الظاهر على قيسارية سبعة أيام في انتظار البرواناه، وخطب له على منابرها، ثم رحل عن قيسارية في الثاني والعشرين من ذي القعدة وحصل للعسكر شدة عظيمة من نفاد القوت والعلف، وعدمت غالب خيولهم، ووصلوا إلى عمق حارم، وأقاموا به شهراً، ولما بلغ ابغا بن هولاكو ساق في جموع المغل حتى وصل إلى الابلستين، وشاهد عسكره صرعى، ولم يشاهد أحداً من عسكر الروم مقتولا، فاستشاط غضباً، وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين، فنهب وقتل منهم جماعة ثم سار أبغا إلى الأردو وصحبته معين الدين البرواناه، فلما استقر بالاردو أمر بقتل البرواناه، فقتل وقتلوا معه نيفاً وثلاثين نفساً من مماليكه وخواصه، واسم البرواناه المذكور سليمان، والبروناه لقب، وهو الحاجب العجمي، وكان مقتله بالاطاغ وكان البرواناه حازما بتدبير المملكة ذا مكر ودهاء.

وفي هذه السنة توفي الشهاب محمد بن يوسف بن زائدة التلعفري الشاعر، وفيها مات الشيخ خضر في حبس الملك الظاهر. وفيها عاد الملك الظاهر من عمق حارم، وتوجه إلى دمشق.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وستمائة

فيها في خامس المحرم وصل الملك الظاهر بيبرس إلى دمشق ونزل بالقصر الأبلق، وكان قد رحل من عمق حارم في أواخر سنة خمس وسبعين.

ذكر وفاة الملك الظاهر بيبرس

فيها في يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم توفي السلطان الملك الظاهر بيبرس أبو الفتح بيبرس الصالحي النجمي بدمشق، وقت الزوال رحمه الله تعالى، عقب وصوله من بلاد الروم إلى دمشق على ماتقدم ذكره، وقد اختلف في سبب موته، فقيل: انه انكسف القمر كسوفاً كليا وشاع بين الناس أن ذلك سبب موت رجل جليل القدر، فأراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل إلى غيره فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الأيوبية يقال له الملك القاهر من ولد الملك الناصر داود بن المعظم عيسى، وأحضر قمزا مسموما، وأمر الساقي فسقى الملك القاهر المذكور فشرب الملك الظاهر ناسيا بذلك النهاء على أثر شرب الملك القاهر، فمات الملك القاهر، عقيب ذلك، وأما الملك الظاهر فحصلت له حمى محرقة وتوفي في التاريخ المذكور، وكتم نائبه ومملوكه بدر الدين تنليك المعروف بالخزندار موته وصبره وتركه في قلعة دمشق إلى أن استوت تربته بدمشق قرب الجامع، فدفن فيها وهي مشهورة معروفة، وارتحل بدر الدين تنليك بالعساكر، ومعهم المحفة مظهراً أن الملك الظاهر فيها وأنه مريض، وسار إلى ديار مصر، وكان الملك الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بيبرس، ولقبه الملك السعيد، وجعله ولي عهده، فوصل تنليك الخزندار بالخزائن والعسكر إلى الملك السعيد بقلعة الجبل، وعند

ذلك أظهر موت الملك الظاهر، وجلس ابنه الملك السعيد للعزاء واستقر في السلطنة، وكانت مدة مملكة الملك الظاهر نحو سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام، لأنه ملك في سابع محرم من سنة ست وسبعين وستمائة، وكان ملكا جليلا شجاعا عاقلا مهيبا ملك الديار المصرية والشام، وأرسل جيشاً فاستولوا على النوبة، وفتح الفتوحات الجليلة مثل صفد وحصن الأكراد وانطاكية وغيرها على ماتقدم ذكره، وأصله مملوك قبجاقي في الجنس، وسمعت أنه برجعلي، وكان أسمر أزرق العينين، جهوري الصوت، حضر هو ومملوك آخر مع تاجر إلى حماة فاستحضرهما الملك المنصور محمد ليشتريهما فلم يعجبه واحد منهما، وكان ايدكين البندقدار الصالحي مملوك الملك الصالح أيوب صاحب مصر قد غضب عليه الملك الصالح المذكور، وكان قد توجه ايدكين إلى جهة حماة، فأرسل الملك الصالح وقبض على ايدكين المذكور، واعتقله بقلعة حماة، فتركه الملك المنصور صاحب حماة في جامع قلعة حماة، واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر مع التاجر، فلما قلبه الملك المنصور ولم يشتره، أرسل ايدكين البندقدار وهو معتقل فاشتراه، وبقي عنده، ثم أفرج الملك الصالح عن البندقدار، فسارمن حماة وصحبته الملك الظاهر، وبقي مع أستاذه البندقدار المذكور مدة، ثم أخذه الملك الصالح من البندقدار، فانتسب إلى الملك الصالح دون أستاذه، وكان يخطب له وينقش على الدراهم والدنانير بيبرس الصالحي.

وكان استقرار الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر في مملكة مصر والشام في أوائل ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة ست وسبعين وستمائة، واستقر بدر الدين تنليك الخزندار في نيابة السلطنة على ماكان عليه مع والده، واستمرت الأمور على أحسن نظام فلم تطل أيام تنليك الخزندار ومات بعد ذلك في مدة يسيرة، قيل حتف أنفه، وقيل بل سم، والله أعلم، وتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين الفارقاني، ثم إن الملك السعيد خبط وأراد تقديم الأصاغر، وأبعد الامراء الأكابر، وقبض

على سنقر الاشقر والبيسري، ثم أفرج عنهما بعد أيام يسيرة، ففسدت نيات الأمراء الكبار عليه، وبقي الأمر كذلك حتى خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وستمائة

ذكر مسير الملك السعيد بركة إلى الشام والاغارة على سيس

وخلاف عسكره عليه

في أثناء هذه السنة سار الملك السعيد بركة إلى الشام، وصحبته العساكر، ووصل إلى دمشق وجرد منها العسكر صحبة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي، وجرد أيضاً صاحب حماة، فساروا ودخلوا إلى بلاد سيس وشنوا الاغارة عليها، واتفقوا على الخلاف على الملك السعيد المذكور، وخلعه من السلطنة لسوء تدبيره، وعبروا على دمشق ولم يدخلوها، فأرسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم ودخل عليهم بوالدته فلم يلتفتوا إلى ذلك، وأتموا السير، فركب الملك السعيد وساق وسبقهم إلى مصر وطلع إلى قلعة الجبل، وسارت العساكر في إثره، وخرجت هذه السنة والأمر كذلك.

وفيها توفي عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بن سلجوق عند منكوتمر ملك التتر بمدينة صراي، وكيكاوس المذكور هو الذي كان محبوسا بقسطنطينية، حسبما تقدم ذكر القبض عليه في سنة اثنتين وستين، وذكر خلاصه، واتصاله بملك التتر، في سنة ثمان وستين وخلف عز الدين المذكور ولدا اسمه مسعود، وقصد منكوتمر أن يزوجه بزوجة ابنه عز الدين كيكاوس، فهرب مسعود واتصل ببلاد الروم فحمل إلى ابغا فأحسن إليه ابغا، وأعطاه سيواس وأرزن الروم وأرزنكان،

واستقرت هذه البلاد لمسعود المذكور، ثم بعد ذلك جعلت سلطنة الروم باسم مسعود المذكور، وافتقر جدا وانكشف حاله وهو آخر من سمي سلطانا من السلجوقية بالروم.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وستمائة

ذكر خلع الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر

في هذه السنة وصلت العساكر الخارجون عن طاعة بركة المذكور إلى الديار المصرية، في ربيع الأول، وحصروا الملك السعيد بركة بقلعة الجبل فخامر على السعيد بركة غالب من كان معه من الأمراء مثل لاجين الزيني، وغيره وبقي يهرب واحد بعد واحد من القلعة ويضم إلى العسكر المحاصر للقلعة، فلما رأى الملك السعيد بركة ذلك أجابهم إلى الانخلاع من السلطنة، وأن يعطى الكرك فأجابوه إلى ذلك، وأنزلوه من القلعة وخلعوه في ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة ثمان وسبعين وستمائة وسفروه من وقته الى الكرك صحبة بيد عان الركني، وجماعة معه فوصل إليها وتسلمها بما فيها من الأموال، وكان شيئاً كثيراً.

ذكر اقامة سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس في المملكة

وفي هذه السنة لما جرى ماذكرناه من خلع الملك السعيد بركة، واعطائه الكرك اتفق أكابر الأمراء الذين فعلوا ذلك مثل بدر الدين بيسري الشمسي، وايتمش السعدي، وبكتاش الفخري أمير سلاح وغيرهم على اقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس في المملكة، ولقبوه الملك العادل، وعمره إذ ذاك سبع سنين وشهور، وخطب له وضربت السكة باسمه، وذلك في شهر ربيع الأول من هذه السنة،

وصار الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي أتابك العسكر، ولما استقر ذلك جهز اتابك العسكر المذكور الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق، وجعله نائب السلطنة بالشام، وكان العسكر لما خالفوا السعيد بركة قد قبضوا على عز الدين إيدمر نائب السلطنة بدمشق، وتولى تدبير دمشق بعد إيدمر أقوش الشمسي نائب السلطنة بحلب، فسار وتولاها واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة.

ذكر سلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحي

وفي هذه السنة، أعني سنة ثمان وسبعين وستمائة، في يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب كان جلوس السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي في السلطنة بعد خلع الصبي سلامش وعزله، ولما تولى السلطان الملك المنصور، أقام منار العدل، وأحسن سياسة الملك وقام بتدبير المملكة أحسن قيام.

ذكر خروج سنقر الأشقر عن الطاعة وسلطنته بالشام

وفي هذه السنة في الرابع والعشرين من ذي القعدة ، جلس سنقر الأشقر بدمشق في السلطنة ، وحلف له الأمراء والعسكر الذين عنده بدمشق، وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر.

وفي هذه السنة توفي الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر بيبرس في الكرك بعد وصوله إليها في مدة يسيرة، وكان سبب موته أنه لعب بالكرة في ميدان الكرك فتقنطر به فرسه، فحصل له بسبب ذلك حمى شديدة ، وبقي كذلك أياما يسيرة، وتوفي وحمل إلى دمشق، ودفن بتربة أبيه، ولما

توفي الملك السعيد، اتفق من بالكرك وأقاموا موضعه أخاه نجم الدين خضر، واستقر في الكرك، ولقبوه الملك المسعود.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وستمائة

ذكر كسرة سنقر الأشقر

في هذه السنة في التاسع عشر من صفر، كانت كسرة سنقر الأشقر المستولي على الشام، الملقب بالملك الكامل، وكان من حديث هذه الكسرة أن السلطان الملك المنصور قلاوون جهز عساكر ديار مصر، مع علم الدين سنجر الحلبي الذي تقدم ذكر سلطنته بدمشق عقيب قتل قطز، وكان أيضاً من مقدمي العسكر المصري المذكور بدر الدين بكتاش، وبدر الدين الايدمري، وعز الدين الأفرم، فسارت العساكر المذكورة إلى الشام، وبرز سنقر الأشقر بعساكر الشام إلى ظاهر دمشق، والتقى الفريقان في تاسع عشر صفر المذكور، فولى الشاميون ، وسنقر الاشقر منهزمين، ونهبت العساكر المصرية أثقالهم، وكان السلطان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائباً بقلعة دمشق، فلما هرب سنقر الاشقر أفرج عن حسام الدين لاجين المذكور، وكذلك كان سنقر الأشقر قد اعتقل بيبرس المعروف بالجالق لأنه لم يحلف له، فأفرج عنه أيضاً، وكتب الحلبي إلى السلطان الملك المنصور بالنصر، واستقر الامير لاجين المنصوري المذكور نائب السلطنة بالشام، وأما سنقر الاشقر فإنه هرب إلى الرحبة، وكاتب أبغا بن هولاكو ملك التتر، وأطمعه في البلاد، وكان عيسى بن مهنا ملك العرب مع سنقر الأشقر، وقاتل معه، وكتب بذلك إلى أبغا أيضا موافقة له، ثم سار سنقر الأشقر من الرحبة إلى صهيون في جمادى الأولى من هذه السنة، وإستولى عليها، وعلى برزية وبلاطنس والشغر وبكاس وعكار وشيزر وفامية وصارت هذه الاماكن لسنقر الأشقر.

وفيها توفي أقوش الشمسي، نائب السلطنة بحلب، وولى السلطان الملك المنصور قلاوون على حلب علم الدين سنجر الباشغردي.

وفيها قويت أخبار التتر وأنهم واصلون إلى البلاد الاسلامية بجموعهم.

وفيها جعل الملك المنصور قلاوون ولده الملك الصالح علاء الدين علي ولي عهده، وسلطنه وركب بشعار السلطنة.

وفيها سار السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي من الديار المصرية، ووصل إلى غزة، وكان التتر قد وصلوا إلى حلب، فعاثوا ثم عادوا، فعاد السلطان إلى مصر في جمادى الآخرة من هذه السنة.

وفيها استأذن سيف الدين بلبان الطباخي، أحد مماليك الملك المنصور، وكان نائب السلطنة بحصن الأكراد في الاغارة على بلد المرقب لما اعتمده أهله من الفساد عند وصول التتر إلى حلب، فأذن له السلطان في ذلك فجمع بلبان الطباخي المذكور عساكر الحصون، وسار إلى المرقب فاتفق هروب المسلمين، ونزل الفرنج من المرقب وقتلوا وأسروا من المسلمين جماعة.

وفيها في مستهل ذي الحجة خرج السلطان الملك المنصور قلاوون من مصر وسار عائدا إلى الشام، وخرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثمانين وستمائة

والسلطان الملك المنصور بالروحاء، وأقام هناك مدة، ثم سار إلى بيسان وقبض على جماعة من الظاهرية ، ودخل دمشق وأعدم منهم جماعة مثل: كوندك، وايدغمش الحلبي، وبيبرس الرشيدي، وأرسل عسكرا إلى شيزر ، وهي لسنقر الأشقر، وجرى بينهم مناوشة ، ثم إنه

ترددت الرسل بين السلطان وبين سنقر الأشقر ، واحتاج السلطان إلى مصالحته لقوة أخبار التتر، ووقع بينهم الصلح على أن يسلم شيزر إلى السلطان ويتسلم سنقر الأشقر الشغر وبكاس، وكانتا قد ارتجعتا منه، فتسلم نواب السلطان شيزر، وتسلم الشغر وبكاس سنقر الأشقر، وحلفا على ذلك، واستقر الصلح بينهما. وفيها أيضا استقر الصلح بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبين الملك خضر ابن الملك الظاهر بيبرس، صاحب الكرك.

ذكر الوقعة العظيمة مع التتر على حمص

في هذه السنة أعني سنة ثمانين وستمائة، في شهر رجب، كان المصاف العظيم بين المسلمين وبين التتر بظاهر حمص، فنصر الله تعالى فيه المسلمين بعد ما كانوا قد أيقنوا بالبوار، وكان من حديث هذا المصاف العظيم أن أبغا بن هولاكو حشد وجمع وسار بهذه الحشود طالبا الشام، ثم انفرد أبغا المذكور عنهم وغنم وسار إلى الرحبة، وسير جيوشه وجموعه إلى الشام، وقدم عليهم أخاه منكوتمر ابن هولاكو، وسار إلى جهة حمص. وسار السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي بالجيوش الاسلامية من دمشق إلى جهة حمص أيضا، وأرسل إلى سنقر يستدعيه بمن عنده من الأمراء والعسكر بحكم ما استقر بينهما من الصلح واليمين، فسار سنقر الأشقر من صهيون فلما نزل السلطان بظاهر حمص، وصل إليه الملك المنصور صاحب حماة بعسكره، ثم وصل سنقر الأشقر وصحبته ايتمش السعدي، والحاج أزدمر، وعلم الدين الدويداري، وجماعة من الظاهرية، ورتب السلطان عسكره ميمنة وميسرة، وكان رأس الميمنة الملك المنصور محمد صاحب حماه بعسكره، ثم بدر الدين البيسرى دونه ثم علاء الدين طيبرس الوزيري، ثم أيبك الأفرم، ثم جماعة من العسكر المصري، ثم عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام، وكان رأس الميسرة سنقر الأشقر ومن معه، ثم بدر الدين تنليك الإيدمري، ثم

بدر الـدين بكتـاش أمير سلاح ، وكان بـر الميمنة العـرب، وبر الميسرة التركمان، وكان شـاليش القلـب حسام الـدين طـرنطاي نـائب السلطنة، ومن أضيف إليه مـن الأمراء والعساكر، والتقى الفريقـان بظاهر حمص في الساعة الـرابعة من يوم الخميـس رابع عشر رجب الفرد مـن هذه السنة، أعني سنـة ثمانين وستمائة، وأنزل الله نصرتـه على القلب والميمنة فهـزموا من كـان قبالتهم مـن التتر، وركبوا قفاهم يقتلـونهم، وكان منكوتمر قبـالة القلب فـانهزم أيضا، وأمـا ميسرة المسلمين فانها انكشفـت عن مـواقفها، وتـم ببعضهـم الهزيمـة إلى دمشق، وسـاق التتر في إثـر المنهـزمين حتـى وصلـوا إلى تحت حمص، ووقعـوا في السـوقيـة وغلمان العسكـر والعـوام، وقتلوا منهم خلقاً كثيرا، ثم علمـوا بنصرة المسلمين وهزيمة جيشهم، فولى المذكـورون أيضـا منهـزمين على أعقـابهم، وتبعهـم المسلمـون يقتلـون ويأسرون، وكـانت عـدة التتر ثمانين ألف فارس، منهـم خمسون ألفـا من المغل، والبـاقي حشـود وجموع من أجناس مختلفـة مثل: الكـرج، والأرمن، والعجم وغيرهـم، ولما وصل خبر هـذه الكسرة إلى أبغا وهـو على الرحبـة يحاصرهـا رجل عنهـا على عقبـه منهزمـا، وكتـب بهذا الفتح العظيـم إلى سائر البـلاد الاسلاميـة فزينـت لذلـك، ثم إن السلطـان الملك المنصـور قلاوون أعطـى الدستـور للعساكر الشـامية، فرجـع الملك المنصـور محمد صاحـب حماة إلى بلده، ورجع سنقـر الأشقر وجماعته إلى صهيـون، وسار عسكـر حلب إليهـا، وعاد السلطـان إلى دمشق، والأسرى والـرؤوس بين يديه.

وفيها عـاد السلطان الملك المنصور قـلاوون إلى الديار المصرية مـؤيدا منصورا. وفيهـا عند وصوله إلى مستقـر ملكه قدمـت إليه هدية صـاحب اليمن المظفـر شمس الديـن يوسف بن عمـر بن علي بن رسـول، وطلب أمانا من السلطان فقبل السلطان هديتـه، وكانت من طرائف اليمن مثل العـود والعنبر والصيني، ورمـاح القنـا، وغير ذلـك، وكتب لـه السلطـان أمانا صدره:« هـذا أمان الله تعالى، وأمان سيدنـا محمد صلى الله وسلم،

وأمـاننا لأخينـا السلطان الملـك المظفر شمـس الديـن يوسـف بن عمـر، صاحـب اليمن، إننا راعو ن لـه ولأولاده، مسالمون من سالمهـم، معادون من عـاداهم.» ونحو ذلك، وكـان ذلك في العشر الأول من رمضـان هذه السنة، وأرسـل السلطان إليـه هدية مـن أسلاب التتر وخيـولهم، وعادت رسله بذلك مكرمين.

وفيها مـات منكوتمربن هولاكـو بن طلو بـن جنكيز خان بجزيـرة ابن عمر مكمـوداً، عقب كسرته على حمص وكـان موتـه من جملة هـذا الفتح العظيم.

وفيها توفي علاء الدين عطاء ملـك بن محمد الجويني ، وكان صاحب الديـوان ببغداد، فنقب عليه ابغـانسبه الى مواطأة المسلمين، وقبـض عليه واخذ امواله وكان صدراً كبيراً فاضلاً له شعر حسن فمنه في تركيا:

أبـــاديـــة الأعـــراب عنـــي فـــانني
بحـــاضرة الأتـــراك نيطـــت عـــلائقـــي
وأهلـــك يـــا نجـــل العيـــون فـــإننـــي
جننـــت بهذا النـــاظـــر المتضـــايـــق

وكانـت وفاتـه بعراق العجـم، وولي بعده ابـن أخيه هـارون بن محمـد الجويني.

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وستمائة

فيهـا ولى السلطان مملوكـه شمس الـديـن قرا سنقـر نيـابة السلطنـة بحلب، فسار إليها واستقر.

ذكر موت ابغا

وفيها في المحرم مات ابغا بن هولاكـو بن جنكز خان ملك التتر ، قيل إنه مات مسموماً، وكان موته ببلاد همذان، وكانت مـدة ملكه نحو سبع عشرة سنة وكسورا، وخلـف من الولد أرغون، وكيختو ابنـا ابغا، ولما مات ابغا ملك بعـده أخوه أحمد بن هولاكو، واسـم أحمد المذكور بيكدار ، فلما جلس في الملك أظهر دين الاسلام، وتسمى بأحمد سلطان.

وفيها وصلـت رسل أحمد بن هـولاكو ملك التتر المذكـور إلى السلطان الملك المنصور قلاوون، وكان كبير الرسـل المذكورين الشيخ المتقن قطب الـدين محمـود الشيرازي، وكـان إذ ذاك قـاضي سيواس، فـاحترز عليهـم السلطان ولم يمكن أحدا من الاجتماع بهم، وكـان مضمون رسالتهم اعلام السلطان بـإسلام أحمد المذكـور، وطلب الصلـح بين المسلمين والتتر، فلم ينتظم ذلك، ثم عادت رسله إليه بالجواب.

وفيها توفي منكوتمر بن طغان بن بـاطو بن دوشي خان ابن جنكز خان ملك التتر بالبـلاد الشمالية، وملك بعده أخـوه تدان منكو بن طغـان بن باطـو بن دوشي خان بـن جنكز خان ، وجلـس على كرسي التتر بصراي، وقيل إن ذلك كان سنة ثمانين.

وفيهـا عقد للملـك الصـالح عـلاء الديـن علي ابـن السلطان الملـك المنصـور قلاوون على بنـت سيـف الـدين بكيـه، ثـم تـزوج أخوه الملـك الأشرف بـاختهـا الأخرى، وكـان بكيـه معتقـلا بـالاسكندريـة، فلما عـزم السلطان على ذلـك أخرجـه من الحبس وأحسـن إليه، وزوج ابنيـه واحدا بعد الآخر ببنتى بكيه المذكور.

وفيها توفي القاضي الفـاضل، المحقق شمس الدين أحمد بـن محمد بن

أبي بكر بـن خلكان البرمكـي، وكان فـاضلاً عـالما، تولى القضـاء بمصر والشـام ، وله مصنفـات جليلة، مثـل وفيات الاعيـان في التاريـخ وغيره، وكان مولده يوم الخميس بعـد صلاة العصر حادي عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة بمدينة إربل، بمدرسة سلطانها مظفر الدين صاحب إربل ، نقلت ذلك من تاريخه في ترجمة زينب في أخر حرف الزاي.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وستمائة

في أوائل هذه السنة قدم الملك المنصـور محمد صاحب حماة، وصحبته الملك الأفضـل علي إلى خدمة السلطـان الملك المنصـور قلاوون بالـديار المصرية ، فبـالغ السلطان في إكـرام صاحـب حماة والاحسان إليه، وأنـزله بالكبـش، وأركبه بـالسناجـق السلطانية والجفـت والغاشيـة، وسألـه عن حوائجه فقـال الملك المنصور: حاجتي أن أعفـى من هذا اللقب فـإنه ما بقـي يصلح لي أن ألقـب بالملـك المنصور وقـد صـار هذا لقـب مولانـا السلطان الأعظم، فـأجابه السلطان بأني ما تلقبـت بهذا الاسم إلاّ لمحبتي فيك، ولو كان لقبك غير ذلك كنـت تلقبت به فشيء فعلته محبة لاسمك كيف أمكـن من تغييره، وطلـع السلطان بـالعسكر المصري لحفـر الخليج الذي بجهة البحيرة، وسـار صاحب حماة في خدمتـه إلى الحفير، ثم أعطى بعـد ذلك الـدستور لصـاحـب حماة، فعاد مكـرماً مغمورا بـالصدقـات السلطـانية، وفيهـا رمى السلطـان الملك الصـالـح علاء الـدين علي بـن السلطان بجعـاً بجهة العباسيـة بالبنـدق، وأرسله للملك المنصـور محمد صاحـب حماة، فقبله وبالغ في إظهـار السرور والفرح بذلك، وأرسـل إليه تقدمة جليلة.

وفيها خـرج أرغون بن أبغـا بخراسـان على عمه بيكدار المسمـى بأحمد سلطـان، وسـار إليـه واقتتـلا، فـانهزم أرغـون وأخـذه أحمد أسيرا وسـأل الخواتين في اطـلاق ارغـون واقـراره على خـراسـان، فلـم يجب إلى ذلـك،

وكانت خواطر المغل قد تغيرت على أحمد بسبب اسلامه والزامه لهم بالاسلام، فاتفقوا على قتله وقصدوا أرغون بالموضع الذي هو معتقل فيه، وأطلقوه وكبسوا الناق نائب أحمد فقتلوه، ثم قصدوا الأردو فأحس بهم السلطان أحمد فركب وهرب، فتبعوه وقتلوه، وملكوا أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طلو بن جنكز خان وذلك في جمادى الأولى من هذه السنة.

وفيها قتل أرغون الصبي سلطان الروم الذي أقامه البر وانا بعد قتله أباه، حسبما تقدم ذكره في سنة ست وستين وستمائة، وكان اسم الصبي المذكور غياث الدين كيخسرو بن ركن الدين قليج أرسلان بن كيخسرو إبن قليج أرسلان، وفوض اسم سلطنة الروم إلى مسعود بن عز الدين كيكاوس، وهذا مسعود هو الذي هرب من منكوتمر ملك التتر بصراي، وأبوه عز الدين كيكاوس هو الذي جرى له مع الاشكري صاحب قسطنطينية على ما قدمنا ذكره في سنة اثنتين وستين وستمائة، واستمرت سلطنة الروم باسم مسعود المذكور إلى سنة ثمان وسبعمائة ، وهو مسعود إبن كيكاوس بن كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن قطلومش من السلجوقية ببلاد الروم، وافتقر مسعود المذكور، وانكشف حاله جداً حتى قيل إنه تناول سما فمات من كثرة المطالبة من أرباب الدين والتتر.

وفيها ولى أرغون سعد الدولة اليهودي وعظمه ومكنه وكان سعد الدولة المذكور في مبدأ أمره دلالاً بسوق الصاغة بالموصل، فحكم في سائر البلاد التي بأيدي التتر.

وفيها قرر أرغون ولديه: قازان، وخربنده بخراسان، وجعل أتابكهما أميرا كبيرا من أصحابه اسمه نورود.

وفيها مات الأشكري صاحب قسطنطينية ، واسمه ميخائيل، وملك بعده ابنه ماندس وتلقب بالدوقس.

وفيها: كاتب الحكام بقلعة الكختا قرا سنقر نائب السلطنة بحلب وسلموا الكختا إلى السلطان، فجهز قرا سنقر عسكرا فتسلموها، وقرر السلطان فيها نوابه وحصنها وصارت من أعظم الثغور الاسلامية نفعا.

وفيها في رجب قدم السلطان إلى دمشق، وكان قد سار من مصر في جمادى الآخرة.

وفيها كان السيل العظيم بدمشق في العشر الأول من شعبان، والسلطان الملك المنصور قلاوون بدمشق، وأخذ ما مربه من العمارات وغيرها، واقتلع الاشجار، وأهلك خلقا كثيرا، وذهب للعسكر النازلين على جوانب بردى من الخيل والجمال والخيم ما لا يحصى، وتوجه السلطان عقيبه إلى الديار المصرية، ووصل إلى قلعة الجبل في ثامن عشر رمضان من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وستمائة

فيها سار السلطان الملك المنصور قلاوون إلى دمشق، وحضر الملك المنصور صاحب حماة إلى خدمته إلى دمشق، ثم عاد كل منهما إلى مقر ملكه.

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

في هذه السنة في شوال توفي السلطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي أحمد بن الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك

المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة، رحمه الله تعالى، ابتدأ فيه المرض في أوائل شعبان بعد عوده من خدمة السلطان من دمشق، وكان مرضه حمى صفراوية داخل العروق، ثم صلح مزاجه بعض الصلاح فأشار الاطباء بدخوله الحمام فعاوده المرض، وأحضر له الاطباء من دمشق مع من كان في خدمته منهم، واشتد به ذات الجنب، وعالجوه بما يصلح لذلك فلم يفد شيئاً، وفي مدة مرضه أعتق مماليكه، وتاب توبة نصوحا، وكتب إلى السلطان الملك المنصور قلاوون يسأله في اقرار ابنه الملك المظفر محمود في مملكته على قاعدته، واشتد به مرضه حتى توفي بكرة حادي عشر شوال من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وكانت ولادته في الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فيكون عمره إحدى وخمسين سنة وستة أشهر وأربعة عشر يوما، وملك حماة يوم السبت ثامن جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وستمائة وهو اليوم الذي توفي فيه والده الملك المظفر محمود، فيكون مدة ملكه إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام، وكان أكبر أمانيه أن يعيش إلى أن يسمع جوابه من السلطان فيما سأله من اقرار حماة على ولده الملك المظفر محمود، فاتفق وفاته قبل وصول الجواب، وكان قد أرسل في ذلك على البريد مملوكه سنقر أمير آخور، فوصل بالجواب بعد موت الملك المنصور بستة أيام، ونسخة الجواب من السلطان بعد البسملة: « المملوك قلاوون أعز الله أنصار المقام العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري الناصري، ولا عدمه الاسلام، ولا فقدته السيوف والأقلام، وحماه من أذى داء وعود عواد والمام آلام.المملوك يجدد الخدمة التي كان يود تجديدها شفاهاً، ويصف ما عنده من الألم لما ألم بمزاجه الكريم، حتى أنه لم يكد يفتح بالحديث فاها، ولما وقفنا على الكتاب المولوي المتضمن بمرض الجسد المحروس، وانتهى إليه الحال كادت القلوب تنشق والنفوس تذوب حزنا، والرجاء من الله أن يتداركه بلطفه، وأن يمن بعافيته التي رفع في مسألتها يديه،

وبسط كفيه، وهو يرجو من كرم الله معاجلة الشفاء، ومداركة العافية المورِدة بعد الكدر مورد الصفاء، وإن الله يفسح في أجل المولى ويهبه العمر الطويل، وأما الاشارة الكريمة إلى ما ذكره من حقوق يوجبها الإقرار، وعهود أمنت بدورها من السرار، ونحن نحمد الله ، فعندنا تلك العهود ملحوظة، وتلك المودات محفوظة، فالمولى يعيش قرير العين فما ثم إلاّ ما يسره من إقامة ولده مقامه لايحول ولايزول، ولايرى على ذلك ذلة ولاذهول، ويكون المولى طيب النفس مستديم الأنس بصدق العهد، القديم، وبكل ما يؤثر من خير مقيم.» ولما وصل الكتاب اجتمع لقراءته الملك الأفضل والملك المظفر، وعلم الدين سنجر المعروف بأبي خرص وقرئ عليهم، وتضاعف سرورهم بذلك، وكان الملك المنصور محمد صاحب حماة المذكور ملكا ذكيا فطنا محبوب الصورة ، وكان له قبول عظيم عند ملوك الترك، وكان حليما إلى الغاية ، يتجاوز عما يكره ويكتمه ولا يفضح قائله، من ذلك أن الملك الظاهر بيبرس قدم إلى حماة ونزل بالدار المعروفة الآن بدار المبارز، فرفع إليه أهل حماة عدة قصص يشكون فيها من الملك المنصور، فأمر الملك الظاهر دواداره سيف الدين بلبان أن يجمع القصص ولا يقرأها، ويضعها في منديل، ويحملها إلى الملك المنصور صاحب حماة، فحملها الدوادار المذكور وأحضرها إلى الملك المنصور، وقال إنه والله لم يطلع السلطان - يعني الملك الظاهر - على قصة منها، وقد حملها إليك، فتضاعف دعاء الملك المنصور لصدقة الملك الظاهر، وخلع على الدوادار، وأخذ القصص، وقال بعض الجماعة: سوف نرى من تكلم بشيء لاينبغي وتكلموا بمثل ذلك، فأمر الملك المنصور باحضار نار، وحرق تلك القصص ولم يقف على شيء منها لئلا يتغير خاطره على رافعها ، وله مثل ذلك كثير رحمه الله تعالى.

ذكر ملك الملك المظفر حماة

ولما بلغ السلطان الأعظم الملك المنصور وفاة الملك المنصور صاحب

حماة قرر ابنه الملك المظفر محموداً ابن الملك المنصور محمد في ملك حماة على قاعدة والده، وأرسل إليه وإلى عمه الملك الأفضل وإلى أولاده التشاريف، ومكاتبة إلى الملك المظفر بذلك، ووصلت التشاريف ولبسناها في العشر الأخير من شوال من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وستمائة، ونسخة الكتاب الواصل من السلطان بعد البسملة:« المملوك قلاوون، أعز الله نصرة المقام العالي المولوي السلطاني الملكي المظفري التقوي، ونزع عنه لباس البأس، وألبسه خلل السعد المجلوة على أعين الناس، وهو يخدم خدمة بولاء قد تبجست عيونه، وتأسست مبانيه وتيابست ظنونه، وحلت رهونه، وخلت ديونه، وأثمرت غصونه، وزهت أفنانه وفنونه» ومنها: « وقد سيرنا المجلس السامي جمال الدين أقوش الموصلي الحاجب، وأصحبناه من الملبوس الشريف ما يغير به لباس الحزن ، وينجلي في مطلعه ضياء وجه الحسن، وينجلي بذلك غيوم تلك الغموم، وأرسلنا أيضا صحبته ما يلبسه هو وذووه، كما يبدو البدر بين النجوم» وآخر الكتاب:« وكتب في عشرين شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة» وكان قد وقع الاتفاق عند موت الملك المنصور على إرسال علم الدين سنجر أبي خرص الحموي لأجل هذا المهم ، فلاقى سنجر المذكور جمال الدين الموصلي بالخلع في اثناء الطريق، فأتم سنجر أبو خرص السير ووصل إلى الأبواب الشريفة السلطانية ،فتلقاه السلطان بالقبول، وأعاده بكل ما يحب ويختار وقال: نحن واصلون إلى الشام، ونفعل مع الملك المظفر، فوق ما في نفسه، فعاد علم الدين سنجر أبو خرص إلى حماة، ومعه الجواب بنحو ذلك.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وستمائة

ذكر ركوب الملك المظفر صاحب حماة بشعار السلطنة

في هذه السنة في صفر، كان ركوب السلطان الملك المظفر محمود

صاحب حماة بشعار السلطنة بدمشق المحروسة، وصورة ما جرى في ذلك أن السلطان الملك المنصور قلاوون وصل في هذه السنة في أواخر المحرم بعساكره المتوافرة إلى دمشق المحروسة، وسار الملك المظفر صاحب حماة، وعمه الملك الافضل ووصلا إليه إلى دمشق، فأكرمهما السلطان إكراماً كثيراً، وأرسل إلى الملك المظفر في اليوم الثالث بعد وصوله التقليد بسلطنة حماة، والمعرة، وبارين، والتشريف وهو أطلس أحمر فوقاني بطراز زركش وسنجاب ودايره قندس، وقباء أطلس أصفر تحتاني، وشاش تساعي وكلوته زركش، وحياصة ذهب، وسيف محلى بالذهب، وتلكش وعنبرينا، وثوب بطرز مذهبة ، ولباس ، وأرسل شعار السلطنة وهو سنجق بعصائب سلطانية وفرس بسرج ذهب ورقبة وكبوش، وأرسل الغاشية السلطانية، فلبس الملك المظفر ذلك، وركب بشعار السلطنة، وحضرت أمراء السلطان، ومقدمو العسكر، وساروا معه من الموضع الذي كان فيه، وهو داره المعروفة بالحافظية داخل باب الفراديس بدمشق المحروسة إلى أن وصل إلى قلعة دمشق، ومشت الأمراء في خدمته، ودخل الملك المظفر إلى عند السلطان فأكرمه وأجلسه إلى جانبه على الطراحة، وطيب خاطره، وقال له: أنت ولدي، وأعز من الملك الصالح عندي، فتوجه إلى بلادك، وتأهب لهذه الغزاة المباركة، فأنتم من بيت مبارك ما حضرتم في مكان إلاّ وكان النصر معكم، فعاد الملك المظفر، وعمه الملك الأفضل إلى حماة، وعملا أشغالهما، وكذلك باقي العسكر الحموي، وتأهبوا للمسير إلى خدمة السلطان ثانياً.

ذكر فتوح المرقب

في هذه السنة سار السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون بعد وصوله إلى دمشق بالعساكر المصرية والشامية، ونازل حصن المرقب في أوائل ربيع الأول من هذه السنة، وهو حصن للاسبتار في غاية العلو والحصانة، لم يطمع أحد من الملوك الماضين في فتحه، فلما زحف العسكر

عليه أخذ الحجارون فيه النقوب، ونصبت عليه عدة مجانيق كباراً وصغاراً، يقول العبد الفقير مؤلف هذا المختصر: إنني حضرت حصار الحصن المذكور، وعمري إذ ذاك نحو اثنتي عشرة سنة، وهو أول قتال رأيته ، وكنت مع والدي، ولما تمكنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهله الأمان، فأجابهم السلطان رغبة في إبقاء عمارته، فإنه لو أخذه بالسيف وهدمه كان حصل التعب في إعادة عمارته، فأعطى أهله الأمان على أن يتوجهوا بما يقدرون على حمله غير السلاح، وصعدت السناجق السلطانية على حصن المرقب المذكور، وتسلمه في الساعة الثامنة من نهار الجمعة تاسع عشر ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة أربع وثمانين وستمائة، وكان يوما مشهودا أخذ فيه الثار من بيت الاسبتار، ومحيت آية الليل بآية النهار، فأمر السلطان فحمل أهل المرقب إلى مأمنهم، ولما ملكه قرر أمره ،ورحل عنه إلى الوطاة بالساحل، وأقام بمروج بالقرب من موضع يقال له برج القرفيص، ثم سار السلطان ونزل تحت حصن الأكراد ،ثم سار ونزل على بحيرة حمص، وهي بحيرة قدس.

ذكر مولد مولانا السلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي

في هذه السنة ولد مولانا السلطان الأعظم المذكور من زوجة السلطان وهي بنت سكتاي بن قراجين بن جنعان، وسكتاي المذكور ورد إلى الديار المصرية هو وأخوه قرمشي سنة خمس وسبعين وستمائة صحبه بيجار الرومي في الدولة الظاهرية، فتزوج السلطان الملك المنصور قلاوون ابنة سكتاي المذكور في سنة ثمانين وستمائة بعد موت أبيها المذكور، بولاية عمها قرمشي، ووردت البشائر بمولده إلى السلطان، وهو نازل على بحيرة حمص عند عوده من فتح المرقب، فتضاعف سروره، وضربت

البشائر فرحاً بمولده السعيد. وفيها عاد السلطان إلى الديار المصرية ، وأعطى الملك المظفر عند رحيله عن حمص الدستور، فعاد إلى حماة.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وستمائة

فيها أرسل السلطان عسكراً كثيفا مع نائب سلطنته حسام الدين طرنطاي المنصوري، وأمره بمنازلة الكرك، فسار إليها وحاصرها ، وتسلمها بالأمان، وأقام بها نواب السلطان، وعاد وصحبته أصحاب الكرك جمال الدين خضر، وبدر الدين سلامش ولدا الملك الظاهر بيبرس، فأحسن السلطان إليهما، ووفى لهما بأمانه وبقيا على ذلك مدة طويلة ، ثم بلغه عنهما ما كرهه فاعتقلهما فبقيا في الحبس حتى توفي، فنقل خضر وسلامش ولدا الملك الظاهر بيبرس إلى القسطنطينية.

وفيها خرج السلطان من الديار المصرية إلى غزة، ثم سار إلى الكرك فوصل إليها في شعبان، وقرر أمورها، ثم عاد إلى جهة غابة أرسوف، وأقام مدة، ثم عاد إلى الديار المصرية.

وفيها : توفي ركن الدين أباجي الحاجب.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

ذكر فتوح صهيون

كان السلطان قد جهز عسكرا كثيفا مع نائب سلطنته حسام الدين طرنطاي بمن معه من العساكر المصرية والشامية في هذه السنة إلى قلعة صهيون، ونصب عليها المجانيق وضايقها بالحصار، فأجابه صاحبها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى تسليمها بالأمان، وحلف له حسام الدين طرنطاي، فنزل سنقر الأشقر إليه وسلم صهيون في ربيع الأول من

هذه السنة ، فتسلمها طرنطاي وأكرم الاشقر المذكور غاية الإكرام ، ثم سار حسام الدين طرنطاي إلى اللاذقية، وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته، فركب طريقا إليه في البحر بالحجارة، وحاصر البرج المذكور وتسلمه بالأمان وهدمه، ثم بعد ذلك توجه إلى الديار المصرية وصحبته سنقر الأشقر، فلما وصلا إلى قرب قلعة الجبل ركب السلطان الملك المنصور قلاوون والتقى مملوكه حسام الدين طرنطاي وسنقر الأشقر وأكرمه، ووفى له بالأمان، وبقي سنقر الأشقر مكرما محترما مع السلطان إلى أن توفي السلطان، وملك بعده الملك الأشرف، فكان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها نزل تدان منكو بن طغان بن باطو بن دوش خان بن جنكز خان عن مملكة التتر بالبلاد الشمالية، وأظهر التزهد والانقطاع إلى الصلحاء، وأشار إلى أنيملكوا ابن أخيه تلابغا بن منكوتمر بن طغان المذكور، فملك بعده تلابغا ابن المذكور.

وفيها أرسل السلطان الملك المنصور عسكرا مع علم الدين سنجر المسروري المعروف بالحباط متولى القاهرة إلى النوبة، فساروا إليها وغزوا وغنموا وعادوا.

وفيها توفي بدر الدين تنليك الايدمري.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وستمائة

فيها توفي الملك الصالح علاء الدين علي ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، وهو الذي جعله ولي عهده وسلطنه في حياته، فوجد عليه السلطان والده وجداً عظيماً، وكان مرضه بالدوسنطريا، وخلف الملك الصالح المذكور ولداً اسمه موسى بن علي.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستمائة

ذكر فتوح طرابلس

في هذه السنة من أول ربيع الآخر فتحت طرابلس الشام، وصورة ما جرى أن السلطان الملك المنصور خرج بالعساكر المصرية في المحرم من هذه السنة ، وسار إلى الشام، ثم سار بالعساكر المصرية والشامية، ونازل مدينة طرابلس الشام يوم الجمعة مستهل ربيع الأول من هذه السنة، ويحيط البحر بغالب هذه المدينة، وليس عليها قتال في البر إلاّ من جهة الشرق، وهو مقدار قليل ولما نازلها السلطان نصب عليها عدة كثيرة من المجانيق الكبار والصغار، ولازمها بالحصار، واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من هذه السنة بالسيف، ودخلها العسكر عنوة، فهرب أهلها إلى الميناء، فنجا أقلهم في المراكب، وقتل غالب رجالها، وسبيت ذراريهم، وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة.

وحصار طرابلس هو أيضا مما شاهدته وكنت حاضراً فيه مع والدي الملك الأفضل، وابن عمي الملك المظفر صاحب حماة، ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم،أمر السلطان فهدمت ودكت إلى الارض، وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس، وبينها وبين طرابلس الميناء، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة والى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء، فاقتحم العسكر الاسلامي البحر، وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال، وغنموا ما بها من النساء، والصغار، وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب عبرت إليها في مركب فوجدتها ملأى من القتلى بحيث لايستطيع الانسان الوقوف فيها من نتن القتلى.

ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهـدمها ، عاد إلى الديار المصرية، وأعطى صاحب حماة الدستور، فعاد إلى بلده، وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس في سنة ثلاث وخمسمائة في حادي عشر ذي الحجة، فبقيت بأيديهم إلى أوائل هذه السنة، أعني سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، فيكون مدة لبثها مع الفرنج نحو مائة سنة وخمس وثمانين سنة وشهور.

وفيها مات قبلاي خان بن طلو بن جنكز خان ملك التتر بالصين، وهو أعظم الخانات والحاكم على كرسي مملكة جنكز خان، وكان قد طالت مدته ولما مات قبلاي خان جلس بعده ولده شهون.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وستمائة

ذكر وفاة السلطان سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي

في هذه السنة في سادس ذي القعدة توفي الملك المنصور المذكور، وصورة وفاته أنه خرج من الديار المصرية بالعساكر المتوافرة على عزم غزو عكا وفتحها، وبرز إلى مسجد التبرز، فابتدأ مرضه في العشر الأخير من شوال بعد نزوله بالدهليز في المكان المذكور، وأخذ مرضه يتزايد حتى توفي يوم السبت سادس ذي القعدة بالدهليز، وكان جلوسه في الملك يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة، فتكون مدة ملكه نحو احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وأياما، وخلف ولدين هما الملك الأشرف صلاح الدين خليل، والسلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد، وكان السلطان الملك المنصور المشار إليه ملكا مهيباً حليماً، قليل سفك الدماء، كثير العفو شجاعاً، فتح الفتوحات الجليلة مثل: المرقب، وطرابلس، التي لم يجسر أحد من الملوك مثل صلاح الدين وغيره على التعرض إليهما، لحصانتهما، وكسر جيش التتر على حمص ، وكانوا في جمع عظيم لم يطرق الشام قبله مثله، ولايحتمل

هذا المختصر ذكر فضائله، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ذكر سلطنة ولده الملك الاشرف

ولما توفي السلطان جلس في الملك بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاوون المذكور، وكان جلوسه في سابع ذي القعدة من هذه السنة، صبيحة اليوم الذي توفي فيه والده، ولما استقر السلطان الملك الأشرف في المملكة قبض على حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة في يوم الجمعة ثاني عشر ذي القعدة، فكان آخر العهد به ، وفوض نيابة السلطنة إلى بدر الدين بيدار، والوزارة إلى شمس الدين محمد بن السلعوس

ثم دخلت سنة تسعين وستمائة

ذكر فتوح عكا

في هذه السنة في جمادى الآخرة فتحت عكا.

وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا، وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور وأن يحضروا صحبتهم المجانيق، فتوجه الملك المظفر صاحب حماة وعمه الملك الأفضل وسائر عسكر حماة صحبته إلى حصن الاكراد، وتسلمنا منه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري حمل مائة عجلة، ففرقت في العسكر الحموي، وكان المسلم إليّ منه عجلة واحدة، لأني كنت إذ ذاك أمير عشرة، وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء، فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق، فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة، وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهرا، وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة،

وكذلك أمـر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبـار والصغار ما لم يجتمع على غيرهـا، وكان نزول العسـاكر الاسلاميـة عليها في أوائل جمادى الأولى من هذه السنة، واشتد عليها القتال ولم يغلـق الفرنج غالب أبوابها بل كـانت مفتحـة، وهم يقـاتلون فيهـا، وكانـت منزلـة الحمويين بـرأس الميمنة على عادتهم، فكنا على جانب البحـر والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا، وكـان يحضر إلينا مراكب مقببـة بالخشب الملبس جلـود الجواميس، وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ،وكـان القتال من قدامنا من جهة المدينة، ومـن جهة يميننـا من البحـر، وأحضروا بطسة فيهـا منجنيق يـرمي علينـا وعلى خيمنا من جهة البحر، فكنا منه في شدة حتى اتفق في بعض الليالي هبوب ريـاح قوية فارتفـع المركب وانحط بسبـب الموج وانكسر المنجنيق الذي فيه بحيث أنه انحطم ، ولم ينصب بعد ذلك.

وخرج الفـرنج في أثناء مـدة الحصار بالليـل، وكبسوا العسكر، وهـزموا اليزكية، واتصلـوا إلى الخيام وتعلقوا بالأطناب، ووقع منهـم فارس في جوة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك، وتكاثرت عليهم العساكر، فولى الفرنج منهزمين إلى البلد،وقتـل عسكر حماة عدة منهم، فلما أصبـح الصباح علق الملك المظفر صـاحب حماة عدة من رؤوس الفرنج في رقـاب خيلهم التي كسبهـا العسكـر منهـم، وأحضر ذلـك إلى السلطـان الملـك الأشرف ، واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم في يوم الجمعة السـابع عشر مـن جمادى الآخرة بـالسيف، ولما هجمهـا المسلمون هـرب جماعة مـن أهلها في المراكـب، وكان في داخل البلـد عدة أبـرجة عـاصية بمنزلة قلاع، دخلهـا عالم عظيم من الفرنج وتحصنـوا بها، وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوت الحصر من كثرته، ثم استنـزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة ولم يتأخر منهـم أحد، فأمر بهم فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثم أمر بمدينة عكا فهدمت إلى الأرض ودكت دكا.

ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة، واستولوا على من بها من المسلمين، ثم قتلوهم

.

فقدر الله عز وجل في سابق علمه أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين، فكان فتوحها مثل اليوم الذي ملكها الفرنج فيه، وكذلك لقب السلطانين.

ذكر فتوح عدة حصون ومدن

لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام، فأخلوا صيدا، وبيروت، وتسلمها الشجاعي في أواخر رجب، وكذلك هرب أهل مدينة صور، فأرسل السلطان وتسلمها، ثم تسلم عثليث في مستهل شعبان، ثم تسلم انطرطوس في خامس شعبان، جميع ذلك في هذه السنة أعني سنة تسعين وستمائة ، واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولاتعب، وأمر بها فخربت عن آخرها، وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للاسلام، وكان أمرا لايطمع فيه ولايرام، وتطهر الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية، وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام، فلله الحمد والمنة على ذلك ......

من كتاب نهاية الأرب للنويري

ذكر أخبار الملوك السلجقية بالشام وحلب

وأول من ملك منهم السلطان تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان محمد ابن جغريبك داود بن ميكائيل بن سلجق، وهو أخو ملكشاه وكان السلطان ملكشاه قد أقطعه الشام وما يفتحه من تلك النواحي في سنة سبعين وأربعمائة، فجاء إلى حلب وحصرها ولحق أهلها مجاعة شديدة. وكان معه جماعة كثيرة من التركمان فأنفذ إليه الأقسيس[1] صاحب دمشق يستنجده على العساكر المصرية، لأنها كانت قد حاصرته بدمشق من قبل أمير الجيوش بدر الجمالي، فسار إلى نصرة الأقسيس، فلما سمع العسكر المصري بقربه فارقوا البلد وعادوا إلى مصر، وخرج الأقسيس يلتقيه عند سور دمشق، فاغتاظ منه تتش كونه لم يتقدم في تلقيه، وعاتبه، فاعتذر بأمور لم يقبلها منه، فقبض عليه تتش في الوقت وقتله، وملك دمشق وأحسن السيرة في أهلها، وعدل فيهم وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة اثنتين وسبعين.

وفي سنة أربع وسبعين افتتح تاج الدولة انطرطوس وبعض الحصون الساحلية، وعاد إلى دمشق، وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة كانت الحرب بينه وبين سليمان بن قتلمش السلجقي صاحب الروم وأنطاكية، فهزم عسكره وقتله على ما نذكره إن شاء الله في أخبار سليمان، وملك تتش مدينة حلب خلا القلعة، فكتب الحتيتي إلى السلطان ملكشاه يستدعيه، فوصل إليها وفارقها تتش كما قدمنا ذكره.

ذكر استيلائه على حمص وغيرها من ساحل الشام

كان تاج الدولة تتش قد توجه إلى أخيه السلطان ملكشاه إلى بغداد في سنة أربع وثمانين، وجاء إليه زعماء الأطراف، فلما أذن لهم في العود أمر

أقسنقر صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، أن يسيرا في خدمة أخيه بعساكرهما إلى أن يستولي على ما هو للمستنصر العلوي صاحب مصر بساحل الشام من البلاد، ويتوجها معه إلى مصر ليملكها.

فساروا في سنة خمس وثمانين ، ونزلوا على حمص وحصروها وبها صاحبها خلف بن ملاعب، وكان الضرر به وبأولاده عظيما على المسلمين، فحصروا البلد وضيقوا على من به وملكه تتش، وأخذ ابن ملاعب وولديه،ثم سار إلى قلعة عرقة، وهي بالقرب من طرابلس، فملكها وملك أفامية، ثم نازل طرابلس وبها جلال الملك بن عمار، فراسل اقسنقر، وحمل إليه ثلاثين ألف دينار، وتحفا بمثلها، وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان بالبلد والتقدم إلى النواب بتلك البلاد بمساعدته، والتحذير من محاربته، فقال اقسنقر لتتش: أنا لا أقاتل من هذه المناشير بيده، ورحل من الغد، فرحل تاج الدولة وعاد بوزان إلى بلاده، والله أعلم.

ذكر ما فعله في طلب السلطنة

قال: لما بلغ تاج الدولة تتش قدوم أخيه السلطان ملك شاه إلى بغداد توجه من دمشق إلى خدمته، فلما وصل الى هيت أتاه الخبر بموته، فاستولى على هيت وعاد إلى دمشق فتجهز لطلب السلطنة ، وجمع العساكر وأخرج الأموال وسار إلى حلب وبها قسيم الدولة أقسنقر، فصالحه قسيم الدولة وأتبعه لما علم من اختلاف أولاد صاحبه، وأرسل إلى ياغي سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تاج الدولة، حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه، ففعلوا ذلك وصاروا معه وخطبوا له في بلادهم.

وقصد تتش الرحبة فملكها في المحرم سنة ست وثمانين وأربعمائة،ثم سار إلى نصيبين ففتحها عنوة وقتل من أهلها خلقا كثيرا ونهب الأموال،

وفعل الأفعال القبيحة، ثم سلمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة العقيلي. وسار يريد الموصل، وأتاه الكافي ابن فخر الدولة بن جهير وكان بجزيرة ابن عمر فاستوزره، والتقى بإبراهيم بن قريش في ثلاثين ألفاً، وتتش في عشرة آلاف، فاقتتلوا فانهزم إبراهيم والعرب، ثم أخذ أسيرا وجماعة من العرب فقتلوا صبرا، ونهبت أموالهم وما معهم من الخيل والإبل والأغنام وغيرها وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن خوفا من السبي والفضيحة، وملك تتش بلادهم الموصل وغيرها، واستناب بها علي ابن شرف الدولة مسلم، وهو ابن صفية عمة تتش.

ذكر ملكه ديار بكر وأذربيجان وعوده إلى الشام

قال: ثم سار تاج الدولة تتش في شهر ربيع الآخر فملك ميافارقين وسائر ديار بكر من ابن مروان، وسار منها إلى أذربيجان. وانتهى خبره إلى ابن أخيه بركياروق وكان قد استولى على كثير من البلاد، فسار في عسكره ليتبع عمه، فلما تقارب العسكران اجتمع قسيم الدولة وبوزان وقالا: « نحن إنما أطعنا هذا حتى ننظر ما يكون من ابن صاحبنا، وقد ظهر أمره» ففارقاه والتحقا ببركياروق فعاد تتش إلى الشام.

ذكر عود تتش إلى البلاد وملكه همذان وغيرها

قال: ولما عاد إلى الشام أخذ في جمع العساكر فكثرت جموعه وعظم جنده . فسار في سنة سبع وثمانين وأربعمائة عن دمشق نحو حلب لطلب السلطنة، فاجتمع قسيم الدولة اقسنقر وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدولة بركياروق بالأمير كربوقا، فالتقوا بالقرب من تل السلطان، قريب حلب واقتتلوا واشتد القتال فانهزموا، وثبت قسيم الدولة فأخذ أسيرا وجيء به إلى تاج الدولة فقال له: « ما كنت تصنع بي لو ظفرت»؟ قال: « كنت أقتلك» وقال :« فأنا أحكم عليك بحكمك » فقتله

صبرا.وسار نحو حلب، ودخلها وأسر كربوقا وبوزان وتسلم الرها وحران. وسار إلى بلاد الجزيرة فملكها جميعها، وملك ديار بكر وخلاط. وسار إلى أذربيجان فملك جميع بلادها، ثم منها إلى همذان فملكها، واستوزر فخر الملك بن نظام الملك.

ذكر انهزام بركياروق منه

قال: ولما سار تتش إلى أذربيجان كان بركياروق بنصيبين فبلغه الخبر. فسار إلى قتاله ولم يكن معه غير ألف رجل، وعمه في خمسين ألفا. فجهز إليه عمه بعض الأمراء فكبسه وهزمه ونهب سواده، فسار إلى أصفهان على ماذكرناه في أخباره وخطب للسلطان تاج الدولة ببغداد.

ذكر قتل تاج الدولة تتش

قال: ولما هزم بركياروق سار من موضع الوقعة إلى همذان، ثم سار إلى الري، وكاتب الأمراء الذين بأصفهان يدعوهم إلى طاعته، ويبذل لهم الأموال الكثيرة. وكان بركياروق مريضا بالجدري، فأجابوه يعدونه أنهم ينحازون إليه، وهم ينتظرون ما يكون من صاحبهم. فلما عوفي بركياروق أرسلوا إلى تتش أنه ليس لك عندنا إلا السيف، وخرجوا له والتقوا بموضع قريب من الري، وقد كثرت جموع بركياروق، فانهزم أصحاب تتش وثبت هو في القلب فقتله أصحاب قسيم الدولة بثأر صاحبهم، والله أعلم.

ذكر حال الملك رضوان وأخيه دقاق بعد قتل أبيهما تتش

قال: كان تاج الدولة تتش قد أوصى أصحابه بطاعة ابنه الملك رضوان، وكتب إليه من بلد الجبل قبل المصاف الذي قتل فيه يأمره بالمسير إلى بغداد، وأن يقيم بدار المملكة. فسار في عدد كثير منهم

إيلغازى بن أرتق، والأمير وثاب بن محمود بن صالح بن مرداس وغيرهما، فلما قارب هيت جاءه الخبر بقتل أبيه، فعاد إلى حلب ومعه والدته فملكها، وكان بها أبو القاسم بن بديع الخوارزمي قد سلمها تتش إليه، وحكمه فيها وفي القلعة. ولحق برضوان زوج أمه جناح الدولة الحسين بن إيتكين، وكان مع تتش فسلم من المعركة. وكان مع رضوان أيضا أخواه الصغيران أبو طالب وبهرام، فكانوا كلهم مع أبي القاسم كالأضياف لتحكمه في البلد، فاستمال جناح الدولة المغاربة، وكانوا أكثر أجناد القلعة، فلما انتصف الليل نادوا بشعار الملك رضوان، واحتاطوا على أبي القاسم ، وأرسل إليه الملك رضوان يطيب قلبه، فاعتذر فقبل عذره، وخطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها، وكانت الخطبة قد دامت باسم أبيه بعد قتله نحو شهرين.

وسار جناح الدولة في تدبير الدولة أحسن سيرة، وخالف عليهم الأمير ياغى سيان بن محمد بن ألب التركماني، صاحب أنطاكية، ثم صالحهم، وأشار على الملك رضوان بقصد ديار بكر لخلوها من وال يحفظها، فساروا جميعا وقدم عليهم من بالأطراف الذين كان تتش قد رتبهم فيها، وقصدوا سروج، فسبقهم إليها الأمير سقمان بن أرتق فأخذها ومنعهم منها، وأمرأهل البلد فخرجوا إلى رضوان وتظلموا من عساكره وما يفسدونه من غلاتهم، ويسألونه الرحيل، فرحل عنهم إلى الرها،وكان بها رجل يقال له الفارقليط ـ كان يضمن البلد من بوزان ـ فقاتل قتالا شديدا ثم ملكها، وطلب ياغى سيان القلعة من رضوان فوهبها له، فتسلمها وحصنها، فهرب رجالها، وأرسل إليهم أهل حران يطلبونهم ليسلموا إليهم البلد، فسمع ذلك قراجا فصلب ابن الفتي وغيره ممن اتهمهم، وجاء الخبر إلى رضوان وقد اختلف جناح الدولة وياغى سيان وأضمر كل منهما لصاحبه الغدر، فهرب جناح الدولة إلى حلب فدخلها، واجتمع بزوجته أم الملك رضوان، وسار رضوان وياغي سيان إلى حلب، فسمع بدخول جناح الدولة إليها، ففارق ياغي سيان

الملك رضوان وسار إلى أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي ودخل رضوان حلب.

هذا ما كان من أمر رضوان ، وأما الملك دقاق بن تتش، فإنه كان قد حضر المصاف مع أبيه، فلما قتل أبوه أخذه إيتكين الحلبي ــ وهو من غلمان أبيه ـ وسار به إلى حلب، فأقام عند أخيه الملك رضوان.

ثم راسله الأمير ساوتكين الخادم ـ متولي دمشق ـ سرا يدعوه ليملكه دمشق، فهرب من حلب، فأرسل أخوه رضوان في طلبه عدة من الخدام فلم يدركوه، وسار حتى وصل إلى دمشق ففرح به ساوتكين الخادم وأظهر البشر لوروده، فلما صار بدمشق أرسل إليه ياغي سيان يشير عليه أن ينفرد بملك دمشق عن أخيه رضوان، واتفق وصول معتمد الدولة طغتكين إلى دمشق ومعه جماعة من خواص تتش وعسكره، وقد سلموا من الوقعة، وكان طغتكين قد أسر ثم خلص، فلما وصل إلى دمشق لقيه الملك دقاق وأرباب الدولة وبالغوا في تعظيمه وإكرامه. وكان طغتكين زوج والدة دقاق، فمال إليه لذلك ووثق به وحكمه في بلاده. ثم اتفقا على قتل ساوتكين الخادم فقتلاه، وسار إليه ياغي سيان من أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي فجعله وزيراً لدقاق، وحكمه في دولته. فصارت دمشق لدقاق وحلب لرضوان.

ذكر الحرب بين الملكين رضوان وأخيه دقاق

وفي سنة تسعين وأربعمائة سار الملك رضوان من حلب إلى دمشق يريد الاستيلاء عليها وانتزاعها من أخيه دقاق، فلما قاربها رأى حصانتها وامتناعها، فعلم عجزه عنها ، فسار إلى نابلس وإلى القدس ليأخذه، فلم يمكنه ذلك، وانقطعت العساكر عنه فعاد إلى حلب ومعه ياغي سيان صاحب أنطاكية وجناح الدولة ، وكانا قد التحقا به. ثم فارقه ياغي

سيان وقصد دقـاق وحسن له محاصرة أخيه بحلب. فجمع دقـاق عساكره وسار ومعـه ياغي سيان، فـأرسل رضوان إلى سقمان بن أرتـق وهو بسروج يستنجده، فأتـاه في خلق كثير من التركمان. فسار بهم رضـوان نحو دقاق وعسكره ونهبـت خيامهـم وأموالهم، وعـاد رضوان إلى حلـب ، ثم اتفقـا على أن يخطب لـرضوان بـدمشق وأنطـاكية قبـل أخيه دقـاق، وقيل كـان ذلك في سنة تسع وثمانين.

وفي سنـة تسعين وأربعمائة خطـب الملـك رضـوان في أكثـر ولايتـه للمستعلي بأمر الله صـاحب مصر، وسبب ذلك أن جناح الدولـة كان قد فارق رضـوان لتغير رآه منه، وجـاء إلى حمص وكانـت له، فلما رأى يـاغي سيان بعـده عن رضـوان صالحه،وجـاء إلى حلب، ونـزل بظاهـرها وكـان لرضـوان منجم يقـال له الحكيم أبـو سعد يميل إليـه، فقدمـه بعد مسير جناح الدولة فحسـن له مذهب العلويين، وأتته رسـل المستعلي تدعوه إلى طاعتـه ويبذل له المال وإنفـاذ الجيوش لأخـذ دمشق، فخطب لـه بشيزر وجميع أعمال ولايته سوى أنطاكية ، وقلعـة حلب، والمعرة، وكانت الخطبة أربع جمع.

ثم حضر إليـه سقمان بن أرتق، وياغـي سيان فأنكـرا ذلك واستعظماه فأعـاد الخطبة العباسيـة، وسار ياغي سيـان إلى أنطاكية فلـم يقم بها غير ثلاثـة أيام حتى وصـل الفرنج إليها وحصروهـا وملكوها في سنـة إحدى وتسعين وأربعمائة على مـا نـذكـره إن شاء اللـه تعـالى في أخبـار المستعلي صاحب مصر.

ذكر ملك دقاق مدينة الرحبة

وفي شعبـان سنة سـت وتسعين وأربعمائة ملـك الملـك دقاق مـدينـة الرحبـة، وكانت بيـد قايماز أحد مماليـك السلطان ألب أرسـلان، استولى

عليها لما قتل كربوقا، فسار دقـاق وطغتكين أتابك إليه وحصراه، ثم رحلا عنه. فـاتفقت وفـاته في صفـر من هـذه السنة، وقـام مقامـه غلام تـركي اسمه حســن، وخطب لنفسه وخاف مـن الملك دقاق، فاستظهـر لنفسه، وأخذ جماعة مـن أعيان البلد وصادرهـم وحبس آخرين، فسـار دقاق إليه وحاصره، فسلم العامة البلد واعتصم هو بـالقلعة، فأمنه دقاق وسلمها له فتسلمهـا وأقطعه إقطـاعـا كثيرا بالشـام، وقـرر الرحبـة وجعـل فيها مـن يحفظها وعاد إلى دمشق.

ذكر وفاة الملك دقاق وملك ولده ثم أخيه

كانت وفـاته في شهر رمضان سبـع وتسعين وأربعمائة، ولما توفي خطب أتابكه طغتكين لولد له صغير عمره سنة واحدة، ثم قطع خطبته وخطب لأرتاش بن تتش عم هذا الطفل في ذي الحجة وله من العمر اثنتي عشرة سنة، ثـم أشار عليـه طغتكين بقصد الـرحبة فخـرج إليها وملكهـا، وعاد فمنعه مـن دخول البلـد ، فمضى إلى حصـون له، وأعـاد طغتكين خطبة الطفل ولد دقـاق، وقيل إن والدة أرتاش خـوفته من طغتكين وقالـت له: إنه زوج أم دقاق، وهـي لاتتركه حتى يقتلك ويستقيم الملك لـولد ابنها، ثـم حسـن له مـن يحسـد طغتكين مفـارقـة دمشق وقصـد بعلبـك وجمع الـرجـال والاستنجـاد بـالفـرنـج، والعـود إلى دمشــق وأخـذهــا مـن طغتكين،فخرج مـن دمشق سرا في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة مـع صغر سنة، ولحقـه الأمير إيتكين الحلبي وهـو صاحب بصرى، فعـاثا في نـاحية حوران، ولحق بهما مـن كان يريـد الفساد، وراسلا بغـدوين ملك الفـرنج يستنجـدانـه، فـأجـابهما إلى ذلـك، فسارا إليـه واجتمعـا بـه، وقـررا معـه القواعد، وأقامـا عنده، فلم يريا منه إلا التحـريض على الإفساد في أعمال دمشق وتخريبها ، فلما يئسا مـن نصرته فارقاه وتوجها في البريـة إلى الرحبة فملكها أرتاش وعـاد عنها، واستقام أمر طغتكين بدمشق، واستبـد بالأمر وأحسن إلى الناس ونشر فيهم العدل..

هذا ما كان من أمر ملوك دمشق ثم انتقل ملكها إلى طغتكين وأولاده من بعده على مانذكره إن شاء الله تعالى بعد ذكرنا لملوك حلب السلجقية، ومن ملكها بعدهم إلى أن ملكها أتابك زنكي بن أقسنقر.

ذكر أخبار ملوك حلب

قد قدمنا أن حلب كانت بيد الملك رضوان بن تتش، فلم تزل بيده إلى أن توفي في سنة سبع وخمسمائة، وكانت أموره غير مشكورة فإنه قتل أخويه أبا طالب وبهرام، وكان يستعين في كثير من أموره بالباطنية لقلة تدبيرة، فلما مات ملك بعده ابنه تاج الملوك ألب أرسلان الأخرس، وعمره ست عشرة سنة. ولم يكن أخرس، وإنما كان في لسانه حبسة وتمتمة، وأمه بنت ياغي سيان الذي كان صاحب أنطاكية.

قال: ولما ملك تاج الملوك سلك سنة أبيه في قتل إخوته فقتل أخوين له وهما: شقيقه ملكشاه، ومبارك لأبيه، واستولى على أمور دولته لؤلؤ الخادم، فلم يكن لتاج الملوك معه في السلطنة غير اسمها، ومعناها للؤلؤ، ولم تطل مدته في الملك، فإن غلمانه قتلوه في سنة ثمان وخمسمائة، وأقاموا بعده أخاه سلطان شاه بن رضوان، فكان مع لؤلؤ كعادة أخيه، فلما كان في سنة إحدى عشرة وخمسمائة ـ وقيل سنة عشر ـ قتل لؤلؤ المستولي على الأمر ، وكان سبب قتله أنه أراد قتل سلطان شاه كما فعل بأخيه، ففطن غلمان سلطان شاه لذلك، فبادروه بالقتل. وولي أتابكة سلطان شاه بعده شمس الخواص ألتونتاش، فبقى شهراً وعزلوه، وولي بعده أبو المعالي بن الملحي الدمشقي ثم عزلوه وصادروه. فخاف أهل حلب من الفرنج فسلموا البلد إلى الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق، وانقرضت الدولة السلجقية من حلب، والله أعلم.

ذكر أخبار من ملك حلب بعد انقراض الدولة السلجقية منها

ملكها الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق باتفاق أهلها في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فتسلمها . وكان له مع الفرنج وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها. واستناب بحلب ولده سليمان، فخالفه وعصى عليه، في سنة خمس عشرة وخمسمائة وكان عمره إذ ذاك عشر سنين، فبلغ والده الخبر، فسار مجداً فلم يشعر إلا وقد هجم البلد وقبض على من كان حسن لابنه العصيان، وقتلهم. وكان منهم إنسان من أهل حماة من بيت قرناص، كان إيلغازي قد قدمه على أهل حلب، وجعل إليه الرئاسة فجازاه بذلك، فقطع يديه ورجليه وسمله فمات، وأراد قتل ولده فمنعته رقة الوالد، واستناب بحلب سليمان شاه ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق، ولقبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردين، فلم تزل حلب بيده، إلى أن توفي في سنة ست عشرة وخمسمائة بميافارقين. وبقي سليمان بحلب إلى أن استولى عليها ، ابن عمه بلك بن بهرام بن أرتق، وبقيت بيد بلك إلى أن قتل في سنة ثمان عشرة وخمسمائة وهو يحاصر منبج، وكان قد قبض على صاحبها حسان البعلبكي، وملك المدينة وحاصر القلعة، فأتاه سهم فقتله وكان حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي مع عمه بلك، فحمله مقتولا إلى ظاهر حلب، فتسلمها في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة ، واستولى عليها، وجعل فيها نائبا يثق به، وعاد إلى ماردين، وكان يحب الدعة والرفاهية، فلما عاد إلى ماردين ملك حلب أقسنقر البرسقي صاحب الموصل بمكاتبة من أهلها، لأن الفرنج كانوا حاصروهم وضيقوا عليهم، فكتبوا إليه يستنجدونه، فحضر بعساكره، فرحل الفرنج عنها، وملكها في ذي الحجة سنة ثماني عشرة ، فكانت بيده إلى أن قتل في سنة عشرين وخمسمائة على يد الباطنية.

وملك بعده ابنه عز الدين مسعود إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين

وخمسمائة، فبقيت بيد نائبه تومان ، ثم استناب بعده بها قتلغ، فوصل إليها بعد وفاة مسعود، وتسلمها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، فظهر منه بعد أيام جور عظيم وظلم شديد، ومد يده إلى أموال الناس. وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ــ الذي كان صاحبها قديما ـ فأطاعه أهلها، وقبضوا على أصحاب قتلغ الذين بالمدينة في شوال من السنة، وحاصروه في القلعة. فسمع الفرنج بذلك فتقدموا إلى المدينة، فصولحوا بمال حتى رحلوا عنها. وداموا على حصار قتلغ بالقلعة إلى منتصف ذي الحجة، ثم ملكها عماد الدين زنكي بن أقسنقر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الأتابكية، هذا ما كان من أمر حلب، فلنذكر أخبار دمشق.

ذكر أخبار من ملك دمشق بعد انقراض السلجقية منها إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكي

أول من ملكها معتمد الدولة ظهير الدين طغتكين ، وقيل فيه طغتكين وطغدكين، استولى على دمشق كما قدمناه في سنة سبع وتسعين وأربعمائة، واستقل بالأمر منذ فارقها الملك أرتاش بن تتش وكان لطغدكين مع الفرنج وقائع كثيرة في سنين عديدة يطول شرحها، أضربنا عن ذكرها لأنها لم تسفر عن فتح بلد ولا أسر ملك وملك طغدكين بصرى في سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وكانت بيد إيتكين الحلبي، فلما صار مع السلطان الملك أرتاش كما ذكرنا سلمها أهلها لطغدكين، فتسلمها وأحسن إليهم، واستمر في ملك دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فتوفي في ثامن عشر صفر منها، وكان عاقلا خيرا ، كثير الغزو والجهاد للفرنج، حسن السيرة في رعيته، مؤثرا للعدل فيهم. ولما توفي ملك بعده ابنه والله أعلم.

ذكر أخبار تاج الملوك بوري بن أتابك طغدكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في ثامن عشر صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة بوصية من أبيه له بالملك. وكان أكبر أولاده، فلما ملك أقر وزير والده ـ وهو أبو علي طاهر بن سعد المزدغاني ـ على وزارته.

ذكر أخبار الاسماعيلية وقتل الوزير المزدغاني

كان بهرام مقدم الاسماعيلية قد هرب قديما من بغداد إلى الشام بعد قتل أخيه إبراهيم الأسد أبادي، وملك قلعة بانياس، وجعل خليفته بها يدعو الناس إلى مذهبه، فكثروا وانتشروا ، وملك عدة حصون منها القدموس وغيره، وهي الآن تعرف بقلاع الإسماعيلية، من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية.

وكان بوادي (التيم) من أعمال بعلبك أرباب مذاهب مختلفة منهم: النصيرية، والدرزية، والمجوس وغيرهم، وأميرهم اسمه الضحاك، فسار إليهم بهرام في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وقاتلهم، فخرج إليه الضحاك في ألف رجل، وكبس عسكره وقتل منهم مقتلة عظيمة، وقتل بهرام فيمن قتل، وانهزم من بقي وأتوا بانياس على أقبح صورة . وكان بهرام قد استخلف على بانياس رجلا من أعيان أصحابه اسمه إسماعيل، فقام مقامه، وجمع شمل من سلم من أصحابه، وبث دعاته في البلاد، وساعده الوزير المزدغاني وعاضده وأقام المزدغاني بدمشق عوض بهرام إنسانا اسمه أبو الوفاء، فقوى أمره على شأنه، وكثر أتباعه حتى صار هو المستولي على دمشق، وحكم أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك. ثم إن المزدغاني راسل الفرنج ليسلم إليهم مدينة دمشق ويسلموا إليه مدينة صور، واستقر الأمر بينهم على ذلك، وتقرر الميعاد في يوم جمعة عينوه، وقرر المزدغاني مع الإسماعيلية أن يحتاطوا على أبواب الجامع في ذلك

اليوم، فلا يمكنوا أحدا من الخروج منه، لتجييء الفرنج ويملكوا البلد. فاتصل الخبر بتاج الملوك، فاستدعى الوزير المزدغاني فحضر إليه فلما خلا به قتله وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف، وذلك في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة. فخاف إسماعيل متولي بانياس عند ذلك من الناس أن يثوروا به وبأصحابه، فسلم بانياس إلى الفرنج، وانتقل إليهم هو ومن معه، فلقوا شدة عظيمة وهوانا ومات إسماعيل في أوائل سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

ذكر حصار الفرنج دمشق وانهزامهم

قال: ولما بلغ الفرنج ما كان من قتل المزدغاني، عظمت المصيبة عليهم، واجتمعوا بجملتهم، صاحب القدس، وصاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، وغيرهم من ملوك الفرنج وقمامصتهم ومن وصل إليهم في البحر فكانوا في ألفي فارس، وأما الراجل فلا يحصى كثرة، وساروا إلى دمشق لمحاصرتها، فبلغ ذلك تاج الملوك، فجمع العرب والتركمان فاجتمع معه ثمانية آلاف فارس، ووصل الفرنج إلى دمشق في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين فنازلوها، وأرسلوا سراياهم إلى أعمالها لجمع الميرة والإغارة . فبلغ تاج الملوك أنهم ساروا إلى حوران، فسير أميرا من أمرائه اسمه شمس الخواص في جمع من المسلمين، فلقوا الفرنج وقاتلوهم قتالا شديدا، كان الظفر للمسلمين ، وقتل الفرنج فلم يفلت منهم غير مقدمهم في أربعين رجلا، وأخذوا ما معهم، وكان عشرة آلاف دابة موقرة، وثلاثمائة أسير، وعادوا إلى دمشق بالظفر والغنيمة. فألقى الله الرعب في قلوب الفرنج فرحلوا شبه المنهزمين، وأحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وغيره، وتبعهم المسلمون يقتلون من تخلف منهم. وكان نزولهم ورحيلهم في ذي الحجة. وفي سنة أربع وعشرين استوزر تاج الملوك الرئيس أبا الدواد المفرج بن الحسن بن الصوفي.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة

ثار الباطنية بتاج الملوك، فجرحوه جرحين فبرأ أحدهما وبقي الآخر، فاشتد عليه في شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة فأضعفه وأسقط قوته فمات في الحادي والعشرين من الشهر . وكانت مدة إمارته أربع سنين وخمسة أشهر وأياما، وكان كثير الجهاد مقداما فأقام في حروبه مقام أبيه، وفاق عليه، ولما مات قام بعده ولده إسماعيل بوصية منه.

ذكر أخبار شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بوري ابن طغدكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة. وكان والده قد أوصى له بالملك ولولده الآخر شمس الدولة محمد بمدينة بعلبك وأعمالها، فنفذت وصيته وقام بتدبير الأمر بين يدي شمس الملوك الحاجب فيروز شحنة دمشق ــ وهو صاحب أبيه ـ واعتمد عليه، وابتدأ أمره بالرفق بالرعية، والإحسان إليهم.

قال: وبلغ شمس الملوك أن أخاه شمس الدولة صاحب بعلبك استولى على حصني اللبوة والرأس، واستمال من بهما وتسلمهما، وجعل فيهما من الجند من يحفظهما، فراسله في ذلك وتلطف معه وقبح عليه فعله، وطلب إعادتهما إليه، فامتنع. فتجهز بعساكره في آخر ذي الحجة من السنة وقصد جهة الشمال، ثم عطف مغربا، فلم يشعر من بحصن اللبوة إلاّ وقد نزل عليهم، وزحف لوقته فلم يتمكنوا من نصب منجنيق ولا غيره، فراسلوه في طلب الأمان، فأمنهم وتسلم الحصن من يومه. وسار إلى حصن الرأس وفعل به كذلك، وتسلمه وجعل فيهما من يحفظهما. ثم رحل إلى بعلبك وحصرها وبها شمس الدولة وقد استعد، فوالى الزحف حتى ملك البلد بعد قتال شديد. وتحصن شمس الدولة

فنازله فراسله في طلب الأمان وأ ن يقره على ما أوصى له به والده، فأجابه إلى ذلك وعاد إلى دمشق.

ذكر ملكه قلعة بانياس

وفي سنة سبع وعشرين وخمسمائة ملك شمس الملوك قلعة بانياس من الفرنج. وسبب ذلك أن الفرنج استضعفوه وطمعوا فيه. وكانت قد تقررت بينهم هدنة، فقصدوا نقضها، ومدوا أيديهم إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت، فشكا التجار ذلك إلى شمس الملوك، فراسل الفرنج في إعادة ما أخذوه، فلم يردوا شيئا، فجمع العساكر وتأهب ولم يعلم أحدا بمقصده. ثم سار في آخر المحرم من السنة ونزل على بانياس في صفر، وزحف زحفا متتابعا. وقرب من سور المدينة وترجل بنفسه، وتبعه الناس فوصلوا إلى السور ونقبوه، ودخلوا البلد عنوة، والتجأ من كان فيه من جند الفرنج إلى الحصن، فقتل كثير من الفرنج بالبلد وقاتل من بالقلعة قتالا شديدا، ثم ملك القلعة بالأمان في رابع صفر وعاد إلى دمشق.

ذكر ملكه مدينة حماة

وفي شوال سنة سبع وعشرين وخمسمائة ملك شمس الملوك مدينة حماة وهي لأتابك زنكي بن اقسنقر، وذلك أنه لما ملك قلعة بانياس أقام بدمشق إلى شهر رمضان، وسار إلى حماة في العشر الآخر منه. وكان قد بلغه أن الخليفة المسترشد بالله قد حضر إلى الموصل، فطمع في البلاد لتغير الخليفة على زنكي، فحصر حماة وقاتل من بها يوم العيد، وملك البلد في اليوم الثاني قهرا، وطلب من به الأمان فأمنهم، وحصر القلعة، واستولى عليها وعلى ما بها من الذخائر، وسار منها إلى قلعة شيزر، وبها صاحبها ابن منقذ، فحصرها ونهب بلدها. فراسله صاحبها وسار معه بمال، فعاد إلى دمشق في ذي القعدة من السنة.

وفي تاسع شهر ربيع الآخر وثب على شمس الملوك بعض مماليك جده طغدكين، فضربه بسيف فلم يصنع فيه شيئا، وتكاثر عليه مماليك شمس الدولة فمسكوه، فقرره ما الذي حمله على ما فعل، فقال: « أردت راحة المسلمين من شرك وظلمك»، فلم يزل يضرب حتى أقر على جماعة أنهم وضعوه على ذلك، فقتلهم من غير تحقيق، وقتل أخاه سونج، فعظم ذلك على الناس، ونفروا عنه وأنفوه.

ذكر ملكه شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة سار إلى شقيف تيرون وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا، وكان في يد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به واحتمى على المسلمين والفرنج، فسار إليه وملكه في المحرم من هذه السنة، فعظم أخذه على الفرنج، لأن الضحاك كان لايتعرض إلى شيء من بلادهم المجاورة له، فجمع الفرنج جموعهم فساروا إلى بلد حوران يخربون أمهات الضياع. فسار إليهم ونزل بإزائهم وجرت بينهم مناوشة عدة أيام، ثم نهض ببعض عسكره وجعل بقيتهم قبالة الفرنج. وسار وقصد بلاد طبرية والناصرة وعكا وما جاورها من البلاد، والفرنج لايشعرون به، فقتل وخرب وأحرق وسبى وامتلأت أيدي المسلمين من الغنائم، فبلغ الفرنج خبره، فرجعوا إلى بلادهم، وعاد هو على غير الطريق الذي سلكه، فوصل سالما وراسله الفرنج في تجديد الهدنة.

ذكر مقتل شمس الملوك وملك أخيه شهاب الدين محمود

وفي شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمسمائة، قتل شمس الملوك إسماعيل . وسبب ذلك أنه كان قد ركب طريقا شنيعا من الظلم

ومصادرات العمال وغيرهم من أهل البلد وأعيانه، وبالغ في العقوبات، وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس. ثم ظهر عنه أنه كاتب عماد الدين زنكي ليسلم إليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول ، وأخلى المدينة من الذخائر والأموال، ونقل ذلك إلى صرخد وتابع الرسل إلى زنكي يحثه على الوصول ويقول: إن أهملت المجيء سلمت البلد إلى الفرنج. فامتعض أصحاب أبيه وجده منه، وذكروا الحال لوالدته فساءها وأشفقت منه ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر، ثم ارتقبت غفلة غلمانه وأمرت غلمانها بقتله فقتلوه. وأمرت بإلقائه في موضع من الدار ليشاهده غلمانه، فلما رأوه سروا بمقتله. وأمه زمرد خاتون ابنة جاولي، وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وداي الشقراء، ونهر بردى. هذا أحد ما قيل في قتله.

وقيل كان سبب مقتله أن والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز، وكان متمكنا منه حاكما في دولته ثم دولة ولده هذا، فاتهم بأم شمس الملوك، وبلغه الخبر فهم بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر، وتحصن بها وأظهر الطاعة لشمس الملوك، وأراد (شمس الملوك)، قتل أمه، فبلغها الخبر فقتلته خوفا على نفسها، والله أعلم.

وكان مولده في سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة ، فتكون مدة حياته اثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر، ومدة ملكه سنتين وتسعة أشهر وأياما.

ذكر أخبار شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري ابن طغدكين

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شمس الملوك في شهر ربيع الأول سنة

تسع وعشرين وخمسمائة، وحلف له الناس واستقر له الأمر ثم وصل أتابك زنكي إلى دمشق ونازلها في أول جمادى الأولى من السنة، فبينما هو يحاصرها إذ ورد عليه رسول الخليفة المسترشد بالله بالخلع ويأمره بصلح صاحب دمشق والرحيل عنها، فصالحه، وخطب له بدمشق مع صاحبها، وفارق البلد لليلتين بقيتا من الشهر.

ذكر ملكه مدينة حمص

وفي الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وخمسمائة، تسلم شهاب الدين محمود مدينة حمص وقلعتها. وذلك أن أصحابها أولاد الأمير خيرخان بن قراجا الوالي عليها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكر زنكي إليها وإلى أعمالها، وتضييقهم على من بها، فراسلوا شهاب الدين في تسليمها، فأجابهم، وسار إليها وتسلمها، وسلم إليهم تدمر، وأقطع حمص لمملوك جده معين الدين أنر، وجعل فيها نائبا عنه ممن يثق به من أعيان أصحابه، وعاد إلى دمشق ثم ملكها أتابك زنكي في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتزوج زمرد خاتون والدة شهاب الدين لتحكمها بدمشق، وظن أنه يملك البلد باتصاله بها، فلم يتهيأ له ملكها.

قال: واستمر ملك شهاب الدين محمود إلى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، فقتل على فراشه في شوال منها، قتله ثلاثة من خواصه كانوا يبيتون عنده فقتلوه ليلا، وخرجوا من القلعة فنجا أحدهما وقتل الآخران.

ذكر ملك جمال الدين محمد ابن تاج الملوك بوري بن طغدكين

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شهاب الدين محمود في شوال سنة ثلاثين وخمسمائة. وذلك أن محمود لما قتل، كتب معين الدين أنر إلى جمال الدين صاحب بعلبك بالخبر، واستدعاه ليملكه البلد، فجاء مسرعا

لمحاصرة دمشق فقاتله أهلها، فرحل عنهم، ثم اتفق قتل عماد الدين زنكي في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فسار مجير الدين ابق إلى بعلبك وحصرها وبها نجم الدين أيوب، فخاف أن أولاد زنكي لايمكنهم إنجاده في عاجل الحال، فصالحه وسلم القلعة إليه، وأخذ منه إقطاعا ومالا، وملكه عدة قرى من بلد دمشق. وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق وسكنها، وأقام بها ، واستمرت دمشق بيد مجير الدين إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكي في سنة تسع وأربعين وخمسمائة على مانذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

ولما ملكها (نور الدين) تحصن مجير الدين بالقلعة، فراسله في تسليمها وبذل له إقطاعا من جملته مدينة حمص، فأجاب إلى ذلك، وسلم القلعة وتسلم الإقطاع ، وسار إلى حمص. ثم راسل أهل دمشق بعد ذلك على أن يسلموها إليه. فعلم نور الدين به، وأخذ منه حمص وعوضه عنها بالس فلم يرض بها، وسار إلى بغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية. وتوفي بها.

هذا ماكان من أخبار ملوك دمشق على سبيل الاختصار، وإنما أوردنا أخبارهم في هذا الموضع على سبيل الاستطراد، و لكي تكون أخبارهم متتابعة . فلنرجع إلى أخبار الملوك السلجقية، ولنذكر ملوك الروم منهم.

وجلس لعزاء أخيه، وحلف الجند وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنر ، وزاده في علو مرتبته، وأقطعه بعلبك، وزوجه بأمه.

قال: ولما إتصل بزمرد خاتون قتل ابنها محمود كتبت إلى زوجها أتابك زنكي وهو بالجزيرة أن ينهض في طلب ثأر ابنها، فسارمسرغا وملك بعلبك عنوة في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين، وحصر دمشق في سنة أربع وثلاثين، وبذل لمعين الدين حمص وبعلبك وغير ذلك على أن يسلم إليه دمشق فلم يوافق، فجد في الحصار. فبينما هو يحاصرها مرض جمال الدين محمد ومات في ثامن شعبان منها، فطمع زنكي حينئذ في البلد ووالى الزحف والقتال. قال: ولما مات جمال الدين ولي بعده ولده.

ذكر أخبار مجير الدين ابق بن جمال الدين محمد بن بوري بن طغدكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وهي إذ ذاك محاصرة، فقام بتدبير دولته معين الدين مدبر دولة أبيه. وداوم زنكي الحصار وضيق على أهل البلد، فعند ذلك راسل أنر الفرنج واستدعاهم لنصرته، وإعانته على حرب زنكي، وبذل لهم بذولا من جملتها أن يحاصر بانياس ويسلمها إليهم. وخوفهم أن زنكي إن ملك دمشق قصدهم وغزاهم، فاجتمعوا وعزموا على المسير إلى دمشق، فاتصل ذلك بزنكي فتوجه إلى حوران وقصد غزو الفرنج وذلك في منتصف شهر رمضان، فبلغ خبره الفرنج فأقاموا ببلادهم، فعاد إلى حصار دمشق ثم نزل بعذرا في سادس شوال، وأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة، وعاد إلى بلاده.

ووصل الفرنج إلى دمشق في ميعاد أنر، بعد رحيل زنكي فسار معهم إلى بانياس وحصرها وأخذها وسلمها للفرنج، ولما فعل ذلك عاد زنكي

ذكر أخبار ملوك السلجقية أصحاب قونية واقصرا وملطية ودقوقا من الروم

أول من ملك منهم شهاب الدولة قتلمش بن أرسلان يبغو بن سلجق. وكان ابتداء أمره أنه عصى على السلطان طغرل بك في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، وملك قلعة كردكوه وامتنع بها، وأخذ أموالا كانت حملت من خوارزم إلى السلطان، فسير إليه طغر لبك جيشا فهزمه مرة بعد أخرى، فلما مات طغر لبك أظهر العصيان على ألب أرسلان ابن جفريبيك داود، وجمع جموعا كثيرة ، وقصد الري ليستولي عليها عندما بلغه وفاة طغر لبك، فسار إليه السلطان ألب أرسلان والتقوا واقتتلوا فانهزم عسكر قتلمش، وفر هو لقصد كردكوه،فوجد ميتا غير مقتول، كما ذكرنا في أخبار ألب أرسلان في سنة ست وخمسين وأربعمائة ولما مات ملك بعده ابنه سليمان.

ذكر أخبار الملك سليمان ابن شهاب الدولة قتلمش

وهو الثاني من الملوك السلجقية بالروم، ملك ما كان بيد أبيه بعد وفاته في سنة ست وخمسين وأربعمائة.

ذكر فتح مدينة أنطاكية

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سار سليمان من بلاده، وقصد الشام وملك مدينة أنطاكية ، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وكان سبب ملكه إياها أن صاحبها الفردوس الرومي كان قد سار عنها إلى بلاد الروم، ورتب في أنطاكية شحنة وكان الفردوس كثير الإساءة إلى أهل البلد وإلى جنده، حتى أنه حبس ابنه ، فاتفق ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان، فكاتبوه يستدعونه فركب في البحر ومعه ثلاثمائة فرس وكثير من الرجالة، وخرج منه وسار في جبال وعرة

ومضايق شديدة حتى وصل إليها في وقت الموعد، فنصب السلاليم وصعد باتفاق من الشحنة وابن صاحبها، فملكها في شعبان من السنة، وقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى، وقتل كثيرا منهم، ثم عفا عنهم، وتسلم القلعة وأخذ من الأموال مالا يحصى كثرة، وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم، وأرسل إلى السلطان ملكشاه يبشره بالفتح فأظهر الفرح بذلك وهنأ الناس.

قال: ولما فتحها أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش، صاحب حلب، يطلب منه حمل ماكان صاحب أنطاكية يحمله إليه، ويخوفه معصية السلطان، فأجابه أن صاحب أنطاكية كان كافرا يحمل الجزية عن رأسه وأصحابه، وأنا مسلم والخطبة والسكة في بلادي للسلطان، وهذا الفتح إنما فتحته بسعادته وكاتبته به، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية، ونهب سليمان بلد حلب، فلقيه أهل السواد، فشكوا إليه من نهب عسكره. فقال لهم: أنا كنت أشد كراهة لما جرى، ولكن صاحبكم أحوجني إلى ما فعلت، فلم تجر عادتي بنهب مال مسلم ، ولا أخذ ما حرمته الشريعة، وأمر أصحابه بإعادة ما نهب على أصحابه، فأعادوه. ثم جمع شرف الدولة الجموع وسار لقتال سليمان، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم عسكر شرف الدولة وقتل هو، وذلك في يوم الجمعة لست بقين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

ذكر مقتل الملك سليمان بن قتلمش

قال: ولما قتل سليمان بن قتلمش شرف الدولة، أرسل إلى مقدم حلب يطلب تسليمها له، فأنفذ إليه مالا، واستمهله إلى أن يكاتب السلطان ملكشاه. وأرسل المقدم إلى تتش صاحب دمشق يعده بتسليمها إليه، فسار تتش إلى حلب . فعلم سليمان بذلك،فاسر نحوه والتقوا وقاتلوا، فانهزم أصحاب سليمان وثبت هو في القلب. فلما عاين الهلكة، قتل نفسه

بسكين، وقيل بل قتل في المعركة، واستولى تتش على معسكره، وذلك في سنة تسع وسبعين وأربعمائة. وكان سليمان قد أرسل جثة شرف الدولة مسلم في صفر سنة ثمان وسبعين على بغل، ملفوفة في إزار إلى حلب، وطلب من أهلها تسليمها إليه، فأرسل تتش جثة سليمان في صفر من السنة التي تليها على تلك الهيئة، وطلب منهم تسليمها. ولما قتل ملك بعده ببلاد الروم ولده والله أعلم.

ذكر أخبار قلج أرسلان بن سليمان

وهو الثالث من الملوك السلجقية بالروم.

ملك بعد قتل أبيه في صفر سنة تسع وسبعين وأربعمائة، واستمر في المملكة الرومية وملك الموصل في سنة خمسمائة. وذلك أن صاحبها جكرمش كان قد حاصره جاولي سقاوا، وأسره ومات في أسره. فكتب أصحاب جكرمش إلى الأمير صدقة، وإلى قسيم الدولة اقسنقر البرسقي، وإلى قلج أرسلان، يستدعون كل واحد منهم إليها، ليسلموا إليه الموصل، فامتنع صدقة، وسار قلج أرسلان. فلما وصل إلى نصيبين رحل جاولي عن الموصل، واتفق وصول البرسقي وهو شحنة بغداد إلى الموصل، ونزل بالجانب الشرقي بعد رحيل جاولي وفي ظنه أنه يملك البلد، فلم يخرج إليه أحد من أهلها ولا راسلوه بكلمة واحدة، فعاد في بقية يومه. وأرسل أصحاب جكرمش وأهل الموصل إلى قلج أرسلان واستحلفوه لهم، فحلف، وحلفهم على الطاعة له والمناصحة، وسار إلى الموصل وملكها لخمس بقين من شهر رجب سنة خمسمائة ، وأسقط خطبة السلطان وخطب لنفسه بعد الخليفة، وأحسن إلى العسكر وخلع على ولد جكرمش وأخذ القلعة من غزغلي مملوك جكرمش، وجعل عليها دزدارا، ورفع الرسوم المحدثة في الظلم، ونشر العدل وتألف الناس، وقال: من سعى إليّ بأحد قتلته، فلم يسع إليه أحد بأحد.

- ١٠٣٨٠ -

ذكر قتل الملك قلج أرسلان وملك ولده الملك مسعود

كان مقتله في العشرين من ذي القعدة من سنة خمسمائة. وذلك أنه لما فارق جاولي الموصل، سار إلى الرحبة وملكها بعد حصار وقتال، فلما أحكم الملك قلج أمر الموصل، سار عنها لقتال جاولي، وجعل ابنه ملكشاه في دار الإمارة بالموصل، وسنه إحدى عشرة سنة، وجعل معه أميرا يدبره وجماعة من العسكر، وكانت عدة عسكره أربعة آلاف فارس بالعدد الكاملة والخيل الجيدة. فنسمع عسكره بقوة جاولي وكثرة أتباعه وجنده، فاختلفوا، فكان أول من خالف عليه إبراهيم بن ينال صاحب آمد، وكان معه لما فتح الموصل. ففارق خيامه وأثقاله وعاد من الخابور إلى بلده ثم فارقه غيره، فعمل قلج في المطاولة لما بلغه من قوة جاولي وكثرة جموعه، وأرسل في طلب عساكره من الروم. وكان في جملة عسكر جاولي الملك رضوان صاحب حلب، فاغتنم جاولي قلة أصحاب قلج فقاتله قبل وصول عسكره، واقتتلوا قتالا شديدا، فحمل قلج بنفسه وانهزم أصحابه. فلما رأى قلج انهزام عسكره ألقى نفسه في الخابور، وحمى نفسه بالنشاب، فانحدر به الفرس إلى ماء عميق، وغرق، فظهر بعد أيام، فدفن بالسليمانية وهي قرية من قرى الخابور، وسار جاولي ودخل الموصل وأرسل ملكشاه بن قلج إلى السلطان محمد.

قال: وملك بعده ولده الملك مسعود بن قلج، وأقام في الملك إلى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، فتوفي فيها. ولم أقف من أخباره على شيء أورده له، وملك بعده ولده.

ذكر أخبار الملك عز الدين قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن أرسلان يبغو ابن سلجق، وهو الخامس من الملوك السلجقة ببلاد الروم

ملك بعد وفاة والده في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. وكان ذا سياسة، وعدل وافر، وهيبة عظيمة، وله غزوات كثيرة إلى بلاد الروم. وكان له من بلاد الروم قونية وأعمالها واقصرا وسيواس وملطية وغير ذلك. وكان له عدة أولاد، فلما كبرت سنه فرق بلاده على أولاده في حياته، وملك نحو تسع وعشرين سنة.

ذكر تسليمه البلاد لبنيه وبني أخيه وما جعل لكل منهم

قال المؤرخ: لما ضعف الملك عز الدين قلج أرسلان هذا عن القيام بوظائف الملك لكبر سنه، أفرد البلاد لأولاده وأولاد أخيه وسلم لكل واحد منهم جهة، فسلم إلى ابنه ركن الدين سليمان دوقاط، وإلى ابنه غياث الدين كيخسرو قونية، ولولده محيي الدين أنقرة - وتسمى أنكورية - ولولده معز الدين قيصر شاه ملطية، ولولده مغيث الدين طغرل شاه أبلستين، ولولده نور الدين محمود قيسارية، ولولده قطب الدين سيواس وأقصرا، ولولد أخيه نكسار، ولولد أخيه أماسيا. هذه أمهات البلاد، ويضاف إلى كل جهة ما يجاورها. ثم ندم على ذلك وأراد أن يجمع جميع المملكة لولده الأكبر قطب الدين، وخطب له ابنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب مصر ليتقوى به، فلما اتصل ذلك ببقية أولاده امتنعوا من طاعته، وأزالوا حكمه عنهم، فكان يتردد بينهم على سبيل الزيارة ، ثم توجه إلى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب قونية، فخرج إليه وقبل الأرض بين يديه واستبشر بقومه ، واتمر بأمره،

فقال له: أريد أن أسير إلى ولدي محمود صاحب قيسارية، وآخذها منه فسار هو وولده كيخسرو، وحصرا محمود، فمرض قلج أرسلان، وتوفي في منتصف شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة فعاد كيخسرو إلى بلده، واستقر كل واحد منهم على ما بيده من البلاد.

ذكر قتل نور الدين محمود واستيلاء قطب الدين على قيسارية ووفاته واستيلاء ركن الدين سليمان على سائر المملكة

قال: كان قطب الدين صاحب أقصرا وسيواس إذا توجه من أحدهما إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية، ويجتمع بأخيه نور الدين محمود صاحبها، ويظهر له المودة. فاطمأن له محمود. وكان الأمير اختيار الدين حسن أحد أمراء والده يحذره عاقبة طمأنينته لأخيه، فنزل قطب الدين في بعض الأحيان بظاهر قيسارية وجاء نور الدين إليه فقتله، ورمى برأسه إلى أصحابه، وتسلم البلد بعد أن امتنع من بها عليه، ثم قتل الأمير اختيار الدين حسن وكان من أكابر الأمراء الديانين، وألقاه في الطريق، فجاء كلب ليأكل من لحمه، فثار الناس وقالوا: « لاسمعا ولا طاعة هذا أمير كبير في الإسلام، وبنى مدرسة للعلم، وله صدقات دارة، لانتركه تأكله الكلاب»، فأمر عند ذلك بدفنه، فدفن في مدرسته. ثم مرض قطب الدين ومات، فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس، وهي تجاوره، فملكها ثم ملك قيسارية أقصرا ثم سار بعد ذلك إلى قونية، وبها أخوه غياث الدين فحصره بها. وملكها ، ففارقها غياث الدين إلى الشام. ثم عاد إلى الروم وسار إلى القسطنطينية، ثم ملك البلاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وسار ركن الدين بعد ذلك إلى نكسار وأماسيا فملكها من ابني عمه، وملك ملطية في شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وفارقها أخوه

معز الدين قيصر شاه، وسار إلى الملك العادل جميع البلاد التي كانت بيد إخوته وأولاد عمه إلا أنقره، فإنها امتنعت عليه لحصانتها، فجعل عليها من عسكره من يحصرها، فحوصرت ثلاث سنين كوامل وتسلمها في سنة ستمائة، وعوض أخاه محيي الدين عنها قلعة في أطراف بلاده، وحلف له عليها، فسار محيي الدين إليها فجهز في إثره من قتله.

ذكر وفاة ركن الدين سليمان وملك ولده قلج أرسلان

قال: ولما غدر بأخيه محيي الدين صاحب أنكورية وقتله، لم يمهله الله عز وجل، فمرض بالقولنج، بعد قتله لخمسة أيام، ومات في سبعة أيام، وكانت وفاته في سادس ذي القعدة سنة ستمائة وكان قيما بأمر الملك، شديدا على الأعداء، إلا أن الناس كانوا ينسبونه إلى فساد في اعتقاده، وأنه يقول بقول الفلاسفة. وكان كل من رمي بهذا المذهب يأوي إليه، لكنه كان يستر ذلك عن الناس، ولايتظاهر به.

قال: ولما مات اجتمع الناس بعده على ولده قلج أرسلان، وملكوه عليهم وكان صغير السن، فبقى إلى بعض سنة إحدى وستمائة.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قلتمش بن أرسلان يبغو بن سلجق، بلاد الروم من ابن أخيه، وهو الثاني من ملوك السلجقية بالروم

ملك المملكة الرومية في شهر رجب، سنة إحدى وستمائة. وذلك أن ركن الدين سليمان لما أخذ منه قونية، كما قدمناه، قصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، فلم يجد عنده قبولا، فسار من عنده وتنقل في البلاد إلى أن سار إلى القسطنطينية، فأحسن إليه ملك الروم وأكرمه وأقطعه إقطاعا، فأقام عنده وتزوج بابنة بعض

البطارقة الأكابر. وكان للبطريق قلعة من قلاع القسطنطينية ، فلما ملك الفرنج قسطنطينية، هرب غياث الدين إلى (حموه)، بالقلعة ، فنزل عنده وقاسمه فيما هو فيه وقنعا بها فلما مات أخوه في سنة ستمائة كما ذكرناه، وملك ولده قلج أرسلان ، فخالف عليه بعض الأمراء والأكابر وكان من الترك، فأنف أن يملك صغيرا، فراسل غياث الدين فحضر إليه في جمادى الأولى، واجتمع معه بعض العسكر وتوجه إلى قونية وبها قلج أرسلان ابن أخيه، فخرج له بعض عسكرهافهزموه وبقي حيران ولا يدري مايصنع، ولا أين يتوجه ، فقصد بلدة صغيرة من بلاد قونية يقال لها أوكرم، فقدر الله أن أهل مدينة أقصرا وثبوا على واليها، فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين، فلما وصل الخبر أهل قونية قال أهلها: نحن أولى بذلك منهم، لأنه كان حسن السيرة فينا، فنادوا باسمه ، وأخرجوا من عندهم، واستدعوه، فملك المدينة وقبض على ابن أخيه، وملك البلاد أجمع في ساعاة واحدة، فسبحان من إذا أراد أمراً هيأ أسبابه. وحضر إليه أخوه قيصر شاه الذي كان صاحب ملطية، فلم يجد عنده قبولا، فأعطاه شيئا وأمره بمفارقة البلاد، فعاد إلى الرها، واستتب الملك لكيخسرو وعظم شأنه، والله أعلم.

ذكر ملكه مدينة أنطالية

وفي ثالث شعبان سنة ثلاث وستمائة ملك الملك غياث الدين كيخسرو مدينة أنطالية بالأمان، وكانت للروم. وكان قد حصرها قبل هذا التاريخ وهدم عدة أبرجة من سورها، وأشرف على فتحها عنوة، فاستنجد من بها من الروم بفرنج جزيرة قبرص، فوصل إليها جماعة منهم فيئس منها وفارقها وترك طائفة من أصحابه بالقرب منها في الجبال التي بينها وبين بلاده، وأمرهم بقطع الميرة عنها، فضاق أهلها فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم، فظنوا أنهم يريدون إخراجهم من المدينة، فوقع الخلف بينهم، فأقتتلوا فأرسل الروم إلى المسلمين يطلبونهم

ليتسلموا البلد، فوصلوا إليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج، فانهزم الفرنج منهم واعتصموا بالحصن. فأرسل المسلمون يطلبون كيخسرو، فجاء من قونية وحصر الفرنج وتسلم الحصن، واستمر غياث الدين كيخسرو في الملك إلى أن توفي سنة سبع وستمائة وملك بعده ولده الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، وملك كيكاوس هذا بعض بلاد حلب، وانتزعت منه، ولم يكن له ولد فملك بعده أخوه.

ذكر ملك علاء الدين كيقباذ بن غياث الدين كيخسرو ابن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن أرسلان يبغو بن سلجق وهو العاشر من ملوك السلجقية بالروم

ملك بعد وفاة أخيه في سنة ست عشرة وستمائة، وكان أخوه كيكاوس قد اعتقله لما ملك، وأشار عليه أصحابه بقتله فلم يفعل. فلما مات كيكاوس أخرج الجند كيقباذ وملكوه عليهم، وقيل إنه لما اشتدت علة كيكاوس أخرجه من الاعتقال، وحلف له العساكر.

قال: ولما ملك كيقباذ خالف عمه مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان صاحب أرزن الروم؛ ومغيث الدين هذا هو الذي أمر ولده أن يتنصر وزوجه ملكة الكرج، وأقام معها مدة،فهويت غيره من مماليكها فرآه معها، فأنكر ذلك عليها، فاعتقلته، ومات مغيث الدين هذا في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وملك بعده ابنه.

قال: ولما ملك كيقباذ خاف من الروم المجاورين لبلاده، فأرسل إلى الملك الأشرف صاحب دمشق وصالحه، وتعاهد على المصافاة والتعاضد، والله أعلم.

وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة في شعبان سار كيقباذ إلى بلاد الملك

المسعود صاحب آمد، وملك عدة من حصونه. وكان صاحب آمد قد اتفق مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه على مخالفة الأشرف صاحب دمشق، فأرسل الأشرف إلى كيقباد بقصد آمد، فسار وفتح حصن منصور وحصن شمشكازاد وغيرهما، فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الملك الأشرف، وعاد إلى موافقته. فأرسل الأشرف إلى كيقباذ يعرفه الصلح وأن يعيد إلى صاحب آمد ما أخذه، فامتنع وقال: ما أنا نائب الأشرف يأمرني وينهاني، فأمر الأشرف عساكره بمساعدة صاحب آمد إن أصر ملك الروم على قصد محاصرته. فاجتمع العسكر الأشرفي مع صاحب آمد وساروا إلى كيقباذ وهو يحاصر قلعة الكختا، فالتقوا في شوال فانهزم صاحب آمد ومن معه هزيمة عظيمة ، وأسر كثير من أصحابه، وجرح ، وملك كيقباذ قلعة الكختا.

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة ملك كيقباذ أرزنكان،وكان صاحبها بهرام شاه قد طال ملكه بها، وجاوز ستين سنة، ولم يزل في طاعة السلجقية ملوك الروم، فلما توفي ملك بعده ولده علاء الدين داود شاه، فأرسل إليه كيقباذ يطلبه بعسكره يسير معه إلى مدينة أرزن الروم ليحاصرها، فحضر إليه فقبض عليه وأخذ مدينته، ثم ملك حصن كماخ، وكان من أمنع الحصون. وقصد أرزن الروم ليأخذها من ابن عمه طغرل شاه، فاستنجد صاحبها بالأمير حسام الدين علي نائب الأشرف بخلاط، وأظهر طاعة الأشرف، فسار إليه بمن عنده من العسكر خوفا أن كيقباذ إذا ملك أرزن الروم قصد خلاط وغيرها ، فعاد ولم يقدم على قصدها، وتوجه إلى مدينة أنطاكية ليشتو بها والله أعلم.

ذكر اجتماع كيقباذ والأشرف على حرب جلال الدين خوارزم شاه وانهزامه منهما

كان سبب ذلك أن جلال الدين خوارزم شاه لما حاصر خلاط حضر

إليـه صاحـب أرزن الروم، وهـو طغرل شـاه السلجقي ابـن عم كيقبـاذ، وأطاعـه وأعانـه على الحصار، وكان بينـه وبين ابن عمه عداوة مستحكمة فخاف كيقباذ أن السلطان جـلال الدين يتوصل إلى ملك بـلاده، فراسل الملك الكـامل صـاحب مصر وهـو إذ ذاك بحران، وسـأله أن يستـدعي الملك الأشرف من دمشق، فأحضر المـلـك الكامل أخا ه الأشرف واجتمع هو وكيقباذ، واتفقا على حرب جلال الـدين، وكان عسكر كيقباذ عشرين ألـف فـارس وعسكـر الأشرف خمسـة الآف فـارس، إلا أنهم كـانـوا مـن الشجعان الذين لايقـوم أحد بحربهم، فسار جلال الديـن لقتالهم والتقوا يـوم السبت الثـامـن والعشريـن من شهـر رمضـان سنـة سبع وعشريـن وستمائة بمكان من أعمال أزرنجان، فانهزم جلال الدين وعاد إلى خلاط، فأخذ مـن كان بها من أصحابه وفـارقها، وأسر في هذه الوقعـة جماعة من أصحاب السلطان. فأمر كيقباذ بضرب أعنـاقهم، وأسر ابن عمه صاحب أرزن الروم، وقصـد به بلده، فتسلم أرزن الـروم وما معها من القـلاع، وما بها مـن الخزائن وغيرها. فكـان طغرل شـاه كما قيـل: « خرجـت النعامـة تطلب قرنين فعـادت بلا أذنين»؛ وكان هذا قـد عاهد جلال الـدين على أنه يملكه بعض بلاد كيقباذ، فأخذ ما بيده . واستمر كيقباذ في الملك إلى أن توفي، وكانت وفاته في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ولده.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو ابن الملك علاء الدين كيقباذ غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن أرسلان يبغو ابن سلجق، وهو الحادي عشر من الملوك السلجقية ، بالروم

ملك المملكة الروميـة بعد وفاة أبيه الملك كيقباذ في سنـة أربع وثلاثين وستمائة، وجلـس على تخت السلطنـة بمـدينة قـونيـة وراسلـه المـلـوك في

الموافقـة، وهي السنـة التـي وصل التتـار فيهـا إلى الروم، وفي سنـة خمس وثلاثين أرسـل غياث الـدين إلى والـدة الملك العـزيز يخطـب بنت ابنهـا العزيـز لنفسه، وأن يتزوج الملك النـاصر صاحب حلب أخـت السلطان غياث الدين، فاستقر بينهما الأمر، وعقد عقد السلطان على غازية خاتون ابنة الملك العـزيز على خمسين ألف دينار، ووصل الصاحـب كمال الدين ابن العـديم من حلـب إلى السلطان. فـزوج أخته من الملـك الناصر على نظير هذا الصـداق. فحصل الاتفـاق بينهما ، ثم أرسـل السلطان غيـاث الديـن إلى حلب يطلـب أن تقام لـه الخطبة بها وتضرب السكـة باسمـه، فتوقفت الصـاحبة والدة العزيز في ذلـك، فأشير عليها بالموافقة فـأجابت إلى ذلـك، وخطب لـه بحلب. وفي سنـة إحدى وأربعين وستمائة، دخـل بيجـو مقدم التتـار إلى بلاد الـروم، والتقى هـو والسلطان غيـاث الديـن فكسرهم كيخسرو، ثـم عاودوا القتال فهزمـوه، وقتل جماعة من أصحـابه، والتجأ إلى بعـض المعاقل؛ ثـم حصلت المهـادنة على أتاوة يـؤديها غياث الدين للتتار في كل سنة.

وفي سنـة أربـع وخمسين وستمائة وصل التتار. إلى بـلاد الـروم صحبـة جرماغون وبيجـو من قبل منكوقان الملك، فخرج السلطـان غياث الدين لقتـالهم بجميع عسـاكـره، واستصحـب حريمـه ليقـاتـل قتال الحريـم. واستشار أصحابه فيما يفعـل، فكان منهم من هول عليه أمـر التتار وكان غيـاث الديـن قد زوجـه والـده بكرجـي خـاتون ابنـة ملك الكـرج، فلما أفضت السلطنـة إليه جعل أخاهـا مقدما على الجيش، وكـان نصرانيا، لم ينتقل عن ملتـه، فكرهه الأمراء وكـرهوا السلطان بسببه. فلما كـان في هذا الوقت قال للسلطان غياث الديـن: « ضم إلي من في عسكرك من الكرج والفرنج، وأنا ألقـى التتار بهم».فغاظ الأمراء كلامه، وتقـدم أحد أعيانهم فحلـف أنه لابـد أن يلقى التتـار بنفسـه، ومن صحبـه، وركب في نحـو عشرين ألـف فارس، وتقدم إلىالتتـار وهم بصحراء اقشهر زنجان ، وكان غياث الـدين على الجبل الأقرع واسمـه كوه داغ، وهو مشرف على الـوطأة

التي نزل بها التتار. وسار الأمير فيمن معه، وتبعه السلطان ببقية الجيش فوجد المقدم أمامه واد قطعه السيل، فلم يستطع قطعه إلى جهة التتار. فسار مع لحف الجبل، يطلب طريقا يمكنه التوصل منه إلى التتار. فركب التتار وقصدوه ودنوا منه وراسلوه بالسهام، فأهلكوا أكثر الخيل التي معه، فكان السهم لايقع إلا في فرس أو فارس، فتفرقوا عند ذلك، وطلبوا النجاة لأنفسهم، وعاد السلطان غياث الدين إلى المخيم، وجهز حريمه إلى قونية، وهي دار المملكة، ومسافتها من المكان الذي هو فيه نحو شهر، فسرن صحبة أمير، ولم يحملن معهن إلا ما خف، ورجع السلطان وترك الوطاق والدهاليز والخيام منصوبة، وبها الأثقال والخزائن والذخائر. وأقام التتار ثلاثة أيام لم يقدموا على دخول الوطاق ظنا منهم أنها مكيدة، ثم عبروا الوطاق واستولواعلى ما فيه، ورجعوا.

وتوفي غياث الدين في هذه السنة، وخلف ثلاثة أولاد: عز الدين كيكاوس، وركن الدين قلج أرسلان،وعلاء الدين كيقباذ.

ذكر أحوال أولاد السلطان غياث الدين كيخسرو بعد وفاة أبيهم

قال: لما توفي غياث الدين استقر أولاده الثلاثة في السلطنة، ولم ينفرد بها أحد عن الآخر، وضربت السكة باسمهم جميعا، وخطب لهم وكان والدهم قد جعل ولاية العهد لولده علاء الدين كيقباذ بن كرجي خاتون، فاتفقوا على أن يتوجه إلى منكوقان يطلب منه الصلح والهدنة، ويقر له أتاوة. هذا بعد أن استولى بيجو على قيسارية وأعمالها وما حولها، وصار بيده من المملكة الرومية مسافة شهر.

قال: فتوجه علاء الدين كيقباذ إلى منكوقان ملك التتار ومعه الهدايا والتحف، وذلك في سنة خمس وخمسين وستمائة. وقصد الأردو ومعه

الأمير سيف الدين طرنطاي، وهو من أكابر الأمراء وشجاع الدين ملك السواحل. وأقام أخواه بقونية فاختلفت آراؤهما وآل أمرهما إلى القتال. فانتصر عز الدين كيكاوس واستقر بقونية بمفرده، واعتقل ركن الدين قلج أرسلان، كل ذلك وبيجو بالروم قال: ولما اعتقل قلج أرسلان ، ضاق أصحابه ومنهم الصاحب شمس الدين الطغرائي، والأمير سيف الدين جاليش وغيرهم، ففكروا فيما يفعلون فزوروا كتابا عن السلطان عز الدين كيكاوس إلى سيف الدين طرنطاي ورفيقه، أن يسلما إليهم السلطان علاء الدين كيقباذ، وما معهما من الهدايا والتحف، ليتوجه الصاحب بذلك إلى منكوقان، ويعود طرنطاي ورفيقه إلى قونية. وساورا بهذه الكتب الموضوعة في إثر السلطان كيقباذ، فلحقوه وقد وصل إلى أردوباطو فدخلوا على باطو وقالوا: « إن السلطان عز الدين كان قد أرسل أخاه ليتوجه إلى القان وأرسل معه هذين ـ يعنون طرنطاي ورفيقه. ثم اتضح له أنهما قد أضمرا السوء، وأن طرنطاي ضربته صاعقة فيما مضى من الزمان، فلا يصلح أن يدخل بين يدي القان. ورفيقه شجاع الدين طبيب ساحر، وقد أخذ صحبته شيئا من السم القاتل ليغتال به منكوقان، فأرسلنا عوضا عنهما وأمرنا بردهما» فلما سمع باطو ما قاله الصاحب، أمر بإحضار طرنطاي ورفيقه وفتش ما معهما من القماش والأصناف، فكان فيه براني أشربة وعقاقير، من جملتها السقمونيا، فأمره أن يأكل من ذلك فأكل وامتنع من السقمونيا. فظنها باطوسما، واستدعى الأطبّاء فقالوا إنها من الأدوية، وآخر الأمر أن باطو خير الصاحب ورفقته بين أن يستصحبوا الهدايا إلى القان، ويكون السلطان صحبة طرنطاي ورفيقه أو العكس. فاختار الصاحب أن يكون السلطان معه والهدايا مع طرنطاي، وافترقا على ذلك. وتوجه السلطان كيقباذ والصاحب إلى القان، وتوجه طرنطاي ورفيقه بالهدايا إليه، وافترقوا في الطريق، فكل قصد جهة، واتفقت وفاة السلطان في طريقه، وجرت لهم خطوب يطول شرحها، آخرها انهم وصلوا إلى القان بالأردو وتنافسوا

الرياسة في مجلسه، ثم اتفق الحال أن تكون مملكة الروم مقسومة بين الأخوين، فجعل لعز الدين كيكاوس من نهر سيواس إلى حد بلاد اشكري، ولركن الدين قلج أرسلان من نهر سيواس إلى تخوم أرزن الروم من الجهة الشمالية المتصلة ببلاد التتار. واستقر عليهما اتاوة يحملونها إلى الأردو، وعاد الصاحب شمس الدين وطرنطاي ورفقتهما من عنده ، فلما وصلوا إلى الروم حتى دخلة التتار، وكان بينهم وبين السلطان عز الدين ما نذكره إن شاء الله في أخبار التتار.

قال: ووصل الصاحب ورفقته إلى الروم

في سنة سبع وخمسين وستمائة، واستقرت القسمة بين الأخوين على ما قرره منكوقان، وانفرد كل منهما بما استقر له، وانضم إليه جماعة من الأمراء . ثم قدم هولاكو وملك بغداد، فاستدعاهما فسارا إليه، وحضرا معه أخذ حلب، ثم عادا إلى بلادهما على القسمة التي قسمها منكوقان، فلما كان في سنة ستين وستمائة بعث هولاكو يستدعي شمس الدين بوتاش نائب السلطان عز الدين، فأرسله إليه فوصل إلى أرزنكان صحبة رسل هولاكو. فوافق وصولهم إليها عند غطاس النصارى، فذ[illegible]ا إلى الفرات بجمع كثير، ومعهم الجاثليق وقد رفعوا الصلبان على الرماح، وأعلنوا بالنواقيس والصياح، فأنكر عليهم شمس الدين، وقصد منعهم، فمنعه رسل هولاكو، وقالوا: « هذه بلاد السلطان ركن الدين فلا يحدث فيها» ، وسألوا الجاثليق: « كيف كان عادتكم في أيام السلطان غياث الدين؟» فقال:« كنا نحمل له ثلاثة آلاف درهم، ونعمل ما نختار» فأخذوا منه ثلاثة آلاف درهم ومكنوه من عمل العيد كما أراد، فلما جرت هذه المفاوضة بين رسل هولاكو وشمس الدين ، عاد مغضبا ورجع إلى السلطان عز الدين، وحمله على المخالفة والعصيان، فوافقه على ذلك واستولى على أكثر بلاد أخيه ركن الدين. فتوجه ركن الدين إلى هولاكو واستنصر به، فبعث معه تومانا (٢) من التتار، فكسرهم عز الدين، ثم

استمدوا هولاكو، فأمدهم بتومان آخر، فهرب عز الدين وفارق البلاد ودخل إلى الأشكري بالقسطنطينية، وصحبته أخواله، وهما على دين النصرانية، وثلاثة نفر من أمرائه. واستولى ركن الدين على جميع البلاد واستقل بملكها.

وأما عز الدين فإنه لما وصل إلى الأشكري أكرمه وأحسن إليه،فأقام عنده إلى سنة اثنتين وستين وستمائة، فقصد الأمراء الذين كانوا معه وهم عز الدين أمير آخر، وعلي بعادر، وأمير مجلس، أن يثبوا على الأشكري فيقتلوه، وأعلموا صاحبهم عز الدين بذلك. وقالوا له: « اكتمه عن خاليك» فلم يكتمه عنهما، وأعلمهما به، وأمرهما أن يعرفا الأشكري بذلك، وأنه لايركب في اليوم الذي قصد الأمراء الفتك به فيه. فعرفاه، فقبض على الأمراء وكحلهم، وقبض على السلطان عز الدين واعتقله بقلعة من القلاع الغربية، فأقام بها إلى سنة ثمان وستين وستمائة. وجمع الأشكري أصحاب الأمراء وأتباعهم، وعرض عليهم الدخول في دينه. فمن وافق تركه ومن أبى كحله. فمنهم من وافق وتنصر، ومنهم من امتنع فكحل، وعرض على رجل منهم أن يتنصر فصاح وقال: « الجنة معدة للإسلام، والنار معدة لكم» فقال: هذا رجل ثابت على دينه وأطلقه، وكتب له ورقة للطريق.

وفي سنة ثمان وستين وستمائة خلص السلطان عز الدين وأهله من الاعتقال، وسبب ذلك أن منكوتمر بن طغان جهز عسكراً إلى اسطنبول، فأغاروا عليها، وأخذوا عز الدين من القلعة التي كان بها، وأحضروه إلى منكوتمر ، فأكرمه وأحسن إليه وأقام ببلاد قرم، وتزوج بها، واستمر إلى أن توفي في سنة سبع وسبعين وستمائة.

ذكر قتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان وولاية ابنه غياث الدين كيخسرو

وفي سنة ست وستين وستمائة دبر البرواناه على السلطان ركن الدين، واتفق مع التتار الذين عنده على قتله ليتمكن من البلاد. فعمل وليمة واجتمع فيها التتار، واستدعوا السلطان فحضر إليهم وأكل وشرب، فقاموا إليه وخنقوه بوتر، فمات ، واستقر في الملك بعده ولده السلطان غياث الدين كيخسرو، وله من العمر أربع سنين، واستولى البرواناه على الحكم في المملكة الرومية، والله أعلم.

ذكر خبر البرواناه معين الدين سليمان وأصله وتنقله

أما أصله فمن الديلم. وكان والده مهذب الدين علي، حضر وهو شاب في أيام السلطان علاء الدين كيقباذ إلى سعد الدين المستوفي بالروم، وهو إذ ذاك نافذ الحكم، فسأله أن يجري عليه جاريا في بعض المدارس، يكون درهما في اليوم، يقتات به. وكان شابا جميلا وسيما من طلبة العلم، فمال إليه المستوفي فقال: أريد أن أتخذك ولدا، وأخذه وقربه وأدناه وأحسن إليه، وزوجه بابنته ثم اتفقت وفاة المستوفي ، فوصف مهذب الدين للسلطان علاء الدين بالكفاية والمعرفة والفضيلة، فقربه منه ، وترشح للوزارة واستوزره وألقى إليه مقاليد الدولة، ورزق مهذب الدين ولده معين الدين سليمان المسمى بالبرواناه.

وتقدم معين الدين في الدولة السلجقية إلى أن استولى على الحل والعقد، ولم يكن للسلطان غياث الدين كيخسرو هذا معه في السلطنة غير الاسم.ومعين الدين هذا هو والد الأمير علاء الدين علي بن البرواناه، أحد أمراء الدولة الناصرية(٣) . وولي القاهرة، ثم ولي نيابة دار العدل الشريف، وتقدم على الجيوش، قال: واستمر غياث الدين

كيخسرو في اسم السلطنة بالروم إلى أيام السلطان أحمد في سنة إحدى وثمانين وستمائة، فاستدعاه إلى الأردو، وعزله عن السلطنة ، ورسم له بالإقامة بأرزنكان، فأقام بها إلى سنة اثنين وثمانين وستمائة. فدس عليه أرغون بن أبغا من خنقه بوترفماتولماعزل غياث الدين فوض السلطان أحمد السلطنة في الروم إلى السلطان مسعود ابن السلطان غياث الدين كيكاوس ابن السلطان غياث الدين كيخسرو ابن السلطان علاء الدين كيقباذ ابن السلطان غياث الدين كيخسرو ابن السلطان عز الدين قلج أرسلان ابن الملك مسعود ابن الملك قلج أرسلان ابن الملك سليمان ابن الملك شهاب الدولة قتلمش بن رسلان يبغو بن سلجق ملك المملكة الرومية، بعد عزل غياث الدين كيخسرو ابن ركن الدين قلج أرسلان في أيام السلطان أحمد في سنة إحدى وثمانين وستمائة، فاستمر وليس له من الأمر شيء إلا اسم السلطنة خاصة، والحكم في المملكة الرومية للتتار وشحانهم.

هذا آخر ما اتصل إلينا من أخبارهم إلى حين وضعنا هذا التأليف في سنة أربع عشرة وسبعمائة. فلنذكر أخبار الدولة الأتابكية، لأنها من فروع الدولة السلجقية، وبتمامها يتم هذا الباب إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الدولة الأتابكية

وهذه الدولة من فروع الدولة السلجقية، كان ابتداؤها أولا بحلب في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ثم انقطعت بقتل أقسنقر مدة ثم قامت بالموصل وحلب والشام وبمصر خطبة ، وقاعدة هذه الدولة وعمادها المشار إليه من ملوكها نور الدين محمود بن زنكي. ونحن نذكر أصل هذا البيت الأتابكي وننقله إلى أن ملك نور الدين الشهيد، وما انتهى إليه حال هذه الدولة إلى حين انقراضها، فنقول : أصل البيت الأتابكي اقسنقر التركي.

ذكر أخبار قسيم الدولة أقسنقر التركي

كان تركيا من أصحاب السلطان ركن الدولة ملكشاه السلجقي، وتربى معه من صغره وهو من أترابه، واستمر في صحبته حتى أفضت إليه السلطنة، فكان من أعيان أمرائه، واعتمد عليه في مهماته وزاد في علو مرتبته، فصار الوزير نظام الملك مع عظم شأنه وجلالة قدره، يتقيه ويداريه. ومما يدل على مكانته وعلو شأنه كونه لقب قسيم الدولة، مع صون الألقاب والمشاححة فيها في ذلك الوقت.

ولما ملك السلطان ملكشاه مدينة حلب كما ذكرناه في أخباره سلمها لقسيم الدولة في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة ثمانين، فعمرها وأحسن السيرة فيها فمال الناس إليه وأحبوه، ثم تسلم من الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر: اللاذقية، وأفامية، وكفر طاب، فأشار الوزير نظام الملك على السلطان ملكشاه أن يسلم ذلك إلى قسيم الدولة مع حماه ومنبج، فأقطعه السلطان جميع ذلك، فعظمت هيبته، وظهرت كفايته، وقمع أهل الفساد والبغي. ثم استدعاه السلطان إلى العراق فقدم متجملا بعسكر عظيم، فاستحسن ذلك منه وعظمه

وأعاده إلى أعماله. وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة قصد أقسنقر شيزر ونهبها وعاد إلى حلب. وفي سنة ثلاث وثمانين حاصر مدينة حمص وملكها، فسار صاحبها ابن ملاعب إلى الديار المصرية.

وفي سنة أربع وثمانين ملك حصن أفامية والرحبة، واستمر قسيم الدولة كذلك إلى أن مات السلطان ملكشاه في سنة خمس وثمانين، فجهز عند ذلك جيشا إلى تكريت فملكها، واتفق أن تاج الدولة تتش صاحب دمشق طمع بعد وفاة أخيه السلطان ملكشاه في السلطنة، فسار من دمشق إلى حلب، فلم يمكن قسيم الدولة إلا موافقته والدخول في طاعته. وكان من أمر تتش ما قدمناه في أخباره، وفارقه قسيم الدولة والتحق بالسلطان بركياروق ولد صاحبه السلطان ملك شاه كما قدمنا ذكر ذلك مبينا.

ذكر قتل قسيم الدولة

قال: ولما فارق قسيم الدولة تتش واستمر في خدمة السلطان بركياروق وعاد تتش إلى الشام، أمر بركياروق قسيم الدولة وبوزان صاحب حران بالعود إلى بلادهما ليمنعا تتش من التغلب عليها، فعادا، وجمع تتش العساكر وسار نحوحلب، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدهما السلطان بركياروق بالأمير كربوقا صاحب الموصل ، فالتقوا مع تتش بالقرب من تل السلطان على ستة فراسخ من مدينة حلب. فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيرا، فقتله تتش صبرا، ودخل بوزان وكربوقا حلب، فحصرهما تاج الدولة تتش وفتحها وأخذهما، فقتل بوزان واعتقل كربوقا، فلم يزل إلى أن خلص في أيام الملك رضوان بعد قتل تتش. وكان مقتل قسيم الدولة في سنة سبع وثمانين وأربعمائة. وكان رحمه الله حسن السيرة والسياسة كثير الإحسان إلى رعيته فكانوا في أيامه بين عدل غامر ورخص شامل وأمن واسع ، رحمه الله تعالى.

ذكر أخبار عماد الدين أتابك زنكي بن قسيم الدولة أقسنقر

قال المؤرخـون: لما قتل قسيم الدولـة كان عمر ولده زنكـي نحو عشر سنين، ولم يخلف من الذرية غيره، فاجتمع ممـاليك والده عليه وأصحابه. فلما خلص قوام الـدين كربوقا مـن السجن، بعد قتل تتـش في سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وملك حران ونصيبين والموصـل وماردين، وعظم شـأنه وهو في طـاعة السلطان بـركياروق، أحضر مماليك قسيـم الدولة، وأمـرهم بإحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي، وأنا أولى الناس بتربيته، فـأحضروه إليه، وأقطعهـم كـربوقـا الإقطـاعـات السنية واستعـان بهم في حروبـه، وسار بهم إلى آمد وصـاحبها مـن أمراء التركمان، والتقوا فهـزمهم كـربوقـا. وهـو أول مصاف حضره زنكـي بعد قتـل والـده. ولم يزل عنـد كربـوقا إلى أن تـوفي في سنة أربع وتسعين وأربعمائة. وملـك بعده مـوسى التركماني، فقتل ولم تطل مدته. ثم ملك الموصـل شمس الدولة جكرمش، وهو مـن مماليـك السلطان ملكشـاه، فاتخذ عماد الـدين زنكـي كالـولد، فكان عنـده إلى أن قتل في سنـة خمسمائة. ثم ملـك الموصل بعـده جاولي سقاوا، فـاتصل به عماد الـدين، وقد كبر وظهـرت شهامته. ولم يـزل معه حتـى عصى على السلطـان غيـاث الـدين محمـد بـن ملكشـاه، فأرسـل السلطـان الأمير مـودود إلى الموصـــل، في سنـة اثنتين وخمسمائة، وأقطعـه إياهـا، ففارقـه عماد الديـن وغيره من الأمـراء، والتحقوا بمـودود، فأكـرم زنكـي وشهد حـروبه،ثـم سار مـودود إلى الشام ففتـح في طريقـه قلاعـا كانت للفـرنج، ثم حضر عند أتـابك طغدكين صاحـب دمشق وسار إلى طبريـة وحاصرهـا، وقاتلـوا قتالا شـديدا، فظهـر من عماد الـدين زنكـي شجاعـة عظيمة، منها أنـه كان في نفر وخرج الفـرنج من البلـد، فحمل عليهم هـو ومن معـه فهزمهم، واستمـر في حملته وهـو يظن أن أصحـابه يتبعونـه، فتخلفوا عنـه، وتقدم وحده إلى أن وصـل إلى باب المدينـة، وأثر رمحه فيه. وقاتل الفرنج عليه وحمى نفسـه، وعاد سالما، فعجب الناس من

إقدامه وسلامته. ثم عاد إلى دمشق صحبة الأمير مودود، فخرج مودود لصلاة الجمعة، فلما صلى وانصرف، فبينما هو في صحن الجامع ويده بيد طغدكين وثب عليه إنسان فضربه بسكين، فحمل إلى بيت طغدكين فمات في بقية يومه، وكان صائما ولم يفطر، وقتل قاتله، قال: ولما قتل كتب ملك الفرنج إلى طغدكين يقول:

« إن أمة قتلت عميدها، في يوم عيدها، في بيت معبودها، حقيق على الله أن يبيدها»، ثم أقطع السلطان الموصل وغيرها بعد قتل مودود للأمير جيوش بك، وسير معه ولده الملك مسعود، كما ذكرناه، ثم جهز السلطان أقسنقر البرسقي في العساكر لقتال الفرنج، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم زنكي الشامي، فسار أقسنقر إلى الرها وإلى سميساط وبلد سروج،وقاتل الفرنج وأبلى زنكي في هذه المواقف بلاء حسنا، فعادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقي وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود، والأمير جيوش بك، إلى أن أظهر العصيان على السلطان في سنة أربع عشرة وخمسمائة، ثم استأمن الملك مسعود لأخيه السلطان على ما قدمنا ذكر ذلك في أخبار الدولة السلجقية.

ذكر ابتداء حال عماد الدين زنكي وترقيه وتنقله في الولايات

كان ابتداء ولايته في سنة ست عشرة وخمسمائة، وذلك أن السلطان محمود أقطع الأمير أقسنقر البرسقي مدينة واسط وأعمالها، مضافا إلى ما بيده من ولاية الموصل وشحنكية العراق وغير ذلك، فسير البرسقي إليها عماد الدين زنكي.وأمره بحمايتها، فسار إليها في شعبان وقام بحمايتها أحسن قيام، وحضر مع الخليفة المسترشد بالله قتال دبيس بن صدقة

أمير الحلة. وكان لعماد الدين في ذلك آثار حسنة ، وأقام إلى أن عزل أقسنقر البرسقي عن شحنكية العراق، ورجع إلى الموصل في سنة ثماني عشرة وخمسمائة. وكان عماد الدين إذ ذاك بالبصرة قد سيره البرسقي لحمايتها ، فلما توجه البرسقي إلى الموصل أرسل إليه يأمره باللحاق به، فقال لأصحابه: « قد ضجرنا مما نحن فيه بالموصل، في كل يوم أمير جديد، ونحتاج نخدمه، وقد رأيت أن أسير إلى السلطان محمود فأكون معه»؛ فأشاروا عليه بذلك. فسار إلى السلطان فقدم عليه وهو بأصفهان، فأكرمه. وكان يقف عن يمين تخت السلطان إلى جانبه لايتقدم عليه غيره، وهي منزلة والده من قبله. ثم بلغ السلطان أن العرب تجمعت ونهبت البصرة ، فأقطعها لعماد الدين زنكي، وأعاده إليها، وهذه الولاية هي أول ولاياته من قبل السلطان، فضبط عماد الدين زنكي البصرة وأعمالها وقام فيها أحسن قيام، وكف الأيدي عنها.

فلما وقع الاختلاف بين السلطان محمود والخليفة المسترشد بالله، وحضر السلطان إلى بغداد وحصرها كما قدمنا ذكر ذلك، أرسل إلى عماد الدين زنكي وهو بواسط يأمره بالحضور بنفسه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الدواب، ففعل ذلك وجاء في موكب عظيم في البر والبحر، فركب السلطان للقائه، ورأى الناس من ذلك ما هالهم، وعظم عماد الدين في أعينهم. ثم حصل الاتفاق بعد ذلك بين السلطان والخليفة كما ذكرنا.

ذكر ولاية عماد الدين زنكي شحنكية العراق

وفي شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وخمسمائة أسند السلطان محمود شحنكية العراق إلى الأمير عماد الدين زنكي، ومسبب ذلك أن السلطان لما عزم على المسير عن بغداد إلى همذان، نظر فيمن يصلح لشحنكية العراق ممن يأمن جانبه مع الخليفة، واعتبر أعيان دولته، فلم ير فيهم من يقوم بأعباء هذا الأمر مقامه، فاستشار أصحابه في ذلك

فكل أشار عليه به وقالوا: « لايقدر على سد هذا الخرق ، وإعادة ناموس هذه الولاية، ولاتقوى نفس أحد على ركوب هذا الخطر، غير عماد الدين زنكي، ففوض إليه ولايتها، مضافا إلى ما بيده من الإقطاع، وكانت شحنكية العراق من أعظم الولايات، وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن من جهة العراق، ولم يطل مقام زنكي ببغداد حتى انتقل إلى ولاية الموصل.

ذكر ولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها

كانت ولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة. وسبب ذلك أن أقسنقر البرسقي لما قتل على ما ذكرناه، وولي بعده ابنه مسعود في ثامن ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة، فمات مسعود في سنة إحدى وعشرين، وهو يحاصر الرحبة. فلما مات قام بعده أخ له صغير، واستولى على البلاد جاولي مملوك أبيه، ودبر أمر الصبي، وأرسل إلى السلطان يطلب تقرير أعمال الموصل على الصغير ولد أقسنقر البرسقي، وبذل الأموال الكثيرة على ذلك، وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشهرزوري، وصلاح الدين محمد الياغسياني أمير حاجب البرسقي،فسارا حتى حضرا دركاة السلطان ليخاطباه في ذلك، وكانا يكرهان جاولي ويخافانه، ولايرضيان بطاعته، فاجتمع صلاح الدين مع نصير الدين جقر الذي صار ينوب عن عماد الدين، فذكر له صلاح الدين ماورد فيه، وكان بينهما صهارة. فخوفه نصير الدين من جاولي، وقبح عنده طاعته، وقرر في نفسه أن جاولي إنما أبقاه لحاجته إليه، وأنه متى أجيب إلى مطلوبه لايبقي على أحد منهم، وحسن له المخاطبة في ولاية عماد الدين زنكي،وضمن له الولايات والإقطاعات الكبيرة، وكذلك للقاضي بهاء الدين، فقاما وركبا إلى دار الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد، واجتمعا به وقالا له:« قد علمت وعلم السلطان أن ديار الجزيرة والشام

قد تمكن الفرنج منها، وقويت شوكتهم بها، واستولوا على أكثرها. وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر، ما عدا البلاد الباقية للمسلمين. وكان البرسقي بشجاعته وانقياد العساكر إليه، يكف بعض عاديتهم وشرهم، وقد زاد طمعهم منذ قتل، وولده هذا طفل صغير، ولابد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي وتجربة، يذب عنها، ويحمي حوزتها. وقد أنهينا الحال لئلا يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين فيختص اللوم بنا ويقال لم لا أنهيتم إلينا جلية الحال»، فرفع الوزير قولهما إلى السلطان فاستحسنه وشكرهما عليه، وأحضرهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية، فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكي، وبذلا عنه تقربا إلى خزانة السلطان مالا جليلا، فأجاب السلطان إلى ولايته، فأحضره وولاه جميع تلك البلاد، وكتب منشوره بها ، وسار عماد الدين زنكي إليها فبدأ بالبوازيج ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره، لأنه خاف من جاولي أنه ربما يصده عن البلاد، ثم سار عن البوازيج إلى الموصل، فلما سمع جاولي بقربه خرج إلى لقائه ومعه سائر العسكر، وترجل عند مقابلته، وقبل الأرض بين يديه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فدخلها في شهر رمضان من السنة، وأقطع جاولي الرحبة وسيره إليها، وولى نصير الدين دزدارية قلعة الموصل وجعل إليه سائر دزدارية القلاع، وجعل صلاح الدين محمد أمير حاجب ، وبهاء الدين علي الشهرزوري قاضي القضاة بجميع بلاده، وزاده إقطاعا وأملاكا، وكان لايصدر إلا عن رأيه.

فلما فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عمر وبها مماليك البرسقي، فامتنعوا عليه فحصرهم وراسلهم، وبذل لهم البذول الكثيرة على التسليم، فلما لم يجيبوا إلى ذلك جد في قتالهم وكان بينه وبين البلد دجلة، فأمر الناس بإلقاء أنفسهم في الماء، ففعلوا وعبروا سباحة وعبر بعضهم في السفن والأكلاك، وتكاثروا على أهل الجزيرة. وكانوا قد خرجوا إلى أرض بين الجزيرة ودجلة، تعرف بالزلاقة، ليمنعوا عسكر عماد

الدين، فلما رأوه قد عبر دجلة انهزموا ودخلوا البلد، وأرسلوا في طلب الأمان، فأمنهم ودخل البلد بعسكره. ثم زادت دجلة في تلك الليلة زيادة عظيمة لحقت سور البلد ،وصارت الزلاقة مملوءة بالماء، فلو أقام بها عماد الدين تلك الليلة هلك هو وعسكره، ولم يسلم منهم أحد، فأيقن الناس بسعادته.

ثم سار عن الجزيرة إلى نصيبين، وكانت لحسام الدين تمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين، فلما نازلها سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا فاستنجده على أتابك زنكي، فوعده النجدة بنفسه وجميع عسكره. وعاد تمرتاش إلى ماردين، وأرسل رقعة على جناح طائر إلى نصيبين، يعرف من بها من العسكر أنه وابن عمه واصلان إليهم بالعسكر الكثير لدفع زنكي عنهم، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام. فبينما أتابك زنكي في خيمته وإذا بطائر سقط على الخيمة وهو ينظر إليه، فأمر بمسكه فمسك، فرأى فيه الرقعة فقرأها، وأمر بكتب غيرها يقول: « إنني مضيت إلى ركن الدولة وقد وعدني النصرة بجميع العساكر وما نتأخر عن الوصول أكثر من عشرين يوما» وأمرهم بحفظ البلد هذه المدة، إلى أن يصلوا وجعلها على الطائر، وأرسله. فوصل إلى نصيبين فلما قرأ من بها الرقعة، سقط في أيديهم، وعلموا عجزهم عن حفظ البلد هذه المدة، فأرسلوا إلى زنكي وصالحوه وسلموا إليه البلد، فبطل على داود وتمرتاش ما كانا عزما عليه.

ولما ملك نصيبين سار عنها إلى سنجار، فامتنع من بها عليه ثم صالحوه وسلموها إليه، وسير منها الشحن إلى الخابور فملكه جميعه، ثم سار إلى حران وهي للمسلمين. وكانت الرها وسروج والبيرة وتلك النواحي جميعها للفرنج، وأهل حران معهم في ضر عظيم، وضيق شديد، لخلو تلك البلاد من حامي يذب عنها. فلما قاربها خرج أهل البلد إلى لقائه، وسلموها إليه ، فأرسل إلى جوسلين صاحب الرها، وتلك البلاد

وهادنه مدة يسيرة،وكان غرضـه أن يتفرغ لإصلاح البلد، ويحشد، ويملك حلب والشام، ثم يقاتل الفرنج.

ذكر ملك عماد الدين حلب

وفي المحـرم سنة اثنتين وعشريـن وخمسمائة، ملـك عماد الـدين زنكـي حلب وقلعتهـا. وسبب ذلك أنها كـانت بيد تـومان نيابـة عن عز الـدين مسعود بـن آقسنقر البرسقـي. ثم استناب بعـده قتلغ فـوصل إليهـا بعد وفاة مسعـود، وتسلمها . ثم ثار بـه أهل المدينة وسلموهـا إلى سليمان بن عبـد الجبـار. فسير عماد الـديـن إليهـا الأمير سنقـر دراز والأمير حسـن قـراقـوش في عسكر قـوي، ومعهما التـوقيـع مـن السلطان لعماد الـديـن بالموصل والجزيـرة والشام. فوصلا إلى حلب وسيرا قتلغ وابـن عبد الجبار إلى عماد الديـن بالموصل، فسـارا إليه وأقام حسـن قراقوش بحلـب واليا عليها. فلما وصل بدر الدولة ابن عبـد الجبار وقتلغ إلى عماد الدين أصلح بينهما، ولم يردهما إلى حلب، وسير حـاجبه صلاح الدين محمـد الياغسياني في عسكر إلى حلب، فصعـد إلى قلعتها ورتب الأمور، وجعـل فيها واليا، وسار عماد الـدين إلى الشـام في جيوشـه، فملك في طـريقه مـدينة منبـج وبزاعة، ووصـل إلى حلب، فتلقاه أهلها، فدخلها ورتـب أحوالها، وجعل رئاستها لأبي الحسن علي بن عبد الرزاق.

ذكر ملكه مدينة حماه

وفي سنة ثـلاث وعشرين ملك عماد الديـن زنكي مدينـة حماة. وسبب ذلك أنه أظهـر أنه يريد جهاد الفـرنج، وأرسل إليه تاج الملـوك بوري بن أتابك طغدكين صاحب دمشق يستنجده، ويطلب منه معونته على جهاد الفرنـج، وكانـوا قد حصروا دمشق. فـأجاب إلى ذلـك وجرد تـاج الملوك عسكرا من دمشق، وأرسـل إلى ابنه سونج وهو بمدينة حماه يـأمره بالنزول

إلى العسكر والمسير به إلى زنكي، ففعل وساروا جميعهم فوصلوا إليه، فأكرمهم وأحسن لقاءهم، وتركهم أياما، ثم قبض على سونج بن تاج الملوك، وعلى جماعة من الأمراء والمقدمين، وأنهب خيامهم وما فيها واعتقلهم بحلب. وسار من يومه إلى حماة، فوصل إليها وهي خالية من الجند فاستولى عليها، ورحل عنها إلى حمص. وكان صاحبها خيرخان بن قراجا في عسكر عماد الدين، وهو الذي أشار عليه بالقبض على تاج الملوك، فقبض عليه أيضا، ونزل على حمص، وطلب منه أن يأمر أصحابه وولده بحمص بتسليمها، فأرسل إليهم فلم يفعلوا، فحصرها مدة طويلة، ثم رحل عنها وعاد إلى الموصل.

ذكر ملكه حصن الأثارب وهزيمة الفرنج

قال: ولما فرغ عماد الدين من أمر البلاد الشامية ، رجع إلى الموصل فأراح واستراح، وأمر أصحابه بالاستعداد فاستعدوا، ورجع إلى حلب وعزم على قصد حصن الأثارب، وهو فيما بين حلب وأنطاكية على ثلاثة فراسخ من حلب. وكان من به من الفرنج يقاسمون أهل حلب على جميع أعمالها الغربية حتى رحى لأهل حلب بظاهر باب الجنان، بينها وبين البلد عرض الطريق. فلما علم الفرنج بقصده جمعوا فارسهم وراجلهم واستعدوا وساروا نحوه، فتقدم إليهم والتقوا واقتتلوا واشتد القتال، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة، وأسر كثير من فرسانهم، وقتل كثير، وتقدم إلى الحصن فنازله وفتحه عنوة، وعم من فيه بالقتل والأسر وأخربه، وجعله دكا، ثم سار إلى قلعة حارم وهي بالقرب من أنطاكية فحصرها، فبذل الفرنج نصف دخل بلد حارم وهادنوه فأجابهم إلى ذلك، وعاد عنهم وقد اشتد أزر المسلمين وصار قصار الفرنج حفظ ما بأيديهم، وذلك في سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

ولما عاد إلى ديار الجزيرة ملك سروج ودارا وهما من أعمال ركن الدولة صاحب حصن كيفا.

وفي سنة ست وعشرين سار عماد الدين بالعساكر من الموصل إلى العراق لنصرة السلطان مسعود بعد وفاة السلطان محمود، وكان مسعود قد كاتبه واستنجد به، فسار إليه ومعه الأمير دبيس بن صدقة فسار حتى نزل إلى البادية ، وخرج الخليفة المسترشد بالله لحربه ـ وذلك في سابع عشرين شهر رجب من السنة - والتقوا واقتتلوا قتالا شديدا، فحمل عماد الدين على ميمنة الخليفة وبها جمال الدولة إقبال فهزمها، فحمل الخليفة بنفسه واشتد القتال فانهزم دبيس، وأراد عماد الدين الصبر فرأى الناس قد تفرقوا عنه فانهزم، وقتل من العسكر جماعة.

ثم سار المسترشد وحاصر الموصل كما ذكرناه في أخباره. وأن سبب ذلك أن الخليفة أرسل الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفرائيني الواعظ إلى عماد الدين برسالة فيها خشونة، زادها الشيخ زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة، فقبض عليه عماد الدين وأهانه ولقيه بما يكره، فسار الخليفة في النصف من شعبان سنة سبع وعشرين ونازل الموصل ، ففارقها زنكي ببعض العسكر، وترك بعضه مع نائبه نصير الدين جقردزدار القلعة. ووصل عماد الدين إلى سنجار وقطع الميرة عن عسكر الخليفة وتخطف من ظفر به من العسكر. ودام الحصار ثلاثة أشهر، ثم رحل الخليفة عنها ولم يظفر منها بشيء.

وفي مدة الحصار ملك شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماه.

ذكر حصره مدينة آمد وملكه قلعة الصور

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة اجتمع عماد الدين أتابك زنكي وتمرتاش صاحب ماردين، وحصرا مدينة آمد. فأرسل صاحبها إلى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده، فجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمد ليرحلهما عنها، فالتقوا على بابها، واقتتلوا في جمادى الآخرة، فانهزم داود وقتل جماعة من عسكره. ولم يبلغ عماد الدين من آمد غرضا، فقصد قلعة الصور من ديار بكر، وحصرها وضايقها، فملكها في شهر رجب واتصل به ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثي فاستوزره، وكان حسن السيرة عظيم الرئاسة والكفاية، والله أعلم.

ذكر ملكه قلاع الأكراد الحميدية

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة أيضا استولى على جميع قلاع الأكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما. وكان لما ملك الموصل أقر صاحبها الأمير عيسى الحميدي على ولايتها وأعمالها، فلما حضر المسترشد أمر عماد الدين بحصر قلاع الأكراد فحصرت مدة طويلة، وقوتل من بها إلى أن ملكت في هذه السنة، فاطمأن حينئذ أهل السواد المجاورين لهذه القلاع، لأنهم كانوا مع الأكراد في ضيق عظيم من نهب أموالهم.

وفيها صلح أمر زنكي مع الخليفة

ذكر حصره مدينة دمشق

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة نازل عماد الدين أتابك زنكي مدينة دمشق، وحصرها في جمادى الأولى، وكان سبب ذلك أن صاحبها شمس الملوك كان قد كتب إليه يستدعيه ليسلم إليه البلد، فسار إليها ، فقتل

شمس الملوك قيل وصوله، وملك أخوه شهاب الدين محمود كما ذكرناه، فاستمر في مسيره فحاصرها. فأتاه وهو في الحصار رسول الخليفة بالخلع، ويأمره بمصالحة صاحب دمشق والرحيل عنها فصالحهم، وخطب له بدمشق ورحل عنها لليلتين بقيتا من جمادى الأولى من السنة.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة استنصر الخليفة الراشد بالله بعماد الدين على السلطان مسعود كما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية، فجاء إليه هو وأصحاب الأطراف إلى بغداد، وكان بين الخليفة والسلطان ما ذكرناه من غلبة السلطان مسعود ومسير الخليفة إلى الموصل مع عماد الدين ، وقد شرحنا ذلك مبينا في أخبار الدولة العباسية ، فلا فائدة في إعادته، وإنما نبهنا عليه في هذا الموضع جريا على القاعدة.

ولما خلع الراشد وبويع للمقتفي لأمر الله ، أرسل إليه عماد الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري، فحضر إلى الديوان، فأمر الخليفة أن يعطي أتابك زنكي: صريفين، ودرب هرون، وجَرّى، ملكا، وهي من خاص الخليفة.» فعظم بذلك شأنه ، وبايع للمقتفي لأمر الله، وخطب له بالموصل.

ذكر غزاة العسكر الأتابكي إلى بلاد الفرنج

وفي شعبان سنة ثلاثين وخمسمائة جهز عماد الدين أتابك زنكي عساكره مع الأمير سوار نائبه بحلب، فقصدوا بلد الفرنج على حين غفلة منهم، وساروا نحو جهة اللاذقية ، فنهبوا منها شيئا كثيرا، وقتلوا وأسروا سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي، وغنموا مائة ألف رأس من الدواب، ما بين فرس وحمار وبقر وغنم، وغنموا غير ذلك من الأقمشة والعين والحلي ما لايدخل تحت الإحصاء، وخربوا بلاد اللاذقية وما جاورها، ورجعوا بالظفر والغنيمة ، والله أعلم.

-١٠٤٠٨-

ذكر ملكه قلعة بعرين وهزيمة الفرنج

وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة حصر عماد الدين زنكي حمص، وهي لصاحب دمشق، فلم ينل منها غرضا. فرحل عنها إلى بعرين وهي للفرنج، فحاصرها في شوال، وهي من أمنع الحصون وأحصنها، وزحف عليها، فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا بملوكهم وقمامصتهم وكنودهم ليرحلوه عنها، فالتقوا واقتتلوا واشتد القتال، فأجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية ، فاحتمى ملوكهم وفرسانهم بحصن بعرين لقربه، فحصرهم، فدخل القسوس والرهبان إلى بلاد الفرنج والروم وما ولاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين، وقالوا: إن المسلمين ليس لهم همة إلا قصد البيت المقدس، فاجتمعت ملوك النصرانية وصاروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام، وجدّ عماد الدين في الحصار، فقلت الأقوات عندهم، فسألوا الأمان على أن يتركهم يتوجهوا إلى بلادهم، فلم يجب إلى ذلك، إلى أن بلغه أن ملك الروم قد أقبل بجموع الفرنج والنصرانية ، فآمنهم على تسليم الحصن وخمسين ألف دينار. ففعلوا ذلك. فلما فارقوا الحصن بلغهم اجتماع الروم والفرنج بسببهم، فندموا على تسليمه، وفتح عماد الدين في مقامه : المعرة، وكفر طاب، من الفرنج.

ولما فتح المعرة حضر إليه أرباب الأملاك، وطلبوا أملاكهم، فطلب منهم كتبها فاعتذروا أنها عدمت عندما ملكها الفرنج، فأمر بإحضار دفاتر الديوان بحلب، وكشف منها فمن وجد باسمه خراج فيها عن ملك سلمه إليه أو لعقبه إن كان قد مات، وأعاد الأملاك بهذه الطريق، وهذه غاية في الإحسان وفي تسهيل البر والخير ونهاية في العدل.

وفيها سار إلى دقوقا وملكها بعد قتال شديد.

ذكر ملكه مدينة حمص وغيرها من أعمال دمشق

وفي المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وصل زنكي إلى حماة، وسار منها إلى بقاع بعلبك، فملك حصن المجدل، وسار إلى حمص وحصرها وملكها وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وكان لصاحب دمشق، وبعث إلى شهاب الدين محمود صاحب دمشق يخطب أمه زمرد خاتون ابنة جاولي، فتزوجها وحملت إليه.

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين

كان ملك الروم صاحب القسطنطينية قد دخل إلى البلاد في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وخرج على أنطاكية وساز إلى أذنة والمصيصة، وهما بيد ابن لاون الأرمني صاحب الدروب فحصرها، وملكها ورحل إلى عين زربة،فملكها عنوة، وملك تل حمدون، وحمل أهله إلى جزيرة قبرص، وعمر ميناء اسكندرونة، ثم خرج إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذي القعدة فصالحه صاحبها ريمند الفرنجي، فرحل عنها إلى بغراس ودخل ابن ليون في طاعته.

ثم سار إلى الشام في سنة اثنتين وثلاثين، وقصد بزاعة فحصرها، وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب، فملكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب، ثم غدر بأهلها فقتل منهم وسبى، فتنصر قاضيها وجماعة من أهلها وأعيانها نحو من أربعمائة نفس. وأقام الروم عشرة أيام يطلبون من اختفى، ودخنوا على من دخل المغاير، فهلكوا . ثم رحل إلى حلب ونزل على قويق ومعه الفرنج الذين بساحل الشام، وكان عماد الدين يحاصر حمص، فلما بلغه خبرهم، سير طائفة من العسكر ليحفظوا حلب منهم، فلما نزلوا على حلب خرج إليهم أحداث البلد وقاتلوا قتالا

شـديدا، فقتـل كثير مـن الـروم وجرح كثير، وقتـل بطـريـق عظيم القـدر عندهم. فأقـاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى قلعة الأثـارب، فخاف من بها من المسلمين فهربوا عنهـا في تاسع شعبان، فملكهـا الروم وتركوا فيهـا سبايا بزاعة والأسرى، ومعهم جمع كثير من الـروم يحفظونهم، وساروا ، فلما سمع الأمير سوار نائب عماد الدين بحلب بذلك، سار بمن عنده من العسكر إلى الأثارب فأوقع بالروم وقتلهم، وخلص الأسرى وعاد إلى حلب.

وأما عماد الـدين فـإنه فارق حمص وسـار إلى سلمية فنـزلها، وعبر ثقلة الفـرات إلى الرقـة، وأقـام جـريدة. وقصـد الـروم شيـزر، وهي مـن أمنـع الحصون، وكـانت لـلأمير أبي المعالي سلطـان بن علي بـن منقذ الكنـاني، فنازلـوها وحاصروهـا ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقـا فأرسل صـاحبها إلى عماد الـدين يستنجـده، فسار إليـه ونـزل على نهر العاصي بينهـا وبين حماه، فكان يركب بعسكـره إلى شيزر ويقفون حيث يراهم الـروم، ويرسل السرايا فتـأخذ مـن ظفرت بـه منهم، ثـم أرسل إلى ملـك الروم يقـول: « إنكـم قد تحصنتـم منـي بهذه الجبال، فـانزلـوا عنهـا إلى الصحراء حتـى نلتقي، فإن ظفـرت بكم أرحت المسلمين منكم وإن ظفـرتم بي استرحتم وأخذتم شيـزر وغيرها» ولم تكن لـه بهم قوة، وإنما كان يـرهبهم بهذا القول وأشباهه، فأشار فرنج الشام على ملك الـروم بقتاله وهونوا عليه أمره، فلم يفعـل، وقال: « أتظنـون أن ليس لهم مـن العسكر إلا مـا ترون، إنما هـو يريد أن تلقوه فيأتيه مـن نجدات المسلمين ما لا يحد»، وكان عماد الدين يرسـل إلى ملك الـروم يقول : إن فـرنج الشـام خائفـون منه، ولـو فارق مكانـه لتخلفوا عنه، ويـرسل إلى الفرنـج فيقول : « إن ملك ملـك الروم من الشـام حصناً واحداً ملـك بلادكم جميعها»، فـاستشعرت كل طـائفة من الأخـرى، فرحل ملـك الروم من شيزر في شهـر رمضان، وكان مقـامه عليهـا أربعـة وعشريـن يومـا وترك المجانيق وآلات الحصار كما هي ، فسار عماد الدين يتبع ساقه العسكر، فظفر بكثير منهم ممن تخلف.

ذكر ملك عماد الدين بعلبك

وفي ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ملك زنكي مدينة بعلبك وهي لصاحب دمشق، وسبب ذلك أن شهاب الدين محمود صاحب دمشق قتله غلمانه في هذه السنة كما ذكرنا، وملك بعده أخوه جمال الدين محمد، وكانت والدة محمود زوجة عماد الدين بحلب، فوجدت لذلك وجدا عظيما، وحزنت حزنا شديدا، وكتبت إلى أتابك زنكي وهو بالجزيرة تعرفه بالحادثة وتطلب أن يقصد دمشق ويطلب ثأر ولدها، فبادر إلى ذلك ولم يتوقف وعبر الفرات عازما على قصد دمشق، فبلغ ذلك صاحبها فاحتاط واستعد، وسار عماد الدين إلى بعلبك فوصل إليها في العشرين من ذي القعدة، وضيق على أهلها ونصب عليها أربعة عشر منجنيقا ترمي ليلا ونهارا. فأشرف أهلها على الهلاك، فطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم المدينة. وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فلما أيسوا من نصرة معين الدين أتابك صاحب دمشق ـ وكانت بعلبك له ـ فطلبوا الأمان، فأمنهم وتسلم القلعة منهم، ثم غدر بهم وصلبهم ولم ينج منهم إلا القليل. فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وحذروه ونفروا منه.

قال: ولما فتح بعلبك كان لمعين الدين بها جارية، وكان يهواها، فأخذها زنكي وسيرها إلى حلب، فلم تزل بها إلى أن قتل زنكي، فسيرها نور الدين إلى معين الدين، فكانت أعظم أسباب المودة بينهما.

قال: ولما فرغ عماد الدين من بعلبك سار إلى دمشق في شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ونزل على داريا، فقاتله أهل دمشق فكسرهم وتقدم إلى المصلى فقاتلوه مرة بعد أخرى. كل ذلك والظفر له عليهم، وأرسل إلى صاحب دمشق يبذل له بعلبك وحمص وغيرها مما يختاره من البلاد، فمال إلى تسليمها، فحذره أصحابه وخوفوه عاقبة غدره،

فامتنع من الإجابة فعاود عماد الـدين القتال والزحف. واتفقت وفاة جمال الدين صاحـب دمشق في ثامن شعبان، وولي بعده ابنـه مجير الدين أبق، فـاشتد طمـع عماد الديـن وزحـف زحفا شـديدا، فلما رأى أنـر أن عماد الديـن لايندفـع عنهم، راسل الفـرنج واستنصر بهم، فـاجتمعت الفـرنج وعزموا على المسير لدفعـه عن دمشق، فعلم عماد الدين بـذلك فتوجه إلى حوران في خـامس عشر رمضان عـازما على لقـاء الفرنج قبـل أن يجتمعوا مع الـدماشقـة، فلما بلغ الفـرنج خبره لم يتحـركوا مـن بلادهـم، فعاد إلى حصار دمشـق ونزل بعـذرا شمالها في سـادس شوال، وأحـرق عدة مـن قرى المرج والغوطة، ورحل إلى بلاده.

ثم وصل الفرنج إلى دمشق، وكـان معين الدين قد بذل لهم أنه يحاصر بانيـاس ويسلمها إليهـم، وكانت في طـاعة زنكـي ، ففعل معين الـدين ذلك وسلمهـا للفرنج. فلما بلـغ عماد الديـن ذلك رجع إلى بعلبـك وفرق عساكره للإغارة على بلد حـوران وأعمال دمشق. وسار جريدة ، فنزل على دمشق بخـواصه في آخر الليل ، ولم يعلـم به أحد من أهلهـا، فلما أصبح الناس ورأوا عسكـره ارتج البلـد، واجتمع العسكـر والعامـة على السور، وخرجـوا إليه فقـاتلوه، فلم يمكنـه الإقدام على القتال لتفـريق عسـاكره، فأحجم عنهم وعاد إلى مرج راهط، وأقـام ينتظر عود عسكره، فعادوا إليه وقد ملأوا أيديهم من الغنائم فلما اجتمعوا رحلوا إلى بلاده.

ذكر ملكه شهرزور وأعمالها

وفي سنـة أربع وثـلاثين وخمسمائة ملك شهـرزور وأعمالها وما يجاورهـا مـن الحصـون، وكانـت بيـد قفجـاق بـن أرسلان تـاش التركماني، وكـان حكمـه نافـذا على سائر التركمان، قـاصيهم ودانيهـم، وكلمته لاتخالـف، يرون طاعته فرضا؛ وتحاماه الملـوك ، وأتاه التركمان من كل فج عميق، فلما كـان في هـذه السنة سير أتـابـك عماد الـديـن عسكرا، فجمـع قفجـاق

أصحابه ولقيهم، واقتتلوا فانهزم قفجاق واستبيح عسكره، وسار الجيش الأتابكي في أعقابهم فحصروا الحصون والقلاع وبذلوا الأمان لقفجاق فسار إليهم، وانخرط في سلك العسكر وسار في الخدمة هو وابنه من بعده.

وفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة كان بين أتابك زنكي وبين داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا حرب شديدة انهزم فيها داود ، وملك زنكي من بلاده قلعة بهمرد، وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل.

وفيها خطب له بمدينة آمد وصار صاحبها في طاعته، وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكي فلما رأى قوة زنكي سار معه.

وفيها أغار العسكر الأتابكي من حلب على بلد الفرنج، فأخربوا ونهبوا وظفروا بسرية للفرنج، فقتلوا منهم وكان عدة من قتل سبعمائة رجل.

توفي ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثي وزير عماد الدين أتابك زنكي، وكان رحمه الله حسن السيرة كريما رئيسا.

ذكر ملك عماد الدين زنكي قلعة آشب وغيرها من بلاد الهكارية

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة أرسل عماد الدين جيشا إلى قلعة آشب ، وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها، وبها أموالهم وأهلوهم، فحصرها الجيش الأتابكي وضيق على من بها وملكها، فأمر عماد الدين بهدمها، وبنى القلعة العمادية وكانت العمادية حصنا عظيما من حصونهم فخربوه لكبره، لأنه كبير جدا، فعجزوا عن حفظه فخربت الآن آشب وعمرت العمادية، والعمادية نسبة إلى عماد الدين زنكي،

وكان نصير الدين جقر نائب عماد الدين بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية.

ذكر صلحه والسلطان مسعود

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته، وجمع العساكر وتجهز لقصد بلاد زنكي، وكان قد حقد عليه واتهمه أنه أفسد عليه أصحاب الأطراف وحرضهم على الخروج على السلطان، فلما بلغ زنكي ذلك أرسل إلى السلطان يستعطفه ويستميله، وأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد، فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار، يحملها عماد الدين إلى السلطان ليعود عنه، فحمل منها عشرين ألف دينار أكثرها عروضا، ثم تنقلت الأحوال بالسلطان حتى احتاج إلى مداراة زنكي، فأطلق له ما بقي، ومن جيد الرأي ما فعله عماد الدين زنكي في هذه الحادثة ، فإن ولده الاكبر سيف الدين غازي كان لايزال عند السلطان ـ سفرا وحضرا ـ بأمر والده، فأرسل إليه الآن يأمره بالهرب من عند السلطان إلى الموصل، وأرسل إلى نائبه بالموصل أن يمنع ابنه المذكور من الدخول . فلما هرب غازي أرسل يأمره بالعود إلى السلطان، ولم يجتمع به، وأرسل معه رسولا إلى السلطان يقول: « إن ولدي هرب خوفا لما رأى تغير السلطان علي، وقد أعدته ، ولم أجتمع به فإنه مملوكك والبلاد لك» فوقع ذلك من السلطان بموقع عظيم، ومال إلى زنكي.

ذكر ملكه بعض ديار بكر

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة سار عماد الدين زنكي إلى ديار بكر، فملك بها عدة حصون منها مدينة طنزة ومدينة اسعرد ومدينة المعدن

التي يعمل بها النحاس، ومدينة حيزان وحصن الزوق، وحصن فطليس، وحصن باناسا وحصن ذي القرنين وغير ذلك. وأخذ من بلاد ماردين مما هو بيد الفرنج جملين والموزر وتل موزر وغيرها من حصون شبختان ورتب أمور الجميع وجعل فيها من يحفظها، وقصد مدينة آمد ، وحاني فحصرهما وأقام بتلك الناحية . وفيها سير عسكراً إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكها.

ذكر فتح الرها وغيرها من بلاد الجزيرة مما هو بيد الفرنج

وفي سادس جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة فتح عماد الدين أتابك زنكي مدينة الرها من حصون الفرنج الجزيرية، وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة ، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمد ونصيبين، ورأس عين، ، والرقة وكانت مملكة الفرنج بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل : الرها، وسروج ، والبيرة. وسن ابن عطير، وجملين، والموزر والقرادي، وغير ذلك. وكانت هذه الأعمال وغيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين الفرنجي، وكان صاحب رأي الفرنج، والمقدم على عساكرهم، لما فيه من الشجاعة والمكر، وكان عماد الدين يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع من الفرنج بها من يمنعها، ويتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم، فاطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاده الغربية، فبلغ أتابك زنكي ذلك، فنادى في العسكر بالرحيل إلى الرها وجمع الأمراء عنده وقدم الطعام، وقال: « لايأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن معي غدا في باب الرها.» فلم يتقدم غير أمير واحد وصبي لايعرف، لما يعلموامن إقدام زنكي وشجاعته، وأن أحدالايقدرعلى مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبي:« ما أنت في هذا المقام» فقال أتابك زنكي: « دعه فوالله إني أرى وجهه لايتخلف عني».

وسار والعسكر معه فوصل إلى الرها، فكان عماد الدين أول من حمل على الفرنج والصبي معه، وحمل فارس من الفرنج على زنكي عرضا فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله، وسلم زنكي. ونازل البلد وقاتل عليه ثمانية وعشرين يوما وملكه عنوة، وملك القلعة، ونهب الناس الأموال، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء.

فلما رأى عماد الدين البلد أعجبه، ورأى أن تخريب مثله لايجوز في السياسة، فنودي بالعسكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، ورد ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردوا ذلك وعاد البلد إلى حالته الأولى، وجعل فيه عسكراً يحفظه، وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات ، ما عدا البيرة لحصانتها.

وحكى ابن الأثير رحمه الله في تاريخه الكامل قال: حكى لي بعض العلماء بالأنساب والتواريخ، قال: كان صاحب صقلية قد أرسل سرية إلى طرابلس الغرب، وتلك الأعمال فنهبوا وقتلوا، وكان عند صاحب صقلية رجل مسلم كان يكرمه ويحترمه، ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان، حتى كان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب. ففي بعض الأيام كان جالسا في منظرة يشرف على البحر، وإذا بمركب لطيف قد أقبل وأخبر من فيه أن عسكره دخلوا بلاد الإسلام، وظفروا وغنموا وقتلوا، وكان المسلم إلى جانبه، وقد أغفى فقال له الملك: « يافلان ألا تسمع إلى ما يقولون»؟ قال: « لا» قال: « إنهم يخبرون بكذا وكذا، أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها؟» قال: « كان قد غاب عنهم وشهد فتح الرها، فقد فتحها المسلمون الآن» ، فضحك من هناك من الفرنج فقال الملك: « لاتضحكوا فما يقول والله إلا الحق»، فوصل بعد أيام الخبر من فرنج الشام بفتحها، قال ابن الأثير: وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنسانا صالحا رأى الشهيد زنكي في منامه فقال له: « ما فعل الله بك» قال: « غفر لي بفتح الرها».

ذكر مقتل نصير الدين جقر، وولاية زين الدين علي كوجك

كان مقتله في ذي القعدة تسع وثلاثين وخمسمائة. وسبب ذلك أنه كان ينوب عن عماد الدين أتابك زنكي بالموصل وسائر الأعمال التي شرقي الفرات، وكان الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود عند زنكي، وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أن هذه البلاد لهذا الملك. وكان ألب أرسلان في هذه السنة بالموصل، ونصير الدين يحضر إلى خدمته في كل يوم، فحسن له بعض المفسدين طلب الملك وقالوا له: « إن قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها، ولايبقى مع أتابك زنكي فارس واحد» ، فمال إلى ذلك، فلما دخل نصير الدين إليه وثب إليه من عنده فقتلوه، وألقوا رأسه إلى أصحابه، ظنا منهم أنهم يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلاد، فلما رأى أصحابه الرأس قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير، فدخل القاضي تاج الدين يحيى بن الشهرزوري إلى الملك ألب أرسلان وخدعه، وكان فيما قاله حين رآه منزعجا: « ياMولانا لم تحرد من هذا الكلب؟ هو وأستاذه مماليكك ، الحمد لله الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يديك»، ثم قال له: « وما الذي يقعدك في هذه الدار؟ قم لتصعد إلى القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملك البلد، وتجمع الجند وليس دون البلاد بعد الموصل مانع»، فقام معه وركب وأصعده إلى القلعة، فلما قاربها أراد من بها من النقيب والأجناد القتال، فتقدم إليهم القاضي تاج الدين فقال:« افتحوا الباب وتسلموه وافعلوا ما أردتم» ففتحوا الباب ودخل الملك والقاضي إلى القلعة ومعهما من أعان على قتل نصير الدين. فلما صاروا بالقلعة سجنوا كلهم إلا القاضي.

وبلغ الخبر عماد الدين وهو يحاصر قلعة البيرة ، وقد أشرف على فتحها، فخاف أن تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين، ففارق

البيرة وأرسل زين الدين علي بن بكتكين إلى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه. وسار عماد الدين عن البيرة، فخاف من بها من الفرنج أن يعود إليهم، فسلموها لصاحب ماردين. وملكها المسلمون. فإن لم يكن عماد الدين زنكي فتحها، فهو سبب فتحها.

ذكر مقتل عماد الدين زنكي

كان مقتله رحمه الله لخمس مضين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وذلك أنه كان يحاصر قلعة جعبر، وكانت بيد سالم بن مالك العقيلي منذ سلمها السلطان ملكشاه إلى أبيه، عوضا عن قلعة حلب كما تقدم في أخبار السلجقية. فحاصرها عماد الدين الآن وأقام عليها إلى هذا التاريخ، فدخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة، وهربوا إلى القلعة ولم يشعر أصحابه. فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها بالعسكر، وأعلموهم بقتل صاحبهم، فبادر أصحابه إليه فأدركوه وبه رمق. ثم مات رحمه الله تعالى وكان عمره نحوا من أربع وستين سنة، ومدة ملكه منذ ولي الموصل وإلى أن قتل عشرين سنة.

وكان حسن الصورة أسمر اللون ، وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة لايقدر القوي معه على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم، وتنقل الولاة ، ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلأت بأهلها وغير أهلها، وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: « مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم إلى أملاك؟ فإن خرجت عن أيدينا فالأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية، وتعدوا عليهم، وغصبوهم أملاكهم، والإقطاعات تغني أصحاب السلطان عنها. وخلف من الأولاد سيف الدين غازي وهو أكبر أولاده ونور الدين محمود وهو الملك العادل، وقطب الدين مودود، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصير الدين أمير

أميران. فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والإناث، ونور الدين من الذكور، وبقي في عقب قطب الدين، على ما نذكر إن شاء الله تعالى.

قال: ولما قتل أتابك زنكي كان ولده نور الدين محمود معه، فأخذ خاتمه من يده، وسار إلى حلب فملكها، وسنذكر أخباره مفصلة بعد سيف الدين غازي، والله أعلم.

ذكر ملك سيف الدين غازي ابن الشهيد عماد الدين أتابك زنكي

قال: لما قتل أتابك زنكي كان الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود معه، فاجتمعت العساكر عليه، وكان الحاكم على دولة زنكي والمدبر لها من أرباب الأقلام جمال الدين محمد بن علي بن منصور الأصفهاني شبه الوزير، ومعه الحاجب صلاح الدين محمد بن أيوب الياغسياني فاتفقا على حفظ الملك لأولاد صاحبهم عماد الدين وتحالفا على ذلك، وركبا إلى خدمة الملك ألب أرسلان، وخدماه وضمنا له فتح البلاد.وقالا له : « إن أتابك زنكي إنما كان الناس يطيعونه لأنه كان نائبك» فقبل منهما ذلك وظن صدقهما ومناصحتهما وقربهما، وأرسلا إلى زين الدين علي بن مظفر الدين صاحب إربل بالموصل يعرفانه بوفاة الشهيد ويأمرانه أن يرسل إلى ابنه سيف الدين غازي ليحضر إلى الموصل، وكان بشهرزور وهي إقطاعه من قبل أبيه، ففعل ذلك ووصل إلى الموصل، وأشار جمال الدين على الملك بإرسال الحاجب صلاح الدين إلى حلب ليدبر أمر نور الدين فأمره بالمسير إليها فسار، وكانت حماه إقطاعه، وانفرد جمال الدين بالملك ألب أرسلان فقصد به الرقة، واشتغل بالشرب واللهو واستمال جمال الدين العسكر، وحلفهم لسيف الدين غازي، وصار يأمر من تخلف بالمسير إلى الموصل هاربا من الملك، وبقي جمال الدين يسير بالملك من الرقة إلى سنجار، ويخذله ويطمعه، ومازال حتى انتهى به إلى

الموصل. وأرسل الأمير عز الدين الدبيسي إلى الملك في عسكر، والملك في نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان آخر العهد به. فاستقر أمر سيف الدين بالموصل واستوزر جمال الدين، وأرسل إلى السلطان مسعود في إمرة الموصل فأمره على البلاد ، وأرسل له الخلع ، وكان سيف الدين قد تقدمت له خدمة على السلطان مسعود ولازمه سفرا وحضرا في أيام زنكي.

قال: ولما استتب الأمر لسيف الدين غازي بالموصل عبر إلى الشام لينظر في أمور البلاد، ويقرر قاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، ولما عبر الفرات لم يحضر نور الدين إليه وخافه فراسله واستمالـه بحسن سياسته، فاستقرت الحال بينهما أن يجتمعا خارج العسكر السيفي، وكل منهما في خمسمائة فارس. فسار نور الدين يوم المعياد من حلب بهذه العدة، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلما رآه نور الدين ترجل وقبل الأرض، وأعاد أصحابه فاجتمعا وتحالفا واتفقا أحسن اتفاق، واستقر نور الدين بحلب وما معها، وسيف الدين بالموصل وما معها.

ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعله سيف الدين غازي

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وصل ملك الألمان في جمع كثير من الفرنج، وعزم على ملك الشام، وظن أنه يملكه لامحالة لكثرة أصحابه واجتمع عليه من بالشام والسواحل من الفرنج. ووصل إلى دمشق وحاصرها، ونزل الميدان الأخضر، فأيقن أهلها بخروجها عن الإسلام. وكان ملكها يوم ذاك مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغدكين ، وليس له من الأمر شيء والحكم في البلد لأتابكه معين الدين مملوك جد أبيه، فأرسل إلى سيف الدين غازي يستنجده، فجمع عساكره والعساكر الحلبية، وسار إلى دمشق، فخافه الفرنج. ثم راسل فرنج الساحل ووعدهم بحصر بانياس، فاجتمعوا بملك الألمان وقالوا له: « إن هذا

ملك بلاد المشرق قد قدم» وخوفوه عاقبة أمره، فرحل ملك الألمان إلى بلاده، وتسلم الفرنج بانياس، كما وقع الاتفاق عليه، وعاد سيف الدين إلى الموصل.

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي

كانت وفاته في أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة بالموصل لمرض حاد، ودفن بمدرسته التي بناها بالموصل. فكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما، وعمره نحوا من أربع وأربعين سنة، وخلف ولدا ذكرا رباه عمه نور الدين محمود أحسن تربية، وزوجه بابنة عمه قطب الدين، ولم تطل مدته، ومات في عنفوان شبابه، وانقرض عقب غازي بوفاته.

قال: وكان سيف الدين غازي يمد لعسكره في كل يوم سماطا كبيرا، طرفي النهار يكون في سماطه للغذاء مائة رأس من الغنم. وأمر الأجناد أن يركبوا بالسيوف والدبابيس، فاقتدى به أصحاب الأطراف ، وهو أول من حمل على رأسه السنجق من عمال الأطراف، وبنى المدرسة الأتابكية العتيقة بالموصل، ووقفها على طائفتي الشافعية والحنفية، وبنى رباط الصوفية بالموصل، ولم تطل أيامه حتى يفعل ما في نفسه من وجوه البر، رحمه الله. وسنذكر إن شاء الله تعالى من ملك الموصل بعده، إذا انقضت أخبار الشهيد نور الدين وولده.

ذكر أخبار الملك العادل نور الدين أبي القاسم محمود ابن أتابك عماد الدين أبي سعيد زنكي بن أقسنقر

قد ذكرنا أنه لما مات والده رحمه الله في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، توجه بخاتمه إلى حلب وملكها، وذكرنا أيضا ما كان بينه وبين أخيه سيف الدين غازي رحمه الله، وما اتفقا عليه، فلنذكر من

أخباره خلاف ذلـك. ولنبدأ بغزواته وفتوحـاته ، ثم نذكر مـا استولى عليه من الممالك وغير ذلك.

ذكر الغزوات والفتوحات النورية وما استنقذه من أيدي الفرنج

ذكر عصيان مدينة الرها وفتحها الفتح الثاني ونهبها

قال: لما قتـل أتابك زنكـي كان جوسلين الفرنجـي صاحب الـرها في ولايته وهـي تل بـاشر، فراسـل عامة أهـل الرهـا من الأرمـن وحملهم على العصيان والامتناع على المسلمين، فأجابـوه إلى ذلك، فسار في عساكره إلى الرهـا وملك البلد، وامتنعـت عليه القلعة بمن فيهـا. فسار نور الـدين ، وجد السير إليها، فلما قـاربها هرب جوسلين عنها، وعـاد إلى بلده، ودخل نور الدين البلد، ونهب المدينة، وسبى أهلها، فخلت منهم ولم يبق بها إلا القليل، وذلك في سنـة إحدى وأربعين وخمسمائة. وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة،فتح مدينة ارتـاح بالسيف، ونهبها ، وحصن ما بـوله وبصرفوث وكفر لاثـا، وكان الفـرنج بعـد قتل أتـابك زنكـي قد طمعـوا وظنوا أنهم يستردون ما أخذ منهم فخاب ظنهم.

ذكر فتح حصن العريمة

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فتح حصن العريمة، وهو من أعمال طرابلـس. وكان ملـك الألمان لما سار عـن دمشق وجـه إلى العريمـة ولد ألفنش صـاحب طليطه، وهـو من أولاد أكابر ملـوك الفرنج، وكـان جده هو الذي فتـح طرابلس، فملك العريمـة، وأظهر أنه يريد أخـذ طرابلس من القمص، فأرسـل القمص إلى نور الدين، وإلى معين الديـن صاحب دمشق أن يقصدا حصـن العزيمة ويملكاه. فسـار نور الدين مـن حلب

ومعين الديـن من دمشق واستمـد سيف الديـن غازي، فأمـدهما بعسكر كثيف مـع الأمير عز الدين الـدبيسي، صاحب جـزيرة ابن عمر، فنـازلوا الحصن، وحصروه وبـه ولد ألفنش، فاستسلـم من به بعد امتنـاع، وملكه المسلمون، وأخذوا كل من فيه من فـارس وراجل وصبي وامرأة. وكان ولد ألفنش ممن أسر وأخربوا الحصن ثم عادوا.

ذكر انهزام الفرنج بيغرى

وفي سنـة ثلاث وأربعين أيضـا، اجتمع الفـرنج لقصـد حلب، فسـار إليهم الملـك العادل نـور الديـن بعسكره، فـالتقوا بيغـرى، واقتتلوا قتـالا شديـدا، أجلت الحروب عـن ظفر الملـك العادل ، وانهزام الفـرنج وأسر جماعـة من مقـدميهم. ولم ينـج مـن ذلك الجمـع إلا اليسير. وأرسل نـور الديـن من الغنيمة والأسارى إلى أخيـه سيف الدين وإلى الخليفـة ببغداد وإلى السلطان مسعود وغيرهـم . وفي هذه الوقعة يقـول ابن القيسراني من قصيدة أولها:

يــــاليـــــت أن الصــــــد مصــــــدود
أو لا فليـــــــت النــــــوم مــــــردود

جاء منها:

وكيـــف لا نثنـــي على عيشنـــا المحمــــــ
ـــــــمود والسلطـــــان محمـــــــود
وصـــــارم الإســــــلام لا ينثنـــــي
إلا وشلـــــو الكفـــــر مقـــــدود
مكـــــارم لم تـــــك مـــــوجـــودة
إلا ونـــور الـــديـــن مـــوجـــود
وكـــم لـــه مـــن وقعـــة يـــومهـــا
عنـــد ملـــوك الكفـــر مشهـــود

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة، غزا نور الدين بلاد الفرنج، من ناحية أنطاكية، وقصد حصن حارم وهو للفرنج، وحصره وخرب ربضه، ونهب سواده ثم رحل إلى حصن إنب فحصره، فاجتمعت الفرنج لقتاله مع البرنس، واقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم الفرنج وقتل البرنس وجماعة كثيرة من أصحابه، وأسر خلق كثير، وكان البرنس من عتاة الفرنج، ولما قتل ملك بعده أنطاكية ابنه بيمند، ثم غزاهم نور الدين غزوة ثانية، فقتل وأسر، وكان ممن أسر البرنس الثاني زوج أم بيمند صاحب أنطاكية، وكان قتل البرنس عظيما عند الطائفتين، وأكثر الشعراء مدح نور الدين بهذا الظفر، فكان ممن قال فيه ابن القيسراني الكاتب قصيدته المشهورة وهي:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللائي متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب

ما زال جدك يبني كل شاهقة
حتى بنى قبة أوتادها الشهب

أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب

ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت لها الصلب

طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب

ذكر فتح حصن أفامية

وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة فتح الملك العادل نـور الدين حصن أفـامية مـن الفـرنـج، وهو مجاور شيـزر وحماة، وهـو مـن أحصن القـلاع وأمنعها، فاجتمع الفـرنج من الساحل وساروا نحـوه ليرحلوه، فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملأه من الذخائر والسـلاح وشحنة بالرجال، وسار عنه في طلب الفرنج، فعدلوا عن طريقه وسألوه الهدنة، وعاد مظفراً منصورا.

ذكر أسر جوسلين وفتح بلاده

كان نور الدين قد جمع عسـاكره في سنة ست وأربعين وخمسمائة، وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي وهـي شمالي حلب، وعزم على محاصرتها، وكان جوسلين فارس الفرنج وطاغيتهم، صاحب رأي وشجاعة، فجمع وأكثر ، وسار نحو نور الدين والتقـوا واقتتلوا،فكانت الهزيمة على المسلمين، وقتل كثير منهم، وأسر سلحدار نور الدين فيمـن أسر، فأخذ جوسلين سلاحه، وأرسله إلى الملـك مسعود بـن قلج صـاحب الـروم، وقال: « هـذا سلاح زوج ابنتك وسآتيك بعده بما هو أعظم منه» فـأهم نور الدين ذلك وعظم عليه، وعلـم أنه لايتمكن مـن جوسلين في حرب، لأنـه إما أن يحارب أو يحتمـي بحصونـه. فجعل عليـه العيون مـن التركمان، ووعدهـم إن أسروه وأتوا به أو برأسه بمواعيـد كثيرة. فرصدوه إلى أن خرج إلى الصيد، وأسروه فصـالحهـم على مال يـؤديـه إليهـم، فسير في إحضار المال إليهـم فجـاء بعضهم إلى أبي بكر بن الداية، نائب نور الدين بحلب، وأخبره بالقضية، فسير عسكرا مع مـن حضر إليه بالخبر، وكبس التركمان وأخـذوا جوسلين أسيرا. وكان من أعظم الفتوحات، وأصيبت النصرانية كافة بأسره.

ولما أسر سار نـور الديـن إلى قلاعـه فملكها، وهـي : تل بـاشر، وعين تاب، وأعزاز، وتل خـالد، وقورس، والراوندان، وبرج الـرصاص، وحصن

البارة، وكفر سود، وكفر لاثا، ودلوك، ومرعش، ونهر الجوز، وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة. واجتمع الفرنج في سنة سبع وأربعين، وحشدت الفارس والراجل، وساروا نحو نور الدين وهو بدلوك ، فلما قربوا منه رجع إليهم واقتتلوا قتالا شديدا كان الظفر له وقتل وأسر منهم، وعاد إلى دلوك فملكها، وكان نور الدين إذا فتح حصنا من هذه الحصون شحنه بما يحتاج إليه من الرجال والسلاح والذخائر وغيرها.

ذكر حصر قلعة حارم وفتحها

وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حصر نور الدين قلعة حارم وشدد الحصار، فصالحه الفرنج على نصف أعمال حارم، وصالحهم ورحل عنهم، ثم فتحها في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

ذكر ملكه بانياس وما قرره على طبرية وأعمالها

وفي سنة تسع وخمسين ملك حصن بانياس، وكان بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، كما قدمنا، فنازله، فجمع الفرنج لقصده، فلم يكمل جمعهم إلا وقد ملك الحصن وشحنه بالرجال والذخائر، ثم شاطر الفرنج على أعمال طبرية، وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرهم عليها في كل سنة مالا يحملونه إليه ، والله أعلم.

ذكر فتح المنيطرة

والمنيطرة فيما بين طرابلس وبعلبك، وهي الآن من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية، فلما كان في سنة إحدى وستين وخمسمائة، سار نور الدين إليها جريدة، وملكها وأعجل الفرنج عن الاجتماع لرده، وسبى وغنم، فجاء الفرنج بعد أن ملكها فأيسوا منها، ورجعوا عنها، والله أعلم.

ذكر فتح صافيتا وعريمة

وفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة جمع نور الدين العساكر وسار إليه أخوه قطب الدين من الموصل واجتمعا على حمص، فدخل بالعساكر إلى بلاد الفرنج بالساحل واجتاز على حصن الأكراد، فأغاروا ونهبوا وسبوا. وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها، وحصروا جبلة وأخذوها وخربوها. وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرب، وفتحوا العريمة ، وصافيتا، وعادوا إلى حمص فصاموا بها شهر رمضان، وكان الفرنج في سنة ثمان وأربعين قد كبسوا عسكر نور الدين بالبقيعة على حين غفلة من العسكر، فنالوا من المسلمين منالا عظيما، فجعل نور الدين في مقابلة ذلك فتح حارم وبانياس والمنيطرة وصافيتا وعريمة وتخريب بلادهم، وأدرك ثأره عن غير بعد.

ثم سار بعد شهر رمضان إلى بانياس، وقصد العبور إلى بيروت، فجرى بين العسكر اختلاف أوجب رجوعه، وأعطى قطب الدين في هذه السنة الرقة، وأعاده إلى بلده. هذا ما فتحه رحمه الله من بلاد

الفرنج، فلنذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية.

ذكر ما استولى عليه من البلاد الاسلامية

في سنة أربع وأربعين وخمسمائة، استولى الملك العادل على سنجار، وكانت بيد أخيه قطب الدين، ملكها بعد وفاة سيف الدين غازي، ثم حصل الاتفاق بينهما على أن يكون نور الدين صاحب حلب وحمص والرحبة والشام، وقطب الدين بالموصل وديار الجزيرة ، وسلم سنجار لأخيه قطب الدين ، وأخذ نور الدين ما كان من الذخائر بسنجار، وكانت كثيرة جدا، وعاد إلى حلب وقد حصل الاتفاق بينه وبين أخيه.

- ١٠٤٢٨ -

ذكر ملكه مدينة دمشق

وفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة ملك دمشق من مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغدكين، وسبب قصده لها أن الفرنج ملكوا في السنة التي قبل هذه السنة مدينة عسقلان، واستولوا على تلك النواحي، فلم يتمكن نور الدين من غزوهم ودفعهم، لأن دمشق تحول بينه وبينهم. ولم تمكنه مفاجأة صاحبها لعلمه أنه إن سار إليها راسل صاحب دمشق الفرنج واستنجد بهم. وكان قد استقر لهم ضريبة على دمشق تحمل إليهم في كل سنة ، ويحضر رسلهم لقبضها، فزاد استيلاؤهم إلى أن أخذوا كل من فيها من الغلمان والجواري، بحيث أنهم يطلبون الغلام أو الجارية ويخيروه، إن اختار الرجوع إليهم أخذوه، اختار مولاه أو امتنع؛ وإن اختار المقام عند مواليه تركوه. فأهم ذلك نور الدين ، وخاف أن الفرنج متى استولت على دمشق ملكوا الشام أجمع، فأخذ في إعمال الحيلة وراسل مجير الدين صاحبها وهاداه وداهنه واستماله، وبقي يوقع بينه وبين أمرائه، فكتب إليه يقول: « إن فلانا الأمير قد كاتبني في تسليم دمشق»، فقبض عليه مجير الدين حتى اختل أمر عسكره وضعف. ثم راسل نور الدين الأحداث من الأمراء بدمشق، ووعدهم الجميل، فمالوا إليه ووعدوه بتسليمها له،فسار إليها. فلما نازلها كاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم بعلبك ليمنعوا نور الدين عنه، فحشدوا فارسهم وراجلهم، فلم يتكامل جمعهم إلا وقد ملك نور الدين دمشق، سلمها له الأمراء، ودخلها من الباب الشرقي. وتحصن صاحبها بالقلعة، فبذل له نور الدين حمص، فرضي وسلم القلعة وسار إلى حمص، ثم عوضه عن حمص مدينة بالس فامتنع، وتوجه إلى بغداد ومات بها.

وفي سنة اثنتين وخمسين ، ملك نور الدين حصن شيزر من آل منقذ، وكانت الزلزلة قد هدمت أسواره،فعمرها والله أعلم.

ذكر ملكه بعلبك

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ملك بعلبك وقلعتها وكانت بيد إنسان يقال له ضحاك البقاعي، منسوب إلى البقاع البعلبكي، كان صاحب دمشق قد ولاه إياها، فلما ملك نور الدين دمشق لم تمكنه مشاححته لقربه من الفرنج، فطاوله إلى الآن وملكها منه.

ذكر ملكه قلعة جعبر

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة ملك قلعة جعبر من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي وكانت بيده وبيد آبائه كما تقدم، وكان السبب في ملكه لها أن صاحبها سار إلى الصيد، فأسره بنوكلاب وجاؤوا به إلى نور الدين في شهر رجب سنة ثلاث وستين، فاعتقله نور الدين وأكرمه في اعتقاله. وأخذ في طلبها باللين، فلم يوافق على إعطائها، ثم أخذه بالشدة فلم يوافق، فسير الجيوش لحصرها، فحوصرت مدة فلم يظفر منها بطائل، فعاود صاحبها بالملاطفة، وعوضه عنها سروج وأعمالها والملاحة التي من بلد حلب، وباب بزاعه، وعشرين ألف دينار معجلة، فقبل العوض وسلم القلعة، وهذه القلعة في عصرنا هذا إلى سنة أربع عشرة وسبعمائة خرابا لاباب عليها والله أعلم.

ذكر ملكه الديار المصرية

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة ملك أسد الدين شيركوه الديار المصرية بجيوش الملك العادل نور الدين، وهي السفرة الثالثة له إليها من قبل نو ر الدين ، ونذكر ذلك مفصلا في أخبار الدولة الأيوبية، ودامت الخطبة بها للملك العادل مدة حياته، وصدراً من أيام ولده الملك الصالح إسماعيل.

ذكر ملكه الموصل

وفي سنة ست وستين وخمسمائة ملك الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين، وأقر عليها سيف الدين غازي بن قطب الدين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار غازي. وأطلق نور الدين سائر المكوس بالموصل وبسائر البلاد، وجاءته الخلع من الخليفة المستنصر بالله ، فلبسها، ثم خلعها على سيف الدين غازي ابن أخيه، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني وأقام بالموصل عشرين يوما وعاد إلى الشام.

ذكر وفاته رحمه الله وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاة الملك العادل نور الدين محمود في حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، بعلة الخوانيق، ولقب بعد موته بالشهيد، ومولده في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فيكون عمره نحوا من ثمان وخمسين سنة، ومدة ملكه منذ وفاة أبيه ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر وستة أيام، ومن العجب أنه ركب إلى الميدان الأخضر بدمشق في ثاني شوال، ونصب فيه قبقا[٤] فسايره حسام الدين مودود، وقال له: « أترى هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم من العام المقبل؟» فقال له نور الدين : « لاتقل هكذا ، قل : هل نكون ههنا بعد شهر؟ فإن السنة بعيدة» ورجع إلى القلعة ، وختن ابنه وأصابته العلة، فمات بعد عشرة أيام. ومات الأمير حسام الدين قبل استكمال الحول، ودفن نور الدين بقلعة دمشق، ثم نقل إلى مدرسته التي بناها بجوار سوق الخواصين بدمشق وقبره هناك مشهور.

وأما سيرته وأفعاله رحمه الله تعالى فإنه أفرغ وسعه في الجهاد، واستنقذ من أيدي الفرنج ما ذكرناه، وكان ثابتا في حروبه، وبنى: المدارس، والمساجد، والربط، والبيمارستانات، والخانات، والطرق، والجسور، وجدد القني وأصلحها، وأوقف الوقوف على معلمي الخط لتعليم الأيتام، وعلى

سكان الحرمين الشريفين، وأقطع أمراء العرب الإقطاعات حتى كفوا عن التعرض إلى الحاج، وبنى أسوار المدن والحصون التي هدمتها الزلزلة التي ذكرناها في أخبار الدولة العباسية، وكان رحمه الله مواظبا على الصلاة في الجماعة، حريصا على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصدا في الإنفاق والمطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في سخطه وعاقب على شرب الخمر.

قال الشيخ عز الدين أبو الحسن علي بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير رحمه الله: « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه» قال: وكان رحمه الله لايفعل فعلا إلا بنية حسنة، كان بالجزيرة رجل من الصالحين العباد، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله فيرجع إلى قوله، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالأكرة، فكتب إليه يقول: « ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة؟»، فكتب إليه نور الدين بخطه يقول « والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر، العدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع الصوت فنركب في الطلب، ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا، إذ لابد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جمامها، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة».

قال: وحكي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة ، فلم يحضرها عنده، فوصفت له، فلم يلتفت إليها، فبينما هم معه في حديثها إذ جاءه رجل صوفي فأمر له بها. فقيل له إنها لاتصلح

لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له. فقال: « أعطوها له، فانني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة»، فسلمت إليه، قيل والذي أعطيها شيخ الصوفية عماد الدين بن حموية، فبعثها إلى همذان، فبيعت بألف دينار.

قالوا :وكان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث وأسمعه، وكان يعظم الشريعة المطهرة، ويقف عند أحكامها، فمن ذلك أنه كان يلعب بالكرة عند دمشق، فرأى إنسانا يحدث آخر ويومىء إليه بيده، فأرسل يسأله عن حاله، فقال: « لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني»، فلما قيل ذلك له ألقى الجوكان من يده، وخرج من الميدان وتوجه إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وأرسل إليه يقول: « إني قد جئت في محاكمة فاسلك معي ما تسلكه مع غيري.» فلما حضرا، ساوى خصمه وحاكمه، فلم يثبت قبله حق، وثبت الحق لنور الدين. فعند ذلك أشهد على نفسه أنه وهب الملك للذي حاكمه، وقال: « كنت أعلم أن لاحق له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يظن بي أني ظلمته، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له».

قال: وهو أول من بنى دار الكشف وسماها دار العدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع يومين، وعنده القاضي والفقهاء لفصل الحكومات بين القوي والضعيف، وكان شجاعا حسن الرأي والمكيدة في الحرب، عارفا بأمور الأجناد، وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين[5] وباشر القتال بنفسه. وكان يقول: « طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها».

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده. كان إذا توفي أحدهم وخلف ولدا، أقر الإقطاع عليه، فإن كان كبيرا استبد بتدبير نفسه، وإن كان صغيرا رتب معه رجلاً عاقلا يثق إليه ويتولى أمره إلى أن

يكبر، فكان الأجناديقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سببا عظيما للنصر في المشاهد والحروب. قال: وبنى أسوار مدن الشام وقلاعها، فمنها: حلب، وحماه، وحمص، ودمشق، وبارين، وشيزر، ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وأخرج عليها الأموال الكثيرة التي لاتسمح النفوس بمثلها، وبنى المدارس بحلب، وحماه ودمشق، وغيرها. وبنى الجوامع في كثير من البلاد، فمنها جامعه بالموصل، إليه النهاية في الحسن والإتقان، وفوض عمارته والخرج عليه للشيخ عمر الملاء، وكان من الصالحين، فقيل له إنه لايصلح لمثل هذا العمل، فقال: « إذا وليت بعض أصحابي من الأجناد والكتاب، أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات، فلا يفي عمارة الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايظلم، فإن ظلم كان الاثم عليه لا علي»، وبنى أيضا بمدينة حماه جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم بسبب زلزلة وغيرها، وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها وأشهرها البيمارستان الذي بناه بدمشق، وقفه على كافة المسلمين من غني وفقير، وبنى الربط والخانقاهات للصوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وأدر عليهم الإدرارات الصالحة.

قال: وكان قد ضبط ناموس الملك إلى غاية لامزيد عليها، فكان يلزم الأجناد بوظائف الخدمة، ولايجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس، إلا نجم الدين أيوب، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه وغيره، فإنهم كانوا يقفون حتى يأمرهم بالجلوس، وكان مع ذلك إذا دخل عليه الفقير والصوفي والفقيه يقوم له ويجلسه إلى جانبه. وكان إذا أعطى أحدهم شيئا يقول إن هؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا.

ولم يزل الناس معه في غاية الأمن والخير والبركة والنمو والإحسان

والعـدل والبر، وإظهار السنـة، وقمـع البـدعة إلى أن تـوفي إلى رحمة اللـه تعالى.

ذكر أخبار الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين أتابك زنكي بن أقسنقر

ملـك بعــد وفـاة والـده في حــادي عشر شـوال سنــة تسـع وستين وخمسمائة. وحلف لـه الأمراء وأطـاعه الناس في سـائر البلاد وخطـب له الملك النـاصر صلاح الـدين يـوسف بـالديـار المصرية، ولم يكـن الملك الصالح إذ ذاك قد بلغ الحلم، وتولى تـربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم.

قـال العماد الأصفهاني الكـاتب: وورد كتـاب صـلاح الديـن بالمثـال الفاضلي معزيـا للملك الصالح وفي آخـره: «.وأما العدو خذلـه الله تعالى فـوراءه من الخادم مـن يطلبـه طلب ليـل لنهـاره، وسيل لقـراره ، إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقفه عن مـواقف مغانمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريـم، وأيسر لوازمه. أصدر هذه الخدمة يـوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة، وهو اليـوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسـم الكريم، وصرح فيه بذكره في الموقـف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تـأثيم، وأشبه يـوم الخادم أمسه في الخدمـة، وفيما لزمـه من حقـوق النعمة، وجمع كلمـة الاسلام عالما أن الجماعة رحمة».

قال: ولما بلغ سيـف الدين غازي بن قطب مـودود وفاة عمه، استبشر لذلـك، ونادى بالموصل بـالفسحة في الشرب واللهو، وكان الخبر قـد أتاه وهو سائر إلى خـدمة عمه نور الـدين، فإنه كـان قد استدعاه بـالجيوش، فعاد وهـرب سعد الدين كمشتكين، على مـا نذكره إن شاء اللـه تعالى في أخبـار سيف الـديـن غازي مبينـاً، قال: ولمـا اتفق ذلـك منه لم يكتـب

الجماعة الذين في خدمة الملك الصالح إلى صلاح الدين يوسف بالخبر، خوفا أنه إذا بلغه ذلك قصدهم، واستولى على الملك الصالح وأبعدهم، فشق ذلك عليه، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: وأقام الملك الصالح بدمشق وجماعة الأمراء عنده لم يمكنوه من المسير إلى حلب، لئلا يغلبهم عليه شمس الدين بن الداية، ويختص بخدمته، فإنه كان من أكبر الأمراء النورية. ولما وصل كمشتكين من الموصل إلى حلب أحسن إليه الأمير شمس الدين ابن الداية، وأكرمه ، وجهزه إلى دمشق لإحضار الملك الصالح منها إلى حلب، وجهز معه العساكر. فلما قارب دمشق سير الأمير شمس الدين محمد بن المقدم عسكرا إليه، فهزموه. ونهبوا ما معه،فعاد إلى حلب منهزما، فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه، ثم نظر أمراء دمشق المصلحة، فعلموا أن مسيره إلى حلب أجود من مقامه بدمشق. فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون سعد الدين كمشتكين ليأخذ الملك الصالح، فجهزه إليهم، فسار إلى دمشق في المحرم سنة سبعين وخمسمائة، فأخذ الملك الصالح وعاد به إلى حلب. فلما وصل إليها ، قبض سعد الدين على ابن الداية وإخوته، وعلى الرئيس ابن الخشاب رئيس حلب، ومقدم الأحداث بها.

واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح، فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء بدمشق أن سعد الدين يسير إليهم ويفعل بهم كما يفعل بابن الداية، فراسل سيف الدين غازي بن مودود في الحضور من الموصل ليتسلم دمشق، فخشي غازي أن تكون مكيدة فلم يحضر، فراسله سعد الدين ، واتفق الحال على أن يستقر بيده ما استولى عليه من الأعمال الجزيرية. فقال أمراء دمشق : حيث صالح سيف الدين، لم يبق له مانع من المسير إلى دمشق .فراسلوا الملك الناصر صلاح الدين في الحضور من مصر ليتسلمها، فوصل إليها ، وتسلمها، وملك حمص وحماه وبعلبك. ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وأظهر أنه إنما حضر لخدمته،

واسترجاع ما استولى عليه سيف الدين غازي وغيره من الأعمال الجزيرية. ثم كان بينه وبين العسكر الحلبي من الحروب ما نذكره في أخبار الدولة الأيوبية، إلى أن أحوجوه إلى الاستقلال بالأمر والخطبة لنفسه وملك البلاد.

ذكر مقتل سعد الدين كمشتكين وحصر الفرنج حارم

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، قبض الملك الصالح على سعد الدين، وهو المتولي على أمر دولته، والحاكم فيها. وسبب ذلك أن أبا صالح بن العجمي كان من أكابر حلب، وكان مقدما عند نور الدين، وتقدم عند ولده وأطاعه الناس، وكثرت أتباعه، فوثب عليه بعض الباطنية بالجامع فقتله، فنسب ذلك لسعد الدين فوشوا به عند الملك الصالح، فقبض عليه. وكانت حارم اقطاعه، فامتنع من بها من تسليمها، فسيره الملك الصالح تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها، فأمرهم فلم يرجعوا إلى قوله، وعذب وهم ينظرون إليه إلى أن مات تحت العقوبة. فبلغ الفرنج ذلك، فنازلوا قلعة حارم ونصبوا عليها المجانيق، فصالحهم الملك الصالح على مال ففارقوها، وتسلمها بعد حصار ثان، ورتب فيها من المماليك النورية من يحفظها.

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل

كانت وفاته لخمس بقين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وابتدأت علته في تاسع الشهر، وكان مرضه القولنج ومات وله من العمر تسع عشرة سنة، وقيل في سبب وفاته إن علم الدين سليمان بن جندر سقاه في عنقود عنب وهو في الصيد؛ وقيل بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب، فعظم موته على سائر الناس، وحزنوا لفقده حزنا شديدا.

قال ابن الأثير: ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر للتداوي، فاستفتى الفقيه علاء الدين الكاشاني، وأفتاه بجواز شربها، فقال: « إن كان الله قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟» فقال: لا والله فقال: « والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه علي» ومات رحمه الله ولم يشربها.

ولما أيس من نفسه أحضر الأمراء والأجناد في الثالث والعشرين من شهر رجب وأوصاهم بتسليم البلد لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، واستحلفهم على ذلك، فقال بعض أصحابه:إن عز الدين ملك الموصل وله ما يكفيه ولو أوصيت بها لابن عمك عماد الدين زنكي فإنه تربية والدك، وزوج أختك، وليس له غير سنجار؟ . فقال: « إن هذا لم يغب عني، ولكن قدعلمتهمأن صلاح الدين قد تمكن . وتغلب على عامة البلاد الشامية، ومتى كانت حلب لعماد الدين عجز عن حفظها وعز الدين يحفظها، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام، فاستحسن الناس ذلك منه، وعجبوا من جودة رأيه مع صغر سنه، وأن مرضه لم يشغله عن حسن اختياره. ثم مات رحمه الله.

وكان عفيف اليد والفرج واللسان، لايعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب، حسن السيرة، عادلا في رعيته. وبوفاته انقرض عقب نور الدين المذكور.

ولنرجع إلى ذكر ملوك الموصل الذين ملكوا بعد وفاة سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي.

ذكر أخبار قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وذلك أنه لما مات سيف الدين غازي اجتمعت كلمة الوزير جمال الدين الأصفهاني، وزين الدين علي أمير الجيش على تولية قطب الدين طلبا للسلامة، فاستحلفوه وحلفوا له، وركبوه إلى دار السلطان، وأطاعه سائر البلاد التي كانت تحت يد أخيه، وتزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين. وكان سيف الدين غازي قد تزوجها ولم يدخل بها، فتزوجها قطب الدين وهي أم أولاده الملوك.

قال: ولما ملك قطب الدين كان نور الدين بحلب، وهو أكبر منه، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه، فسار إليهم، وقصد انتزاع الملك من أخيه قطب الدين، ثم اتفقا وعاد نور الدين إلى حلب، وشهد قطب الدين بعض الحروب مع أخيه نور الدين، كما ذكرناه في أخبار نور الدين.

ذكر القبض على الوزير جمال الدين محمد بن علي ابن المنصور الأصفهاني ووفاته وشيء من أخباره وسيرته

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة قبض قطب الدين على الوزير جمال الدين واعتقله، فتوفي في اعتقاله في شعبان سنة تسع وخمسين، ولعمري ما كان يستحق أن يعتقل، وهو الذي عمل على إثبات الملك في البيت الأتابكي بعد قتل الشهيد أتابك زنكي، على ما قدمنا في أخبار سيف الدين غازي.

قال ابن الأثير الجزري رحمه الله في تاريخه الكامل: حكى لي إنسان

صوفي يقال له أبو القاسم؛ كـان مختصا بخدمته في الحبس، قال: « لم يزل مشغولا في محبسـه بأمـر آخرتـه، وكان يقـول كنت أخشـى أن أنقل مـن الدست إلى القبر، فلما أن مرض قال لي في بعض الأيـام: يا أبا القاسم إذا جاء طـائر أبيض إلى الـدار فعرفني» قـال: « فقلت في نفسي قـد اختلط عقله» ، فلما كان الغـد أكثر السؤال عنه، وإذا طائر أبيـض لم أر مثله قد سقط، فقلت: « قد جاء الطائر»، فـاستبشر ثم قال: « جاء الحق»، وأقبل على الشهـادة، وذكر اللـه تعالى إلى أن تـوفي، فلما تـوفي طار ذاك الطـائر، فعلمت أنه رأى شيئا في معناه».

ودفن بالموصـل عند فتح الكرامـي رحمة الله عليهما نحو سنة،ثـم نقل إلى المدينة، فـدفن بالقـرب من حرم النبـي صلى اله عليه وسلـم في رباط بناه لنفسـه. وقال لأبي القاسـم: « بيني وبين أسـد الدين شيركـوه عهد : من مات قبـل صاحبه حمله إلى المدينـة، فدفنه بها في التربة التـي عملها، فإذا أنا مت فامض إليه وذكره».

فلما توفي سار أبـو القاسم إلى شيركوه في المعنى، فقال لـه شيركوه: كم تريـد»؟ فقال: « أريـد أجرة جمل يحملـه، وجمل يحملني وزادي» فـانتهره وقـال: « مثل جمال الـديـن يحمل هكـذا إلى مكـة» وأعطـاه مالا صـالحا ليحمـل معه جماعـة يحجون عـن جمال الـدين، وجماعـة يقرأون بين يـدي تابوته إذا حمل وإذا أنـزل عن الجمل، فإذا وصل إلى مدينـة يدخل أولئك القراءون ينـادون للصلاة عليه، فيصلى عليـه في تكريت، وبغـداد والحلة، وفيد، ومكة، والمدينة، وكان يجتمع له في كـل بلد من الخلق ما لا يحصى، ولما أراد الصلاة عليه بالحلـة صعد شاب على موضع مرتفـع وأنشد بأعلى

صوته:

سرى نعشـــه فـــوق الـــرقـــاب وطـــالما

سرى جـــوده فـــوق الـــركـــاب ونـــائلـــه

يمــــــر على الــــــوادي فتنثنــــــي رمــــــالــــــه
عليــــــه وبــــــالنــــــادي فتثنــــــي أراملــــــه

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم، وطافوا به حول الكعبة ، وصلوا عليه بالحرم الشريف، وبين قبره وقبر النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر ذراعا.

وأما سيرته رحمه الله فكان أسخى الناس، وأكثرهم بذلا للمال، رحيما بالخلق، متعطفا عليهم عادلا فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة، وبنى الحجر بجانب الكعبة، وزخرف الكعبة وأذهبها وعملها بالرخام. ولما أراد ذلك أرسل إلى المتقي لأمر الله هدية جليلة، وطلب منه ذلك، وأرسل إلى الأمير عيسى أمير مكة هدية كبيرة، وخلعا ثمينة، منها عمامة شراها بثلاثمائة دينار، حتى مكنه من ذلك، وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات، والدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعمان في طرق معمولة تحت الأرض، وأخرج على ذلك مالا كثيرا وكان يجري الماء في المصانع في كل سنة أيام الحج، وبنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم. وعلى فيد.

وكان يخرج على باب داره في كل يوم للصعاليك والفقراء مائة دينار أميري؛ هذا سوى الإدرارات والتعهدات للأئمة والصالحين وأرباب البيوت. ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس، فقبض قبل أن تكمل عمارته وبنى أيضا جسرا كذلك على النهر المعروف بالأرفاد، وبنى الربط. وقصده الناس من أقطار الأرض،

وكانـت صدقاتـه وصلاته مـن أقاصي خـراسان إلى حدود اليمـن، وكان يشتري الأسرى في كـل سنة بعشرة آلاف دينـار، هذا مـن الشام حسـب، سوى ما يشتري من الكرج.

وقال ابـن الأثير أيضا :حكى لي والـدي عنه قال: كثيراً مـا كنت أرى جمال الدين إذا قدم إليـه الطعام يأخذ منه ومن الحلـوى، ويتركه في خبز بين يديه. فكنت أنا ومن يراه نظـن أنه يحمله إلى أم ولده علي، فاتفق أنه في بعض السنين جاء إلى الجزيـرة مع قطب الدين، وكنـت أتولى ديوانها، وحمل جـاريته أم ولـده إلى داري لتدخـل الحمام، فبقيت في الـدار أيامـا، فبينما أنا عنده في الخيـام، وقد أكل الطعام فعل كما كان يفعـل. ثم تفرق النـاس فقمت فقـال: « أقعد» فقعـدت. فلما خلا المكـان قال لي: « قـد آثرتـك اليوم على نفسي، فـإنني في الخيـام ما يمكنبي أن أفعل مـا كنت أفعله، خذ هذا الخبز واحمله أنت في كمـك في هذا المنديل، واترك الحماقة من رأسـك ، وعد إلى بيتك، فإذا رأيـت في طريقك فقيراً يقـع في نفسك أنه مستحـق، فأقعـد أنت بنفسـك وأطعمه هـذا الطعام»،قـال: ففعلت ذلك، وكـان معي جمع كثير ففرقتهـم في الطريـق لئلا يروني أفعـل ذلك، وبقيـت في غلماني، فـرأيـت في مـوضـع إنسـانـاً أعمى وعنـده أولاد لـه وزوجتـه، وهم مـن الفقـر على حال شـديـد، فنزلـت عـن دابتي إليهـم وأخرجـت الطعام وأطعمتهم إياه، وقلـت للرجل تجيء غـدا بكرة إلى دار فلان، أعنـي داري ـ ولم أعرفـه نفسي ـ فإنني آخـذ لك من صـدقة جمال الديـن شيئا. ثـم ركبت إليه العصر، فلما رآني قـال: « ما الـذي فعلت في الذي قلـت لك؟» فأخـذت أذكر له شيئا يتعلـق بدولتهمّ فقـال :« ليس عن هذا أسألـك، إنما أسألك عن الطعام الذي سلمتـه إليك؟» فذكرت له الحال ففرح، ثم قـال: « بقي أنك قلت للرجل يجيء إليـك هو وأهله فتكسوهـم وتعطيهم دنانير وتجري لهم كل شهـر دنانير؟» قال: فقلـت له: « قد قلت للـرجل يجيء إليّ» فازداد فرحـا وفعل للرجل مـا قال، ولم يزل

يصل إليه رسمه حتى قبض. قال: وله من هذا كثير. فمن ذلك أنه تصدق بثيابه من على بدنه في بعض السنين التي تعذرت فيها الأقوات.

ولما وقفت على ترجمته لهجت بالترحم عليه ، وقرأت ختمه شريفة في شهر رمضان سنة أربع عشرة وسبعمائة، وسألت الله تعالى أن يسطر ثوابها في صحيفة حسناته ، وقررت ذلك على نفسي في كل سنة في شهر رمضان، وأرجو أن لاأقطعها مالم أنسى ذلك، رحمه الله تعالى.

ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة فارق زين الدين علي بن بكتكين، النائب عن قطب الدين خدمته، وسار إلى إربل . وكان هو الحاكم في الدولة، وأكثر البلاد بيده، ومنها إربل وبها أهله وأولاده وخزانته، وشهرزور وجميع القلارع التي معها، وجميع بلاد الهكارية وبلد الحميدية، وتكريت وسنجار، وحران، وقلعة الموصل هو بها، وكان قد أصابه طرش ثم عمي، فلما عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل، سلم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين، وبقي معه إربل خاصة، وكان شجاعا عاقلا حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة، ما انهزم من حرب قط، وكان كريما كثير العطاء للجند وغيرهم، فمن عطاياه أن الحيص بيص الشاعر قد امتدحه بقصيدة، فلما أراد إنشادها قال له: « أنا لا أعرف ما تقول، ولكني أعلم ما تريد» وأمر له بخمسمائة دينار وخلعة وفرس، فكان مجموع ذلك بألف دينار، ولم يزل بإربل إلى أن مات بها في هذه السنة.

ولما فارق زين الدين قلعة الموصل، سلمها قطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح وحكمه في البلاد، فعمر القلعة وكانت خرابا، لأن

زين الدين كان قليل الالتفات إلى العمارة، وسار عبد المسيح سيرة شديدة، وسياسة عظيمة وكان خصياً أبيض من مماليك أتابك زنكي.

ذكر وفاة قطب الدين مودود وملك ولده سيف الدين غازي

كانت وفاة قطب الدين مودود بن زنكي بالموصل في ذي الحجة سنة خمس وستين وخمسمائة، وقيل في شوال منها. وكان مرضه حمى حادة فكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهورا، وكان من أحسن الملوك سيرة، وأعفهم عن أموال الرعية، كثير الإنعام والإحسان إليهم، محبوبا إلى كبيرهم، وصغيرهم عطوفا على شريفهم ووضيعهم، كريم الأخلاق . ولما مات رحمه الله تعالى ملك بعده ولده سيف الدين غازي.

ذكر أخبار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي

ملك الموصل ، وما كان بيد والده قطب الدين بعد وفاته في ذي الحجة أو شوال سنة خمس وستين وخمسمائة؛ بوصية من أبيه، وكان والده قد أوصى بالملك بعده لولده الأكبر عماد الدين زنكي، فحرف عبد المسيح رأيه عنه. فلما كان في اليوم الثاني استخلف سيف الدين غازي، فاستقر في الملك بعد وفاة أبيه ، واستولى عبد المسيح على المملكة. ولم يكن لغازي معه غير الاسم، فاتصل ذلك بنور الدين محمود، فأزعجه وأنف منه وكبر لديه،فسار إلى الموصل سنة ست وستين ، ودخلها من غير قتال، وكان الجند والعوام قد كاتبوه في تسليم البلد إليه، فلما علم بذلك عبد المسيح كاتبه أيضا وسأله الأمان ، فأمنه وقال: « لاسبيل أن يكون بالموصل»؛ونقله إلى الشام، ودخل نور الدين الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى القلعة

خادمـا يقال له سعد الـدين كمشتكين، وجعله دزدارا ثم عـاد إلى الشام رحمه الله.

ذكر ملك سيف الدين غازي البلاد الجزيرية

كان سبب ذلك أن عمه الملك العادل نور الدين قد استدعاه بعساكر الموصل وديـار الجزيرة وغيرها لقصـد الغزاة ، فسـار سيف الديـن غازي وجعل على مقـدمته سعد الـدين كمشتكين، فلما كـانوا ببعض الطـريق، وافاهم الخبر بوفاة نور الدين، فهـرب سعد الدين جريدة، واستولى غازي على بركـه وثقله وموجـوده، وعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسـل الشحن إلى الخابور، واستـولى عليه وأقطعه، وسـار إلى حران فحصرها عـدة أيام، وبها قايماز الحراني مملوك نـور الدين، فأطـاعه بعد امتناع على أن تكـون حران لـه ، فلما نزل إليـه، قبـض عليه سيـف الـدين غـازي، وسـار إلى الرهـا فحصرها وملكهـا، وبها خادم خصي أسـود لنور الـدين، فسلمهـا وطلب عوضهـا قلعة الزعفران مـن أعمال جزيرة ابـن عمر، فأعطيها ثـم أخذت منه، ثم انتهى حاله إلى أن استعطى ما يقوم به.

وسير سيـف الـديـن إلى الـرقـة، فملكهـا وملـك سروج وجميـع بـلاد الجزيرة، إلا قلعة جعبر لحصـانتها، ورأس عين لأنها كانت لقطـب الدين صاحب ماردين، وعاد عبد المسيح إلى خدمة سيف الـدين من سيواس، وحسن لسيـف الدين العبـور إلى الشام ليملكه، فأشـار عليه عز الـدين محمود ـ وهومن أكابر الأمراء ـــ أن يقتصر على ما بيده ، فرجع إليه وعاد إلى الموصل ، وذلك في سنة تسع وستين وخمسمائة.

ذكر حصره أخاه زنكي بسنجار

وفي سنة سبعين وخمسمائة في شهـر رمضان حصر سيف الديـن غازي أخاه عماد الـدين زنكـي بسنجار، وكـان سبب ذلـك أن الملك الصـالح

إسماعيل بن نور الدين كتب إلى سيف الدين يستحثه على الوصول إليه ليدفع الملك الناصر صلاح الدين يوسف عن حلب، فجمع سيف الدين غازي العساكر، وكاتب عماد الدين في اللحاق به. وكان صلاح الدين قد كاتبه وأطمعه في الملك، فامتنع عماد الدين بسبب ذلك، فجهز سيف الدين العساكر مع أخيه عز الدين مسعود إلى الشام، وتوجه هو لحصار أخيه بسنجار، فحصرها، وبينما هو كذلك ، إذ أتاه الخبر بانهزام أخيه مسعود من صلاح الدين، فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده، ورحل إلى الموصل. ثم كان بين سيف الدين وبين الملك الناصر ما نذكره في أخبار الملك الناصر من هزيمة غازي في سنة إحدى وسبعين.

ورجع إلى الموصل، وعزل عز الدين زلفندار واستعمل مكانه في إمارة الجيش مجاهد الدين قايماز.

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة عصى شهاب الدين محمد بن مروان صاحب شهرزور على سيف الدين غازي، وكان قبل ذلك في طاعته، فراسله في معاودة الطاعة، فعاد وحضر إلى الخدمة.

ذكر وفاة سيف الدين غازي

كانت وفاته في ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة وكان مرضه السل، فطال به، ثم أدركه برسام فمات، وعمره نحواً من ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا، وكان حسن الصورة تام القامة أبيض اللون، وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات إذا ركب، وإذا جلس، ولم يذكر عنه في نفسه ما ينافي العفاف، وكان شديد الغيرة لايدخل دوره غير الخدام الصغار، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان لايحب سفك الدماء ولا أخذ الأموال على شحه وجبنه.

ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده معز الدين سنجر شاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة، فخاف على الدولة من ذلك، لتمكن صلاح الدين يوسف بالشام، وامتنع عز الدين مسعود من الموافقة والأيمان ، فأشار الأمراء أن يكون الملك بعده لعز الدين مسعود أخيه، ففعل، وجعل لولده سنجر شاه جزيرة ابن عمر وقلاعها، وجعل قلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك.

ذكر ملك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وقام بتدبير دولته مجاهد الدين قايماز. وفي سنة سبع وسبعين كانت وفاة الملك الصالح اسماعيل، وأوصى بحلب لعز الدين مسعود كما ذكرناه في أخباره. فكاتبه الأمراء بذلك واستدعوه لتسليمها، فسار إليها ومعه مجاهد الدين قايماز، فدخلها في العشرين من شعبان منها وأقام بحلب عدة شهور ثم سار إلى الرقة.

ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين زنكي وأخذ سنجار عوضا عنها

قال: ولما فارق عز الدين مسعود حلب، ووصل إلى الرقة، جاءته رسل أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار يطلب منه أن يسلم إليه مدينة حلب ويأخذ سنجار، فلم يجب إلى ذلك، فراسله مرة أخرى وألح في طلبها، وقال متى لم تسلم إليّ حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشير بتسليمها إليه فسلمها له، وتسلم سنجار، وعاد إلى الموصل.

- ١٠٤٤٧ -

ذكر القبض على مجاهد الدين قايماز

وفي جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وخمسمائة قبض عز الدين مسعود على نائبه مجاهد الدين قايماز، ولما قصد القبض عليه لم يقدم عليه مفاجأة لقوة مجاهد الدين ، فأظهر المرض وانقطع عن الركوب، فدخل إليه مجاهد الدين وحده، وكان خصيصا به لايمنع من الدخول على النساء، فقبض عليه وركب لوقته إلى القلعة، واحتوى على أموال قايماز وخزائنه، وولى زلفندار قلعة الموصل، وجعل شرف الدين أحمد بن أبي الخير - وهو ابن أمير حاجب العراق - أمير حاجب، وحكمه في دولته، وكانت إربل وأعمالها تحت حكم مجاهد الدين، ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين علي، وهو صبي صغير . وتحت حكمه أيضا جزيرة ابن عمر، وهي لمعز الدين سنجر شاه ابن سيف الدين غازي، وهو صبي أيضا، وبيده شهرزور وأعمالها ونوابه بها، ودقوقا، وقلعة عقر الحميدية ونائبه بها، ولم يكن مع عز الدين إلا الموصل خاصة، وقلعتها لمجاهد الدين، فلما قبض امتنع صاحب إربل عن الطاعة، واستبد صاحب الجزيرة، وأرسل الخليفة من حصر دقوقا وأخذها، ولم يحصل لعز الدين غير شهرزور والعقر، وصارت إربل والجزيرة أضر شيء عليه، وأرسل صاحب إربل إلى الملك الناصر صلاح الدين بالطاعة له، وقوي طمع الملك الناصر في الموصل لما قبض على مجاهد الدين، فلما رأى عز الدين ما حصل من الضرر والفساد بسبب قبض مجاهد الدين، قبض على شرف الدين أحمد الحاجب وزلفندار، عقوبة لهما كونهما حسنا له القبض على قايماز.

ذكر اطلاق مجاهد الدين قايماز وما كان من العجم وانهزامهم

قال: وفي المحرم سنة ثمانين وخمسمائة أطلق عز الدين مسعود مجاهد الدين قايماز، وذلك بشفاعة شمس الدين بن البهلوان صاحب همذان

وبلاد الجبل. ولما أطلقه سيره إلى ابن البهلوان وإلى أخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين. فبدأ في مسيره بقزل وهو صاحب أذربيجان، فلم يمكنه من المضي إلى شمس الدين، وقال: « مهما يختار أنا أفعله»، وجهز معه ثلاثة آلاف فارس ، وساروا نحو إربل ليحصروها، فلما قاربوها أفسدوا في البلاد وخربوها، وسبوا وأخذوا النساء قهرا، ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم، وسار إليهم زين الدين يوسف صاحب إربل في عسكره، فلقيهم وهم قد تفرقوا للنهب، فانتهز الفرصة وقاتل من لقي منهم، فهزمهم وتمت الهزيمة على العجم، وغنم الإربليون أموالهم ودوابهم وسلاحهم، وعاد العجم إلى بلادهم، وعاد مجاهد الدين إلى الموصل، وكان يقول: مازلنا ننتظر العقوبة من الله عز وجل على سوء فعل العجم.

ذكر وفاة عز الدين مسعود

كانت وفاته في التاسع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل مقابل دار المملكة وبقي في مرضه ما يزيد على عشرة أيام لاينطق إلاّ بالشهادتين وتلاوة القرآن والاستغفار، وكانت مدة ملكه ثلاثا وعشرين سنة وسبعة أشهر إلاّ أياما ، وكان خير الطبع، كثير الخير، والإحسان وزيارة الصلحاء وبرهم، وكان حليما قليل المعاقبة كثير الحياء لايكلم جلساءه إلا وهو مطرق، وما قال في شيء سئله « لا» ولبس خرقه التصوف بمكة، وكان يلبسها في كل ليلة، ويخرج إلى مسجد بناه في داره فيصلي فيه نحو ثلث الليل، رحمه الله.

وملك بعده ولده نور الدين أرسلان شاه بن مسعود، وقام بتدبير دولته في ابتدائها مجاهد الدين قايماز مدبر دولة والده، واستمر نور الدين أرسلان شاه في الملك إلى سنة سبع وستمائة، فتوفي في أوائل شهر ربيع منها، ودفن في مدرسته التي أنشأها مقابل داره بالموصل، وكانت علته

قد طالت ، وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا، وكان بينه وبين الملك العادل بن أيوب مخالفة، ثم اتفاق ومصاهرة، وكان شهما شجاعا ذا سياسة للرعايا شديدا على أصحابه مانعا من تعدي بعضهم على بعض.

ولما مات ملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، وكان والده قد حلف له العساكر، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي قلعة عقر الحميدية وقلعة شوس، وأمر أن يتولى تدبير دولة القاهر فتاه بدر الدين لؤلؤ ، فقام بتدبير الدولة والنظر في مصالحها. واستمر الملك القاهر في الملك إلى سنة خمس عشرة وستمائة، فتوفي في ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الأول منها، فكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر، وكان كريما قليل الطمع في أموال رعيته مقبلا على أمرائه، وملك بعده ولده نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه ملك الموصل، بوصية من أبيه، وكان عمره يوم ذاك عشر سنين، وجعل الوصي عليه والمدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ، فقام أحسن قيام، وراسل الملوك أصحاب الأطراف المجاورين له، وطلب منهم تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التي كانت اتفقت بينهم وبين أبيه، فوافقوه. وكتب إلى الديوان العزيز، فجاءته الخلع والتقليد من الخليفة بولاية نور الدين، ونظر بدر الدين في أمور الدولة فلم يلبث نور الدين إلا أن توفي في هذه السنة.

ولما مات استحلف بدر الدين لؤلؤ العساكر لأخيه ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه، وله من العمر ثلاث سنين. واستمر بدر الدين لؤلؤ في تدبير الدولة، فتجدد طمع عز الدين زنكي بن مسعود، ومظفر الدين عميه في ملك الموصل لصغر سنه، فجمعا الرجال وتجهزا للحركة، وقصدا أطراف الموصل بالنهب

والفساد، فخرج إليهم بدر الدين لؤلـؤ بعساكر الموصل ، والتقوا، فكانت الهزيمة على العسكـر البدري، وعـاد إلى الموصل وتبعه مظفـر الديـن، ثم حصل الاتفـاق بعد ذلك واستقر كـل واحد على ما بيده. ثـم ملك عماد الدين قلعة كواشي، وهي من أحسن قلاع الموصل.

ثم مات ناصر الـدين محمود بعد مدة يسيرة، واستقر بدر الـدين لؤلؤ بملك الموصل، وتلقـب بالملك الرحيـم ودامت أيامه إلى أن تـوفي في سنة سبع وخمسين وستمائة، فكانـت مدة ملكه نحو أربعين سنـة، وملك بعده أولاده ، فكان الذي استقل بملك الموصل مـن أولاده الملك الصالح ركن الديـن اسماعيل، قتله التتـار في سنة تسع وخمسين وستمائة، وملـك الملك المظفر علاء الدين علي سنجار، ولما استـولى التتار على هذه الممالك وصل هؤلاء إلى الديـار المصرية المحروسة في أيـام السلطان الملك الظاهـر ركن الديـن بيبرس، وجهزهم صحبـة الخليفة المستنصر بـالله، فكان مـن أمره وأمرهم ما ذكـرناه ونذكره إن شاء الله تعالى، فلنـرجع إلى ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن مودود.

ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر

استقر ملكـه بسنجار بعـد وفاة أبيه، واستقـلال أخويـه سيف الـدين غـازي، ثم عـز الديـن مسعود بملـك الموصـل، ثم تعـوض عماد الديـن بحلب عن سنجار، كما قـدمنا ذكره في أخبار عز الديـن مسعود، ثم أخذ الملك الناصر يـوسف منه حلب، وعـوضه عنها بسنجار وربـض الخابور، والرقـة، على ما نبينه إن شـاء الله في أخبار الملـك الناصر فاستقـر ملكه أخيرا بسنجـار ومـا معهـا في سنـة تسـع وسبعين وخمسمائة وكـان عـادلا حسـن السيرة في رعيته عفيفـا عـن أمـوالهم، كثير التواضـع ، يحب أهـل

العلم والـدين، ويجلـس معهم، ، ويرجـع إلى آرائهم إلا أنـه كان شـديد البخل.

ولما مات ملك بعـده ولده قطب الديـن محمد بن عماد الديـن زنكي، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يـرنقش مملوك أبيه، وكان ديناً خيراً عادلا حسن السيرة، واستمـر ملك قطـب الديـن بسنجار إلى سنـة ست عشرة وستمائة، فتـوفي في ثامـن صفر منهـا، وكان كـريما حسن السيرة في رعيتـه كثير الاحسان إليهم، وكان قد سلم الأمور إلى نوابه.

ولما مات ملك بعده ابنـه عماد الدين شاهان شاه بـن محمد. ولما ملك سار بعـد شهور إلى تلعفر ، وهـي في مملكته فدخـل عليه أخوه عمـر بن محمد في جماعة فقتلوه.

وملـك عمر بـن محمد ـــ وهـو فـروخ شاه ـــ فبقي بسنجـار إلى أن أخذهـا الملك الأشرف في سنة سبع عشرة وستمائة، وعـوضه عنها بالـرقة. وهو آخر من ملـك سنجار من البيت الأتابكي، فكـانت مدة ملكهم لها أربعا وتسعين سنـة. وتوفي بعـد أخذهـا منه بقليـل. فلنذكـر أخبار أولاد غازي.

ذكر أخبار معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي

ملـك جزيـرة ابن عمـر بعد وفـاة والده في صفـر سنة سـت وسبعين وخمسمائة. وكان كثير الأذى لعمه عـز الدين مسعود، فحـاصر مسعود في سنـة سبع وثمانين أربعـة أشهر، واستقـرت القاعـدة بينهم على أن يكـون لكل منهما نصف أعمال الجزيـرة، وتكون الجزيرة بيد سنجـر شاه في جملة النصف، ودام ملكه بالجزيرة إلى أن قتل.

ذكر مقتله وملك ولده معز الدين محمود

كان قتلـه في سنة خمس وستمائة على يد ولـده غازي. وسبـب ذلك أن سنجر شـاه كان سيء السيرة في رعيته وأولاده وجنـده وغيرهـم، فكـان من جملة مـا اعتمده مع أولاده أنه بعـث ابنيه محمودا ومـودودا إلى قلعة أروخ من بلد الزوزان وأخرج ابنه غازي إلى دار بالمدينة أسكنه بها ووكل به من يمنعه من التصرف، وكانـت الدار إلى جانب بستان لبعض الـرعية فكان يدخـل إليها مـن البستا ن الحيـات والعقارب وغير ذلـك من الحشرات، فاصطاد غازي حية وسيرها إلى أبيه لعلـه يرق له ويعطف عليه، فلم يزده إلا تماديا وإصراراً، فعنـدها أيـس من خيره وأعمل الحيلـة حتى نـزل من الـدار ، ووضع إنسـانـا كان يخدمـه أظهـر أنه غـازي، وخـرج من بـلاد الجزيرة وقصـد الموصل، فشاع الخبر أن غازي قـد توجه إلى الموصـل وهو مختف بالجزيرة مـا خرج منها، ثم أعمل الحيلة وتسلـق فنزل إلى دار أبيه، فستر عليـه سراري والده لبغضهـم في أبيـه، ثـم اتفق أن والـده شرب في بعـض الأيام ، وسكـر ودخل الخلاء، ، فضربـه ابنـه غازي هـذا بسكين فقتلـه، ثم ذبحـه وتركـه ملقى وقعـد يلعب مـع الجواري. فخرج بعـض الخدم الصغار إلى باب الـدار ، وأعلم أستاذ الدار بـالخبر، فأحضر أعيان الـدولـة، وعرفهـم الأمـر وأغلـق الأبـواب على غازي واستحلـف النـاس لمحمود بن سنجر شاه، ودخل على غازي فمانـع عن نفسه ثم قتلوه ورمي على باب الدار، وأكلت الكلاب بعضه ودفن باقيه.

ووصـل محمود إلى البلـد وملـك ولقب معز الديـن لقـب أبيه وغـرق الجواري اللواتي اتفقـن مع غازي على قتل أبيـه في دجلة، ثم قتـل محمود أخاه مودودا بعد مدة يسيرة.

ثم استقرت هذه الممالـك الجزيرية وغيرها في يد بدر الديـن لؤلؤ، وهو الملقب بالملك الرحيم، وملـك أولاده من بعده إلى أن استولى عليها التتار في سنة سبع وخمسين وستمائة. هذا ملخص ما وصـل إلينا من أخبار هذه الدولة فلنذكر ما عداها. . . . .

ذكر بيعة المستعلي

هو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد، وهو التاسع من ملوك الدولة العبيدية ، والسادس من ملوك مصر منهم، بويع له في بكرة نهار الخميس لاثني عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة

وذلك أن المستنصر بالله لما توفي بادر الأفضل أمير الجيوش بدخول القصر وأجلسه على تخت المملكة، وسير إلى إخوته نزار، وعبدالله، وإسماعيل،وأعلمهم بوفاة أبيهم، وأمرهم بسرعة الحضور، فلما حضروا شاهدوا أخاهم الصغير وقد جلس على سرير الخلافة، فامتعضوا من ذلك، فقال لهم الأفضل: تقدموا وقبلوا الأرض لله تعالى، ولمولانا المستعلي بالله وبايعوه، فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر بالله قبل وفاته بالخلافة من بعده، فقال نزار: لو قطعت ما بايعت من هو أصغر مني سنا، وخط والدي عندي بولاية العهد، وأنا أحضره . وخرج مسرعا ليحضر الخط فمضى إلى الإسكندرية، فسير الأفضل خلفه من يحضره، فلم يعلم أين توجه ولا كيف سلك، فانزعج الأفضل لذلك .

وقيل إنه لما توفي المستنصر بالله جلس بعده ولده أبو منصور نزار، وهو ولي العهد وأراد أخذ البيعة لنفسه فامتنع الأفضل أمير الجيوش من ذلك لكراهته فيه واجتمع بجماعة الأمراء والخواص وقال لهم : إن هذا كبير السن ولا نأمنه على نفوسنا، والمصلحة أن نبايع لأخيه الصغير أبي القاسم أحمد. فوافقوه على ذلك إلا محمود بن مصال اللكي، فإن نزارا كان قد وعده بالوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل، فلما علم ابن مصال الحال أطلع نزارا عليه.

وبادر الأفضل وبايع أحمد الخلافة، ونعته المستعلي بالله وأجلسه على

سرير الملك، وجلس الأفضل على دكة الوزارة، وحضر قاضي القضاة نصر الإمام علي بن الكحال ومعه الشهود، وأخذ البيعة على مقدمي الدولة ورؤ سائها وأعيانها، ثم مضى إلى إسماعيل وعبد الله، وهما بالقصر في المسجد وعليهما التوكيل، فقال لهما: إن البيعة قد تمت لمولانا المستعلي بالله،وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعاني أم لا ؟ فقالا: السمع والطاعة ، إن الله اختاره علينا . وبايعاه، وكتب بذلك سجل قرأه على الأمراء الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء ، وبادر نزار وأخوه عبد الله ومحمود بن مصال إلى الإسكندرية، وعليهما ناصر الدولة أفتكين التركي، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي، فعرفوه الحال ووعدوه بالوزارة، فبايعه أهل الثغر، ولقب بالمصطفى لدين الله.

ذكر ما اتفق لنزار ومن معه

قال: وفي محرم سنة ثمان وأربعمائة خرج الأفضل بعساكره إلى الإسكندرية لقتال نزار وأفتكين وابن مصال، فلما قرب منها خرجوا إليه والتقوا، واقتتلوا قتالا شديدا، فكانت الهزيمة على الأفضل ومن معه، فرجع إلى مصر ونهب نزار ومن معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحري.

ثم خرج الأفضل ثانيا وحاصر الإسكندرية ، واشتد الحصار إلى ذي القعدة. فلما اشتد الحال رأى ابن مصال مناما، فلما أصبح أحضر رجلا أعجميا وقال له: رأيت كأني راكب فرسا، وكأن الأفضل يمشي في ركابي

فقال له العجمي: الماشي على الأرض أملك لها . فلما سمع منه ذلك جمع أمواله وهرب إلى لُك قرية من قرى برقة، فعند ذلك ضعفت قوة نزار وأفتكين، فاضطر إلى مسالمة الأفضل وأرسلا يطلبان الأمان، فأمنهما وفتحت البلد.

ودخل الأفضل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين، وسيرهما إلى

مصر، وكان آخر العهد بنزار، قيل إنه جعله بين حائطين إلى أن مات. وكان مولده في عاشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة . وأما أفتكين فإنه أظهر قتله بعد ذلك للناس. وأما محمود بن مصال فكاتبه الأفضل ورغبه في العود، فعاد إلى مصر، فأكرمه الأفضل.

وفي سنة تسعين وأربعمائة خطب الملك رضوان صاحب حلب للمستعلي بالله أربع جمع، ثم قطع خطبته، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السلجقية والله أعلم .

ذكر استيلاء أمير الجيوش على البيت المقدس

وفي شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الشام ونزل البيت المقدس، وهو في يد الأمير سقمان وإيلغازى، ابني أرتق، وجماعة من أقاربهما وخلق كثير من الأتراك.

فراسلهما يلتمس منهما تسليم البيت المقدس من غير حرب ولا سفك، فلم يجيباه لذلك، فنصب المجانيق وهدم منه قطعة، وقاتل، فاضطرا لتسليمه فسلماه له، فخلع عليهما وأطلقهما، وعاد الأفضل إلى مصر.

ونقل محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر أن الأفضل لما رجع من بيت المقدس مر بعسقلان، وكان في مكان دارس بها رأس الحسين بن علي، رضي الله عنهما، فأخرجه وعطره وطيبه، وحمل في سفط إلى أجل دار بها، وعمر المشهد، ولما تكامل حمل الأفضل الرأس على صدره وسعى ماشيا إلى أن رده إلى مقره، ثم نقل إلى مصر على ما نذكره إن شاء الله، وقيل إن المشهد ابتدأ بعمارته بدر الجمالي وكمله الأفضل.

ذكر استيلاء الفرنج على ما نذكره من البلاد الإسلامية بالساحل والشام والبيت المقدس

لم يكن جميع ما استولوا عليه.مما نذكره داخلا في ملك الدولة العبيدية، بل كان منه ما هو في أيدي نواب المستعلي، وما هو بيد الملوك الذين تغلبوا على الأطراف، ولم يكن أيضا في أيام المستعلي خاصة ، وإنما أوردناه بجملته في هذا الوضع لتكون الأخبار متتابعة ولا تنقطع بالسنين والدول. وقد نبهنا عليه فيما تقدم من أخبار الدولة العباسية .

والذي نذكره الآن في هذا الموضع هو ما استولوا عليه من سواحل الشام سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وما بعدها.

كان ابتداء ظهورهم وامتدادهم وتطرقهم إلى البلاد الإسلامية في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وذلك أن بلاد الأندلس لما تقسم ملوكها بعد بني أمية وصارت كل جهة بيد ملك، وأنفت نفس كل واحد أن ينقاد إلى الآخر ، ويدخل تحت طاعته، فكانوا كملوك الطوائف في زمن الفرس، وعجز كل واحد عن مقاومة من يليه أو يقصده من الفرنج، أدى ذلك إلى اختلال الأحوال، وتغلب الأعداء على البلاد الإسلامية . فأول ما استولوا عليه مدينة طليطلة من الأندلس، على ما ذكرناه في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، ثم ملكوا جزيرة صقلية في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئا ثم استرجع منهم، على ما قدمناه

ذكر ملكهم مدينة انطاكية

كان استيلاء الفرنج خذلهم الله تعالى، على مدينة أنطاكية في جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. وكانت بيد ملوك الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى أن افتتحها الملك سليمان بن شهاب الدين

ولد قتلمش السلجقي، صاحب أقصراوقونية وغير ذلك من بلاد الروم في سنة سبع وسبعين وأربعمائة، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السلجقية، وبقيت في يده إلى أن قتل . وتداولتها أيدي المتغلبين من ملوك الإسلام وأمرائهم إلى أن استقرت بيد ياغي سيان، وهو يخطب فيها للملك رضوان بن تتش صاحب حلب، ولأخيه الملك دقاق صاحب دمشق.

فلما كان في سنة تسعين وأربعمائة جمع بغدوين ملك الفرنج جمعا كثيرا من الفرنج، وكان نسيب رجار الفرنجي صاحب صقلية، فأرسل إليه بغدوين يقول: قد جمعت جمعا كثيرا وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية وأكون مجاورا لك .

فجمع رجار أصحابه واستشارهم فقالوا كلهم: هذا جيد لنا ولهم، وتصبح كلها للنصرانية. فلما سمع رجار كلامهم وما اجتمعوا عليه، رفع رجليه وحبق حبقة قوية، وقال: وحق ديني هذه خير من كلامكم قالوا: وكيف ذلك؟ قال إذا وصلوا إلي احتجت إلى كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم إلى إفريقية، وعساكر من جهتي، فإن فتحوا البلاد وكانت لهم صارت مؤونتهم من صقليةوينقطع عني ما يصل إلي من المال من ثمن الغلات في كل سنة، وإن لم يفتحوها رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم،ويقول تميم، صاحب إفريقية غدرت بي ونقضت عهدي، وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبين بلاد إفريقية، وإفريقية باقية متى وجدنا قوة أخذناها بها.

ثم أحضر رسوله وقال له:إذا عزمتم على جهاد المسلمين فاقصدوا بذلك فتح بيت المقدس وخلصوه من أيديهم، ويكون لكم الفخر، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود ، فاخرجوا إلى الشام.

وقيل إن المستنصر، أو المستعلي لما رأى قوة الدولة السلجقية وتمكنها، وأنهم استولوا على ملك بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، راسل الفرنج يدعوهم إلى الخروج إلى الشام، ليملكوه، ويكونوا بينه وبين المسلمين، والله تعالى أعلم.

فلما عزم الفرنج على قصد الشام ساروا إلى قسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد الإسلام ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم ، فمنعهم ملك الروم من ذلك، ولم يمكنهم أن يمروا ببلاده، وقال: لاأمكنكم من العبور إلا أن تحلفوا أنكم تسلمون إلي أنطاكية، وكان قصده أن يحثهم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظنا منه أن الترك لايبقون منهم أحدا لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد.

فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج في سنة تسعين وأربعمائة. ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، فلقيهم في جموعه ومنعهم، فقاتلوه وهزموه، وذلك في شهر رجب منها، ومروا في بلاده إلى بلاد ابن ليون الأرمني، فسلكوها وخرجوا منها إلى أنطاكية، فحصروها.

قال المؤرخ : فلما سمع صاحبها ياغي سيان بتوجههم إليها خاف من النصارى الذين بها، فأخرج من بها من المسلمين بمفردهم في أول يوم وأمرهم أن يحفروا الخندق ، ثم أخرج النصارى من الغد لذلك . فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم ، وقال لهم: أنطاكية لكم فهبوها لي حتى أنظر ما يكون بيننا وبين الفرنج، فقالوا: من يحفظ أولادنا ونساءنا؟ فقال: أنا أخلفكم فيهم، فأمسكوا ثم صاروا في عسكر الفرنج.

وحصرت أنطاكية تسعة أشهر، وظهر من حزم ياغي سيان واحتياطه وجودة رأيه ما لم يشاهد مثله، وهلك أكثر الفرنجة موتا وقتلا، وحفظ ياغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم، وكف الأيدي عنهم فلما طال مقام الفرنج عليها راسلوا أحد المستحفظين للأبراج، وهو زراد، ويعرف بروزبة، وبذلوا له مالا وإقطاعا، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي، وهو مبني على شباك في الوادي.

فلما تقرر الأمر بينهم وبينه، جاءوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه، وصعد جماعة كبيرة منهم بالحبال، فلما زادت عدتهم على خمسمائة، ضربوا البوق وذلك عند السحر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة، فاستيقظ ياغي سيان وسأل عن الحال فقيل له: هذا البوق من القلعة، ولا شك أنها قد أخذت. ولم يكن من القلعة وإنما من ذلك البرج.

فداخله الرعب، ففتح باب البلد وهرب في ثلاثين غلاما، وجاء نائبه ليحفظ البلد، فقيل له: إنه قد هرب، فخرج من الباب الآخر هاربا. وكان ذلك إعانة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا.

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من بابه، ونهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين.

وأما ياغي سيان، فإنه لما طلع عليه النهار رجع إلى عقلة وكان كالولهان فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ، فقال لمن معه: أين أنا؟ فقالوا: على أربعة فراسخ من أنطاكية، فندم كيف خلص سالما ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل.

وجعل يتلهف على ترك أهله وأولاده والمسلمين، ويسترجع، فسقط عن فرسه لشدة ما ناله، وغشي عليه. فأراد أصحابه أن يركبوه فلم يكن فيه مسكة، وكان قد قارب الموت، فتركوه وساروا عنه فاجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله، وحمل رأسه إلى الفرنج بأنطاكية.

ذكر مسير المسلمين لحرب الفرنج وما كان من أمرهم

قال: ولما وصل خبر أنطاكية بالأمير قوام الدين كربوقا صاحب الموصل، جمع العساكر وسار بهم لحربهم واجتمع معه الملك دقاق صاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب سنجار، فلما بلغ الفرنج اجتماعهم عظمت عليهم المصيبة وداخلهم الخوف، لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات، وسار المسلمون حتى نازلوا أنطاكية، فأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين، فأغضبهم ذلك وأضمروا في أنفسهم الغدر به إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند الصدمة.

قال: وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها ثلاثة عشر يوما ليس لهم ما يأكلونه، فتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر، فلما انتهت حالهم إلى ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم، وقال: لا تخرجون منه إلا بالسيف.

وكان معهم من الملوك: بغدوين ، وصنجيل وكندفري، والقمص صاحب الرها، وبيمند صاحب أنطاكية وهو مقدم العسكر. وكان معهم راهب مطاع فيهم فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق.

وكان هو قد دفنها قبل ذلك وعفى أثرها. وأمرهم بالصوم ثلاثة أيام والتوبة، ففعلوا ذلك، فلما كان في اليوم الرابع أدخلهم جميعهم وجميع عامتهم والصناع، وحفروا عليها في ذلك المكان فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: أبشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب بين خمسة وستة ونحو ذلك، فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن سهل، فقال: أمهلوهم حتى يتكاملوا، ولم يمكن من معاجلتهم، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم.

فلما تكامل خروج الفرنج ، ولم يبق منهم أحد بأنطاكية ضربوا مصافا عظيما، فانهزم العسكر الإسلامي لما عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، فتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم، وآخر من انهزم سقمان بن أرتق، وجناح الدولة، لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، فخافوا أن يتبعوهم، وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة ورغبة في الشهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفا، وغنموا ما في العسكر من الأقوات، والأموال، والآلات، والدواب، وغير ذلك، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم.

ذكر ملكهم معرة النعمان

قال المؤرخ : ثم سار الفرنج إلى معرة النعمان، فنازلوها وحصروها، وقاتلهم أهلها قتالا شديدا، فرأى الفرنج منهم شدة ونكاية عظيمة. فعمل الفرنج عند ذلك برجا من خشب يوازي سور المدينة، ووقع

القتال عليه، فصبر المسلمون على القتال إلى الليل، ثم خاف قوم منهم وفشلوا، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها، فنزلوا عن السور وأخلوا مكانهم الذي كانوا يحفظونه، وفعلت طائفة أخرى مثل ذلك ولم تزل كل طائفة منهم تتبع الأخرى حتى خلا السور، فصعد الفرنج إليه على السلاليم، فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم ، ووضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير.

وأقاموا بها أربعين يوما وساروا إلى عرقة، فحصروها أربعة أشهر ، ونقبوا سورها عدة نقوب ولم يقدروا عليها. وراسلهم ابن منقذ صاحب شيزر، وصالحهم عليها، ثم ساروا إلى حمص وحصروها ، فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا فلم يقدروا عليها، فساروا إلى البيت المقدس.

ذكر استيلائهم خذلهم الله تعالى على البيت المقدس

كان استيلاء الفرنج خذلهم الله تعالى، على البيت المقدس في يوم الجمعة، ضحى، لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان إذ ذاك بيد افتخار الدولة نيابة عن المستعلي بالله. فإنه كان بيد تاج الدولة تتش السلجقي صاحب الشام، وأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني، فجاءه الأفضل أمير الجيوش واستولى عليه، وبقي بيد نوابه إلى الآن ، فقصده الفرنج عند عجزهم عن فتح عكا، وحصروه نيفا وأربعين يوما، ونصبوا عليه برجين، أحدهما من ناحية صهيون، فأحرقه المسلمون وقتلوا جميع من فيه من الفرنج.

فلما فرغوا من ذلك أتاهم الصارخ أن المدينة قد امتلكت من الجانب الآخر، وهو الجانب الشمالي، وركب الناس السيف ولبث الفرنج أسبوعا يقتلون فيهم.

واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثة أيام،

فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموه إليهم، فوفوا لهم، وخرجوا إلى عسقلان وأقاموا بها.

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم، وعبادهم وزهادهم، ممن فارق أهله، ووطنه وجاور بذلك الموضع الشريف. وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة، زنة كل قنديل (ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنورا من فضة وزنه) [٦] أربعون رطلا بالرطل الشامي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا من الفضة، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا. وغنموا ما لايقع عليه الإحصاء وورد إلى بغداد القاضي سعد الهروي في شهر رمضان، ومعه جماعة، يستنفرون الناس، وأوردوا في الديوان كلاما أبكى العيون، وصدع القلوب واستغاثوا بالجامع يوم الجمعة، وبكوا، وذكروا ما نزل بالمسلمين من البلاء، وما حل بهم من المصيبة. فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي، وغيرهما، إلى السلطان بسبب ذلك، فاتفق ما ذكرناه من الاختلاف الذي وقع بين الملوك السلجقية، فتمكن الفرنج من البلاد.

قال: ولما اتصل خبر هذه الحادثة العظيمة بالأفضل أمير الجيوش جمع العساكر وخرج إليهم، فقاتلهم في شهر رمضان من السنة. ثم كبسه الفرنج هو ومن معه، وهم على غير تعبئة، فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة.وحاصر الفرنج عسقلان، فصالحهم أهلها على عشرة الآف دينار، وقيل عشرين ألف دينار، فعادوا إلى القدس.

قال: وكان الذي ملك البيت المقدس من الفرنج كندفري

ذكر ظفر المسلمين بالفرنج

قال المؤرخ : وفي ذي القعدة سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة لقي كمشتكين بن الدانشمند طايلو، وهو صاحب ملطية وسيواس، بيمند الفرنجي بالقرب من ملطية، وكان صاحبها قد كاتبه واستقدمه عليه،

فورد عليه في خمسة آلاف، فلقيهم ابن الدانشمند، وقاتلهم، فهزم بيمند وأسر.

ثم وصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج، فأرادوا خلاص بيمند، فأتوا إلى قلعة أنكورية فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا إلى قلعة أخرى فحصروها وفيها إسماعيل بن الدانشمند ، فجمع الدانشمند جمعا كثيرا، ولقي الفرنج، وجعل له كمينا، فقاتلهم وخرج عليهم الكمين فقتلهم.وكانوا ثلاثمائة ألف لم يفلت منهم غير ثلاثة آلاف هربوا..

وسار ابن الدانشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها.

قال ابن الأثيرالجزري: وكانت هذه الوقائع في شهور قريبة.

قال: ولم يزل بيمند في أسره إلى سنة خمس وتسعين، فأخذ منه مائة ألف دينار وأطلقه

ذكر قتل كندفري وملك أخيه بغدوين وما استولى عليه الفرنج من البلاد وهي : حيفا، وأرسوف، وقيسارية، والرها، وسروج

وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة سار كندفري صاحب البيت المقدس إلى عكا، فحاصرها، فأصابه سهم فقتله، وكان قد عمر مدينة يافا وسلمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكري، فلما قتل كندفري سار أخوه بغدوين إلى البيت المقدس في خمسمائة فارس وراجل، فبلغ ذلك الملك شمس الملوك دقاق صاحب دمشق، فنهض إليه في عسكره ومعه الأمير جناح الدولة في جموعه فقاتله، فنصر على الفرنج.

وفي هذه السنة ملك الفرنج مدينة حيفا عنوة وهي على ساحل البحر بالقرب من عكا، وملكوا أرسوف بأمان وأخرجوا أهلها منها، وملكوا قيسارية بالسيف وقتلوا أهلها، وفيها ملك الفرنج مدينة سروج من ديار الجزيرة، وكانوا قبل ذلك قد ملكوا الرها بمكاتبة من أهلها، لأن أكثر

أهلها أرمن،فلما كان الآن جمع الأمير سقمان بن أرتق جمعا عظيما من التركمان وزحف بهم إليهم، فلقوه وقاتلوه، فهزموه في شهر ربيع الأول. فلما تمت الهزيمة على المسلمين سار الفرنج إلى سروج، فتسلموها، وقتلوا كثيرا من أهلها وسبوا حريمهم، ونهبوا أموالهم، ولم يسلم منهم إلا من انهزم

ذكر أخبار صنجيل الفرنجي وما كان منه في حروبه وحصار طرابلس والطوبان وملك أنطرطوس

وفي سنة خمس وتسعين وأربعمائة لقي صنجيل الملك قلج أرسلان صاحب قونية، وصنجيل في مائة ألف مقاتل وقلج في عدد يسير، واقتتلوا، فانهزم الفرنج وأسر كثير منهم، وفاز قلج بالظفر والغنيمة. ومضى صنجيل مهزوما في ثلاثمائة، فوصل إلى الشام، فأرسل فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس إلى الأمير جناح الدولة بحمص وإلى الملك دقاق بدمشق يقول: من الصواب معاجلة صنجيل إذ هو في العدد اليسير فخرج إليه جناح الدولة بنفسه وسير دقاق ألفي مقاتل، وأتتهم الأمداد من طرابلس، وصافوا صنجيل فأخرج مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق، وخمسين إلى عسكر حمص وبقي في خمسين

فأما عسكر حمص فانهزموا عند المشاهدة وتبعهم عسكر دمشق.

وأما عسكر طرابلس فإنهم قتلوا المائة الذين قاتلوهم، فحمل صنجيل في المائتين الباقيتين، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل ونازل طرابلس وحصرها.

وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصرها، هم وأهل السواد، لأن أكثرهم نصارى، فقاتل من بها أشد قتال، فقتل من الفرنج ثلاثمائة: ثم هادنهم ابن عمار على مال وخيل، فرحل صنجيل عنهم إلى مدينةأنطرطوس، وهي من أعمال طرابلس، فحصرها وفتحها، وقتل من بها من المسلمين.

ورحل إلى حصن الطوبان[٧]، ومقدمه ابن العريض، فقاتلهم فنصرعليهم وأسر فارسا من أكابر فرسانهم، فبذل فيه صنجيل عشرة آلاف دينار، وألف أسير فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك.

ذكر ملك الفرنج جبيل وعكا

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاذقية، فيها التجار والمقاتلة والحجاج وغيرهم،فاستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس، فحاصروها معه وضايقوها، فلم يروا فيها مطمعاً، فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل فحصروها وقاتلوا عليها قتالا شديدا،فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج طلبوا الأمان على تسليمها، فبذل لهم صنجيل الأمان، وتسلم البلد منهم،فلم يف لهم. وأخذ الفرنج أموالهم وعاقبوهم عليها بأنواع العذاب.ثم ساروا إلى عكا نجدة لبغدوين، صاحب القدس، على حصارها، فنازلوها وحصروها في البر والبحر، وعليها زهر الدولة الجيوشي، فقاتلهم أشد قتال. فلما عجز عن حفظ البلد فارقه، وملك الفرنج عكا بالسيف، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة. وساروا منها إلى دمشق ثم إلى مصر.

وفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج حصن أفامية، وسرمين من أعمال حلب.

وفي سنة اثنتين وخمسمائةفتح السرداني عرقة، وذلك أنها كانت بيد غلام فخر الملك ابن عمار، وقد عصى على مولاه، فضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة، فكاتب طغدكين صاحب دمشق أن يرسل إليه من يتسلم الحصن لعجزه عن حفظه،فبعث إليه طغدكين صاحبا له اسمه إسرائيل في ثلاثمائة، فتسلم الحصن، فلما نزل غلام ابن عمار رماه اسرائيل بسهم فقتله في الاختلاط، طمعا في المال الذي بعرقه لئلايطلع طغدكين عليه.

قال وأراد طغدكين أن أن يشحن الحصن بالعساكر والأقوات، فتوالت الأمطار مدة شهرين، فعجز عن ذلك. فلما انقطع المطر ركب في

أربعة آلاف فارس وجاءوا إلى عرقة، فتوجه إليه السرداني وهو يحاصر طرابلس ومعه ثلاثمائة فارس، فانهزم عسكر طغدكين عندما أشرفت الخيل من غير قتال، فأخذ السرداني أثقالهم وتسلم الحصن بأمان، وقبض على إسرائيل، وقال لا أطلقه إلا بفلان وهو من أكابر الفرنج كان أسيرا ففودي به.

ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت

كان صنجيل لما ملك مدينة جبيل، كما ذكرنا، حصر طرابلس، فلما لم يتمكن منها وعجز عن الاستيلاء عليها بنى بالقرب منها حصنا وجعل تحته ربضا، وأقام يرصدها ينتظر فرصة، فخرج الملك أبو علي بن عمار، صاحب طرابلس، فأحرق ربضه، فوقف صنجيل على سقوفه المحترقة،ومعه جماعة من القامصة والفرسان، فانخسف بهم. فمرض صنجيل عشرة أيام، ومات، وحمل إلى القدس فدفن هناك، وذلك في سنة تسع وتسعين وأربعمائة

ودامت الحرب على طرابلس خمس سنين، فسار الملك ابن عمار إلى بغداد يستنجد بالخليفة والسلطان على الفرنج، على ما ذكرناه، وعاد من بغداد في منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسمائة وتوجه إلى جبلة فدخلها وأطاعه أهلها

وأما طرابلس فإن ابن عمار لما فارقها راسل أهلها الأفضل أمير الجيوش يلتمسون منه واليا يكون عندهم ومعه الميرة في البحر، فسير إليهم الأفضل شرف الدولة بن أبي الطيب واليا، ومعه الغلال وغيرها. فلما صار إليها قبض على جماعة من أهل ابن عمار واستولى على ما وجده من أمواله وذخائره

فلما كان في شعبان سنة ثلاث وخمسمائة وصل اسطول كبير من بلدالفرنج، مقدمه قمص كبير اسمه ريمند بن صنجيل[8]، ومراكبه مشحونة بالرجال والسلاح والميرة وليس ريمند هذا ابن صنجيل صاحب الحصن المقدم ذكره، فنزل على طرابلس وكان السرداني وهو ابن اخت

صنجيل محاصرا لها قبله، فجرت بينهما فتنة أدت إلى الشر والقتال فوصل تنكري صاحب أنطاكية إليها إعانة للسرداني، ووصل بغدوين صاحب البيت المقدس في عسكره، فأصلح بينهم، فنزل الفرنج بأجمعهم على طرابلس وضايقوها، وذلك في شعبان، وألصقوا أبراجهم بسورها؛ فلما شاهد الجند وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم، وذلت نفوسهم، وزادهم ضعفا، فتأخر الأسطول المصري عنهم بالميرة والنجدة ، وداوم الفرنج القتال والزحف إلى أن ملكوا البلد عنوة، وذلك يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، سنة ثلاث وخمسمائة ، ونهبوا ما فيها، وأسروا الرجال، وسبوا النساء والذرية، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب العلم الموقوفة ما لا يحد ولا يوصف.

وكانت طرابلس من أعظم البلاد، وأهلها من أكثر الناس أموالا.

وسلم الوالي الذي كان بها وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها، فوصلوا إلى دمشق، وعاقب الفرنج أهل طرابلس بأنواع العقوبات، وأخذت دفائنهم وذخائرهم .

ووصل الأسطول المصري بالرجال والغلال وغيرها، ما يكفيهم سنة، وكان وصول الأسطول إليها بعد أن ملكت بثمانية أيام، ففرق ما في الأسطول على الجهات المجاورة لها: صور وصيدا وبيروت

ذكر ملك الفرنج جبلة وبلنياس

قال: ولما فرغ الفرنج من طرابلس سار تنكري صاحب أنطاكية إلى بلنياس، فافتتحها وأمن أهلها، ونزل على مدينة جبلة وبها فخر الملك ابن عمار، وكان القوت قد قل بها، فقاتل من بها إلى أن ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة بالأمان.

وخرج فخر الملك ابن عمار وقصد شيزر، فأكرمه صاحبها الأمير سلطان بن علي بن منقذ الكناني. ثم سار إلى دمشق فأكرمه طغدكين

صاحبها . وأجزل له في العطية، وأقطعه أعمال الزبداني، وذلك في المحرم سنة أربع وخمسمائة

ذكر ملكهم مدينة صيدا

وفي جمادى الأولى سنة أربع وخمسمائة ملك الفرنج مدينة صيدا، وكانت من جملة ما هو بيد طغدكين صاحب دمشق. وذلك أنه وصل في البحر ستون مركباللفرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم، ليحج إلى القدس ويغزو المسلمين بزعمه، فاجتمع به بغدوين صاحب القدس وقرر معه الغزو فنزلوا على مدينة صيدا في ثالث شهر ربيع الآخر، وضايقوها في البر والبحر، ومنعوا الأسطول المصري من الوصول إليها، وكان بساحل مدينة صور، فعمل الفرنج برجا من الخشب وأحكموه، وجعلوا عليه ما يمنع النار والحجارةعنه، وزحفوا به. فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الفرنج وطلبوا الأمان، فأمنوهم على نفوسهم وأموالهم والعسكر الذي عندهم، ومن أراد المقام بها عندهم أمنوه، ومن أراد المسير عنهم لا يمنعوه، وحلفوا لهم على ذلك فخرج الوالي وجماعة كثيرة معه تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما.

ورحل بغدوين عنها إلى القدس، ثم عاد إليها بعد مدة يسيرة يقرر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار، فاستغرق أموالهم وأفقرهم.

ذكر استيلائهم على حصن الأثارب وحصن زردنا

وفي سنة أربع وخمسمائة جمع صاحب أنطاكية الفارس والراجل، وسار إلى حصن الأثارب، وهو على ثلاث فراسخ من حلب، فحصره ومنع الميرة عمن فيه، فضاق الأمر عليهم، فنقب المسلمون من القلعةنقبا وقصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكية فيقتلوه، فلما فعلوا

ذلك استأمن إليه صبي أرمني فعـرفه الحال، فاحتاط لنفسه واحترز، وجد في قتالهم حتى ملك الحصن عنوة، وقتل من أهله ألفي رجل وسبى.

ثم سـار الى حصن زردنا فحصره وفتحه، وفعـل بأهله مثـل ذلك. فلما سمع بذلـك أهل منبج فارقـوها خوفا من الفـرنج، وكذلك أهـل بالس، فطلب أهـل الشام الهدنـة، فامتنـع الفرنج ثـم أجابـوا، فصالحهـم الملك رضـوان صاحـب حلب على اثنين وثـلاثين ألف دينـار، وخيول وثيـاب، وصالحهم ابـن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينـار،وصالحهم علي الكردي صاحب حماةعلى ألفي دينار. وكـانت عدة الهدنة إلى إدراك المغل وحصاده. ثم جاءت العساكر من العراق ولم يبلغوا غرضا.

ذكر حصر مدينة صور وفتحها

كان استيـلاء الفرنج، خـذلهم الله تعالى، على مـدينة صور في الثـالث والعشريـن من جمادى الأولى سنـة خمس وخمسمائة، وذلـك أن الفرنـج في هذه السنة اجتمعوا مـع بغدوين صاحب القدس على حصـارها، وكانت إذ ذاك بيـد نواب الآمـر بـأحكـام الله وبها مـن قبلـه عـز الملك الأعـز، فحصروهـا في الخامس والعشريـن من جمادى الأولى مـن السنة، وعملـوا ثلاثة أبراج مـن الخشب علو البرج سبعون ذراعا في كل بـرج ألف رجل، ونصبوا عليهـا المجانيـق، وألصقوا أحـد الأبراج بسـور صور، فجمـع عز الملك أهل البلد واستشارهم في حيلـة يدفعون بها شر الأبراج، فقام شيخ من أهل طرابلـس وضمن إحراقها، وأخذ ألف رجل بـالسلاح التام، ومع كل رجـل حزمة حطـب، فقاتلوا الفـرنج حتى وصلـوا إلى البرج الملتصق بالسور وألقوا الحطب من جهاتـه، وأشعلوا فيه النار. ثم خاف أن يشتغل الفرنج الـذين في الأبراج باطفاء النار، فـرماهم بجرار مملوءة بـالعذرة كان قد أعدها لهم فلما سقطـت عليهم اشتغلوا بما نالهم من الرائحـة الكرهة، فتمكنت النار من البرج وأحرق المسلمون البرجين أيضا.

وكاتب عز الملك طغدكين، صاحب دمشق، فأنجده بالرجال، وأرسل أصحابـه للإغارة على بـلاد الفرنج، فـرجعوا مـن حصار مدينـة صور في شوال من السنة.

ثم عـادوا في سنة ست وخمسمائة إلى الحصار، وضـايقوا البلد، فـأرسل أهل صور إلى طغـدكين صاحب دمشق يطلبـون منه أن يرسل إليهـم من جهته مـن يتولى أمرهـم ويحميهم، وتكـون البلد له. فسير إليهـم عسكرا، وجعل عنـدهم واليـا اسمه مسعـود، وكان شهما شجـاعا عـارفا بـالحرب ومكايـدها،وأمده بـالعساكر والميرة، فطابـت قلوب أهل البلـد. ولم يقطع خطبة الآمر بأحكام اللـه ولا غير سكته، وكتب إلى الأفضل أمير الجيوش يعرفـه ما عمـل ويقول: متـى وصل مـن مصر من يتـولاها ويـذب عنها سلمتهـا إليه، وطلـب منهم ألا ينقطـع الأسطـول عنها بـالرجـال والميرة، فـأجابـه الأفضل إلى ذلـك، وشكره على مـا فعل، وجهـز اسطولا إليهـا، فاستقامت أحوال أهلها.

ولم يزل كـذلك إلى سنـةست عشرة وخمسمائة، بعـد قتل الأفضـل أمير

الجيوش، وذلـك أن المأمون ابن البطائحـي لما ولي إمرة الجيوش بعـد قتل الأفضل سير إلى صـور أسطولا على العـادة، وأمر المقـدم عليه أن يعمـل الحيلـة على الأمير مسعـود، الـوالي مـن قبـل طغـدكين، ويقبـض عليـه، ويتسلم البلـد منه، وكان سبب ذلـك أن أهل صور شكوا منـه إلى الآمر بأحكام اللـه، فلما وصل الأسطول وجاء الأمير مسعـود ليسلم على المقدم قبض المقـدم عليه واعتقله، وحملـه إلى الآمر، فأكـرمه وأعاده إلى صـاحبه بـدمشـق. واستـولى مقـدم الأسطـول على مـدينـة صـور، وراسـل الأمير طغدكين بالخدمة، واعتذر إليه، فقبل عذره، ووعده المساعدة.

فلما سمـع الفرنـج بانصراف مسعـود عـن صور قـوي طمعهم فيهـا، وشرعوا في الجمع، واتصـل خبرهم بواليها ، فعلـم أنه لاقوة له ولا طـاقة بهم، لقلة من بها مـن الجند والميرة، وأرسل إلى الآمر بذلـك، فرأى أن يرد ولاية صـور إلى طغدكين، فـأرسل إليـه بذلـك، فملكها ورتـب بها الجند وغيرهم.

وسار الفرنـج إلى صور، ونازلوها في شهـر ربيع الأول سنة ثماني عشرة، وضيقـوا عليها ولازمـوا القتـال، فقلت الأقـوات، وسئـم من بها القتـال، وضعفت نفـوسهم. وسار طغدكين إلى بـانياس ليقرب منهم ويـذب عن

البلد، وأرسل إلى الآمر يستنجده، فلم ينجده، وأشرف أهلها على الهلاك. فحينئذ راسل طغدكين الفرنج على أن يسلم إليهم البلد، ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج بما قدروا عليه من أموالهم وغيرها، فاستقرت القاعدة على ذلك، وفتحت أبواب البلد، وفارقه أهله، وحملوا ما أطاقوا وتفرقوا في البلاد، ولم يتعرض الفرنج إليهم ، وملك الفرنج البلد في التاريخ الذي قدمناه، ولم يبق بصور إلا ضعيف عاجز عن الحركة.

وفي سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ملك الفرنج حصن القدموس من المسلمين، وملكوا بانياس بمراسلة إسماعيل الإسماعيلي، ورغبته في ذلك وانضمامه إلى الفرنج، على ما قدمنا ذكره في أخبار تاج الملوك طغدكين صاحب دمشق.

هذا ما استولى عليه الفرنج من البلاد الإسلامية . فلنرجع إلى أخبار الدولة العبيدية.

ذكر وفاة المستعلي بالله

كانت وفاته في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة

ومولده لعشر بقين من المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة، وكان عمره ثمانيا وعشرين سنة وثمانية وعشرين يوما

ومدة ولايته سبع سنين وشهرا واحدا وثمانية وعشرين يوما.

ولم تكن له سيرة تذكر، فإن الأمر كان للأفضل أمير الجيوش، لم يكن للمستعلي معه من الأمر إلا الاسم ، والرسم للأفضل

وكان للمستعلي من الأولاد أبو علي المنصور، وجعفر، وعبد الصمد. وزيره:الأفضل أمير الجيوش.

قضاته: أبو الحسن بن الكحال النابلسي، ثم أعاد ابن عبد الحاكم، ثم أبو طاهر محمد بن رجاء، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

ذكر بيعة الآمر بأحكام الله

هو أبو علي المنصور بن المستعلي بالله، وهو العاشر من ملوك الدولة العبيدية، والسابع من ملوك الديار المصرية منهم.

قال المؤرخ: لما مات المستعلي بالله أجلس الأفضل أمير الجيوش ولده

أبا علي هذا على سرير الخلافة، وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وبايع له الناس ولقبه بالآمر بأحكام الله، وله من العمر خمس سنين وشهر واحد وأيام.

قال: ودبر الأفضل الأمر على ما كان عليه في أيام أبيه المستعلي.

وفي سنة خمسمائة بنى الأفضل أمير الجيوش الدار المعروفة بدار الملك على شاطىء النيل بمصر، وكملت عمارتها في سنة إحدى وخمسمائة، وسكنها

ومدحه الشعراء .فممن مدحه أبو الفضل بن أمية المغربي من قصيدة جاء منها :

دار هي الفلك الأعلى، وأنت بها
شمس الضحى، وبنوك الأنجم الزهر

ودار الملك هذه هي دار الوكالة الآن، وكان موضعها أخصاص موقوفة على الأشراف، فأمر أن يؤخذ ما كان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرباع السلطانية

ذكر انشاء ديوان التحقيق

وفي سنة إحدى وخمسمائة جدد ديوانا وسماه ديوان التحقيق، واستخدم فيه أبا البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني، وبقي فيه إلى أن قتل في سنة ثمان وعشرين. واستمر هذا الديوان إلى أن انقرضت الدولة العبيدية وانقطع، ثم اعاده السلطان الملك الكامل بن الملك العادل في سنة أربع وعشرين، واستخدم فيه أبو كوجك اليهودي، ثم أبطل في سنة ست وعشرين وستمائة فلم يعد، واستخدم في أيام السلطان الملك المعز أيبك صفى الدين عبدالله بن علي المغربي في استيفاءمقابلة الدواوين، وهو نوع منه.

ذكر حل الاقطاعات وتحويل السنة

وفي سنة إحدى وخمسمائة كثرت شكاوى الأجناد وطائف العساكر المصرية بسبب إقطاعاتهم، وأنها خربت وقل ارتفاعها، وأنها لاتقوم ببعض كلفهم، وأن الاقطاعات التي بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع، فأحضر الأفضل محمد بن فاتك البطائحي، وهو وزيره واستاذ داره، واستشاره فيما يفعل في ذلك، فأشار بحل جميع الإقطاعات التي بيد الأمراء وغيرهم، وأن يجمع الأمراء والطوائف للمزايدة فيها، فاتفق الرأي على ذلك.

وأحضر الأمراء والأجناد في دار الوزارة، وتحدث معهم في ذلك، فقال الأمراء: لنا في إقطاعاتنا أملاك وبساتين ومعاصر وغيرها، فقال الأفضل: الأملاك لملاكها على حالها يتصرفون فيها بالبيع والإيجار.

ثم حل الإقطاعات ووقعت الزيادة فيها، وتميز لكل منهم إقطاع، وكتبت المناشيربذلك، ثم شكي إليه كثرةعبرة البلاد وأن متحصلها

لايفي بالعبرة وحصل لديوا ن السلطان ضياع ،مقورة عبرتها خمسون ألف دينا ر في كل سنه.

ونقلت السنة الشمسية الخراجية إلى الهلالية، وكانت سنة إحدى وخمسمائة الهلالية وسنة سبع وتسعين وأربعمائة الخراجية فنقلت إلى سنة إحدى وخمسمائة

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة أغار بغدوين ملك الفرنج على الفرما وقتل جميع من بها، وأحرق جامعها ومساجدها، وذلك بعد أن حاصرها أياما، والفرما كانت بلدة بين القصير والغرابي من منازل الرمل، وهي الآن خراب. وقصد بغدوين مصر فرحل عن الفرما، ورجع إلى البيت المقدس، وهو مثقل بالمرض، فهلك بموضع يقال له جور قبل وصوله إلى العريش. فشق الفرنج بطنه وألقوا مصارينه هناك، فهى ترجم إلى وقتنا هذا، ودخلوا بجثته، فدفنوها بقمامة بالبيت المقدس

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة رتب ذخيرة الملك جعفر في ولاية القاهرة، ونظر الحسبة وظلم وعسف، وهو الذي بنى المسجد بسوق الخيل المعروف: بالذخيرة، ومسجد «لابالله» (١٠)، وسبب تسميته بذلك أنه كان يقبض الناس من الطريق ويعسفهم، فيقولون له: لا بالله، فيقيدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة، ولم يعمل فيه صانع إلا وهو مكره مقيد. فابتلى الله ذخيرة الملك بأمراض شديدة، ولما مات تجنب الناس الصلاة عليه وتشييعه.

ذكر نهب ثغر عيذاب

وفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة عمر الشريف أبو محمد قاسم بن أبي هاشم، أمير مكة، مراكب حربية وشحنها بالمقاتلة وسيرهم إلى عيذاب،

فنهبوا مراكب التجار وقتلوا جماعة منهم، فحضر من سلم من التجار إلى باب الأفضل، وشكوا ما حل بهم فأمر بعمارة حراريق يجهزها، ومنع الناس أن يحجوا في سنة أربع عشرة، وقطع الميرة عن الحجاز، فغلت الأسعار، وكان الأفضل قد كتب إلى الأشراف بمكة يلومهم على فعل صاحبهم، فكتب الشريف إلى الأفضل يعتذر ، والتزم برد المال إلى أربابه، ومن قتل من التجار فماله لورثته، وأعاد الأموال في سنة خمس عشرة

ذكر مقتل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الأحد سلخ شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة، وقد ركب من دار الملك بمصر فقتل عند كرسي الجسر، قتله الباطنية. قيل بمواطأة من الآمر ، لأنه كان قد ضاق منه لتحكمه عليه ومنعه من شهواته، فقصد اغتياله إذا دخل عليه للسلام، فمنعه أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم، ابن عمه، وقال: إن هذا الأمر فيه من قبح الأحدوثة وسوء الشناعة ما لاتحمد عاقبته، لأن هذا الرجل ما عرف له ولا لأبيه إلا المودة في خدمة هذا البيت والذب عنه، وإن قتلناه لا غنية أن نولي منصبه لغيره، فيكون المتولى بعده على وجل واحتراس، وإنما الرأي أن ندبر عليه فدبر عليه حتى قتل. هذا أحد الأقوال في قتله.

قال: ولما وثب الباطنية عليه ضرب ثماني ضربات، لوقته، وحمل على أيدي مقدمي ركابه، والقائد الميمون محمد وأخوته لا يمكنون أحدا من الدنو منه، وهم يبشرون الناس بسلامته، حتى وضعوه على سريره وغطي، ونفذ المأمون أخاه حيدرة إلى الآمر يقول له: أدركني وتسلم ملكك لئلا أغلب عليه أنا وأنت، وأوصاه أن يهنيء من وجده بسلامة الأفضل، ففعل حيدرة ذلك، وهنأ حرم الأفضل وغيرهم. فعزم أولاده على إثارة

فتنة وأنهم يطلبون الأمر لأخيهم تاج المعالي، فأمر الآمر بحمل أولاد الأفضل إلى الاعتقال بخزانة البنود، فحملوا إليها، وبات الآمر بدار الملك.

قال: وكان الأفضل حسن الاعتقاد في مذهب السنة، جميل السيرة، مؤثرا للعدل، صائب الرأي والتدبير، حسن الهمة، كريم النفس، صادق الحديث.

ونال الناس بعد قتل الأفضل من الظلم والجور والعسف ما لا يعبر عنه.

فجاء الناس إلى باب الآمر واستغاثوا، ولعنوا الأفضل وسبوه أقبح سب، فخرج إليهم الخدم وقالوا: مولانا يسلم عليكم ويقول لكم: ما السبب في سب الأفضل وقد كان قد أحسن إليكم وعدل فيكم؟ فقالوا: إنه عدل وتصدق وحسنت آثاره، ففارقنا بلادنا حبا لأيامه، وأقمنا في بلده فحصل بعده هذا الجور، فهو السبب في خروجنا عن أوطاننا واستقرارنا ببلده

قال المؤرخ: لما قتل الأفضل أحضر الآمر وزيره الشيخ أبا الحسن علي الحلبي،والقائد أبا عبد الله محمدوسألهما عن الاموال، فقال القائد أما السر فأعلمه،وأما الظاهر.فالوزير يعلمه، وأخبراه بذخائره وأمواله، وأقام الآمر في دور الأفضل، وهي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة، وغيرهما، أربعين يوما، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقلونه إلى القصور، فوجد له من الذخائر النفيسة ما لايحصى.

وذكر أن الذي وجد له من الأموال ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت البراني ثلاثة آلاف.ألف ومائتان وخمسون دينار، وخمسون أردبا دراهم، وثلاثون راحلة من الذهب

العراقي المغزول برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير من الذهب، زنة كل مسمار مائتا مثقال، عليها العمائم المختلفة الألوان مغطاة بالمناديل المزركشة، وتسعمائة ثوب من الديباج الملون، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة جسده، ولعبة من العنبرعلى قدر جسده برسم ثيابه توضع ثيابه عليها لتكتسب رائحتها، وترك من الطيب والآلات والنحاس ما لايحصى.

وترك من الأبقار والجواميس والأغنام ما بلغ ضمان ألبانها ونتاجها أربعين ألف دينار في السنة. وكانت الدواةالتي يكتب منها مرصعة بالجواهر، فقوم ما عليها من الجواهر باثني عشر ألف دينار، وخلف من ا لكتب خمسمائة ألف مجلد.

وحكى القاضي زكي الدين أبو زكريا يحيى بن علي الدمشقي في تاريخه عما خلفه الأفضل فقال: خلف جملة لم يسمع أحدا من الملوك والخلفاء في هذا الزمان جمع مثله ولاادخر مثل بعضه: وأن الآمر بأحكام الله شرع في حمل ما في دوره إلى القصر، فحمل على عدة كثيرة من الجمال والبغال، ونقل في شهرين وأيام

قال: وحكى الدينبلي التاجر الآمدي أن متولي الخزانة بالقصور ذكر له جملا مما حمل من موجوده في الدار، منها ستة آلاف ألف وأربعمائة دينار، ومن الورق ما قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق، ومن الآلات مثل أتوار واصطال وصحاف وشربات وأباريق وزبادي وقدور، وقطع من الفضة والذهب مختلفة الأجناس ما لايحصى كثرة، وبراني[11] صيني كبار، وعيبات مملوءة جواهر، ومن أصناف الديباج والعتابي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن مملوءة صناديق كلها من الدبيقي والشرب استعمال تنيس ودمياط، وخزانة الطيب مملوءة أسفاطا، وعود، وبراني مسك ونوافج،

وبراني زجاج مملوءة من الكافور القنصوري، غير مصاعد، ومن العنبر ما لايحصى كثرة.

وكان له مجلس يجلس فيه للشراب فيه صور ثماني جواري متقابلات، أربع منهن بيض من كافور وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلي وأحسن الجواهر، فكان إذا دخل باب المجلس نكسن رؤوسهن خدمة له، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات. ووجد له من المقاطع والستور، والديباج والدبيقي الحريري، والذهب، والفرش، والمخاد والمساند على اختلاف أجناسها، أربع حجر كل حجرة مملوءة من ذلك، وعدة صناديق مملوءة حقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال. ووجد له ثمانمائة جارية منهن حظايا خمس وستون، لكل جارية حجرة وخزانة مملوءة من الكساوى، والآلات الديباج والذهب والفضة ، ومن كل صنف.

قال الخازن: هذا ما حضرني حفظه مما في داره، وأما ما كان في مخازنه وتحت يد عماله وجباته وضمان النواحي فما لايحصى كثرة، من الأموال والغلال والحبوب والقطن والكتان، والشمع والحديد، والأخشاب وغير ذلك وكل نوع منه ما يجاوز الحد والاحصاء، ولايمكن تحرير حسابه إلا في المدة الطويلة

وأما العدد والخيول والسلاح والبقر والغنم، فقال الخازن لم تتحررلكثرتها، وقال حمل من داره أربعة آلاف بساط، وستون حمل طنافس، وخمسمائة قطعة بلور كبار وصغار، وخمسمائة قطعة محكم، وألف عدل من متاع اليمن والاسكندرية والغرب، وسبعة آلاف مركب من أصنافها.

وأما ما عمره من المساجد فمنها: جامع الفيلة، وقيل إنه لم يكمله .

وحكى الشريف محمد بن أسعد الجواني في كتابه المترجم بالنقط في ذكر الخطط أن جامع الفيلة بناه الأفضل في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، وأن الأفضل مات ولم يكمله فكمله المأمون في وزارته، وولى خطا بته الشريف أمين الدولة أبا جعفر، محمد بن محمد بن هبة الله الحسيني الطرابلسي النسابة وأمر أن يحضر جميع وجوه الدولة والرؤساء في أول جمعة، فحضروا. فلما رقا الشريف المنبر قال: «الحمد لله» ، وارتج عليه ودهش، فلم يزل يكررها إلى إلى أن أضجر الناس، وقد هم ، ومضى إلى داره، فاعتل ومات في سنة سبع عشرة وخمسمائة، ومنها المسجد الذي على جبل المقطم، وبنى في جامع عمرو بن العاص المئذنة الكبيرة والمئذنة السعيدية والمئذنة المستجدة وجامع الجيزة ، وغير ذلك .وهو الذي أنشأ التاج والخمسة وجوه.

قال ناظم سيرة المأمون: وعمل الأفضل خيمة سماها خيمة الفرح، ثم سميت بالقاتول لأنها كانت إذا نصبت يموت تحتها من الفراشين رجل أو رجلان اشتملت على ألف ألف ذراع (وأربعمائة ألف ذراع) وكان ارتفاعها خمسين ذراعا بذراع العمل، أنفق عليها عشرة آلاف ألف دينار

ومدحه جماعة من الشعراء وذكروا هذه الخيمة، منهم أبو جعفر محمد ابن هبة الله الطرابلسي بقصيدته التي يقول فيها:

ضربت خيمة عز في مقر علا
أوفت على عذبات الطود ذي القنن

جاءت مدى الطرف، حتى خلت ذروتها
تأوي من الفلك الأعلى إلى سكن

أقطارها ملئت من منظر عجب
يهدي إليك ذكاء الصانع الفطن

فمن رياض سقاها القطر صيبه
فما بها ظمأ يوما إلى المزن

وجـامـح في عنـان لا يجاذبـه
وطـائر غير صـداح على فنـن
وأرقـم لا يمـج السـم ريقتـه
وضيغـم ليـس بـالعـادي ولا الـوهـن
ومـائلين صفـوفـا في جـوانبهـا
لـو يستطيعـون خـروا الجمـع للـذقـن
زينـت بـأروع لا تحصـى فضـائلـه
مـاض مـن المجـد والعليـاء في سنـن
وأطلـع الـدسـت فيهـا شمـس مملكـة
يـرى التـأمـل فضـل العين والأذن
وعـد على السعـد أن النصر يضربها
بـالصين، بعـد فتـوح الهنـد واليمـن

وقال أبو علي حسن بن زيد الأنصاري، الكاتب بديوان المكاتبات، يصفها ويمدح الأفضل:

مهـلا فقـد قصرت عـن شـأوك الأمـم
وأبـدت العجـز منهـا هـذه الهمـم
أخيمـة مـا نصبـت اليـوم، أم فلـك
ويقظـة مـا نـراه منـك أم حلـم؟
مـا كـان يخطـر في الأفكـار قبلـك أن
تسمـو على أفـق النهـى الخيـم
حتـى أتيـت بها شماء شـاهقـة
في مـارن الـدهـر مـن تيـه بها شمـم
إن الـدليـل على تكـوينهـا فلكـا
أن احتـوتـك، وأنـت النـاس كلهـم

ومنها:

لـديـك جيش، وجيـش في جـوانبهـا
مصـور وكـلا الجيشين مـزدحـم

إذا الصبا حركتها ماج موكبها
فمقدم منهم فيها ومنهزم
أخيلها خيلك اللاتي تغير بها
فليس تنتزع عنها الحزم واللجم

علمت أبطالها أن يقدموا أبدا
فكلهم لغبار الحرب مقتحم
أمنتهم أن يخافوا سطوة لردى
فقد تسالمت الأسياف والقمم
كأنها جنة، والقاطنون بها
لا يستطيل على أعمارهم هرم
علت. فخلنا لها سرا تحدثه
للفرقدين وفي سمعيهما صمم
إن أنبتت أرضها زهرا فلا عجب
وقد همت فوقها من كفك الديم

قال المؤرخ: وكان للأفضل شعر حسن، فمن قوله في غلامه المعالي:
أقضيب يميس، أم هو قد
أم شقيق يلوح أم هو خد
أنا مثل الهلال سقما عليه
وهو كالبدر حين وافاه سعد

وكانت ولاية الأفضل سبعا وعشرين سنة وخمسة أشهر.

ذكر تفويض أمور الدولة وإمرة الجيوش للمأمون البطائحي

قال المؤرخ: وفي الخامس من ذي الحجة من سنة خمس عشرة وخمسمائة فوض الآمر بأحكام الله أمور الدولة وإمرة الجيوش للقائد أبي عبد الله محمد بن الأمير ثقة الدولة أبي شجاع فاتك بن الأمير منجد

الدولـة أبي الحسن مختار المستنصري المعروف بـابن البطائحي، وكـان قبل ذلـك عند الأفضـل أستـاذ داره، واستقرت نعـوتـه في سجله المقـروء على كافـة الأمراء والأجناد« بـالأجل المأمون، تـاج الخلافة، وجيه الملـك، فخر الصنائع، ذخر أمير المؤمنين». ثـم نعت بعد ذلك « بالأجـل المأمون، تاج الخلافة، عـز الإسلام، فخر الأنـام، نظام الدين والـدعاة». ثم نعـت بعد ذلك بنعوت الأفضـل وهي: « السيد الأجل المأمـون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين»

قال نـاظم سيرة المأمـون: ولما كان يـوم الثلاثـاء الثالـث عشر من ذي الحجة من السنـة، وهو يوم الهناء بعيد النحر، جلـس المأمون في داره وقت أذان الفجر، وجـاء الناس لخدمته للهنـاء على طبقاتهم في أربـاب البيوت والأقلام، ثـم الشعراء، وركـب الى القصور، فـأتى بـاب الذهـب، فوجـد المرتبـة المختصة بـالـوزارة قد هيئـت له في مـوضعهـا الجاري به العـادة، وأغلق الباب الذي عندها على الرسـم المعتاد لوزير السيف والقلم، وهذا الباب يعرف بباب السرداب، فلما شاهد المرتبـة توقف عن الجلوس عليها لأنه لم يـذكر له ذلـك قبل حضـوره، ثم ألجأته الضرورة، لأجـل حضور الأمراء،إلى الجلـوس عليها فجلس وأولاده الثلاثـة عن يمينه، وأخـواه عن يساره، والأمـرء المطوقون خاصـة قائمون بين يـديه، ومن عداهـم لايصل إلى هـذا الموضـع، فما كان بـأسرع مـن أن فتـح البـاب وخرج عـدة مـن الاستاذين المحنكين،وخرج إليه الأمير الثقة متـولي الرسالة وزمام القصور. فـوقـف أمام المرتبـة وقـال: أمير المؤمنين يـرد على السيد الأجـل المأمـون السـلام، فوقـف المأمـون عند ذلـك وقبـل الأرض، وجلـس في موضعـه، وتـأخر الأمير الثقـة حتى نـزل من على المصطبـة التي عليهـا المرتبةوقبـل الأرض ويد المأمـون، ودخل مـن فوره مـن الباب، وأغلـق الباب،على مـا كان عليه الأفضل.

قال: وكـان الأفضل يقـول: ما أزال أعد نفسي سلطـانا حتـى أجلس

على تلك المرتبة ويغلق الباب في وجهي، والدخان في أنفي، لأن الحمام كانت خلف الباب في السرداب

قال: ثم فتح الباب وعاد الثقة وأشار بالدخول إلى القصر، فدخل المأمون إلى المكان الذي هيء له، ودعي لمجلس الوزارة، وبقي الأمراء بالدهاليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح المقرئون. واستدعى المأمون فحضر بين يديه وسلم عليه أولاده وإخوته، ثم دخل الأمراء وسلموا على طبقاتهم، ثم الأشراف وديوان المكاتبات والانشاء، ثم قاضي القضاة ، والشهود، والداعي، ثم مقدموا الركاب ومتولي ديوان المملكة.

ثم دخل الأجناد من باب البحر، وهو الباب الذي يقابل المدرسة الكاملية الآن، ثم دخل والي القاهرة ووالي مصر وسلما ببياض أهل البلدين، ثم البطرك والنصارى والكتاب منهم، وكذلك رئيس اليهود.

ودخل الشعراء على طبقاتهم، وأنشد كل منهم ما سمحت به قريحته.

وكانت هذه عادة السلام على ملوك هذه الدولة، وإنما أوردنا ذلك ليعلم منه كيف كانت عادتهم

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة

ورد إلى الديار المصرية طائفة كثيرة من عرب لواته من جهة المغرب ، وانتهوا إلى الاسكندرية وأعمالها، وأفسدوا فسادا متحكما، فندب المأمون إليهم أخاه نظام الملك حيدرة، الملقب بالمؤتمن، فقاتلهم وهزمهم ، وغنم أموالهم، وتوجه إلى الاسكندرية ودخلها ، فصادف مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وأسروا، فخرج إليهم، وحاربهم وهزمهم، فعادوا.

-١٠٤٨٤-

ذكر القبض على المأمون

قال: وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة في يوم السبت لأربع خلون من شهر رمضان قبض الآمر بأحكام الله على وزيره المأمون أبي عبد الله محمد وعلى أخوته ، وثلاثين نفرا من خواصه وأهله، واعتقله، ولم يزل في اعتقاله إلى سنة اثنتين وعشرين ، فصلبه مع اخوته.

وقيل في سبب ذلك أن المأمون راسل الأمير جعفرا، أخا الآمر، وأغراه بقتل أخيه وأنه يقيمه مكانه في الخلافة، واستقرت القاعدة بينهما على ذلك، واتصل ذلك بالشيخ أبي الحسن علي بن أبي أسامة، متولي ديوان المكاتبات، وكان خصيصا بالآمر قريبا منه، وناله من المأمون أذى كثير، فاعلم الآمر بالحال. وكان المأمون كثير التطلع لأخبار الناس والبحث عن أحوالهم، وكثر الوشاة في أيامه.

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل: كان ابتداء حال المأمون أن والده كان من جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا فاتصل ببعض البنائين بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير، فدخل مع الحمالين الى دار الأفضل مرة بعد أخرى، فرآه الأفضل خفيفا رشيقا، حسن الحركة، حلو الكلام والحجةفسأل عنه، فقيل هو ابن فلان، فاستخدمه مع الفراشين. ثم تقدم عنده وكبرت منزلته وعلت درجته، الى أن انتهى الى ما ذكرنا.

قال محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر : إن ابن الأثيروهم في وفاة والد المأمون، وأن والده مات في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، والمأمون إذ ذاك مدبر دولة الأفضل، وأكثر الناس ينكرون ما ذكره ابن الأثير.

وقال صاحب كتاب البستان في حوادث الزمان: إن المأمون كان يرش بين القصرين، وجده من غلمان المستنصر بالله. والله اعلم.

ذكر اخبار أبي نجاح بن متى النصراني الراهب وقتله

كان هذا الراهب من أهل أشموم طناح، وكان قد خدم ولي الدولة يحنا بن أبي الليث، ثم اتصل بالخليفة الآمر بعد القبض على المأمون، وبذل في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم، وتسلسل الأمر إلى أن عم البلاء منه جميع رؤساء الديار المصرية وقضاتها وكتابها وغيرهم، ولم يبق أحد إلا ناله منه مكروه من الضرب والنهب وأخذ المال، وارتفع شأنه عند الآمر حتى كان يعمل له ملابس مخصوصة به بدمياط وتنيس من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب، فكان يلبسها ، ويلبس من فوقها الغفافير الديباج، وكان يتطيب في كل يوم بعدة مثاقيل من المسك.وكان يركب الحمير بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويجلس في قاعة الخطابة بالجامع العتيق بمصر ويستدعي الناس للمصادرة. فاستدعى في بعض الأيام رجلا يعرف بابن العرس وكان من أكابر العدول ذوي الهيئات والديانة، والناس يعظمونه ويبجلونه وأوقع به الاهانة والإخراق، فخرج من عنده ووقف في الجامع يوم الجمعة وقال: يا أهل مصر، انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه هذا النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنة،فدخل جماعة على الآمر وخوفوه العاقبة، وعرفوه ما حل بالمسلمين منه فاستدعاه، وكان في المجلس رجل من الأشراف، فانشد الآمر أبياتا منها:

إن الذي شرفت من أجله
يزعم هذا أنه كاذب

فقال له الآمر: ما تقول يا راهب؟ فسكت. فأمر به فقتل، وكان الذي تولى قتله الأمير مقداد والي مصر، وصلبه على الجسر، ثم أنزل وربط على

خشبلة ورمي في بحر النيل، وخرجت الكتب إلى الأعمال البحرية أنه إذا ألقاه الماء إلى جهة أخرجوه عنها حتى ينتهي الى البحر المالح.

ولما قتل هذا الراهب وجدوا له مقطعا فيه ثلاثمائة طراحة سامان محشوة، جددا، لم تستعمل، هذا من هذا النوع، خلا ما وجد من الذهب والفضة والأقمشة والديباج.

ذكر مقتل الآمر بأحكام الله وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، بجزيرة مصر بالقرب من المقياس، وثب عليه عشرة نفر من النزارية وقتلوه، فحمل في جل الى الجامع، ونقل في مركب عشاري، وأحدر الى اللؤلوة في الخليج، ثم حمل الى القصر، فتوفى بقية يومه. وقتل القوم الذين قتلوه وكان مولده في يوم الثلاثاء لليلة خلت من المحرم سنة تسعين وأربعمائة وقتل في يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم منه، فكان عمره أربعا وثلاثين سنة وعشرة أشهر، وولايته تسعا وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف شهر، وكان محكوما عليه إلى أن قتل الأفضل وتولى المأمون فظهر أمره، وصار يتصرف (ويركب) في يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الثلاثاء، وإذا لم يركب في يوم منها ركب في غيره. ولم يستوزر بعد المأمون وزيرا للسيف والقلم، بل استبد بأموره وباشرها بنفسه.

وكان قبيح السيرة في رعيته، يظلمهم ويأخذ أموالهم ويغتصب أملاكهم، وسفك دمائهم، وارتكب المحذورات، واستحسن القبائح، ويكفي من سوء سيرته تمكينه الراهب من المسلمين، وقد تقدم خبره.

وولد للآمر في هذه السنة ولد سمي أبا القاسم الطيب وجعله ولي عهده، فأخفاه الحافظ.

وزراؤه : الأفضل، ثم المأمون.

قضاته: ابن ذكا النابلسي إلى أن رفع ابراهيم بن حمزة الشاهد الى الأفضل أمير الجيوش أنه أحدث في مجلس الحكم فعزله، وولى أبا الفضل نعمة ابن بشير الجليس النابلسي إلى أن استقال، فولى الرشيد أبا عبد الله محمد ابن قاسم الصقلي إلى أن توفي، فأعاد الجليس ثم صرفه، وولى أبا الفتح مسلم، فبقي إلى أن تولى المأمون فعزله ونفاه لما أخطأ في قراءته، وولى أبا الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسي إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، فولى الآمر أبا عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني، فاستمر إلى أن قتل الآمر بأحكام الله.

ذكر بيعة الحافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، وهو الحادي عشر من ملوك الدولةالعبيدية، والثامن من ملوك الديار المصريةمنهم. بويع له بعد مقتل ابن عمه الآمر، في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، بولاية العهد إلى أن يستبرىء نساء الآمر، وهل فيهن من هي مشتملة على حمل أم لا.

ذكر قيام أحمد بن الأفضل الحافظ وما كان من أمر أحمد إلى أن قتل

قال المؤرخ: لما بويع الحافظ لدين الله ثار الجند الأفضلية وأخرجوا ابن مولاهم، أبا علي أحمد بن الأفضل ، الملقب بكتيفات، وولوه إمرة الجيوش، وذلك في يوم الخميس السادس من ذي القعدة منها، فحكم، واعتقل الحافظ صبيحة يوم بيعته، ودعا للإمام المنتظر، وقوي أمر ابن الأفضل.

وفي سنة خمس وعشرين رتب أحمد بن الأفضل في الأحكام أربعة قضاة: الشافعية، والمالكية، والإسماعيلية،والإمامية، يحكم كل قاضي بمقتضى مذهبه ويورث بمقتضاه، فكان قاضي الشافعية الفقيه سلطان(١٢) وقاضي المالكية اللبني(١٣) وقاضي الاسماعلية أبو الفضل(١٤) ابن الأزرق، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل(١٥)

وسار أحمد بن الأفضل سيرة جميلة بالنسبة إلى أيام الآمر، ورد على.

الناس بعض مصادراتهم، وأظهر مذهب الإمامية الاثني عشرية، وأسقط من الأذان قولهم«حي على خير العمل»، وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر بدعاء اخترعه لنفسه وهو «السيد الأجل الأفضل، مالك أصحاب الدول، والمحامي عن حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين، الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم بنصرته بماضي سيفه، وصائب رأيه وتدبيره، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش»واستمر أمره إلى يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة. فاتفق ركوبه في هذا اليوم إلى الميدان بالبستان الكبير ظاهر القاهرة، للعب بالأكرة على جاري عادته، فوثب عليه مملوك رومي وقيل بل من صبيان الخاص،فطعنه طعنة ألقاه بها عن فرسه، ونزل واحتز رأسه، ومضى به إلى القصر، وذلك بموافقة من الأجناد، فكانت مدة تغلبه على الأمر سنة واحدة وشهرين وثلاثة عشر يوما، ودفن بتربة أبيه خارج باب النصر.

ذكر بيعة الحافظ لدين الله الثانية

قال: ولما قتل أحمد بن الأفضل بويع الحافظ بالخلافة بيعة عامة، وظهر الحمل المنتظر بنتا، فانتقلت الخلافة إليه وأمر أن يدعى له على المنابر: اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره، وجعلته آية لمن يدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا، عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين

قال: ولما تم أمر الحافظ استوزر أبا الفتح يانس، وهو رومي من مماليك الأفضل، ولقبه بأمير الجيوش، فقتل الطائفة المعروفة بصبيان الخاص، ومن جملتهم قاتل أحمد بن الأفضل، وكان عظيم الهيبة، بعيد الغور، فخافه الحافظ وتخيل منه، وتخيل يانس أيضامن الحافظ،فدبر كل واحد منهما على صاحبه ، فسبق تدبير الحافظ فيه فسمه في ابريق استعمل الماء منه عند الطهارة فعولج وكاد أن يبرأ. فكلم الحافظ بعض الأطباء، فقال له الطبيب: إن رأى مولانا أمير المؤمنين أن يمضي إليه ويزوره ويهنئه بالعافية فإنه لابد أن ينهض إليك ويمشي،فإذا مشى لايكاد يعيش أبدا. فمضى إليه الحافظ فقام إليه وتلقاه، فمات في ليلته، وذلك في السادس والعشرين من ذي الحجة فكانت مدة وزارته تسعة أشهر.

ذكر الخلف بين ابنى الحافظ لدين الله

قال المؤرخ: وفي شعبان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة جرى بين أبي تراب حيدرة وحسن، ولدي الحافظ، حرب شديدة، وافترقت العساكر على فرقتين،وهما الريحانية والجيوشية، وكان بينهما وقعة في خامس شهر

رمضان، ووقع الحرب بينهما بين القصرين، وقتل من الطائفتين تقدير عشرة آلاف إنسان. وكان سبب ذلك أن الحافظ جعل ولده حيدرة ولي عهده من بعده، فلم يرض حسن بذلك ، فوقع الاختلاف والحرب بينهما. واستظهر حسن على أخيه حيدرة، فهرب حيدرة إلى أبيه، فأرسل الحافظ إلى ابنه حسن ليدخل إليه، فامتنع وضايق القصر، وطالبه بأخيه حيدرة، فتلافاه الحافظ وجعله ولي عهده من بعده. وتمكن حسن من الدولة والتصرف فيها بحسب رأيه، ولم يبق للحافظ معه حكم.

ذكر مقتل حسن بن الحافظ

كان مقتله في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وذلك أنه لما استقر في ولاية العهد والوزارة والتدبير واستبد بالأمر، قبض على جماعة من الأمراء وقتلهم، بسبب قيامهم مع أحمد بن الأفضل، وأقام غيرهم، فخافه من بقي من الأمراء العتق، وأجمعوا على خلع أبيه من الخلافة وولده حسن من الوزارة، فاجتمعوا بين القصرين ، وراسلوا الحافظ، وأعلموه بما أجمعوا عليه فاستعطفهم الحافظ واعتذر إليهم، وهرب حسن إلى أبيه، فقبض عليه وقيده، وذكر ذلك للأمراء، فقالوا: لابد من قتله، فسقاه أبوه سما فمات، وجعله على سرير، وأمره الأمراء بمشاهدته، فدخلوا عليه ورأوه فسكتوا. وقيل إن قيام الأمراء كان بتدبير الحافظ

ذكر وزارة بهرام الأرمني

وفي يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وقيل لإحدى عشرة ليلة خلت منه، استوزر الحافظ بهرام الأرمني النصراني، ونعته بسيف الإسلام تاج الملوك، وكان بهرام المذكور قد وصل الى الديار المصرية واجتمع بالحافظ، فرأى منه عقلا وافرا وإقداما في الحرب، وحسن تدبير.

وكان سبب وصوله من بلاده أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه من غيره، فعدل الأرمن عنه وولوا غيره، فغضب لذلك وخرج من تل باشر وقدم مصر، فعينه الحافظ للوزارة، واستشار بعض أهله وأكابر دولته فيه، فكلهم كره ذلك وأشار عليه ألا يفعل، وقالوا: إنه نصراني لا يرضاه المسلمون، وإن من شروط الوزارة أن الوزير يرقى المنبر مع الإمام في الأعياد ليزر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس، وأن القضاة هم نواب الوزراء، من زمن أمير الجيوش بدر الجمالي،ويذكرون في النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة عنهم إلى الآفاق وكتب الأنكحة. فقال الحافظ: إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا، وهو وزير السيف؟ وأما صعود المنبر فيستنيب عنه فيه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة الى ذلك'. واستوزر والناس ينكرون ذلك عليه.

وقال بعض المؤرخين: إن بهرام كان والي الغربية يومئذ، وأنه سار منها مجدا الى أن وصل إلى القاهرة وحاصرها يوما واحدا ودخلها، فلما ولي الوزارة وثبتت بها قدمه سأل الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك. فأرسل إليهم وأحضرهم من تل باشر، فتواصلوا حتى كمل منهم ومن غيرهم من الأرمن تقدير ثلاثين ألف إنسان، فاستطالوا على المسلمين. وبنيت في أيامه كنائس كثيرة وديرة حتى إن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة، وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا الملة الإسلامية. وكثرت الشكايات فيه. وكان أخوه المعروف بالباساك، وإليه تنسب المنية (١٦) التي بالقرب من إطفيح(١٧) ، قد ولي الأعمال القوصية فجار فيها جورا عظيما واستباح الأموال، فعظم ذلك على الناس

ذكر خروج بهرام من الوزارة ووزارة رضوان بن الولخشي

قال: ولما ثقلت وطأة بهرام على الناس اجتمع الأمراء وكاتبوا رضوان ابن الولخشي، وذلك في صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وكان يومئذ

متولي الغربية ولاه بهرام إياها إبعادا له، فلما أتته كتب الأمراء نهض في طلب الوزارة، ورقى المنبر، وخطب خطبة بليغة حرض الناس فيها على الجهاد، فأجابوه، وحشد العربان وقدم الى القاهرة ، وكان الأمراء قد كاتبوه وقالوا: إذا وقع الوجه في الوجه ارفع المصاحف على الرماح فإنا ننحاز إليك، ففعل ذلك، وخرج بهرام إليه لما قرب من القاهرة، فلما عاين الأمراء والجند المصاحف التحقوا جميعهم برضوان، وبقي بهرام في الأرمن خاصة. فراسل الحافظ وقال: أنا ألقاهم بمن معي؟ فخاف الحافظ عاقبة ذلك، فأمره أن يتوجه الى قوص ويقيم عند أخيه الباساك الى حين يدبر أمرا. فعاد بهرام الى القاهرةوأخذ ما خف حمله، وخرج من باب البرقية في حادي عشر جمادى الأولى، وتوجه الى الأعمال القوصية.

قال: ولما انفصل عن القاهرة أتت العوام منازل الأرمن ، وكانوا قد نزلوا الحسينية وعمروها دورا. ولما اتصل بأهل قوص انهزام بهرام ثاروا بأخيه الباساك وقتلوه ومثلوا به، وربطوا في رجليه كلبا ميتا، ورموه على مزبلة. فقدم بهرام بعد ذلك بيومين، ومعه طائفة من أقاربه، فرأى الباساك على هذه الحال، فقتل جماعة من أهل قوص بالسيف ونهبها وسار إلى أسوان. ثم رجع ونزل بالديرة البيض، وهي من أعمال أخميم بالجانب الغربي.

قال: ولما فارق بهرام القاهرة دخلها رضوان ووقف بين القصرين، وأستأذن الحافظ فيما يفعله، فأمره بالنزول بدار الوزارة، فنزلها، وخلع عليه خلع الوزارة، ونعته بالأفضل. وندب رضوان جماعة من العسكر مع أخيه ناصر الدين، فتوجهوا إلى بهرام ، فاستقر الأمر بينهم أن يقيم بالديرة البيض، وعاد الجند الذين مع بهرام إلى مصر.

ودبر رضوان الأمر أحسن تدبير، وصادر جماعة من أصحاب بهرام وشدد عليهم الطلب ، وقتلهم بالسيف.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

أحضرت من تنيس امرأة بغير يدين، وموضع يديها مثل الحلمتين، فجيء بها إلى مجلس الوزارة بين يدي رضوان، فعرفته أنها تعمل برجليها ما يعمله الناس باليدين من خط ورقم وغير ذلك، فأحضر لها دواة، فتناولت الأقلام برجلها اليسرى وتأملتها قلما قلما فلم ترض شيئا منها، فأخذت السكين وبرت لنفسها قلما وشقته وقطته، واستدعت ورقة فأمسكتها برجلها اليمنى، وكتبت باليسرى بأحسن خط ما تكتب النساء بأيديهن مثله، وحمدت الله في آخر الرقعة، وناولتها للوزير. فتناولها فوجدها قد سألته الزيادةفي راتبها، فزادها، وأعادها الى بلدها.

وفيها بنى رضوان المدرسة المعروفة به بالاسكندريةواستدعى الفقيه أبا طاهر بن عوف إلى حضرته وأسند إليه تدريسها.

ذكر خروج رضوان من الوزارة وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة أحضر الحافظ بهرام الأرمني من الصعيد، وأسكنه في القصور وأكرمه، فعظم ذلك على الأفضل رضوان، فشغب الحافظ عليه الجند، فقام بعضهم عليه، وجرت بينهم حرب بالقاهرة. وطلب رضوان أن يسكن مع الحافظ في القصور، فلم يمكنه، فتزايد الحال على الأفضل وضعفت قدرته عن لقاء العساكر، فهرب إلى الشام، وذلك في منتصف شوال منها، وقصد كمشتكين والي صرخد، فأقام عنده فأكرمه. ثم عاد الى مصرفي سلخ المحرم سنة أربع وثلاثين وقد جمع جمعا صالحا من الجند، فخرج إليه العسكر وحاربوه عند باب الفتوح، فمضى ونزل عند الرصد، ثم مضى الى الصعيد، فندب إليه الحافظ الأمير سيف الدولة أبا الفضل بن مصال بأمان،فسار

إليه وتلطف بـه، إلى أن أحضره الى القصر، في رابع شهر ربيع الآخـر من السنـة، فاعتقلـه في بعض قـاعات القصـور. فأقـام في الاعتقال إلى سنـة اثنتين وأربعين، فخرج مـن نقب نقبـه في القصر، وذلك في ليلـة الثلاثـاء لسبع بقين مـن ذي القعدة منها.وركـب وحوله جماعـة ممن كان يكـاتبه، وتوجه إلى الجيـزة، ولقي عسكر الحافظ وقاتلهـم عند جامع ابـن طولون، فهـزمهم . ودخـل القاهـرة، ونزل بـالجامـع الأقمر، وأغلـق الحافظ بـاب القصر في وجهـه، فـاستحضر رضوان أربـاب الـدولـة والدواويـن، وأمـر ديوان الجيـش بعرض الجنـد، فعرضهـم، وأخذ أمـوالا كثيرة خارجـة عن الحصر كانـت في الدواوين، وأنفق، وأرسـل إلى الحافظ في طلـب المال، فأرسـل إليه عشرين ألـف دينار. وأمر الحافظ مقـدمي السودان بـالهجوم على رضـوان وقتله،فهجمـوا عليـه، فهم بـالركـوب، فـأعجلوه عن ذلك، وضربـه بعضهم بسيـف فقتله. وقتـل معـه أخوه، وأحضرت رأسـاهما الى الحافظ.وسكنت الفتنـة، وأرسل الحافظ الرأس لزوجـة رضوان فلما وقع في حجرهـا قالت: هكـذا تكون الرجال. فلـم يكن في وقت رضـوان أشجع منه.

وكان مولده في سنة تسـع وأربعمائة. وأول ولاية وليها الأعمال القوصية والأعمال الإخميمية في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

ذكر وفاة بهرام الأرمني

كـانت وفـاتـه لست بقين مـن شهر ربيـع الآخـر سنة خمس وثـلاثين وخمسمائة بـالقصـور، وكـان الحافـظ قد أسكنـه بـدار بها ولم يمكنـه مـن التصرف، وكان يشـاوره في تدبير الـدولة والأمـور ويصدر عـن رأيه، فلما هلك حزن عليه حزنا شديدا، وأمر بغلق الدواوين ثلاثة أيام.

وأحضر الحافـظ بطرك الملكيـة بمصر، وأمره بتجهيـزه، فجهزه. وأخـرج وقت صلاة الظهـر في تابوت عليه الـديباج، وحوله جماعـة من النصارى

يبخرون باللبان والسندروس والعود، وخرج الناس كلهم مشاة ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان، ثم خرج الحافظ على بغلة خلف التابوت وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر طيلسان، ولم تزل الناس مشاة والقسوس يعلنون بقراءة الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة، وقيل بل إلى بستان الزهري في الكنيسة المستجدة ونزل الحافظ عن بغلته، وجلس على شفير القبر وبكى بكاء كثيرا.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة طلع النيل حتى بلغ تسعة عشر ذراعا وأربع أصابع، ووصل الماء إلى الباب الجديد أول الشارع الأعظم بالقاهرة، وصار الناس يتوجهون من القاهرة إلى مصر من جهة المقابر، ولما وصل الماء إلى الباب أظهر الحافظ الحزن والإنقطاع، فدخل عليه بعض خواصه وسأله عن السبب، فأخرج له كتابا وقال له: انظر هذا السطر، فقرأه، فإذا فيه. إذا وصل الماء إلى الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد. وقال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال الدولة وما يأتي بعدها

ذكر وفاة الحافظ لدين الله وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ومولده في المحرم سنة أربع وستين وأربعمائة، وقيل في المحرم سنة ثمان وستين. فكانت مدة عمره ستا وسبعين سنة وشهورا، ومدة ولايته منذ بويع البيعة العامة الثانية، بعد قتل أحمد بن الأفضل، ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

قال المؤرخ: وكان الحافظ موصوفا بالبطش والتيقظ، وكان شديد المفاتشة وهو الذي عمل طبل القولنج الذي كسره الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وكان هذا الطبل قد عمل من سبعة معادن والكواكب

السبعة في إشراقها. وكان خاصته أنه كلما ضرب به ضربة خرج الريح من مخرج الضارب.

قال بعض المؤرخين : إن الحافظ خطر بباله أن ينقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى القاهرة، وكانت المدينة إذ ذاك يخطب بها لبني العباس، لظهور ملوك الدولة السلجقية، فأرسل نحوا من أربعين رجلا من أهل النجدة والقدرة، فتوجهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدة، وتحيلوا بأن حفروا سربا من مكان بعيد ، وعملوا حساب الخروج في المكان المقصود. فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من أن ينقل من المكان الذي اختاره له، فيقال إن السرب انهار عليهم فهلكوا، وقيل بل سعي بهم فأهلكوا.

وكان للحافظ من الأولاد: أبو علي حسن ، هلك كما ذكرنا، وعبد الله، هلك في حياته أيضا، وأبو المنصور إسماعيل، وأبو الأمانة جبريل، ويوسف. ووزراءه: تقدم ذكرهم. ولما قتل رضوان بن الولخشي لم يستوزر بعده أحدا، وإنما كانوا كتابا. فمن أشهر كتابه أبو علي حسن الأنصاري كان (القاضي) الفاضل يقول : لم يسمح الزمان بمثله.

ومن أشهر شعرائه الشريف أبو الحسن الأخفش المغربي ومن جملة شعره في قصيدة:

ذكر الدوح وشاطىء بردى
وحبابا فيه يحكي بردا

والصبا يمرح في أرجائه
وتحوك الريح منه زردا

ينشر الدر عليه فضة
وتذيب الشمس فيه عسجدا

ورشا ألو لم تكن ريقته
خمرة صافية ما عربدا

قضاته:لما غلب أحمد بن الأفضل على الآمر ، أبقى محمد بن هبة الله ابن ميسر القيسراني على القضاء، ثم صرفه الحافظ واستقضى أبا الفخر صالح بن عبد الله بن أبي رجاء، ثم قبض عليه الوزير يانس الرومي وقتله، فولى سراج الدين أبو الثريا نجم بن جعفر ، مضافا الى الدعوة، إلى أن قتل في ذي القعدة سنة ثمان وعشرين، فأعيد سناء الملك ابن ميسر، فأقام إلى أن قبض عليه في يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة إحدى وثلاثين، وسير إلى تنيس فقتل بها، وولي بعده القاضي الأعز أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عقيل، إلى أن توفي في شعبان سنة ثلاث وثلاثين. وأقام الناس بغير قاض ثلاثة أشهر، ثم ولي أبو الفضائل هبة الله بن عبد الوارث الأنصاري لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة منها. ثم جرت مفاوضة بينه وبين «النبيه» أبي الحسن علي بن «اسماعيل» ، قيل أدت إلى مصافغة خرج في أثنائها القاضي إلى القصر وهو مخرق الأثواب، وقد تحلقت عمامته في حلقه، فعظم على الحافظ خروجه على هذه الهيئة وغرمه مائتي دينار، واستناب أبا طاهر إسماعيل بن سلامة الأنصاري،فأقام في النيابة إلى مستهل المحرم سنة خمس وثلاثين، فوفر جاري القضاء، وهو أربعون دينارا في كل شهر، وخدم بجاري التقدمة في الدعوة، وهو ثلاثون دينارا، في الوظيفتين، فأجيب الى ذلك وأقام إلى أن صرف لسبع خلون من صفر سنة ثلاث وأربعين، وبقي على الدعوة. وولى القضاء أبو الفضائل يونس بن محمد ابن الحسن المقدسي إلى آخر المدة

ذكر بيعة الظافر بأعداء الله

هو أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله، وهو الثاني عشر من ملوك الدولة العبيدية، والتاسع من ملوك الديار المصرية منهم، بويع له بعد وفاة أبيه لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، واستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن

مصـال، ونعته بـالسيـد الأجل المفضـل أمير الجيـوش، وكان إذ ذاك مـن أكابر امراء الدولة.

وفي الرابع من شعبان من السنة اجتمـع السودان وجماعة من المفسدين بالبهنسانية، فخرج إليهم الوزير فحاربهم وهزمهم .

ذكر قيام العادل بن السلار ووزارته ومقتل ابن مصال

في هـذه السنـة ثـار الأمير المظفـر أبـو الحسـن علي بـن السـلار والي الإسكنـدرية وخـرج وحشـد وتقـدم بمن معـه، ودخـل القـاهرة في يـوم الأربعاء سابـع شعبان، ووقف على باب القصر، وراسل الظافـر والمدبر له من النساء، فراجعـت في ذلك وفاء لابن مصال، ثم أجيـب إلى ما سأله. وفتح بـاب القصر، وخلع على المظفـر خلع الـوزارة ولقب بـالعادل، فلما اتصل ذلك بـابن مصال جمع عربان البـلاد، ووافقه بدر الديـن بن رافع مقدم العربـان بتلك البلاد، وقصد ابـن السلار فندب إليه ربيبـه عباس ابن يحيى بن تميم بن المعز بن بـاديس بعسكر معه، فعسكر ببركة الحبش، فنـدب ابـن مصـال لحربه الأمير الماجـد فجـد في السير وكبـس عسكـر عباس، فـأثخنهم جراحـا وقتلا، فانهزم عبـاس وأجمع ابن مصـال رأيه على قصد بلاد الصعيـد، فعاجله ابن السـلار وأمد ربيبه بالعسـاكر وأمره بمعاجلته قبل الجمع، فـأدركه بالقرب من دلاص[١٨] . والتقوا بينهما وبين مهد، وهـي قريـة هناك، واقتتلوا، فـانجلت الحرب عـن قتل ابـن مصال وبدر بـن رافع. وكـانت هـذه الوقعـة في يوم الأحـد تاسـع عشر شوال. وحمل رأس ابـن مصال إلى القـاهـرة، وطيـف به، وخلـع على العـادل في ذلك اليوم.

وفي السادس والعشرين من شهر رمضان أغلـق العادل أبواب القاهرة والقصـور، وقبض على صبيـان الخاص وقتلهـم، وكـانوا جمعـا كثيرا وهـم

أولاد الأجناد والأمـراء وعبيد الـدولة فكان الـرجل إذا تـوفي وخلف أولادا حملوا إلى حضرة الخلافة وأودعوا في أماكن مفردة لهم، ويؤخذ في تعليمهم الفروسيـة وغير ذلك، وتسموا صبيـان الخاص. وكان سبب ايقـاع العادل بهم أنـه بلغه أنهم تعـاقـدوا على قتله، فبـادر بهم، وقبـض عليهم، وقتـل أكثرهم، وجعل من بقي منهم في المراكز بالثغور

وفي يوم الجمعة لأربع خلون من شوال مـن السنةقتل العادل أبا المكرم الموفق محمـد بن معصـوم التنيسي ناظـر الدواويـن، وكان سبـب ذلك أن العـادل في مبـدأ أمره كـان مـن صبيـان الحجـر، وكان يتكـرر إلى الموفـق برسـائل ويكلمه بكلام غليـظ، فكرهه الموفق، ثـم كتب بعد ذلـك لابن السلار منشور بإقطـاع، فدخل به إليه، فتغافل عنـه وأهمل أمره، فقال له ابن السـلار: ما تسمـع؟ فقال: كلامـك ما يدخـل في إذني أصلا، فـأخذ ابن السلار منشورةوخـرج من حيث أتى، فلما ولي أمر الدولـة دخل عليه الموفق وسلـم عليه، فقال لـه: ما أظن كلامـي يدخل في اذنـك، فتلجلج بين يديـه وقال له: عفو السلطـان. فقال: قد استعملت العفـو من حين خروجـي من عندك، مـا أتيتك به، وأشـار لبعض خدمـه فأحضر مسمارا من حديد عظيم وضرب المسمار في أذنـه حتى نفذ من الأخرى، وحمل الى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة، وعلق عليها وقد مات

ذكر ما فعله الفرنج بالفرما وما جهزه العادل من الأسطول إلى بلادهم

وفي شهر رجب سنـة خمس وأربعين وخمسمائة أغار الفرنج على الفـرما فنهبوهـا وأحرقوهـا، وعادوا إلى بلادهـم، فجهز العادل المراكـب الحربية وشحنهـا بـالـرجـال وسفرهـا في شهـر ربيـع الأول سنـة سـت وأربعين، فمضت إلى يافـا وقاتلوا من بها في المراكب، واستولـوا على عدة كثيرة من مراكـب الفرنـج، وأحرقـوا ما عجـزوا عن أخـذه، وقتلوا خلقـا كثيرا، ثم

امتدوا إلى ثغر عكا وفعلوا فيه كفعلهم بيافا. وكذلك فعلوا بصيدا وبيروت وطرابلس، ونكوا في الفرنج نكاية عظيمة.ووجدوا طائفة كثيرة من حجاج الفرنج فقتلوا عن آخرهم ، وكان جملة ما أنفق في هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار .

وفي سنة ست وأربعين قطعت جميع الكساوي المرتبة للأمراء والدواوين عن أربابها، وتوفرت.

ذكر مقتل العادل بن السلار وسلطنة ربيبه عباس

كان مقتله في السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وكان سبب ذلك أن العادة كانت جارية بتجريد عسكر من مصر في كل سنة لحفظ عسقلان من الفرنج، وكان الفرنج قد حاصروها في سنة سبع وأربعين، فلما كان في هذه السنة وقعت القرعة في البدل على عباس ربيب العادل، وهوابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، فجرده العادل بالعساكر، وقال له: هذا الثغر قد نازله الفرنج، ولاغنية أن تتوجه بالعساكر إليه لتدفعهم عنه، فخرج عباس من القاهرة ومعه جماعة من أكابر الأمراء، منهم أسامة بن منقذ، وكان خصيصا بعباس، فلما وصلا إلى بلبيس تذاكر عباس وأسامة القاهرة وطيب المقام بها وما خرجا إليه، وما يلقيانه من الشدائد ولقاء العدو، فتأوه عباس لذلك ولام عمه كونه جرده ، فقال له أسامة: لو أردت أنت كنت سلطان مصر، قال: وكيف الحيلة في ذلك؟ فقال: هذا ولدك نصر، بينه وبين الظافر مودة عظيمة، فأرسله إليه وخاطبه على لسانه أن تكون أنت السلطان مكان عمك، فهو يختارك ويكره العادل. فإن أجابك لذلك فاقتل عمك.

فجهز عباس ابنه وعرفه ما تقرر مع أسامة، فدخل إلى القاهرة على حين غفلة من العادل، واجتمع بالظافر وأعلمه الحال، فأجاب لما طلب.

ثم مضى نصر إلى عند جدته زوجة العادل، وأعلم العادل أن والده أعاده شفقة عليه من السفر، ومضى العادل الى مصر وجهز المراكب الحربية، وأنفق في رجالها ليلحق عباساً، وأقام طول نهاره في العرض والنفقة على رجالها، وعاد الى داره بالقاهرة وهو على غاية من التعب، فلما نام على فراشه احتز نصر بن عباس رأسه، ومضى به الى القصر، ودخل الى الظافر، وجهز الى أبيه، فركب لوقته، ودخل الى القاهرة صبيحة نهار الأحد الثاني عشر من المحرم، فوجد جماعة من الأتراك، كان العادل قد اصطنعهم لنفسه، قد ثاروا لذلك، فلاطفهم وطمنهم، فلم يطمئنوا ومضوا الى دمشق.

وكانت وزارة العادل ثلاث سنين ونصف سنة تقريباً، وكان من الاكراد الزرزارية. ولما قتل طيف برأسه في القاهرةومصر جميعاً، ونصب الظافر عباساً في السلطنة.

ذكر مقتل الظافر بأعداء الله وأخويه

كان مقتله في ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وذلك أنه خرج ليلاً متنكراً ومعه خادمان وجاء الى دار نصر بن عباس، وهي الدار المعروفة قديماً بدار جبر بن القاسم، ثم عرفت بسكن المأمون ابن البطائحي، وهي المدرسة المعروفة بالسيوفية في وقتنا هذا، المقابلة لحافر الدبابلة، بخط سوق السيوفيين بالقاهرة وهي لطائفة الفقهاء الحنفية. فلما جاء الظافر إليه قتله نصر بن عباس، وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل أحد الخادمين وهرب الآخر.

وكان سبب ذلك ان الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ لما حسن لعباس قتل عمه العادل، وقصدوا قتل أسامة. فلما علم بذلك اجتمع بعباس وقال له: كيف تصبر على ما يقوله الناس في ولدك واتهامهم أن

الخليفة الظافر يفعل به ما يفعله مع النساء؟ فعظم ذلك على عباس، وقيل بل كان الظافر قد أنعم على نصر بن عباس بقليوب، فجاء نصر الى والده وأعلمه بذلك، فقال له أسامة: ما هي بمهرك غالية، فقال عباس لأسامة: كيف تكون الحيلة على هذا الأمر؟ فقال: إن الخليفة في كل وقت يأتي لولدك في هذه الدار خفية، فإذا أتاه فامره بقتله، فأوصى عباس ابنه بذلك، فلما جاءه قتله نصر.

قال: ولما كان صبيحة يوم قتله ركب عباس وولده على العادة وأتى الى القصر، فقال لبعض الخدم: أعلم مولانا ليجلس للاجتماع معه.فدخل وأعلم أهل القصر بما التمسه عباس من الاجتماع بالخليفة، فقالوا: قل له إنه خرج البارحة ولم يعد، فجاء الخادم إليه وأعلمه الخبر، فشدد عباس في طلب الظافر، ودخل الى القاعات ومعه أكابر الخدم، وقال: لابد من مولانا، فقيل له عند ذلك : أنت أعلم بحاله ، فأحضر أخويه: يوسف وجبريل، وقال لهما: أنتما قتلتما مولانا . فأنكرا ذلك وحلفا عليه الإيمان المغلظة. وأحضر القاضي وجماعة من الأعيان أهل الفتيا وداعي الدعاة وقال: قد صح عندي أن أخوي الظافر قتلاه، فأفتوه بقتلهما، فقتلا بين يديه وقيل إنه قتل معهما أبا البقاء بن حسن بن الحافظ، وصارم الدولة، مصلح، زمام القصر.

قال: وكان الظافر من أحسن خلق الله وجها، وكان مولده يوم الأحد، النصف من شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة،فكانت مدة عمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوما ومدة ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة أيام.

ولده: أبو القاسم عيسى

وزراءه: تقدم ذكرهم

قضاته: أبـو الفضائل يونس، إلى أن صرفه العادل بـن السلار في سنة سبع وأربعين، وولى أبـا المعالي مجلي بـن نجا المخـزومي، فـأقام إلى آخـر الدولة.

ذكر بيعة الفائز بنصر الله

هو أبو القـاسم عيسى بن الظافـر بأعداء الله، وهو الثـالث عشر من ملوك الدولة العبيـدية، والعاشر من ملوك الديار المصرية منهـم. بويع له بعـد مقتـل والـده في يـوم الخميس سلـخ المحـرم سنـة تسـع وأربعين وخمسمائة، وعمره خمس سنين، وذلك أنـه لما قتل الظافر استـدعى عباس ابنه أبـا القاسـم عيسى هذا وحملـه على كتفه ووقـف في القاعـة، وأمر أن تدخـل الأمراء فدخلـوا، فقال: هذا ولد مـولاكم وقد قتـل أبوه وعماه كما ترون، والـواجب الطـاعة لهذا الطفـل. فقالـوا بأجمعهـم: سمعنا وأطعنـا، وصاحوا صيحة عظيمة زل منها عقل الصبي واختل ، ثم سيره إلى أمه ، ولقب بالفائز فأقام يصرع في كل يوم

وانفرد عبـاس بالـوزارة وبتدبير الأمور، ولم يبـق على يده يـد، وظن أن الأمر استقام له.

ذكر خروج عباس من الوزارة وما آل اليه أمره

قال المؤرخ : لما قتل الظافر بأعـداء الله أكثر أهل القصر النواح عليه، وشرعـوا في أعمال الحيـلـة على عبـاس، ووافـق ذلـك نفـور الأمـراء منـه لإقدامه على القتـل، فاختلفت الكلمة عليـه، وهاجت العساكـر وتفرقت الفرق، ولبسـوا السلاح. فخـرج إليهم عبـاس في يوم الاثنين عـاشر شهر ربيع الأول من السنة، فقاتلهم وهزمهم، وقتل جماعة منهم.

فأرسلت عمـة الفائز أخت الظافر شعور أهـل القصر طي الكتب الى

الأمير طلائع بن رزيك، وهو اذ ذاك متـولي الأعمال السيوطية، وقيل كان متولى منية بني خصيب[١٩] وسألوه الانتصار لمولاه، فجمع العربان والأجناد ومقطعي البلاد، وسار الى القاهرة، فوصـل إليها في تاسع عشر شهر ربيع الأول من السنة، وخرج الناس للقائه.

فاستشار عباس أسامة بن منقذ فأشـار عليه باللحاق بالشام، فدخل الى القصر وأخذ في جمع تحفه وحمل أمواله، وسار هـو وأسامة بن منقذ الى الشام على طـريق أيلة. فـأرسلت عمة الفـائز الى الفرنج بعسقـلان رسلاً على البريد تعلمهم الحال وتبذل لهم الأمـوال في الخروج على عباس وأخذ ما معه، فخرجـوا إليه وقاتلوه، فتخاذل عنه اصحابه، ونهبـوا ما معه فأسره الفرنج وحملوه الى عسقلان، ونجا أسامة الى دمشق.

وقيـل إن الفرنـج قتلـوا عبـاساً وأسروا ابنـه نصراً ففـداه الصـالح بـن رزيك، واحضره الى القاهرة وضرب عنقه.

ذكر وزارة الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك

قال المؤرخ: لما تـوجه عباس نحـو الشام وافـق ذلك قدوم طـلائع بن رزيـك، فخرج الأمـراء والعساكـر إليه، فمـن الأمـراء من شهـر سلاحـه وقـاتله، ومنهـم من التحـق به، ثـم انجلى الأمر بعـد ساعـة عن دخـول طلائع إلى القاهرة والعسـاكر بين يديه. وشق القاهـرة وهو لابس السواد، وأعلامه سـود كذلك حزنـاً على الظافر، وشعور نسـاء القصر التي سيرت إليه على الرماح.

ونزل طلائع دار المأمون التـي كان بها نصر بن عباس، وأحضر الخادم الذي كـان مع الظـافر لما قتل وأعلمهـم بمكانه، فـأخرج وغسـل وكفن، وحمل في تابـوت على أعناق الأمراء والأستـاذين، وابن رزيـك يمشي أمام التـابوت، وأتـوا بـه الى القصر فصلى عليه ابنـه الفـائز ودفـن في تربتهـم

بالقصر، وجلس الفائز في بقية النهار، وخلع على ابن رزيك بالموشح والعقد، وعلى ولده واخوته وحاشيته، وقرىء سجله بالوزارة، ونعت بالملك الصالح. وقبض على جماعة من الأمراء وقتلهم، في ثالث عشر شهر ربيع الأول من السنة..

وفي سنة خمسين وخمسمائة خرج الأمير تميم، متولي أخميم وأسيوط، على الصالح، وجمع جمعاً صالحاً، فأخرج إليه الصالح عسكراً، فالتقوا واقتتلوا، فقتل تميم في سابع عشر رجب.

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة انفسخت الهدنة بين الصالح بن رزيك والفرنج، فجهز الصالح الجيوش والسرايا الى بلاد الفرنج، فوصلت سرية الى عسقلان وغنمت وعادت سالمة، وجهز المراكب في البحر نحو بيروت، فأوقعت بمراكب الفرنج، وجهز سرية إلى جهة الشوبك فعاثوا في تلك النواحي، وعادوا سالمين بالغنائم والأسرى.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين قبض الصالح بن رزيك على الأمير ناصر الدولة ياقوت وأولاده واعتقلهم،وسبب ذلك أنه بلغه أنه كاتب أخت الظافر وقصد القيام على الصالح، وكان واليا عاملا على الأعمال القوصية، وهو بالقاهرة. ولم يزل في حبسه إلى أن توفي في شهر رجب سنة ثلاث وخمسين.

وفي سنة أربع وخمسين ثار على الصالح طرخان بن سليط بن ظريف، متولي الإسكندرية، وجمع جموعا من العربان وغيرها، وتقدم بها لحربه، فندب الصالح إليه الأمير عز الدين حسام بن فضة بعسكر، فالتقوا واقتتلوا، فهزم حسام جيوشه وظفر به، فاعتقله الصالح.

فلما كان في المحرم سنة خمس وخمسين ثار أخوه إسماعيل طلبا لثأره، وتلقب بالملك الهادي، فندب الصالح إليه الجيوش، فلما هجمت عليه

هربَ وأتى الجيزة، واستتر عند بعض العربان، فلما كان في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر هرب طرخان من الاعتقال هو والموكل به، فقبض عليه في السادس من الشهر وصلب على باب زويلة، ورمي بالنشاب، ثم مسك أخوه إسماعيل وصلب إلى جانبه بعد ضرب عنقه.

وفي سنة أربع وخمسين بنى الصالح حصنا من اللبن على مدينة بلبيس.

ذكر وفاة الفائز بنصر الله

كانت وفاته في ليلة الجمعةالسابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وقيل لليلة بقيت منه، وكان مولده في يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين، فكان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وأياما، ومدة ولايته ست سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما.

وزراؤه: الأفضل عباس بن يحيى بن تميم ، ثم الصالح طلائع بن رزيك.

قضاته : أبو المعالي مجلي بن نجا القرشي المخزومي،ثم صرف في أول وزارة الصالح، وأعيد أبو الفضائل يونس ثم صرف بالقاضي المفضل أبي القاسم هبة الله بن كامل.

ذكر بيعة العاضد لدين الله

هو أبو محمد عبد الله بن يوسف، بن الحافظ عبد المجيد، بن محمد، ابن المستنصر بالله أبي تميم معد، بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم علي، بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله نزار، بن المعز

لدين الله أبي تميم معد، بن المنصور بنصر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد، بن المهدي عبيد الله، وهو الرابع عشر من ملوك الدولة العبيدية، والحادي عشر من ملوك الديار المصرية منهم، وعليه انقرضت دولتهم، بويع له بعد وفاة الفائز بنصر الله في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وكان الملك الصالح طلائع قصد ان يبايع لشخص من أقارب العاضد، فقال له بعض أصحابه لايكن عباس أحزم منك حيث اختار صغيراً وترك من هو أسن منه، واستبد هو بالأمر، فعدل الصالح إلى العاضد، وبايع له وهو مراهق البلوغ، فكانت الخلافة للعاضد اسماً وللصالح رسماً.

ويوسف أبو العاضد هو أحد الأخوين اللذين قتلهما عباس بعد قتل الظافر.

وفي سنة ست وخمسين تزوج العاضد لدين الله بابنة الملك الصالح ابن رزيك، وكان العاضد توقف عن زواجها، فجبره الصالح على ذلك واعتقله الى ان تزوجها، وقصد بذلك أن يرزق العاضد منها ولداً فتحصل الخلافة والملك لبني رزيك، فجاء بخلاف ما قصد.

ذكر مقتل الملك الصالح طلائع بن رزيك وقيام ولده الملك العادل رزيك

كان مقتله في السابع عشر من شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة، وذلك انه ركب في هذا اليوم من دار الوزارة الى القصر، وجلس على مرتبته على عادته، فلما انقضى المجلس خرج، فبينما هو في دهاليز القصر وثب عليه جماعة فضربوه بالسكاكين عدة ضربات مهلكة. وكان سبب ذلك انه تحكم بالدولة لخلوها من الأمراء وصغر

سن العاضد، وكان قد فرق الأمراء وقتل بعضهم، فبعثت ست القصور عمة العاضد الأموال الى بعض الأمراء وأغرتهم به، فرتبوا ذلك. قال: ولما ضرب بالسكاكين ألقى ابن الزبد نفسه عليه وقاتل دونه ودخل بقية الأمراء فخلصوه فركب وبه بعض رمق. فلما رأته ست القصور وقد ركب أيقنت بالهلاك. قال: ولما استقر في منزله أرسل الى العاضد يعاتبه على ما كان منه، فحلف وأنكر أن يكون اطلع على هذا الأمر قبل وقوعه فأرسل إليه أن يبعث إليه عمته ست القصور، فتوقف العاضد عن ذلك، فأرسل الصالح الى ست القصور وأخرجها، فلما جاءت الى منزله أمر بخنقها، فخنقت بين يديه حتى ماتت، ومات الصالح في بقية ليلته.

قال: وكان الصالح شديد التشيع متغالياً في مذهب الإمامية، وكان يكره أهل السنة، وقيل إنه كان يسب الصحابة، رضي الله عنهم، وغضب على من لا يتنقصهم، وكان فيه بخل وحسد، ومنع في أيامه من بيع الغلال حتى غلت الأسعار، وكان كثير التطلع إلى ما في أيدي الناس، وصادر جماعة ليس لهم تعلق بالدولة، وأفنى الأمراء قتلاً واعتقالاً، وهو أول من خوطب بالملك في الديار المصرية.

وقال ابن الحباب في سيرته: إنه من ولد جبلة بن الأيهم الغساني، الذي ارتد عن الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال المؤرخ: وكان والد الصالح يسمى أسد رزيك، قدم مع أمير الجيوش بدر الجمالي.

قال: وكان الصالح مع ذلك حازماً ضابطاً لأمور دولته شاعراً اديباً.

قال القاضي الأرشد عمارة اليمني: دخلت على الصالح قبل وفاته بليلتين فناولني رقعة وقال: لقد عملت هذين البيتين في هذه الساعة، فإذا فيها:

نحـــن في غفلـــة ونـــوم وللمـــو
ت عيـــون يقظـــانـــة لاتنـــام
قـــد رحلنـــا الى الحمام سنينـــاً
ليـــت شعـــري متـــى يكـــون الحمام

فقلت هما صالحان، وقمت، فكان آخر عهدي به.

قال المؤرخ: وكان الصالح يقطع الليل أثلاثاً: فالثلث الأول مع أمراء دولته ووجوهها، والثلث الثاني مع جلسائه وندمائه وشعرائه، والثلث الثالث مع خواص نسائه، فكان يسمى ابو العمرين قالوا: وكذلك كان أمير الجيوش بدر الجمالي.

ومن شعر الصالح قوله:

يـــا مـــريـــض القلـــب بـــالـــذنـــ
ـــب، متـــى بـــالعفـــو تبرا
كلما جـــددت يـــومـــاً
تـــوبـــة ضيعـــت أخـــرى
تشتهـــي الأجـــر ولا تفـــ
ـــعل مـــا يكســـب أجـــرا
أتـــرى بعـــد ذهـــاب الـــ
ـــعمر تستـــأنـــف عمـــرا

وقوله:

يـــا مـــاشيـــاً فـــوق الثـــرى
رفقـــاً، فســـوف تصير تحتـــه
إن قلـــت إني اعـــرف الـــ
ـــمولى القـــديـــر، فما عـــرفتـــه
إن كنـــت تعبـــد للمخـــا
فـــة والـــرجـــاء، فما عبـــدتـــه

والصالح هو الذي بنى الجامع خارج باب زويلة المعروف به. وكان يقول: ندمت على ثلاثة: احدها انني بنيت الجامع بظاهر القاهرة وجعلته عوناً على باب زويلة فيضرها وقت الحصار، والاخرى توليتي شاور أعمال الصعيد، والله لاكان خراب دولة بني رزيك إلا على يديه، والثالثة أنني أنفقت في العساكر مائتي ألف دينار لأجل فتح بيت المقدس فتأخرت عن ذلك.

قال: ولما توفي دفن بدار الوزارة، ثم نقل إلى تربته التي بقرافة مصر.

قال: ولما حضرته الوفاة أحضر ولده رزيك، وأوصاه بوصايا كثيرة من جملتها أنه لا يعزل شاور، ولا يغير عليه مغيرا.

قال: ورثاه الشعراء بقصائد كثيرة، فيها ما قاله القاضي الأرشد عمارة اليمني:

أفي أهل ذا النادي عليه أسائله
فإني لما بي، ذاهب العقل ذاهله
سمعت حديثا أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه، ويخرس قائله

ومنها

وقد رابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوبا وما فيه كافله
وأني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن النفوس ثواكله
دعوني فما هذا أوان بكائه
سيأتيكم طل البكاء ووابله

وهي قصيدة طويلة أتى فيها بكل عجيب

قـال:ولما مات الصـالـح خـرجت الخلـع مـن القصر لـولده، وتلقـب بالملك العادل مجد الإسلام

ذكر ظهور حسين بن نزار وقتله

وفي شهر رمضـان سنة سبع وخمسين وخمسمائة ورد حسين بن نـزار، بن المستنصر باللـه بن الظـاهر لإعزاز ديـن الله مـن بلاد المغـرب، وقد جمع جمعا عظيما، وتلقـب بالمنتصر باللـه، فخرج إليـه الأمير عز الديـن حسام ابن فضة بن رزيك على صورة الإنضمام إليه واللحاق به.

فلما صار عنده في خيمته غدر به وقتلـه، وحمل رأسه الى العاضد لدين الله.

وفيهـا بنـى الأمير أبـو الأشبـال ضرغـام البرج المعـروف بـه بثغـر الإسكندرية.

ذكر انقراض دولة بني رزيك

قد ذكرنا أن الملـك الصالح بن رزيك، والد العـادل، لما حضرته الوفاة أوصى ابنـه العادل بـوصايـا كثيرة منها أنـه لايعزل شـاور من عملـه ولا يحركـه،وحذره مـن ذلـك فلما كان في سنـة سبـع وخمسين اجتمع أقـارب العادل وحسنـوا له عزل شاور عـن ولاية الصعيد، فـذكرهم بوصيـة أبيه، فأصروا على عـزله، وكـان أشدهم في ذلـك الأمير عز الـدين حسـام بن فضـة، فـألزم العـادل إلى أن كتـب كتـابا يستـدعـي فيـه شاور، ويـأمـره بـالحضـور إلى القاهـرة، فكتـب إليـه شـاور يستعطفـه، ويظهر الطـاعـة والإدلال لسابق الخدمة لأبيـه، ومناصحته في القيام بأمور الـدولة، ثم قال فيـه: إن كـان القصـد أن يلي الأعمال أحـدكـم فليرسـل السلطـان مـن يتسلمها غير عز الديـن حسان، وإن كان غيركم من الأمراء فـأناأحق به

من سواكم، وقد سمعتم وصية أبيكم الصالح في حقي وما كرره في أمري واقرار أعمال الصعيد في يدي، وأرسل الكتاب إلى العادل، فوقف عليه، وأوقف عليه أقاربه وأهله، فقالوا: إن أبقيته طمع في البلاد ولايحمل إليك مالا، فقال العادل لهم: المصلحة تركه، فصمموا على عزله.

فأحضر العادل نصير الدين شيخ الدولة، وهو من أقاربه، وخلع عليه وولاه الأعمال القوصية، وكتب على يده إلى شاور بتسليم الأعمال إليه ووصوله إلى القاهرة، وتوجه نصير الدين، فلما وصل إلى إخميم أقام بها، وأرسل الكتاب إلى شاور طي كتابه، فلما وقف شاور على الكتاب أرسل إلى نصير الدين رسولا من جهته برسالة يقول له: إن بيني وبينك صحبة ولا تغتر بقول حسام، وارجع من حيث أتيت فهو خير لك، فرجع نصير الدين إلى القاهرة ولم يعاوده.

وأظهر شاور العصيان على الدولة، وأحضر جماعة من العربان من بني شيبان وغيرهم، وتوجه من الأعمال القوصية، وجعل طريقه على الواحات، وخرج منها إلى تروجه، وحشد العربان وأنفق فيهم الأموال، فوافقوه وانطاعوا له، فسار بهم نحو القاهرة. فندب العادل لحربه سيف الدين حسينا، صهره، ومعه جماعة من الأمراء، فراسلهم شاور واستمالهم، وبذل لهم الأموال الجمة، فمالوا إليه فلما التقوا انحازوا إلى جماعته وفارقوا مقدمهم، فانهزم حسين واستجار بظريف بن مكنون أمير جذام، وحمله في البحر، فمضى إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فمات هناك فندب إليه العادل عز الدين حساما، فانهزم منه أيضا.

فعند ذلك خرج العادل من القاهرة وتوجه إلى إطفيح، واستصحب أهله وذخائره، واستجار بسليمان بن الفيض اللخمي، وكان من أصحاب أبيه الصالح، فأنزله عنده، ومضى من وقته الى شاور وأخبره بخبر العادل، فندب إليه جماعة فأخذوه أسيراً هو ومن معه، ونهب

أصحاب ابن الفيض ما كان معه، وحمل إلي شاور فوصل إليه في ليلة الجمعة لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فأمر شاور باعتقاله، وقال لسليمان بن الفيض: لقد خبأك الصالح ذخيرة لولده حين استجار بك فأسلمته لي، وأنا اخبئك ذخيرة لولدي، ثم أمر به فشنق، وسميت فرقة ابن الفيض غمازة من ذلك اليوم، فهي تعرف الآن بهذا الاسم، فكانت أيام العادل سنة واحدة وثلاثة أشهر وأياماً. وجميع دولة بني رزيك تسع سنين تقريباً.

ذكر وزارة شاور الأولى وخروجه منها

كانت وزارته في يوم الأحد لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وذلك أنه لما انهزمت جيوش العادل بن رزيك وهرب هو إلى إطفيح خلت القاهرة منهم، فدخلها شاور، وحضر بين يدي الخليفة العاضد لدين الله، فخلع عليه خلع الوزارة، وسلطنه، ولقبه بأمير الجيوش، وأطلق شاور لأهل القصور الإطلاقات الكثيرة، وزادهم على مقرراتهم في أيام بني رزيك، واستدعى أموال بني رزيك وودائعهم، وبسط العدل أياماً، ثم شرع في ظلم الناس، وبسط يده ويد أولاده في الدولة، وقطع أرزاق الأمراء والجند واستخف بهم وبالعاضد، وعتا ولده الكامل وتجبر، ولبس رداء الكبر، وبذخ في الأموال، وصرفها في غير وجوه مصارفها. وساءت سيرته في الأمراء فأجمعوا على إخراج العادل من الاعتقال ونصبه في الوزارة، فاتصل ذلك بالكامل بن شاور، فأشار على أبيه بقتل العادل، فامتنع عن ذلك وقال: إنه أولاني خيراً فلا أقتله، فقتله الكامل من غير إذن أبيه، فعظم ذلك على شاور وعلى الأمراء، وغضب الأمراء لقتل العادل، وخرجوا على شاور، وافترقوا على فرقتين: فكان الضرغام وإخوته وأهله على فرقة، والظهير عز الدين مرتفع وعين الزمان وابن الزبد فرقة.

وكان الضرغام ومن معه أظهر الفرقتين، فخرج على شاور وحاربه، فجمع شاور أمواله وذخائره وغلمانه، وخرج ليلاً من القاهرة، فركب الضرغام في إثره فلحقه عند باب النصر، فقاتله طي بن شاور، فقتل طي، وأسر الكامل ومضى شاور الى الشام، وذلك في صبيحة يوم الجمعة، لثلاث بقين من شهر رمضان من السنة، فكانت وزارته ثمانية أشهر وخمسة أيام. والله أعلم.

ذكر وزارة الضرغام بن سوار

قال: ولما توجه شاور إلى الشام عاد الضرغام الى القصر، وأرسل إلى العاضد بما كان من أمر شاور، ومضى إلى داره بقية ليلته، وجاء إلى القصور من بكرة النهار، فاستدعاه العاضد لدين الله، وولاه الوزارة، ولقبه بالملك المنصور، واستخلف له الأمراء.

وأرسل علم الملك ابن النحاس الى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام، يقبض على شاور.فأظهر نور الدين الإجابة لذلك، وباطنه بخلاف ذلك.

قال: ولما ولي الضرغام الوزارة خرج عليه الأمير علي بن الخواص، فظفر به الضرغام، فأشهره بالقاهرة ، وصلبه، وأحضر جماعة من الأمراء الى داره لدعوة عملها، فلما حضروا قبض عليهم وقتلهم.

ذكر قدوم شاور من الشام وعوده إلى الوزارة ثانياً وقتل الضرغام

كان قدومه في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة. وذلك انه لما توجه الى دمشق اجتمع بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وحسن له ان يجهز معه جيشاً يفتح به مصر، ووصفها له ورغبه فيها،

والتزم أنـه يحمل خـزائنها إليـه يستعين بها على قتال الفـرنج، فمال إليـه، وجهز معه أسد الـديـــن شيركوه بعساكر، فلما قـاربوا مصر ندب إليهم الضرغـام عسكراً وقـدم عليه أخـاه نـاصر المسلمين، فلقيهم على بلبيـس فانهزم العسكر المصري وعاد الى القاهرة.

وسار شـاور والعساكر الشـامية، فنزل بظاهـر القاهرة في آخـر الشهر، واجتمـع معه خلـق كثير من العـربان، فعلـم الضرغام أنـه لاقبل لـه بما دهمه، فركب إلى القصر، وطاف به، وجعـل ينادي العاضد، وهو يخاف أن ينزل إليـه، فأرسل إليه العـاضد يقول: أنـج بنفسك، فخرج من القـاهرة يـريـد مصر، ودخل شـاور وشيركـوه الى القـاهـرة، وندب جماعـة في إثـر الضرغام فأدركـوه عند مشهد السيدة نفيسة، فقتلوه هنـاك في يوم الجمعة، لليلتين بقيتا من جمادى الآخـرة، وطيف برأسه القاهـرة على رمح، وبقيت جثته ملقاة بين الآكام ثلاثة أيام حتـى أكلتها الكلاب. ودفن ما بقي منه عند بركة الفيل، وعمل عليه قبة، فكانت مدة ملك الضرغام تسعة أشهر.

وكـان فارسـاً بطلاً، كـريماً، عـاقلاً، أديبـاً، يحب العلماء ويقربهم، ولـه مجلس يجتمـع فيه أهـل العلم والأدب دون غيرهـم. وكان حسـن الخط، يقال إنه كان يحاكي ابن البواب في خطه.

قـال: ودخل شـاور الى العاضـد لديـن الله في مستهـل شهر رجـب، فعاتبه على ما كـان منه في إحضار العسكر الشامي، وحـذره عاقبة ذلك، فوعده انه يصرفهم إلى بلادهم، فقبل ذلك منه، وخلع عليه خلع الوزارة.

ذكر غدر شاور بشيركوه

قال: ولما انتصـب شاور في الـوزارة، وتم لـه ما أراد، أخـذ في التدبير على العسكر الشامـي، وحلف الأمراء، وتخاذل عن شيركـوه، وصار يخرج إليه بوجه عليه آثار الغضب، ففهم أسـد الدين شيركوه عنه، وعلم شاور

أنـه لاقبل لـه بشيركوه، فـاستعـان بالفـرنج واستـدعـاهم مـن الساحـل لنصرته، ووعدهم بالأموال، واتصل ذلك بأسد الدين فحاصر القاهرة.

واتصل خبر شـاور بالملك العـادل نور الديـن فكتب الى أسد الـدين وأعلمه بها بلغـه من مباطنـة الفرنج، وأمره بـالخروج عن الديـار المصرية، فأبـى ذلك وتوجـه الى بلبيس، واحتـوى على بلاد الحوف، وجعل مـدينة بلبيس ظهره، فاجتمعت العساكر المصرية ومـن أتاهم من الفرنج، ونازلوا أسد الـدين، وحصروه ببلبيـس ثلاثة أشهـر، وهو ممتنـع بها لم يبرز إليهم، فبينها هم كذلك إذ ورد الخبر على الفرنج ان نـور الدين ملك حارم وسار الى بانياس، فـراسلوا شيركوه يسألـونه الصلح، فأجـابهم الى ذلك، وخرج مـن مدينـة بلبيس، فلما صـار بظـاهرهـا أشـار شاور على ملـك الفرنـج بمهـاجمته وقبضـه فامتنـع مـري، ملك الفـرنـج، وأبى إلا الـوفاء بيمينـه لشيركوه.

وسار أسد الديـن الى الشام، وعاد شاور الى القاهرة، ومعـه طائفة من الفـرنج يتقـوى بهم، وكان قـد بذل لهم على نصرتـه اربعمائة ألف دينـار، ويهادنهم خمس سنين.

وكان دخول شاور إلى القاهرة لست مضين من ذي الحجة من السنة، واستمر بمصر من غير منازع، إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة.

ذكر عود أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية بالعساكر الشامية وانفصاله

قال المؤرخ: لما انفصل أسـدالدين شيركوه عن الديـار المصرية في سنة تسـع وخمسين، بقي عنـده منها أمـر عظيم، وكـان إذا خلا بنـور الديـن الشهيد يرغبـه فيها، فجهزه بالعسـاكر والحشود، فسار مـن الشام في شهر

ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة، فاتصل ذلك بشاور، فراسل الفرنج وانتصر بهم، فخرج الفرنج ووقفوا على الطريق التي يسلكها شيركوه إلى الديار المصرية، فعدل شيركوه عن تلك الطريق وجعلها عن يمينه، وسار حتى نزل إطفيح، في سادس شهر ربيع الآخر. وعبر النيل إلى الجانب الغربي، ونزل الجيزة. وأقام عليها إلى العشرين من جمادى الأولى. واستولى على الغربية وغيرها. فأرسل شاور إلى الفرنج يستحثهم، فأتوا على الصعب والذلول، وقد طمعوا في ملك الديار المصرية.

فلما تكاملوا بالقاهرة توجه أسد الدين شيركوه نحو الصعيد، وسار شاور والفرنج في آثارهم، فجمع أسد الدين الأمراء واستشارهم للعبور إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، فوافقوا على ذلك، فنهض شرف الدين بزغش،أحد الأمراء المماليك النورية، وكان شجاعا مقداما، وأنكر ذلك كل الإنكار، وامتنع من الموافقة، وقال: من خاف من الأسرأو القتل فلا يخدم الملوك ويأكل رزقهم، ويكون في بيته عند امرأته. وقال: والله لانزال نقاتل إلى أن نقتل عن آخرنا أو ننتصر. فوافقه أسد الدين، وجمع عسكره ورتبهم، وجعل أثقاله في القلب ليكثر بها السواد ولئلا ينهبها أهل البلاد .

فبينما هم في التعبئة إذا بشاور والفرنج قد أقبلوا، ورتبهم واقتتلوا، فكانت الهزيمة على شاور والفرنج وتوالت عليهم الحملات من العسكر الشامي، فتمادت بهم الهزيمة إلى الجيزة، وشيركوه في آثارهم، وقتل منهم خلق وغرق كثير منهم، وأسر أسد الدين صاحب قيسارية.

ودخل شاور والفرنج إلى القاهرة، وملك أسد الدين البر الغربي بكماله، وقصد الإسكندرية ليحاصرها، فلما قرب منها خرج إليه أهلها وسلموها إليه من غير ممانعة، وكان والي الثغر يوم ذاك نجم الدين بن مصال، فدخل شيركوه البلد، وأقام بها أياما قلائل، واستناب بها صلاح

الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب، وتركه بها ومعه ألف فارس. وتوجه هو إلى الصعيد فاستولى عليه، واستخرج أمواله، وصام شهر رمضان بمدينة قوص.

هذا وشاور يتجهز للخروج ويرتب أحواله وأحوال الفرنج ويرم ما تلف لهم، فلما تكامل ما يحتاج إليه قصد الإسكندرية، فأخرج أهلها الأموال وأنفقوها، واستعدوا للحصار، فكان في جملة ما أخرجوه للحصار أربعة وعشرون ألف قوس زنبورك وما يناسب ذلك من الآلات.

وسار شاور ومري ملك الفرنج، فنازلوا الإسكندرية، فلما رأوا شدة أهلها واجتماعهم على الحصار تقدم شاور إليهم وقال: سلموا إلي صلاح الدين ومن معه أضع عنكم المكوس، وأعطيكم الأخماس، فامتنعوا وقالوا: معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيلية، فعند ذلك وقع الحصار واشتد على أهل الإسكندرية إلى أن قلت الأقوات.

وبلغ ذلك أسد الدين فسار من الصعيد وجد في السير إلى الإسكندرية، وكان شاور قد أفسد التركمان الذين مع أسد الدين فصاروا معه، واجتمع لشيركوه طائفة كبيرة من العربان، فلما علم شاور بقربه خافه وراسله في طلب الصلح، وبذل له خمسين ألف دينار، سوى ما أخذه من خراج البلاد، على أن يفارق الديار المصرية، فأجاب أسد الدين إلى ذلك، وشرط عليهم أن يرجع هو إلى الشام، ويرجع الفرنج إلى بلادهم. فاستقرت هذه القاعدة ، وحلف الفرنج عليها.

ففتحت الإسكندرية عند ذلك، وخرج صلاح الدين يوسف إلى مري ملك الفرنج وجلس إلى جانبه، فدخل شاور عليهما، فقال لمري: سلمه إلي وأعطيك في كل سنة خمسين ألف دينار، فقال مري: نحن إذا حلفنا

لانغدر، ووبخه، وكان أسد الدين قد شرط على شاور أن الفرنج يرحلون ولايلتمسون من البلاد درهماً ولاضيعة ولاغير ذلك.

قال: وارتحل أسد الدين، ودخل مصر برضاء أهلها، وسار إلى بلبيس، وأرسل إلى ابن أخيه يوسف أن يتوجه في المراكب إلى عكا، هو ومن معه من العسكر، وما معه من الاثقال، ففعل ذلك، وركب من عكا إلى دمشق.

هكذا حكى ابن جلب راغب في تاريخه، قال: وارتحل أسد الدين من بلبيس في نصف شوال، ودخل شاور الإسكندرية، ثم خرج منها وعاد إلى القاهرة، فدخلها في مستهل ذي القعدة، وتلقاه العاضد لدين الله.

وأما الفرنج، فاستقر بينهم وبين شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم في كل سنة مائة ألف دينار.

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة خرج يحيى بن الخياط على شاور وطلب الوزارة، فندب شاور عسكراً لحربه، فانهزم ومضى إلى بلاد الفرنج.

ذكر وصول الفرنج إلى القاهرة وحصارها وحريق مصر

قال المؤرخ: وفي سنة أربع وستين وخمسمائة عاد الفرنج إلى القاهرة، وذلك أنهم لما توجهوا في سنة اثنتين وستين رتبوا في القاهرة جماعة من أبطالهم وشجعانهم وفرسانهم ليحموها من عسكر يأتي إليها من الشام، فلما رأوا خلو مصر من الأجناد راسلوا ملكهم مري واستدعوه، وكان من الشجاعة والمكر على أمر عظيم، فامتنع وقال: الرأي ألا نقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تحمل إلينا نتقوى بها على قتال نور الدين، وإن قصدناها حمل أصحابها الخوف على تسليمها لنور الدين، وإن أخذها وجعل فيها مثل أسد الدين شيركوه فهو هلاك الفرنج وخروجهم من الشام، فلم يقبلوا رأيه، وقالوا: ما يصل عسكر نور الدين إلينا إلا وقد ملكناها، وغلبوا على رأيه.

فتجهز الفرنج وساروا حتى وصلوا الى مدينة بلبيس ونازلوها، فوقع الإرجاف بمصر، وشرع شاور في إنشاء حصن على مصر واستعمل فيه الناس، فلم يبق أحد إلا وعمل فيه، وحفر خندقاً، وملك الفرنج بلبيس عنوة، وسبوا وقتلوا خلقاً كثيراً. وكان معهم بعض الأمراء المصريين ممن هرب من شاور، منهم يحيى بن الخياط.

ثم ساروا الى القاهرة وأحاطوا بها، وذلك في العاشر من صفر، فخاف أهلها إن أهملوا القتال ان يحل بهم ما حل بأهل بلبيس، فجدوا في القتال والاحتراز.

قال: ولما قرب الفرنج من القاهرة أمر شاور بنهب مصر وإحراقها، فأحرقت في تاسع صفر، ونهبت، وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة، فانتقل بعضهم، وتحصن البعض بالجزيرة، وتوجه آخرون في المراكب إلى ثغري الإسكندرية ودمياط، وطائفة إلى الوجه القبلي، وتفرقوا وذهبت أموالهم، كل ذلك قبل نزول الفرنج على القاهرة بيوم

قال: وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، إلى حادي عشر شهر ربيع الآخر.

قال: ولما علم العاضد لدين الله عجز أهل القاهرة عن مقاومة الفرنج أرسل إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يستغيث به، وسير إليه شعور نسائه في طي الكتب.

وقيل إن شاور أرسل إلى نور الدين أيضاً.

وأرسل شاور إلى مري ملك الفرنج يذكره بسابق الصحبة والعهود القديمة، وقرر أن يحمل إليه ألف ألف دينار، فأجاب مري إلى ذلك وقال لأصحابه: نأخذ المال ونتقوى به ونمضي ثم نرجع فلا نبالي بعد ذلك بنور الدين، فاستوثق شاور منه بالأيمان وعجل له مائة ألف دينار، وماطله بالبقية، وشرع يجمع له من أهل القاهرة المال، فلم يحصل له من جهتهم غير خمسة آلاف دينار لضعفهم.

هذا والرسل تتتابع الى الملك العادل ويستغيثون به، وقرر له ثلث الديار المصرية.

قال: ولما وصلت الكتب إليه طلب أسد الدين شيركوه من حمص، فسار منها إلى حلب في ليلة واحدة، فجهزه نور الدين وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والسلاح وغير ذلك، فاختار أسد الدين من العسكر ألفي فارس من الأقوياء، وستة آلاف من بقية العسكر، وأنفق نور الدين لكل فارس عشرين ديناراً، ثم سار شيركوه، فكان خروجه من دمشق في منتصف شهر ربيع الأول، وأردفه نور الدين بجماعة من الأمراء، منهم مملوكه عز الدين جرديك، وشرف الدين برغش وعين

الدولة الياروقي. وناصح الدين خمارتكين، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، وغيرهم، والله أعلم.

ذكر قدوم أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ورحيل الفرنج عنها

قال: وقدم أسد الدين شيركوه بالعساكر، فكان وصوله إلى مصر في يوم الثلاثاء لليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة، ولما بلغ الفرنج قربه عادوا عن القاهرة إلى بلادهم، وكان رجوعهم في يوم السبت ثالث شهر ربيع الآخر، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألف نفس، ودخل أسد الدين القاهرة في سابع شهر ربيع الآخر، وخرج إليه العاضد لدين الله وتلقاه، وحضر يوم الجمعة التاسع من الشهر إلى الإيوان وجلس إلى جانب العاضد، وخلع عليه، وفرح الناس بقدومه. وعاد أهل مصر إليها، وشرعوا في إطفاء النيران وإصلاح ما تشعث، وكانت سقوف جامع عمرو بن العاص بمصر قد احترقت فجدده الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

قال: وأمر العاضد أسد الدين شيركوه بالنزول على شاطىء النيل بالمقس، ورتب له شاور ولمن معه الإقامات الوافرة، وأظهر له وداً كثيراً، وصار يتردد إليه في كل يوم، فطلب أسد الدين من شاور مالاينفقه في عسكره، فمطله فسير إليه شيركوه الفقيه عيسى الهكاري يطالبه بالنفقة ويقول له: إن العسكر قد طال مقامهم وطالبوا بالنفقة وتغيرت قلوبهم عليك، وإني أخشى عليك منهم، فلم يكترث شاور بذلك، وشرع في المماطلة فيما كان قرره لنور الدين.

وعزم شاور على ان يصنع دعوة، ويحضر أسد الدين وجماعة الأمراء الذين معه الى داره، ويقبض عليهم، ويستخدم من معه من الجند فيمتنع

بهم من الفرنج. فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وحلف انه إن صمم على هذا الأمر عرف به شيركوه، فقال له أبوه: والله لئن لم تفعل هذا قتلنا عن آخرنا، فقال الكامل لأبيه: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين الفرنج إلا أن يسمعوا أن أسد الدين قد قبض عليه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين ما أغاثه، ويملكون البلاد، فترك ما عزم عليه، واتصل ذلك بالعاضد فأعلم شيركوه.

ذكر مقتل شاور

كان مقتله في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر من السنة.

وذلك ان الأمراء النورية، لما رأوا مماطلته بالنفقة، وبلغهم أنه قد عمل على القبض عليهم اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك، وغيرهما، على قتله وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم عنه، واتفق أن شيركوه، خرج لزيارة قبر الإمام الشافعي هذا اليوم، وحضر شاور له على عادته، فقيل إنه توجه للزيارة، فقال: نتوجه إليه، فتوجه ومعه يوسف وجرديك وهما يسايرانه، فأنزلاه عن فرسه، وكتفاه، فهرب عنه أصحابه، فجعلاه في خيمة، وأحاط به جماعة ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فحضر من القصر جماعة من قبل العاضد، يستحث على قتله، وحضر أسد الدين إلى المخيم ورسل العاضد تتواتر لأسد الدين يأمره بقتله، فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد على رمح.

ومضى أولاده إلى القصور، واستجاروا بالعاضد، فقتلوا بعد العقوبة الشديدة، في يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الأولى منها، وهم: الكامل، والمعظم، وركن الإسلام، وتأسف شيركوه بعد ذلك على الكامل لأنه بلغه ما جرى بينه وبين أبيه.

قال: ولما قتل شاور استدعى العاضد أسد الدين شيركوه، فدخل إلى القاهرة في الساعة التي قتل فيها شاور، فرأى العوام وقد اجتمعوا، فهاله ذلك، فقال لهم: ان مولانا العاضد لدين الله أمير المؤمنين يأمركم أن تنهبوا دور شاور، فتفرق الناس عنه، ونهبوها. ودخل شيركوه إلى القصر، فتلقاه العاضد وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش. ولم تطل مدته في الوزارة حتى توفي الى رحمة الله تعالى بعد خمسة وستين يوماً، وقام بالأمر بعده الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، على ما نذكره إن شاء الله في أخبار الدولة الأيوبية.

ذكر انقراض الدولة العبيدية

والخطبة للمستضيء بنور الله العباسي

كان انقراض هذه الدولة عند خلع العاضد لدين الله، وذلك في يوم الجمعة لسبع مضين من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة.

وكان سبب ذلك أن صلاح الدين يوسف لما ثبتت قدمه في ملك الديار المصرية واستمال الناس بالأموال، قتل مؤتمن الخلافة جوهراً، زمام القصور، ونصب مكانه قراقوش الأسدي الخصي خادم عمه، ثم كانت وقعة السودان، فأفناهم بالقتل، على ما نذكره إن شاء الله مستوفى في اخباره، ثم أسقط من الأذان قولهم «حي على خير العمل»، وابطل مجلس الدعوة، وضعف أمر العاضد معه إلى الغاية فعند ذلك كتب الملك العادل نور الدين إلى الملك الناصر صلاح الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، والخطبة للخليفة المستضيء بنور الله، وكان المستضيء قد راسله في ذلك. فامتنع صلاح الدين، وكره إزالة هذه الدولة. فكتب إلى الملك العادل يعتذر، وقال: إن فعلنا هذا الأمر لانأمن من قيام أهل مصر علينا لميلهم إلى هذه الدولة، وكان قصد صلاح

الدين ان يتقوى بالعاضد على نور الدين إن هو أراد الدخول إلى الديار المصرية.

فلما ورد جوابه على نور الدين بالاعتذار انزعج لذلك، ورادف رسله إليه يأمره بخلع العاضد والقبض عليه.

فاستدعى الملك الناصر الأمراء واستشارهم في ذلك، فمنهم من حذره، ومنهم من هونه عليه، فأحضر الفقيه اليسع بن يحيى بن اليسع، وعرفه الحال، فلما كان في هذه الجمعة صعد إلى المنبر بجامع مصر قبل طلوع الخطيب، ودعا للمستضىء بنور الله، فلم ينكر عليه أحد، فلما كان في الجمعة الثانية أمر الملك الناصر الخطباء بمصر والقاهرة أن يخطبوا للمستضىء بنور الله أبي محمد الحسن، بن المستنجد بالله العباسي، فخطبوا له.

ثم توفي العاضد لدين الله إثر هذا الخلع، في يوم عاشوراء من السنة، بعد ثلاثة ايام من خلعه، وكان ضعيفاً لما قطعت خطبته، فقال صلاح الدين: لاتعلموه، فإن عوفي أعلمناه، وإن توفي فلا نفجعه بهذه الحادثة.

وقال بعض المؤرخين: إن صلاح الدين لما قطع خطبته دخل عليه وقبض عليه واعتقله، فلما رأى ذلك كان في ذخائره فص في خاتم، فمصه، فمات لوقته، فكان صلاح الدين يقول: ندمت كوني دخلت على العاضد وفعلت به ما فعلت، وكان أجله قد قرب.

ولما مات جلس الملك الناصر للعزاء به. فكانت مدة ولايته إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً ،مولده في يوم الثلاثاء لعشر بقين من المحرم سنة ست واربعين وخمسمائة، فعمره على هذا إحدى وعشرون سنة إلا أحد عشر يوماً.

وكان لـه من الاولاد ثلاثـة عشر، وهم :علي، ومـوسى، وعبد الكـريم، وأبـو الحجاج يـوسف، وأبـو الفتوح، وإبـراهيم، وجعفـر، ويحيى، وعبـد القـوي، وعبـد الصمد، وأبـو البشر، وعيسـى، فـاعتقلهم الملـك النـاصر بأجمعهم، واستمـروا في الاعتقال إلى سنة اثنتين وستمائة، فكان مـن امرهم ما نذكره في أخبار الدولة الأيوبية.

ووزر له مـن ذكرنا أخبـارهم، وهم: الصالـح أبو الغارات طـلائع بن رزيك، ثم ولده العادل رزيك، ثم شـاور، ثم الضرغام، ثم عاد شاور، ثم أسد الدين شيركوه، ثم الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

قضاتـه: أبو القاسم هبـة الله بن الكامـل، وأبو الفتح عبد الجبـار بن إسماعيل بن عبد القـوي، ثم الأعز أبو محمد الحسن بـن علي بن سلامة، ثـم أعيد عبـد الجبـار، ثم أعيـد ابـن كامـل، ثـم صرف على أيام الملـك الناصر بالقاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن درباس.

وكان العـاضد شديـد التشيع متغالياً في سـب الصحابة، رضـوان الله عليهم أجمعين، إذا رأى سنياً استحل دمه.

جامع أخبار الدولة العبيدية ومدتها ومن ملك من ملوكها

كانـت مدة تغلـب ملوك هذه الـدولة على البلاد منـذ أخرج أبـو عبد الله الشيعـي عبد الله، المنعـوت بالمهـدي، من سجلماسة، ومـن سجن اليسـع بن مـدرار إلى أن مـات العاضـد هذا مـائتـي سنة وسبعين سنـة وشهوراً، منهـا ببلاد الغـرب، منذ دخـل عبيد اللـه المهدي رقـاده إلى أن وصل المعز لـدين الله إلى القاهـرة أربع وستون سنة وعشرة أشهـر وخمسة وعشرون يوماً، وبـاقي هذه المدة بمصر والشام، إلى أن انقطعـت دعوتهم بخـروج عسقلان عـن يـد المسلمين واستيـلاء الفرنـج عليهـا، في جمادى

الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، في أيام الظافر بأعداء الله في وزارة عباس بن يحيى بن تميم.

وعدة من ملك منهم أربعة عشر ملكاً تسموا كلهم بالخلافة، وهم: عبيد الله المنعوت بالمهدي، ثم ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، ثم ابنه المنصور بنصر الله أبو الظاهر إسماعيل، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد، وهو أول من ملك الديار المصرية والبلاد الشامية منهم، وإليه تنسب القاهرة المعزية، ثم ابنه العزيز بالله أبو المنصور نزار، ثم ابنه الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور، ثم ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم، وقيل أبو الحسن، علي، ثم ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد، ثم ابنه المستعلي بالله أبو القاسم أحمد، ثم ابنه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور، ثم ابن عمه الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محمد ابن المستنصر بالله، ثم ابنه الظافر بأعداء الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ، ثم ابنه الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر، ثم ابن عمه العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، وعليه انقرضت دولتهم، وانتهت أيامهم، وباد ملكهم، فلم يعد إلى وقتنا هذا.

قال المؤرخ: ولما خلع العاضد ومات واعتقل الملك الناصر صلاح الدين يوسف أولاده بالقصور مر القاضي الأرشد عمارة اليمني الشاعر بالقصور، وهي مغلقة الأبواب، مهجورة الجناب، خاوية على عروشها، خالية من أنيسها، فأنشأ قصيدته المشهورة التي رثى بها القصور وأهلها، وهي من عيون المراثي وأولها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلي بالعطل

سعيت في منهج الرأي العثور، فإن
قدرت من عثرات الدهر فاستقل

هـدمـت قـاعـدة المعـروف عـن عجـل
سقيـت مهـلاً، أمـا تمشي على مهـل
لهفـي ولهف بنـي الآمـال قـاطبـة
على فجيعتنـا في أكـرم الـدول
قـدمـت مصر فـأولتنـي خـلائفهـا
مـن المكـارم مـا أربـى على الأمـل
قـوم عـرفـت بهم كسـب الألـوف ومـن
جمالها أنها جـاءت ولم أسـل

منها:

يـا عـاذلي في هـوى أبنـاء فـاطمـة
لـك الملامـة إن قصرت في عـذلي
بـالله زر سـاحـة القصريـن، وابـك معـي
عليهما، لا على صفين والجمـل
وقـل لأهلهما: والله مـا التحمـت
فيكـم جـراحـي، ولا قـرحـي بمنـدمـل
مـاذا تـرى كـانـت الإفـرنـج فـاعلـة
في نسـل آل أمير المؤمنين علي
هـل كـان في الأمـر شيء غير قسمـة مـا
ملكتـم بين حكـم السبـي والنفـل
وقـد حصلتـم عليهـا واسـم جـدكـم
محمـد، وأبيكـم غير منتقـل
مـررت بـالقصر، والأبـواب خـاليـة
مـن الـوفـود، وكـانـت قبلـة القبـل
فملـت بـوجهـي خـوف منتقـد
مـن الأعـادي، ووجـه الـود لم يمـل
أسلـت مـن أسفـي دمعـي غـداة خلـت
رحـابكـم، وغـدت مهجـورة السبـل

أبكـــي على مـــأثـــرات مـــن مكـــارمكـــم
حـــال الـــزمـــان عليهـــا، وهـــي لم تحل

وهي قصيدة مشهورة مطولة.

ولما انقرضت هذه الـدولة قامت الدولة الأيوبية على مـا نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار ملوكهم والله أعلم.

ذكر أخبار الدولة الأيوبية

وهي دولـة السّلطان الملـك النّاصر صـلاح الدّيـن يوسـف بن أيـوب وأولاده، ودولة أخيه الملـك العّادل سيف الدّين أبـو بكر وأولاده، رحمهم الله تعالى.

ولْنَبدأ بـذكر نَسَـب نجم الـدين أيـوب والد ملـوك الدّولـة الأيُّوبيـة وابتداءِ حـالِهِ وحـالِ أخيه أسـد الدّيـن، وكيف تنَقّلـتْ بهم الحال إلى أن ملك أسـدُ الدّين شيركـوه الدّيارَ المصريّـة، وكيف انتقل الملْـك بعده إلى ابن أخيه الملك النّـاصر صلاح الدّين يوسُف. ثمّ نذكـر أخبار مَنْ ملك مِـن أولاده وأخيـه الملـك العــادل وأولاده في حَـرْبهم وسَلْمهـم إلى حين انقراض دولتهم. وبالله التوفيق.

ذكر نسب الملك الأفضل نجم الدّين

هو أبـو سعيد أيوب بـن شادي بن مروان. هـذا هو المقطوعُ بـه الذي لانزاعَ فيه، ولاخلاف بين أحد من المؤرخين ونَقَلة أخبارهم.

وقال الملـك الأمجد مجدُ الدّين أبو محمـد الحسَن، ابن السلطـان الملك النّاصر صلاح الدين أبي المفاخـر داود، ابن السلطان الملك المعظم شرف الدّين أبي المظفر عيسى، ابن السلطان الملك العادل سيف الدّين أبي بكر محمد، ابن الملك الأفضل نجم الـدّين أبي سعيد أيوب، رحمهم الله تعالى، في كتابه المتَرجم بـالفوائد الجليّة في الفرائد الناصرية: سمعـتُ مَن يقول: مروان بن محمد؛ وقال بعض النّاس محمد بن يعقوب.

وقال شهابُ الديـن أبو شامة عبد الرحمن في كتابـه المترجم بالرّوضَتَين في أخبار الدّولتين سمعتُ مَن يقولُ: مروان بن يعقوب.

وقال الملك الأمجد: وقد اختُلِف في نسبهم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ماقاله عز الدّين علي بن الأثير الجزَري أنّ نجم الدين أيوب من بلد دوين من أذربيجان، وأصله من الأكراد الرَّوَاديّة:وهذا القبيل هم أشرف الأكراد.

قال الملك المجاهد:وهذا شيء يجري على ألسنة كثير من النّاس، ولم أرَ أحداً ممن أدركه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النّسب، لكنهم لاينكرون أن نجم الدّين كان بدوين.

قال: والمشهور عند بَيْتنا أنّ جدنا نزل على الأكراد وتزوَّج منهم، فصارت بيننا وبينهم خؤولة لاغيرُ، ويدلّ على ذلك أن السلطان الملك الناصر صلاح الدّين يوسف لّما ملك البلاد تقدم في دَوْلته جماعةٌ من الأكراد، فلم يبق أحدٌ منهم إلا جاء بنُو عمهُ وأقاربُه، حتى صار في عُصْبةٍ من أهله: والسّلطان رحمه الله لم يأتِ إليه من يمت بقرابة إلا من جهة النّساء فقط؛ ولوكان من الرَّوَادِيّة لكان جميعُ القبيلة أولاد عمه، وإن لم يكُنْ له ابن عمّ قريب فيكون ابنَ عمٍّ بعيد قطعاً لأن القبيلة كلّها أولاد رجل واحد، ولاشك أنّ الدّواعي تتوفر على الانتماء إلى الملك مالاتتوفر على الانتماء إلى الأمراء.

القول الثاني: أنهم من أولاد مروان بن محمد الأموي، آخر خلفاء الدولة الأموية.

قال الملكُ الأمجد: وهذا شيء ادَّعاه الملك المعز فتح الدين أبو الفداء اسماعيل بن الملك العزيز ظهير الدين أبي الفوارس سيف الإسلام طغتكين بن أيوب باليمن، لما ملكه بعد أبيه، وتلقّب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين. وقال يحيى بن حميدة ابن أبي طّي: قد

نقبت عن ذلك فأجمع الجماعة من بني أيوب على أنهم لايعرفون جداً فوق شادي.

القول الثالث: ماذكره حسن بن عمران الجرشي، فإنه جاء إلى الملك المعظم وعمل شجرة لنسب بني أيوب، فوصله بعليّ بن أحمد المرّي، ممدوح أبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه:

شرق الجوُّ بالغُبار إذ سار علي بن أحمد القمقام

وقال أيضاً في مدحه:

إنما ابن عوف بن سعيد جمرات لاتشتهيها النعام

ولم ينكر الملك المعظم عليه ذلك بل قَبِل منه.

قال: وهذا سَردُ النّسب الذي عَمِله الجرشي، وهو أيوب بن شادي ابن مروان بن أبي علي.

قال الملك الأمجد: قلت: ويُحتمل أن يكون أبو علي هذا هو محمد المقدم ذكره—وأبو علي كنية له— ابن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد ابن أبي علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سفيان ابن عمرو بن مرة بن شبة بن غيظ بن مُرَّة بن عوف بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانه بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وبقية النسب معروف، هذا ما قيل في نسبه. وأما ابتداء حاله:

-١٠٥٣٣-

ذكر ابتداء حال الملك الأفضل نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه

قال المؤرخ: قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدّين شيركوه من بلد دوين إلى العراق في خلافة المسترشد بالله، وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد، فرأى من نجم الدّين عقلاً ورأيا وحُسن سيرة، وكان أَسَنَّ من أخيه أسد الدين، فجعله مجاهد الدين دُزْداراً بقلعة تكْريت، وكانت له، فسار إليها ومعه أسد الدّين.

وقيل بل كان نجمُ الدين قد خدم السّلطان محمد بن ملكشاه السّلجقي، فرأى منه أمانةً وعقلاً، وسداداً وشهامة، فولاّه قلعة تكريت، فقام بها أحسن قيام، فلّما وَلي السلطان مسعود أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز، فأقرّ نجمَ الدين في الولاية، وكان أتابك عماد الدّين زنكي بن آق سنقر، والد السلطان الشهيد نور الدّين لّما انهزم من قراجا السّاقي في سنة ست وعشرين وخمسمائة، كما ذكرناه، بلغت به الهزيمة إلى تكريت، فقام نجم الدين بخدمته أتم قيام، وأقام له السّفن إلى أن عَبَر دجلة، فكان سبب وُصلته بالبَيت الأتابكي وتقدمه.

قال: ثمّ اتفق بين أسد الدين وبين قوارص النّصراني، كاتب بهروز، مشاجرةٌ في بعض الأيام، فكلّمه النصراني بكلمةٍ أمضته، فضربَ عُنقه بيده، ورماه برجله فلّما اتصل الخبر ببهروز، وحضر عنده مَنْ حذّره من جُرأة شيركوه وتمكين نجم الدّين واستحوازه على قُلوب الرّعايا، خافَ عاقبةَ ذلك، وكتب بالإنكار عليه بسبب ماكان من أخيه، وعَزَله. فسار نجمُ الدّين أيوب وشيركوه إلى عماد الدين زنكي في الموصل، فلّما وصلا إليه سُرَّ بهما وأحسن إليهما، فأقطعهما الإقطاعات الجليلة، وشهدَا معهُ حُروب الكفار، وقتال الفرنج.

فلّما ملَك زنكـي قلعة بعلبك، في سنـة ثلاث وثـلاثين وخمسمائة جعل نجم الـدّين دُزْدَاراً بها؛ فـأقام بها إلى أن قُتل عماد الـدين زنكـي، في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وحَاصَر معينُ الدّين أنـر، صاحب دمشق قلعةَ بعلبك، حتـى ضاق الأمر على نجـم الدّيـن، فاضْطر إلى تَسليمهـا إليه، وتعوَّض عنهـا إقطاعاً وأمـلاكاً؛ وكان عندَهُ مـن الأكابر الأمـراء، واتصل أسد الـدين شيركوه بخـدمة الملك العـادل نُور الـدين محمود بـن زنكي، فجعله مقدماً على عسكره، وجعل له حمص والرّحبة وغيرهما.

فلما تعلقت همّة نـور الدّين بمُلـك دمشق أمر اسـد الدين بمكـاتبة أخيه نجـم الدين أيوب في ذلـك، فرَاسَله، فـأعان نـور الدّيـن على فتح دمشق؛ فعظـم محلُّهُمَا عند نور الـدّين، فكان نجـم الدين إذا دخـل عليه جلس مـن غير أن يُؤذَن لـه في الجلُوس، ولم تكـن هذه الـرُّتبة لغيره مـن سَائر الأمراء. فلّما كان من أمر شاوَر ما قـدّمناه، وقصَد نورَ الدّين محموداً واستغاث بـه،أرسل معـه أسد الـدّين بـالعساكـر؛ وكان مـن أمره في المرّة الأولى، في سنـة تسـع وخمسين وخمسمائة، والمرّة الثـانيـة، في سنـة اثنتين وستين، والمرة الثالثة في سنة أربع وستين وخمسمائة مـاقدّمنا ذكره في أخبار الدّولة العُبيْديّة في أيام العاضد لدين الله.

ذكر وزارة الملك المنصور أسد الدّين شيركوه بالدّيار المصرية ووفاته

كـانت وزارتُـه للعـاضد لـدين الله في يـوم السبـت لثلاث عشرة ليلـة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة.

وذلك أنه لما كان من أمر شاور ومقتله مـاذكرناه آنفاً استَدْعى العاضدُ لديـن الله أسدَ الدّيـن شيركوه، فدخـل إلى القاهـرة في السّاعة التـي قُتِل

فيها شاوَر، فرأى من اجتماع العوام مـاهَالَهُ، فخاف على نفسه، فقال لهم: أميرُ المؤمنين يأمُـركم بنهب دارِ شـاور، فقصدَهَا النّـاس ونهبوها، وتفـرّقوا عنه، ولمّا نـزل أسدَ الـدّين بـدَارِ شاوَر، وهـي دارُ الوزارة، لم يجد فيهـا ما يجلس عليه.

قال:ولمَّا تفرق الناس للنهب دخل أسد الـدّين على العاضد لدين الله، فتلقاه وخلع عليه خلع الوزارة، ولقَّبه بـالملك المنصور أمير الجيـوش، وكتب له تقليدَ الـوزارة، وكتب عليه العاضـد بخطه هذا: «عهدٌ لم يعهـد لوزير بمثله، وتـقليدُ أمرٍ رآك أمير المؤمنين أهـلاً لحمله. والحجة عليك عند الله بما أوضحـه لـك مـن مَـرَاشِـد سُبُلـه، فخـذ كتـاب أمير المؤمنين بقُـوّة، واسحـب ذيلِ الفخـار بـأن اعْتززت بخـدمتـك مـن النبوة؛ واتّخذ الفـوزَ سبيـلا﴿ ولاتَنْقُضُـوا الأيمَانَ بَعْـدَ تَـوْكِيـدِهَـا وقَـدْ جَعَلْتُـم الله علَيْكُـمْ كَفِيلاً﴾(النحل٩١).

وخـرجَ مـن عند العَـاضـد وركـب إلى دار الوزارة وسكنهـا، واستقـلّ بالأمـر، واستعمل على الأعْمال مـن يثقُ بـه من كُفـاة أصحابـه، وأقْطع البلاد لعساكـره، وأرْسَل إلى ديوان الإنشاء بالقصر يطلُـب من يكتب بين يديه، فـأرسل إليه متولي الديـوان القاضي الفاضل عبد الـرحيم البَيْسَاني؛ وظَن رؤساء ديوان المكـاتبات أنّ هذا الأمر لايتم، وأن أسد الـدّين يُقْتل عن قريب كما قُتِـل غيره، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل وقـالوا لعلّه يُقتل معه. فكان من أمره ماكان.

ولم تطُلْ مدّة أسد الـدّين في الوزارة بل انقَضَتْ أيامُـه، وفاجأه حمامه، فتوفي في يوم السّبت لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة من السّنة.

واختلف في سبـب وفاته، فقِيل إنّـه مات فجأةً، وقيل بعلّـة الخوانيق، وقيل بل سُمَّ، فكـانـت مدّةُ وزارته خمساً وستين يوماً، وعُمـل عزاؤه ثلاثة

-١٠٥٣٦-

أيام، وحمل إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصّلاةوالسلام؛ ودُفن هناك برباط الوزير جمال الدّين وزير الموصل.

ولمّا مات أسد الدّين شيركوه استقرّ في الوزارة بعْدَه الملك النّاصر صلاح الدين يُوسف بن أيوب.

ذكر أخبار الملك النّاصر صلاح الدين يوسف ابن الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب ووزارته بالدّيَار المصريّة

كانت وزارته بالدّيار المصرية عقب وفاة عمّه الملك المنصور أسد الدين شيركوه، وقد تطاول جماعةٌ من الأمراء النّورية للوزارة؛ منهم عين الدولة اليَارُوقي، وقطب الدّين قايماز، وسيف الدّين المشطوب الهكاري، وشهاب الدّين محمُود الحَارمي، وهو خال صلاح الدين؛ وخطبها كلٌّ منهم لنفسه، فأشار جماعةٌ من المصريين وخواصّ العاضد لدين الله على العاضد أنْ يولِّي صلاحَ الدّين وقالوا: إنه أصغر الجماعة سناً ، ولايخرُج من تَحْتِ أمر أمير المؤمنين، فإذا استقرَّ وضَعْنا على العساكر مَن يَسْتميلهم إلينا، فيبقى عندنا من الجُند مَنْ نتقوى به، ثم نأخذ يوسُف بعد ذلك أو نخرجُه فإنّ أمره أسهل من غيره، فاستدعاهُ الملك العاضدُ لدين الله، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة. ولقّبه بالملك النّاصر، فلم يُطعْه أحدٌ من الأمراء الذين كانوا تطاوَلوا للوزارة ولاخدموه.

وكان الفقيه عيسى الهكاري معه، فسعَى مع الأمير سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب حتى استماله إليه، وقال له: إنّ هذا الأمر لايصل إليك مع الياروقي والحارمي وغيرهما، ثمّ اجتمع بالحارمي وقال له مثل ذلك، وقال له: إن صلاح الدين ولد أختك، وعزّه وملكه لك، وقد استقام لهُ الأمر، فلا تكُنْ أوّل من سعى في إخراج الأمر عنه. واجتمع بالأمراء واستمالهم، فأطاعه بعضهم وعصى بعضهم.

فأمّا الياروقي فإنه قال: لاأخدُم يوسف أبداً ، وعاد إلى الملك العادل نور الدّين هو وجماعة من الأمراء، وصار صلاح الدين نائباً عن الملك العادلِ نور الدّين، والخطبة لنور الدّين ولايكاتبه إلا «الأمير الاسفهسلار

صلاح الدّين وكافة الأمراء بالدِّيار المصرية. يفعلون كذا وكذا»، ويضع علامته في الكُتُب، عظمة أن يكتب اسمه.

ولمّا وزَر صلاح الدين ثبت قدمه، واستمال قُلوب الناس بالأموال فمالوا إليه فقوي أمره، وضعف أمر العاضد.

ذكر مقتل مؤتمن الخلافة جوهر، زمام القصور وانتقال وظيفته إلى قراقوش الأسدي وحرب السودان

كان مقتل مؤتمن الخلافة في يوم الأربعاء لخمسٍ بقين من ذي القعدة، من سنة أربع وستين وخمسمائة.

وسبب ذلك أن الملك الناصر شرع في نقض إقطاع المصريين، فاتفق هذا الخادمُ مع جماعةٍ من الأمراء المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى الديار المصرية، والاعتضاد بهم على صلاح الدين ومَنْ معه؛ وأرْسَل الكتب مع إنسان، فجعلها في نعلٍ ولبسه، وسار على أنه فقيرٌ رثُّ الهيئة، فلما وصل إلى الْبِيْضاءَ وجده تركمانِي، فأنكر حاله إذ هو رثٌّ الهيئة جديد المداس، فأخذ مدَاسَه وفتقه، فوجد الكتب فيه، فحمله بها إلى الملك الناصر، فوقف عليها، وكتم الأمر، وقرَّر الرجل بالعقوبة، فأقَرّ أنّ الكتب بخط رجلٍ يهودي، فاستحضره، فأقر بها، ثم قتل صلاح الدّين القاصد، واستشعر مؤتمن الخلافة من الملك النَّاصر، فلزم القصور واحترز على نفسه، فكان لايخرج منها. فلمّا طال ذلك عليه خرج في هذا اليوم لقصر له بالخرقانيَّة، فأرسل إليه الملكُ النّاصر جماعة فقتلُوه، وأتوه برأسه، فرتَّب حينئذٍ على أزمَّةالقصور قراقوش الخصي، وكان من مماليك عمِّه أسد الدين ليطالعه بما يتجدد بالقصور.

قال: ولما قتل مؤتمن الخلافة ثار السّودان لذلك وأخذتهم الحميّة، وعظُم عليهم قتلهُ، لأنه كان رأسهم ورئيسهم، فحشدوا واجتمعوا، فزادت عدّتهم على خمسين ألف عبد؛ وكانوا أشد على الوزراء من العسكر، فندب الملك الناصر العسكر لقتالهم، وقدّم على العسكر أبا الهيجاء السّمين؛ فالتقوا بين القصْرَين واقتتلوا، فقتل من الفريقين جمع كثير، فلمّا رأى ا الملك الناصر قوتهم وشدّة بأسِهم أرسل إلى محلّتهم المعروفة بالمنصورة، خارج باب زويلة، فأحرقها؛ فاتصل ذلك بهم، فضعُفَت نفُوسهم، فانهزموا إلى محلّتهم فوجدوا النّيران تُضْرِم فيها. واتبعهم العسكر فمنعهم من إطفائها، ودام [القتال] بينهم أربعة أيّام، نهاراً وليلاً، إلى يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة؛ فخرجُوا بأجمعهم إلى الجيزة وقد أيقنوا بالهلاك، وخرج إليهم تورانشاه أخو الملك الناصر فقتلهم، ولم يَنْجُ منهم إلا اليسير، وكتب الملك الناصر إلى وُلاة البلاد بقَتْلِ من يجدونه منهم، فقتلوا من عند آخرهم.

وبقي الملك الناصر يخشى من أهل القصر لِمَا فعله بمؤتمن الخلافة جوهر، فكان جوهر هذا سبب زوال مُلك الدّولة العُبَيدية، وجوهر القائد سبب مُلك المعزّ للبلاد؛ فَشتّان بين الجوهرين.

ذكر الحوادث في الأيام النّاصريّة غير الفتوحات والغزوات

لم نقدّم هذه الحوادث التي نذكرها الآن على الغزوات والفتوحات إلا أنها سابقة على ذلك في التاريخ، ولأنا أردنا أنْ نُفردَ غزواته وفتوحاته ليأتي الكلامُ عليها سياقه يتلو بعضُه بعضاً، ولايقطع بغيره، فكان ممّا نذكره:

ذكروصول الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب والد الملك النّاصر إلى الديا رالمصرية

كان الملـــــــك النّاصر قد كتب في طلـب والده، رحمهما الله تعالى، فوصـل بأولاده وأهلـه إلى القاهرة في السّـابع والعشريـن من شهـر رجب سنة خمسٍ وستين وخمسمائة؛ ولمّا وصـل تلقّاه الخليفـة العاضـد لديـن الله بظاهر بـاب الفتوح عندشجرة الإهليلج، ولم تجر بمثل ذلـك عادة، فكان يوماً مشهـوداً، وخَلَع العاضدُ عليـه، ولقّبه الملك الأفضل، وحمل إليه من أنـواع التحـف والألطـاف شيئاً كثيراً؛ وأقطعـه الإسكنـدريـة ودميـاط والبحيرة، وأقطـع ولـده شمـس الـدولـة، أخـا النّـاصر، قـوص وأسـوان وعيذاب، وكانت عبرتها يوم ذاك مائتي ألف وستةً وستين ألف دينار.

ذكر إبطال الأذان بحيّ على خير العمل

قال المؤرخ: ولِعَشْر مضيْنَ من ذي الحجـة سنة خمسٍ وستّين وخمسمائة أمر الملك النّاصر أن يسقط مـن الأذان قولهم«حيّ على خير العمل،محمّد وعليّ خير البشر». وكـانـــت أوّل وصمـة دخلـت على الشيعـة والـدّولـة العُبيديّة؛ وييئسـوا بعدها من خير يصـلُ إليهم من الملك النّـاصر، ثم أمر أنْ يُذكـر في الخطبة بكـلام مُجْمَلٍ، وليُلْبِس على الشيعة والعـامّة: اللّهـم أصلحْ العاضد لدينك.

ذكر ما أنشأه الملك النّاصر صلاح الدّين بالقاهرة ومصر من المدارس والخوانق

قـال المؤرخ: وفي أوّل سنـة ستٍّ وستين وخمسمائة أمـر الملـك النّـاصر

بهَدْم دار المعونة المجاورة للجامع العتيق بمصر، ودارُ المعونة هي المكان الذي يعتقل فيه النّاس، وأمر ببنائها مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية، وتعرف هذه المدرسة بابن زين التجّار. وإنّما عُرفت به لأنه درس بها.

ثم عمر دار العزل المجاورة لباب الجامع المعروف بباب الزكختة مدرسة للطائفة المالكيّة، ودرس فيها ابن أبي المنصور.

وفيها اشترى تقيّ الدين عُمر بن شاهنشاه، ابن أخي صلاح الدّين، الدّار المعروفة بمنازل العزّ بمصر، وبناها مدرسة للطائفة الشافعية.

وكانت هذه الدّار يسكنها الأمير ناصر الدولة ابن حمدان في الأيّام المستنصرية؛ وقد تقدَّم ذكر ذلك.

ثم أمر الملك النّاصر ببناء مدرسة الشافعّي والبيمارستان، وعمّر الخانقاه المعروفة بسعيد السعداء على ما يأتي ذكر ذلك.

وفي هذه السنة أيضاً أبطل الملك النّاصر مجلس ا لدّعوة من الجامع الأزهر وغيره، وكان من سُنَّة الدّولة العُبيديّة أن يقيموا لهم دُعاة كالخطباء، والله أعلم.

ذكر تفويض القضاء بالدّيار المصريّة للقاضي صدر الدّين بن درباس

وفي سنة ستٍّ وستّين وخمسمائة في ثامن عشري جمادى الآخرة فوّض السلطان الملك الناصر القضاء بالديار المصرية الى صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني ، فاستمر إلى آخر الايام الناصرية.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة، في سابع المحرم قُطعت خُطبة العاضد لدين الله، ومات في يوم عاشوراء كما قدّمناه.

وفيها في الثالث عشر من جمادى الأولى كُشِفَ حاصلُ الخزائن بالقصور، فوجد فيها مايزيد على مائة صندوق، ومن الذخائر النّفيسة مالايزيد عليه.

وفيها في صفر أمَرَ الملكُ النّاصر بإبطال المكُوسِ بالقاهرة والأعمال عن التجار المترددِّين إليها وإلى ساحل المقسم صادراً ووارداً، فكان مبلغُ ذلك مائة ألف دينار عينا.

وفيها رُسم بتحويل سنة خمس وستّين الخراجية إلى سنة سبع وستين الهلاليّة، وكانت قد حُوّلت في سنة خمسمائة في أيام الأفضل أمير الجيوش.

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى في يوم الثلاثاء السّابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة، وذلك أنّه ركب من داره، فلمّا انتهى إلى باب القصر في وسط المحجة شَّب به فرسُه فسقط عنه، فحُمل إلى منزله، فعاش ثمانية أيام ومات فدُفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في الدّار السّلطانية، ثم نُقلا إلى المدينة النبويّة، على ساكنها أفضل الصّلاة وأتم السّلام، وقُبرا في تُربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل رحمه الله.

وفي سنةتسع وستين وخمسمائة أمر الملك النّاصر ببيع الكتب التي بخزانة القصر، فكانت أكثر من مائة ألف كتاب من سائر المصنفات، فأبيعت بأخَسِّ الأثمان.

ذكر عمارة قلعة الجبل والسّور

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أيضاً أمر الملك النّاصر بعمارة قلعة الجَبَل والسّور الدّائر على القاهرة ومصر، وجعل مبدأه من شاطىء النّيل إلى شاطئه . فكان دَوْرَ السّور على القاهرة والقلعة تسعة وعشرين ألف ذراع، وثلاثمائة ذراع وذراعين، من ذلك مابين قلعة المقسم والبرج بالكوُم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع؛ ومن القلعة بالمقسم إلى حائط قلعة الجبل ثمانية آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع واثنان وتسعون ذراعا؛ ومن حائط قلعة الجبل إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر قلعة الجبل ثلاثة آلاف ومائتا ذراع وعشرة أذرع، كل ذلك بالذراع الهاشمي. وتولّى عمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، وحفر في رأس الجبل بئراً يتَوصل إلى مائها المعين من دَرَج منحوتةٍ من الجبل؛ وتوفي الملك الناصر قبل أن تكمل عمارته.

وفيها أمر ببناء المدرسة عند تربة الإمام الشّافعي رحمه الله، وتولاها الفقيهُ الزاهد نجم الدين الخُبوشاني.

وأمر باتّخاذ دارٍ في القصر بيمارستاناً للمرضى، ووقَفَ على ذلك وقوفاً، وهذا البيمارستان يُسمَّى في وقتنا هذا البيمارستان العتيق.

وفيها أسقط مكوس مكّة، شرَّفها الله تعالى، المقررة، على الحاج وعوض أميرها عن ذلك في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً تُحمل إلى ساحل جدة، وعيَّنَ لذلك ضِياعاً بالدّيار المصرية وقرّر أيضاً حَمْل غلاّتٍ إلى المجاورين بالحرمين الشريفين والفقراء؛ فقال الشيخ أبو الحسين محمد بن جبير الأندلسي في ذلك قصيدة يمدح بها الملك الناصر:

رفَعْتَ مكَارمَ مَكْسِ الحجَازِ
بإنْعَامِكَ الشّامِلِ الغَامِرِ

وأمّنْتَ أكنافَ تلك البلادِ
فهانَ السّبيلُ عَلى العَابرِ
وسُمتَ أياديكَ فيّاضةً
على وَاردٍ وعَلى صَادِرِ
فكَمْ لكَ بالشّرق من حَامِدٍ
وكَمْ لكَ بالغَرْب من شَاكرِ

ذكر قتل جماعةٍ من المصريين

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أيضاً، في ثاني شهر رمضان صُلب جماعة ممَّن أراد الوُثوب بمصر من أصحاب الخلفاء العُبيديّين، وسببُ ذلك أن جماعة من شيعتهم، منهم عمارة اليمني الشاعر، وعبد الصّمد الكاتب، والقاضي الأعزّ سلامة المعروف بالعويرس، والقاضي ضياء الدّين نصر بن عبد الله بن كامل، وداعي الدعاة، وغيرهم من جند العُبيديين ورجال السّودان وحاشية القصْر ومَنْ وافقهم من الأمراء الصّلاحية والجند، اتّفق رأيهم على استدعاء الفرنج من جزيرة صقليّة، ومن سواحل الشّام إلى الديار المصريّة على شيء بذلُوه لهم من المال والبلاد، وقرّروا أن الملك الناصر إذا خرج إليهم بنفسه ثار هؤلاء بالقاهرة ومِصر وأعادُوا الدولة العُبَيديّة، العلوية بزعمهم، ويعود مَنْ معه من العساكر الذين وافقُوهم عنْهُ فلا يبقى له مُقام بالبلاد. وإنْ أقام هو وأرسل العساكر إليهم ثاروا به فأخذُوه باليد. وقال لهم عمارة: وأنا فقد أبْعَدْتُ أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسدّه. وتجتمع الكلمة عليه بعده. وأرسل إلى الفرنج وتقرّرت هذه القاعدة بينهم.

قال: وكان ممن أدخلُوه معهم في هذا الأمر زين الدّين عليّ بنُ نجا الواعظ، وهو ا لقاضي ابنُ نجيّة، ثمّ اختلفُوا في وزارة الخليفة: فقال بنو رُزّيك: يكون الوزير منّا.والقاضي. وقال بنو شاور: بل يكُون الوزير منّا

فحضر ابنُ نجا إلى الملك النّاصر وأعْلَمه بصُورة الحال، فأمره بمُباطَنتهم وموافقتهم، ومطالعته بأحوالهم ففعل ذلك.

ثم وصل رسولٌ من مَلِك الفرنج إلى الملك النّاصر بهدَايا، وهو في الظّاهر لهُ، وفي الباطن لهؤلاء، فوضع الملكُ النّاصر عليه من النَّصارى من داخله وباطنه؛ فذكر له الحال على جليتّه، فأعلم به الملك النّاصر. فلما تحقَّقه قبض على هؤلاء وصَلَبهم، فكان ممن صلب عمارة اليمني، وعبد الصّمد الكاتب، والقاضي الأعز العويرس، وغيرهم.

وجاء عمارة إلى باب القاضي الفاضل لّما مُسك فاحتجب عنه، فقال عمارة:

عبدُ الرّحيم قد احتَجَبْ
إنْ الخَلاَص من العَجَبْ

ونُودي في أجناد المصريين بالرّحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصّعيد، واحتاط الملكُ النّاصر على مَنْ بالقصر من سُلالة العَاضِد وأهله. وأمَّا مَن كان قد وَافَقهم من أصحابه فلم يخاطبهم في ذلك ولاأوْهمهم أنَّه عَلِم به. وبَلَغ ذلك فرنج الساحل فلم يتحركوا من أماكنهم، وأما فرنج صقليَّة فإنهم قصدوا ثغر الإسكندرية على ماتذكره.

وفي سنة سبعين وخمسمائة، في أوائلها، خالف الكنزُ، أمير العرب، على الملك النّاصر بصعيد مصر، واجتمع معه جماعة كبيرة من رعَايا البلاد والعُربان والسّودان وغيرهم، وقتَل أخا الأمير أبي الهيجاء السّمين، وكان قد توّجه لإقطاعه بالصّعيد. فعظُم قتلُه على أخيه، وكان من أكابر الأمراء النّاصرية، فَسَار إلى قتال الكنز. ونَدَب معه الملك الناصر جماعة من الأمراء والعسكر، فوصلُوا إلى مدينة طُود، وهي على مسافة يوم من مدينة قوص إلى جهة الصّعيد، فامْتنع مَنْ بها عليهم، فقاتلُوهم وظَفِّروا بهم وقتلوا كثيراً منهم، وأخربوا البلد، فهي إلى وقتنا هذا تُعرف بطُود

ذكر مااستَوْلى عليه الملكُ الناصر من البلاد الإسلامية بنفسه وأتباعه

كان من البـلاد التي خُطب بها للملك النّـاصرِ صلاح الدّين يـوسف طرابلس الغرب، وبعض بلاد إفريقية، منها مدينة قَابس.

وسبب ذلـك أن شرف الديـن قراقـوش مملوكُ تقـيّ الديـن عمر، ابـن أخـي الملك النّـاصر، تـوجَّه في سنـة ثمانٍ وستين وخمسمائة في طـائفة مـن الأتـراك إلى جبال نَفُـوسـة[٢١]، واجتمـع به مسعُـود بـن زمام المعـروف بالبـلاط، وهو مـن أعيان أمراء تلـك الناحيـة، وكان خارجـاً عن طـاعة [ابـن]عبـد المؤمن. فـاتفقـا وكثُـر جمعهما، ونـزَلاَ على طرابُلـس الغـرب، فحاصراهَا مـدَّة وضيَّقا على أهلها، ثمّ فتحـاها، فاستولى قـراقوش عليها، وأسْكـنَ أهلـه بقصرهـا، ثـمّ ملـك كثيرا من بـلاد إفـريقيـة إلا المهـديَّـة وسفَاقُـس، وقَفْصَة، وتُونـس، وماوَالاَهـا مِن القُرى والمواضـع. وكَثُر جمعُ قراقـوش، فحكم على تلـك البلاد، وجمع أموالاً عظيمـة وجعلها بمـدينة قابس، وقويـت نفسُه، وطمع أنّه يستولي على جميع إفريقيّـة لبعد ابن عبد المؤمن عنهـا واشتغاله بجهـاد الفرنج، ثـم جاء بوزابـه مملوك تقيّ الـدين أيضاً، بطـائفة من التُّرك فزاد بهم قـوَّة إلى قوَّته، ثم اجتمـع الأتراك وعلي ابن إسحـاق الملَثّم [المعروف بـابن غانيـة] وملكوا بجايـة في سنة ثمانين، وانقادواإلىالملثم واستعانوا به ، لأنه من بيت المملكة والرئاسة القديمة ، ولقبـوه بأمير المسلمين؛ وقصـدوا بلاد إفـريقية فملكـوها شرقـا وغربـا إلا تونس والمهدية ، فإن الموحدين حفظوها.

ولّما حصـل استيـلاؤهـم على بـلاد إفـريقيـة قُطِعت خطبـة أولاد عبـد المؤمـن وخُطـب للنّـاصر لـديـن الله العبّـاسي؛ وقصـدوا مـدينـة قفصـة فتسلموها في سنة اثنتين وثمانين: وأقام بها طائفة من الملثمين والأتراك.

الخراب، وغيطانُها عـامرة، ثمّ سار العسكـر منها إلى الكنز، فقاتلَـوه،فقُتل هو ومَن مَعَه من الأعراب، وأمِنَت البلاد واستقرّ أهلها.

وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة ظهـر بالدّيار المصريـة فأرٌ كثير جداً. قال القـاضي الفاضـل عبْدُ الرحيـم: حدثنـي مَنْ شاهـد هذا الفـأر وهو يرحَلُ مـن بقعة إلى أخرى فيغطي الأرض بكمالها حتـى لايظهر منها شيءٌ البتّـة وأنه شـاهده يمـرُّ بأمـاكـن فلا يُلـمُّ بها ولايخرج عليها والـزّروع بها محصورة. ويمـرّ بأخـرى فلا يلبث أن يُفسـد جميعَ مـافيها ولايـرتحلُ عنها وبها شيءٌ من الزّرع ولا المقات بالجملة.

وفي سنـة تسع وسبعين وخمسمائة ظهـر بأبـوصير السدر[٢٢] مـن أعمال الجيزة بيـت أشاع النّاس أنّـه بيت هرمـس، ففُتح بحضور القـاضي نظام الـدّيـن بن الشّهـرزوري، وأُخـرِجَ منـه أشيـاء من جملتها صُـور كِبَـاشٍ وضفـادع بأزهُـر، وقـواريـر دهنج، وفلـوس مـن فضـة ونحاس، وأصنـام نحـاس وياقـوت، وغير ذلك مـن الذّهـب والفضة والتّحـف القديمـة، ووُجِد فيه خلقٌ كثير من الأموات.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة فـي يوم الاثنين مستهل المحرم درس في المدرسـة الفاضلية التي انشأهـا القاضي الفاضل عبـد الرحيم بالقـاهرة بدرب ملوخيـا ؛ ورتب فيها لإقراء كتابَ الله تعالى الشيـخ الإمام العالم الــزكـي أبـو محمـد القاسم بـن فيرُّه الرُّعيني الشاطبـي؛ وفي التّدريس على مذهبـي الشّافعي ومالك الفقيه أبـو القاسم عبد الرحيم بـن سلامة الإسكندري، رحمهما الله تعالى.

وحيث ذكـرنا هـذه النّبْذة من الحوادث التّـي اتّفقت في خـلال دولته، فلنَذْكر مااستولى عليه من البلاد الإسلاميّة.

فلّما اتصلت هذه الأخبار بالأمير يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن اختار من عسكره عشرين ألف فارس من الموحدين، وسار بهم في صفر سنة ثلاث وثمانين، فوصل إلى مدينة تونس، وأرسل ستة آلاف مع ابن أخيه، فساروا إلى الملثم والأتراك بقفصة، فهزمهم الملثم ومن معه في شهر ربيع الأول من السنة، فجاء يعقوب بن يوسف بمن معه في نصف شهر رجب منها، والتقوا على مدينة قابس، فانهزم الأتراك والملثم، وقتل كثير منهم ، وفتح يعقوب قابس، وأخذ أموال قراقوش وأهله وحملهم إلى مراكش. وحصر مدينة قفصة ثلاثة أشهر وبها الترك، فطلبوا الأمان لهم ولأهل البلد، فأمنهم وسير الأتراك إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم.

هذا ما اتفق لهذه الطائفة، وإن كانت هذه الفتوحاتُ لا تختص كلها بالدولة الأيوبية، إلا أنهم كانوا سبباً، وهم الذين استولوا على البلاد كما ذكرنا فأوردناها في أخبارهم.

ذكر استيلائه على اليمن

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة جهّز الملك الناصرُ أخاه الملك المعظم شمس الدّولة تورانشاه إلى اليمن، فسار في مستهل شهر رجب، وكان عُمارة اليمني الشّاعر يذكر له البلاد ويحسنها له ويحثه على قصدها. ويعظم مملكتها، فسار ووصل إلى مكة شرفها الله تعالى، ومنها إلى زبيد وبها صاحبها عبد النبي المتغلب عليها ، فلّما قُرب منها ورأى أهلها انهزموا، فوصل المصريون إلى سور زبيد فلم يجدوا عليه من يمانع عنه، فنصبوا السلاليم وصعدوا عليها إلى السور فملكوا البلد عنوة ونهبوه، وأسر المتغلب عليها عبد النبي وزوجته المدعوة بالحرة، وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة، وسلم شمس الدّولة عبد النبي إلى سيف الدّولة مبارك بن كامل بن منقذ ، وهو من أمرائه، وأمره أن يستخرج منه

الأموال، فـاستخرج منه شيئاً كثيراً وأظهـر دفائنَ كانت لـه، ودلتهم الحرة على ودائع لها كثيرة . ثم أصلح أمر زبيد وخطب بها للنّاصر لدين الله .

ثم سار إلى ثغر عدن، وهي فُرْضـة الهند والزنج والحبشة وعُمان وكرمان وكش وفارس وغير ذلـك؛ وهي من جهة البر من أمنـع البلاد واحصنها. وصاحُبهـا يومئـذ رجل اسمـه ناشر، فخرج إليـه وقاتلـه، فانهزم هـو ومن معه؛ فسبقه بعـض عسكر الدّولة فـدخلوا البلد قبل أهلـه وملكوه، وأسر صاحبـه، وقصد العسكر نهب البلـد، فمنعهم شمـس الدّولة، وقـال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنّما جئنا لنملكها ونعمّـرها وننتفع بها ، ثّم عاد إلى زبيد وحصر ما في الجبل مـن الحصون فملك قلعة تعزّ واسمها الـدّمولة، وهي من أحصن القلاع، وبها تكون خـزائن صاحب اليمن، ومَلَك غيرها من الحصـون والمعاقل، واستنـاب بثغر عـدن عزّ الديـن عثمان الزنجيلي، وبزبيد سيف الدّين مبارك بن كامـل بن منقذ، وجعل في كلّ حصن نائباً من أصحابه.

وأحسن شمـسُ الدّولـة إلى أهل البـلاد؛ وعادت زبيـدُ إلى أحسن مـا كانت عليـه من العمارة والأمن. ثّم عـاد شمس الدولة مـن اليمن، وقدم إلى دمشـق بعد أن ملكهـا الملـك الناصر، فـوصـل إليهـا في سنة إحـدى وسبعين وخمسمائة.

ذكر ملكه مدينة دمشق

قال المؤرخ: لّما توفي الملـك العادلُ نور الدّين الشهيد محمُـود بن زنكي رحمه الله، كما قدّمناه في أخباره، وولي بعده ولـدُه الملك الصّالح اسماعيل، أقرّ الملكُ الناصر الخطبـة باسمه بعد أبيه، ولم يخطُبْ لنفسـه، ثم اتفق ما ذكرناه مـن نُقْلة الملك الصّالـح من دمشق إلى حلب، ولم يُستـأذن الملكَ النّاصر في ذلك ولا كتـب له فيه ؛ فسار من الدّيـار المصريّة إلى الشام في شهر ربيـع الأول سنة سبعين وخمسمائة، ووصل إلى دمشـق في يوم الاثنين

سلخ الشهر — وقال ابن شدّاد في سلخ شهر ربيع الآخر — وتسلم دمشق من الأمير شمس الدّين ابن المقدّم ونزل بدار العقيقي، وكانت سكن أبيه، وأحسن إلى الأمراء وأكرمهم، وأظهر أنه إنما حضر إلى الشام نُصرة للملك الصّالح، وليعيد عليه ما أخذه ابنُ عمه سيف الدّين غازي من بلاده، وأقر خطبته ولم يقطعها ولا خطب لنفسه.

ذكر ملكه مدينة حمص وحماة

قال المؤرخ: ولّما ملك دمشق استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغدكين بن أيوب ، وتوجّه إلى مدينة حمص في مستهل جمادى الأولى، فنازلها، فملك المدينة ولم يشتغل بالقلعة ؛ وترك بالمدينة من يحفظها ويمنعُ من في القلعة من التصرّف.

وسار منها فوصل إلى مدينة حماة في مستهل جُمادى الآخرة؛ وكان بقلعتها الأمير عزّ الدّين جُرديك ، وهو من المماليك النوريّة، فامتنع من تسليمها، فأرسل إليه يعرّفه ما هُو عليه من الطاعة للملك الصّالح، فاستحلفه جرديك على ذلك، وخرج إليه، وترك أخاه بالقلعة ليحفظها. وتوجّه عزّ الدّين جُرديك إلى حلب ليكون سفيراً بين الملك الناصر وبين كمشتكين فاعتقل بحلب فلما بلغ أخاه ذلك سلم القلعة إلى الملك الناصر فملكها.

ذكر حصره حلب وعوده عنها وملكه قلعة حمص وبعلبك

قال: ولّما بلغ الملك النّاصر خبرُ عزّ الدين جرْديك والقبض عليه، توجّه إلى حلب وحصرها في جُمادى الآخرة من السنة، فقاتله أهلها، وركب الملكُ الصّالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب، وذكرهم بإحسان والده إليهم، واستنصر بهم في دفع صلاح

الدّين، فبكـوا وحلفوا له على بذل النفـوس والأموال، وقاتلوا أشـدّ قتال. وأرسل سعد الـدّين كُمُشتكين إلى سنان، مقدّم الاسماعليـة ، مالا كثيرا على قتـل الملـك النّـاصر؛ فسيّر إليـه جماعة ، فظفـر صـلاحُ الـدّيـن بهم وقتلهم، ورحل عن حلب في مستهل شهر رجب من السنة.

وكان سبب رحيله أنّ كُمُشتكين أرسـل إلى القومص ريمند الصّنجيلي، صاحب طرابلـس، أن يجهّز إلى بلاد صلاح الدّين من الفـرنج من يمنعُه من الـوُصول إليهـا، فلّما بلغهُ ذلـك فارقَ حلـب وعاد إلى حماة في ثـامن الشهر، بعدَ نـزول الفرنج على حمص بيوم، فلمّا سمـع الفرنج بقُربـه رحلوا عن حمص، ووصـل صلاح الدّيـن إلى حمص، وملك القلعة بعـد حصار، وكان ملكه لها في الحادي والعشرين من شعبان من السّنة.

ثّم سـار منها إلى بعلبك، وكـان بها يمن الخادم متـوليها من أيـام نور الدّين، فحصرها الملـك النّاصر، فطلب يمن الأمان، فأمنـه وتسلم القلعة في رابع شهر رمضان.

ذكر انهزام عسكر سيف الدين غازي

من الملك الناصر وحصره حلب ثانيا

قال المؤرخ: كان الملك الصّالح كتب إلى ابن عمه سيف الدّين غازي يستنجدُه على قتال صلاح الدّين ودفعـه، فجهز العسكر صُحبة أخيه عزّ الـديـن مسعود، وتـأخـر هـو لما وقـع بينـه وبين أخيه عماد الـدّيـن مـن الاختلاف الـذي قدمنـاه في أخبار الـدولة الاتـابكية، فسـارت العساكـر السيفيـة ، واجتمـع معها العسكـر الحلبـي، وسـاروا كلهم لقتـال الملـك الناصر ، فـأرسل إلى سيـف الدّين يبـذل له تسليـم حمص وحماة وأن يُقِرَ بيده مـدينة دمشق نيـابةً عن الملك الصـالح؛ فلم يُجب إلى ذلـك وقال: لابُد من تسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام ويعود إلى مصر .

فلما امتنع سيف الدّين من إجابته تجهّز عند ذلك للقاء عزّ الدين مسعُود ومن معه وقتالهم، فالتقوا في تاسع عشر شهر رمضان بقُرون حماة، فلم تثُبتْ عساكر سيف الدين وانهزموا لايلوى بعضهم على بعض، وتبعهم الملك الناصر وغنم معسكرهم، ووصل إلى حلب وحاصرها، وقطع خُطبة الملك الصالح، وأزال اسمه.

فلّما طال الحصار على من بحلب راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها؛ فأجابهم إلى ذلك، وانتظم الصّلح، فرحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووصل إلى حماة، ووصلت إليه بها رسل الخليفة المستضيء بنُور الله ، ومعهم الخلع والأعلام السود، وتوقيع من الدّيوان العزيز بالسلطنة ببلاد مصر والشام.

وفيها ملك قلعة بعرين في العشر الأول من شوال من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وكان من أكابر الأمراء النورية، فجاء إلى خدمة الملك الناصر ، وظن أنه يكرمه ويقربه، فلم ير من ذلك شيئاً ففارقه وعاد إلى قلعته، فلما استقر الصلح بين الملكين الناصر والصالح نازل بعرين ونصب عليها المجانيق وملكها.

ذكر الحرب بين

الملك الناصر وسيف الدين غازي وانهزام غازي

قد قدمنا انهزام عز الدين مسعود بالعسكر السيفي من الملك الناصر في سنة سبعين وخمسمائة، فلّما كان في سنة إحدى وسبعين جمع سيف الدين غازي جميع عساكره وفرق فيهم الأموال، واستنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما، وسار إلى حلب، واستصحب سعد الدين كمشتكين مدبر دولة الملك الصّالح والعسكر الحلبي.

وكان صلاح الدّين في قلةٍ من العسكر لأنه جهّز أكثر عساكره إلى الدّيار المصريّة، فلمّا بلغه ذلك أرسل يستدعي عساكره ، فلم تلحقه؛ وأعْجَلتهُ الحركةُ، فسار من دمشق إلى حلب للقاء غازي ومنْ معه، فالتقى العسكران بتل السلطان بالقرب من حلب، في عاشر شوال من السنة.

وكان عزّ الدين زلفندار مقدّم العسكر الموصلي قليلَ المعْرِفة بالحُروب، فجعل أعْلام صاحِبه في وهَدَةٍ من الأرض لايراها إلا من هو بالقُرب منها، فلما لم يَرها الناس ظنوا أن سيف الدّين غازي قد انْهزم، وانهزموا لايَلْوي الأخ على أخيه، ولم يُقْتل من العسكر على كَثرته غيرُ رجل واحدٍ، وانهزم سيف الدّولة إلى الموصل، وترك أخاه عزّ الدّين بحلب.

قال العماد الأصفهاني: إن سيف الدّين غازي كان في عشرين ألف فارس، وخطّاه ابن الأثير الجزري في ذلك وقال إن أخاه مجَد الديّن أبا السّعادات المبارك كان يتولّى كتابة الجيش، وأنه وقف على جريدة العَرْض فكانت ستّة آلاف.

وإنْ جَمعنا بين قوليهما فنقول: إنّ الجريدة التي وقف عليها ابنُ الأثير كانت للجيش المختصّ بسيف الدّين غازي خاصّة، والذي نقله العماد الأصفهاني عن جميع ماصَحبه من سائر الجيوش الحلبية والحصكفية والماردينيّة، والله أعلم.

ذكر ماملكه الملك الناصر من بلاد الملك الصالح

بعد هذه الوقعة

قال المؤرّخ: لمّا استولى الملك النّاصر على أثقال العسكر الموصلّي وغنمها، واتّسع هو وعسكره بها، سارَ إلى بُزاعة، فحصرها وملكها بعد

قتال مَنْ بقلعتهـا، وجعل بها من يحفظُها، ثمّ سـار إلى منبج فحصرها في آخر شـوّال، وبها صاحُبها قطـب الدّين ينَـال بن حسّان المنبجـي، وكان شديـد العَداوَة للملك النّاصر والتّحـريضِ عليه؛ فملك المدينـة وحاصَر القلعة وملكها عنـوةً، وأسر صاحَبها ينَال، ثم أطلقـه، فسارَ إلى الموصل، فأقطعه سيْف الدّين غازي مدينة الرّقة.

ثم سـار إلى قلعة عَزَاز فنازلها في ثـالث ذي القعدة ونصب المجـانيق، ولازم الحصَار ثمانيـة وثلاثين يـوماً، وتسلّمهـا في حادي عشر ذي الحجـة من السّنة.

ووثب عليه في مـدّة الحِصار باطنيٌّ، فضربه بسكّين في رأسـه، فَرَّد عنه المِغْفَرُ ، وضربَه عدَّة ضربات وقعت في زيق كزاغنده.

ذكر حصره مدينة حلب والصلح عليها

قال: ثـمّ رحل الملـك النّاصر عـن أعزاز ونـازل حلب في نصـف ذي الحجة، وحَصَرهـا إلى العشرين مـن المحَّرم سنـة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وتردَّدت الرّسـائل بينهم في الصلح، فاستقرّت القاعـدة بين الملك الناصر وسَيْـف الدّيـن غازي، والملـك الصّالح وصـاحـب مارديـن، وصاحـب حِصـن كَيْفَا، وتحالفـوا أن يكونـوا كلُّهم عـونـاً على النّاكـث منهم، فتّـم الصّلح، وأعاد الملك النّاصر إليهم قلعة أعزاز، ورجع عن حلب.

ذكر نهبه بلاد الإسماعلية

قال: لمّا عـاد الملك النّاصرُ من حلـب قصَد بلاد الإسماعيليّـة في شهر المحـرَّم سنة اثنتين وسبعين لقتـالهم، لأنّهم أرادوا قتله؛ فنهـب بلادَهـم وخرَّبها؛ ونـازل قلعة مَصْياف، فـأرسل سنان مقـدّم الإسماعيلية إلى الأمير شهاب الـدّين الحارمي صـاحـب حماة، وهـو خال الملك النـاصر، يطلُب

منه الدّخول بينهما في الصّلح والشفاعة، وتهدَّده بالقتل إن لم يفعل. ففعل ذلك، وتمَّ الصلح، وتوجَّه الملكُ النّاصر إلى دمشق، ثم رحل منها إلى الدّيار المصريّة لأربعٍ خَلْون من شهر ربيع الأول، ووصل إلى القاهرة لأربع بقين منه.

ذكر عبوره الفرات وملكه الديار الجزيرية

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة كان الملك الناصر يحاصر بيروت، فأتَتْه كتب مظَّفر الدّين كوكبري بن زين الدّين علي بن بكتكين مُقْطع حرَّان يطلبه إلى البلاد ويعده المساعدة. فسارَ وعبَر الفرات، وكاتب ملوكَ الأطراف ووَعدهم، وبذَل لهم البُذول على نَصْرته، فأجابه نورُ الدّين محمد صاحب حصن كيفا، فسار الملك النّاصر إلى مدينة الرُّها فحصَرها في جُمادى الأولى، ودَامَ الحصار، فطلب صاحبها فخر الدّين مسعود الزّعفراني الأمان، فأمنّه وتسلّم البلد، وصار صاحبها في خدمته؛ وتسلّم القَلعة، فلما ملكها سلّمها لمظفر الدّين صاحب حرّان، ثم سار عنها إلى الرّقّة وكان بها مُقْطَعها قطبُ الدّين ينال بن حسان المَنْبجي، فملكها، وسار صاحبها إلى نصيبين، فملك المدينة لوقته، وحصَر القلعة عدَّة أيام، فملكها؛ وأقطعها للأمير أبي الهيجاء السمين، وهو من أكابر الأمراء، وسارَ عنها، ومعه نُور الدّين صاحب الحصن، فحاصر الموصل فلم يظفر منها بشيء لحصانتها وكثرة مَنْ بها.

ذكر ملكه مدينة سنجار

قال:ثم سار الملك النَّاصر من الموصل إلى سنجار، فسيّر مجاهد الدّين قايماز إليها نجدةً من العسكر، فمنعهم الملك الناصر الوصول إليها، وأوقع بهم وأخذ سلاحهم ودوابهم، وسار إليهاونازلها وبها شرف الدّين

أمير ميران أخو عـز الدّين صـاحب الموصل، فملكهـا بأمانٍ بعـد حصار عظيم، وسار شرفُ الدّين ومَنْ معه إلى الموصل.

واستقرَّ للملـك النّاصر جميـعُ ماملكـه في هذه الـوقعة بملـك سنجار واستناب بها سعـد الدين بـن معين الدّين أنر، وهـو من أكابـر الأمراء، وأحسنهم صورةً ومعنـىً. وعاد إلى نصيبين، فلقيه أهلها وشكـوا إليه من أبي الهيجاء السّمين فأنكر عليه وعزَله.

وسار إلى حرّان فـوصل إليها في أوائل ذي القعدة، فكاتب عـزُّ الدّين صـاحبُ الموصـل صـاحب خـلاط، وهو شـاه أرمـن، واستنجد بـه على حَـرْب الملـك النّاصر، فلمّا بلغـه اجتماعهما سـار إلى حـرزم بالقـرب مـن ماردين.

ذكر ملكه مدينة آمد وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا

قال: ثم سـار من هذه الجهة إلى آمـد فوصل إليها في سـابع عشر ذي الحجة فنازَلها وحاصَرها، ونصب عليها المجـانيق، وهي من أحسن البلاد، يُضرب المثل بحَصَانتها، وكـان صاحبها ابن نيسان في غايـة الشح يبخل ببـذل المال، فملّـه أصحـابـه وتخاذلوا عنـه، فـأخـرج نسـاءً إلى القـاضي الفاضـل وسأله أن يـأخذ له الأمـان ولأهله، وأنْ يؤخـرّ ثلاثة أيـام حتى ينقل ماله بالبلد من الأموال والذّخائر.

فـأجـابه الملـك النـاصر إلى ذلـك، وتسلّم البلـد في العشر الأول مـن المحرّم سنـة تسع وسبعين وخمسمائة، وانقضت الأيام الثـلاثة قبل فـراغة من نقل أمـواله، فمُنع مما بقـي. وسلّم الملك الناصر البلـد بما فيه إلى نور الدّيـن صاحب الحصن، وكـان فيه من الذخـائر ماتزيد قيمتـه على ألف ألف دينار.

ذكر ملكه تل خالد وعين تاب

قال: ثم سار الملك النّاصر إلى تلّ خالد من أعمال حلب فحصرها ورمَاها بالمجانيق، فطلب أهلها الأمان، فأمنهم، وتسلَّمها في المحرّم أيضاً.

وسار منها إلى عين تاب، وبها ناصرُ الدّين محمد[بن خمارتكين] من أيّام نور الدّين الشّهيد، فحصرها، فَراسله في طلب الأمان على أن يكون الحصنُ بيده ويكون في خدمته، فأجابه إلى ذلك وحلفَ لهُ عليه، فنزل إليه أيضاً واتصل بخدمته.

ذكر ملكه حلب

قال: ثمّ سار من عَيْن تاب إلى حلب في المحرّم أيضاً ونزل بالميدان[الأخضر]عدّة أيام ثم انتقل إلى جبل جوشن؛ فنزل بأعلاه وأظهر أنّه يريد [أن]يبني مساكن لنفسه ولأصحابه وعَسَاكره، وأقام أيَّاماً والقتال بين العسكرين في كل يوم.

وكان صاحبُها عماد الدّين زنكي بن مَوْدُود بن زنكي مجداً في القتال، فطالبه بعضُ الجند بأرزاقِهم، فاعتذر بِقلَّة المال عنده؛ وكان قد شحَّ بإخراجِه، فقال له: مَنْ يريدُ حِفْظ حَلَب يُخرج الأموال ولَو باع حلي نسائه. فجنح إلى تسليمها، فرَاسَل الملكَ النّاصر في طَلَب العِوض عنها: سنجار، ونصيبين، والخابور، والرَّقَّة، وسَرُوج، فَسَلَّمَ مثلَ حلب وأعمالها وتعوّض عنها قرى ومزارع، وجرت الأيمان على ذلك، وتسلَّمها الملكُ النَّاصر في ثامن عشر صفر.

فسبَّ النَّاس عماد الدّين زنكي، وأسمعُوه المكرُوه على فعله.

واستقرت الحالُ بينهما أن عماد الدّين يحضُر إلى خدمة الملك النّاصر متى استدعاه بنفسه وعسكره ولايحتج بحجة.

قال: ولما تسلّم الملك النّاصر حلب امتدحه الْقَاضي محيي الدين ابن الزكي، قاضي دمشق، بقصيدةٍ جاء منها:

وفتحُكم حَلباً بالسّيف في صفر
مبشّرٌ بفتُوح القُدْس في رجب

فكان ذلك.

ونقل الملكُ النّاصر أخاه الملكَ العادل من نيابة الدَّيار المصرية إلى حلَب، في سنة تسع وسبعين، وأعطاه حَلب وقلعتها وأعمالها، ومنبج ومايتعلق بها؛ وسيَّره فيّ شهر رمضان.

ذكر فتح الملك النّاصر حارم

قال: ولمَّا فتح الملكُ النّاصر حلب كان بقَلعة حَارم سرخك، وهو من المماليك النورية، فامتنع من تَسْليمها، فراسله في ذلك وخيره فيما يُريد من القلاع، ووَعده الإحسان؛ فاشْتطَّ في الطلب، فتردَّدت الرّسائل بينهم، فراسل سَرْخَك الفرنج ليحتمي بهم، فبلغ ذلك مَنْ معه من الأجناد فخافوا أن يسلّمها للفرنج، فقبضُوا عليه واعتقلوه، ورَاسَلوا الملك النّاصر في طلب الأمان، فأجابهم وتسلّم الحِصْن ورتَّب فيه دُزْدَاراً من بعض خواصّه، وأقام الملك النّاصر بحلب إلى أن قرر قواعَدها وأقْطع أعمالها.

ذكر حصار الموصل

وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائةحاصر الملكُ النّاصر الموصل، وذلك

أنَّه سار من دمشق في ذي القعدة سنة ثمانين لقصد حصارها، فلّما وصل إلى مدينة بلد، سيّر إليه عز الدّين صاحب الموصل والدته وابنة عمه الملك العادل نور الدّين الشهيد وغيرهما من النّساء في جماعة من أعيان الدولة يسألُونه المصالحة، وبذلُوا موافقَته وإنجاده بالعساكر مَتَى طَلَبها، ليعُود عن قَصْد الموصل، وإنّما أرسلهنَّ ظناً منه أنّه لو سيّر ابْنَة نُور الدّين إلى الملك النّاصر في طلب الشّام أعطاه لأنها ابنةُ مخدومه، فتلقّاهُنَّ بالإكرام، وأحسن إليهن، واستشار أصحابه في ذلك، فكلٌّ أشار عليه بموافَقَتِهنّ.

فقال له الفقيه عيسى الهكاري وعلّي المشطوب: مثل الموصل لاتترك لا مرأة، وإنّ عزّ الدّين ماأرسلهنَّ إلاّ وقَدْ عجز عن الحرب. فوافق ذلك هواه فرّدهنّ خائبات، واعْتذر بأعذارٍ غير مقبولة، وقَصَد الموصل و حاصرها، وكان بينهم مناوشاتٌ فلم يتمكّن منها، فندم حيثُ لم يجب النّساء. ففي أثناء ذلك توفي شاه أرمن صاحبُ خلاط، فأشار عليه أصحابه بمُفارقةِ الموصل وقصْد خلاط، ففارقها.

ذكر ملكه ميّافارقين

قال:وَلمَّا سار الملك النّاصر إلى خلاط جعل طريقه مَيَّافَارقِين وكان صاحبها قطب الدّين صاحب ماردين قد توفي وملك بعده ابنه، وهو طفل، وكان حكُمها إلى شاه أرمن وعسكرهُ بها؛ فتوفي شاه أرمن أيضاً، فطمع في أخذها ونَازَلها، فرآها مشحونةٌ بالرّجال، وفيها زوجة قطب الدّين المتوفّى وبناته، والمقدّم على جيشها أسد الدّين يرنقش، وكان فيه شجاعةٌ وشهامة، فحَصَرها الملكُ النّاصر من أوّل جُمادى الأولى، ونصب عليها المجانيق والعَرّادات؛ واشتدّ القتالُ فلم يظفَرْ منها بشيء؛ فرجع عن القوّة إلى إعْمال الحيلة، فراسل امرأة قطب الدّين المقيمة بالبلد يقول إنّ أسد الدّين قدْ مَال إلينا في تَسْليم البلد، ونحن نَرْعى حقّ أخيك نور

الدّيـن فيك بعـد وفاتـه، ونريد أن يكـون لك نصيـبٌ، وأنا أزوِّج بنـاتك بأولادي، وتكـون مَيَّافَارقين وغيرُها لـكِ وبِحُكْمِك، ووَضع مـن أرْسلِ إلى أسد الـدّين يعـرّفه أنّ الخاتونِ قـد مالَتْ لـلانقياد إلى تَسْليمهـا، وأنّ مَنْ بخلاط قد كاتَبُوه ليسلّموها إليـه. فسُقِط في يده، وضعُفَت نفسه، وأرسل إلى الملك النّـاصر يقترحُ إقطاعاً ومالاً، فـأجيب إلى ذلك. وسلّـم البلد في سلْخ جُمادى الأولى، وعقَد نِكاح بَعْض أولاده على بَعْض البنات.

ذكر عوده إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين صاحبها

قال: ولمَّا تسلَّم الملك الناصر مَيَّافارقين وفـرغ من أمرها وتدبيرِ أحوالها، عـاد إلى الموصـل لحصـارهـا، فترَدّدت الـرّسـائل بينـه وبين عـزّ الـديـن صاحبهـا، ووقع الاتّفاق على أن يسلِّـم للملك النّـاصر شَهرزُور وأعمالها، وولاية القـراملي، وجميع مـاوراء الزّاب، وأن يُخطَـب له على منـابر بـلاده، ويَضرب السِّكّة باسمـه؛ وتحالفا على ذلك، فتسلّم الملـك النّاصر البلادَ، وسكنت الدّهماء.

ورحل إلى حـرّان فمرض بها وطال مـرضه حتـى أُيس منه؛ ثـمّ عُوفي، وعاد إلى دمشق في المحرّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائةَ.

قال: ولمّا كان الملكُ النّـاصر مريضاً بحرّان كان عنده ابـنُ عمه ناصُر الدّين محمد بن شيركوه، ولـه من الإقطاع حمص والرّحبة، فسار إلى حمص واجتاز بحلب، وأحضر جماعة من أحْداثِها، ووَعـدهم، وأعطاهم مالاً؛ ثمّ وصل إلى حمص ورَاسَـل جماعةً من الدَّمـاشقة على تسليم البلـد إذا مات الملكُ النّـاصر. وأقام ينتَظر مَـوْته؛ فتوفي ناصرُ الـدّين ليلة عيـد الأضحى سنة إحدى وثمانين، وعوفي الملك الناصرُ.

[وكان الملك الناصر] لما بلغَـهُ مااعتمده ناصرُ الدّين بحلـب ومُراسلته للدُّماشقـة، وضَع عليه النَّاصـح ابن العميد سقاهُ سُمّاً فمات، وطُلـب ابنُ

العميد من الغَد فلم يوُجد؛ وسَارَ من ليلته إلى الملك النّاصر؛ فقَويت الظِّنَّة بذلك.

ولمّا تُوفي أعطى الملكُ النّاصر إقطاعه لولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف ناصرُ الدّين من الأموال والخيول والآلات شيئاً كثيراً، فحضر الملك النّاصر إلى حمْص وعرض تركته، وأخذ أكثرها، واستعان به على الجهاد، ولم يترك إلا مالا خير فيه.

وحضر شيركُوه عند الملك النّاصر[بعد موت أبيه بسنة]، فأجلسه في حجره وسأله إلى أين انتهى من القرآن، فقال إلى قوله تعالى:﴿إنَّ الذينَ يَأكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إنّما يَأكُلُونَ في بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعيراً﴾(النساء ١٠) ، فاضطرب الملكُ النّاصر لذلك وظنّ أنّه عرّض بفعله، وطَلَب مُؤَدبَه ولَوّحه فوجده كذلك.

فعوّضه عمّا أخذه من مال أبيه الضّياع الخرابَ بالشّام في ذلك الوقت، وهو الذي يُعرف إلى زَمَاننا هذا بالخراب الأسديّ: وورثته إلى هذا التاريخ يبيعون خراب ضياع الشّام والسّواد والبلْقَاء وغير ذلك. واستولوا من الخراب على مَاليس في كتابهم، وأباعُوا مالا هُو لهم، فإنّه قيل إن الذي اشتمل عليه كتابُ المبايعة أربعمائة ضيعة، وهي التي كانَتْ قد استولى عليها الخرابُ في ذلك الوقت، فأباع ورثته جميع ماخَرب بعد ذلك مِمَّا لم يتضمنَّه كتابُهم وأعانهم على ذلك أنّهم يبيعونه لأرباب الجاهات بأخس الأثمان، وأعرف بلدا يسمّى رمدان من بلاد البلقاء بالقرب من الرّقيم والجادية وسنجاب اشتراها الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري لمَّا كان ينُوب عن السَّلطنة بالشام،من الورثة الأسدية بسبعمائة درهم؛ فلمّا مات وانتقل بعضُ ميراثه إلى السلطان الملك النّاصر[محمد بن قلاوون]بالولاء الشرعي، وكنتُ أباشر ديوانه

بالشام، حَصَّلْتُ من مُغل هذه البلدة في سنة إحدى وسبعمائة ماأبيع بنيّف وعشرين ألف درهم، فانظُر إلى هذا التفاوت العظيم.

ذكر غزوات الملك النّاصر وما افتتحه من بلاد الفرنج

وقد رأيت أنْ أُفْرد غَزَوات الملك النّاصر وفتوحاته ونكايَاته في الفرنج، ولاأضمّ ذلك إلى غيّره من أخباره، لأن فيه مايدُل على قوّة الإسلام، وأنّ الله تعالى لمْ يزل يؤيّد هذا الدّين من عباده بمَنْ يُناضل عنه، ويَحْمي حوْزته، ويذُب عن أهله، ويستأصل شأفَةَ عدوهم.

ونذكر ذلك على الترتيب.

فكان أول ذلك وصول الفرنج إلى ثَغر دمياط ورجُوعهم عنه.

وكان وصُول الفرنج، خذلهم الله تعالى، إلى ثغر دمياط في صفر سنة خمس وستين وخمسمائة، فحاصروا الثّغر. وكان سببُ ذلك أنّ أسد الدّين شيركوه لمَّا ولي الوزارة للخَليفة العَاضد لدين الله خافَهُ فرنج السّاحل، فكاتبوا أهْل صقليّة والأندلس من الفرنج يستمدُّونهم ويخبرونهم أن أسد الدّين قد مَلَك الدّيار المصرية، وأنهم لايأمنونه على البيت المقدّس. فأمدُّوهم بالمال والرّجال والسّلاح، فنازلوا دمياط وضيّقوا على أهلها، فأرسل الملك النّاصر إليهم العساكر براً وبحراً، وكتب إلى الملك العادل نور الدّين الشّهيد بذلك، ويعرّفه أنّه لايمكنُه الخروج من القاهرة لأنه لايأمن أمر الشيعة وأنهم يثورون بعده، فيبقى الفرنج أمامه والمصريون خلفه، فأمَده نُور الدّين بعسكر، وخرج نورُ الدّين بنفسه إلى بلاد الفرنج للإغارة عليها؛ فاستبَاح أموالها، لخلُوّ البلاد السّاحلية منهم، فلمّا بلغهم ذلك رجعُوا إلى بلادهم بساحل الشام بعد مقامهم على دمياط نيّفاً وخمسين يوماً، ولم يظفروا منها بشيء. وأخرج العاضدُ للملك النّاصر في هذه الغَزَاة ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب والأسلحة.

ذكر غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة

وفي سنة ستّ وستين وخمسمائة سار الملكُ النّاصر عن القاهرة وأغار على أعمال عسقلان والرّملة، وهجم على ربض غزّة فنهبه. وأتاه ملك الفرنج في قلّة من العسكر ليردَّه، فهزمه الملك النّاصر بعد أنْ أشرف على أسْرِهِ، وعاد إلى القاهرة، وعمل مراكبَ مفصَّلة ونقلها على الجمال إلى البحر، فجمع قِطَعها وشدَّها، وألقاها في الماء. وحصر أيلة برّاً وبحراً، وفتحها في العشر الأول من شهر ربيع الآخر، واستباح أهلها ومافيها؛ وعاد إلى الدّيار المصريّة.

ذكر محاصرة الشوبك وعوده عنها

قال المؤرخ: وفي صفر سنة سبع وستين توجَّه الملكُ النّاصر إلى حصن الشَّوبَك ونازله، وحصَره، وضيّق على مَنْ به من الفرنج. ودام القتال، فطلب أهله الأمان، واستمهلوه إلى عشرة أيام فأجابهم إلى ذلك، ثمّ بلغه أنّ الملك العادل نور الدّين جاءمن دمشق إلى الشوبك من الجانب الآخر، فخاف أنّ نور الدّين متى ملك الشوبك قَبَض عليه، فعاد إلى الدّيار المصرية، وكتب إلى نور الدّين يعتذرُ بمرض أبيه بمصر، فقبل عُذره ظاهراً، ووقعت الوحشة بينهما باطناً.

ذكر وصول[اسطول] صقلية إلى ثغر الإسكندرية وانهزامه

كانت هذه الحادثة في سنة سبعين وخمسمائة، ولم يكُن للملك النّاصر بها غزاةٌ بنفسه ولامباشرة للحرب، وكان سببُ وصول هذا الأسطول إلى الثّغر ماقدَّمناه من مُكاتبة المصريين الذين صلبهم صلاحُ الدّين الفرنج، فوصل من صقلية مائتا شيني تحمل الرجال، وست وثلاثون طريدةً تحمل الخيل، وستّ مراكب تحمل آلة الحرب، وأربعون مركبًا تحمل

الأزواد، وفي المراكب من الـرجال: خمسُون ألفاً ومن الفرسـان ألف فارس وخمسمائة فارس، وكـان المقدَّمُ عليهم ابـنُ عمّ صـاحب صقليّة، فـوصلوا إلى الثغـر في السّادس والعشريـن مـن ذي الحجـة سنة تسـع وستين على حين غفلة، فخرج إليهـم أهلُ الثّغر بعُددهم وأسلحتهـم، فمَنعهم المتَولى عليهم، وأمـرهم أنْ يقاتلوا مِـنْ وراء السّور، وطلع الفرنـج إلى البرّ ونَصَبوا الدبَّـابات وقـارَبُوا السّـور؛ وقاتلهـم أهلُ البلـد قتالاً شـديداً. وجـاء إلى الإسكندرية مَنْ كان إقطاعه بالقرب منها.

وكتب إلى الملـك النّاصر بذلـك؛ فتجَّهز بنفسـه؛ وقدَّم من يُعْلـم أهلِ الثَّغر بوصولـه، وكان أهل الثغر قد أنكوْا في الفرنـج، وقتلوا وجَرحوا كثيراً منهم، وحرقوا الدّبابات.

ولمَّا علـم الفرنـج بمَقْدَم الملـك النّـاصر جنَحوا إلى الهرب، وأخـذتهم سيُـوف أهل الثَّغـر، وحـرقوا بعـض مـراكبهم، ونهبـوا خيـامهم، وأخـذوا سـلاحهم؛ وكثُـر القتـلُ فيهم، وهـرَب مَنْ بقـي؛ واحتمـى ثلاثمائة مـن الفـرسـان على تل، فقـاتلهـم المسلمـون طـوال الليل إلى ضحـى الغـد، فأخذوا بين أسيرٍ وقتيل.

ذكر مسيره إلى عسقلان وغيرها وانهزام عسكره وعوده

وفي سنَـة ثـلاثٍ وسبعين وخمسمائة، خـرَج الملـك النّـاصر إلى غـزّة وعسقلان.

وكان رحيلـه من القـاهرة بعـد صلاة الجُمعـة لثلاث ليـالٍ خَلْون مـن جُمادى الأولى من السنة، فـوصَل إلى عسقلان في يوم الأربعـاء لليلةٍ بقيت من الشهر، فسَبَى وسَلب، وضرب أعنـاق الأسرى؛ وتفرَّق عسكره للإغارة على الأعمال.

ثـمَّ سار إلى الـرَّملة في يـوم الجُمعـة مستهلَّ جُمادى الآخـرة، فاعترضـه الفرنـج وقد جمعـوا جموعاً كثيرة؛ فكـان بينهما وقعةٌ عظيمـة استشهد فيهـا أحمد ولدُ الملـك المظفر تقي الـدّين[عمـر]، وأسِر ولدُه الثّاني شـاهنشاه، وأقـام في الأسرسبـع سنين حتى افْتَكَّـه السّلطـان بمالٍ كثير، وأسِر الفقيـه عيسى الهكّاري.

ثم كانت على المسلمين، وذلك أنّ العساكر كانت قد تعبأت للحَرب، فلما قارَبَهم العـدو أراد بعض الأمراء أن ينقـل الميمنة إلى الميسرة، والميسرة إلى القلـب، فلمّا اشتغلوا بهذه التعبئـة هجـم عليهـم الفرنـج، فـانكسروا وطلبُوا الـدّيار المصرية. وضلُّـوا في الطريـق. وعادَ السّلطان ومَـنْ معه إلى القاهرة في يوم الخميس منتَصف الشهر.

ذكر وقعة مرج عيون وانهزام الفرنج وأسر ملوكهم

كانت هذه الـوقعة في يوم الأحد لثمان خَلون من شهـر المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة؛ وكـان الفرنـج في عشرة آلاف مقـاتـل. فلمّا التقوا مـع المسلمين انهزم ملكهـم مجروحـاً عنـد اللقاء، وأُسر منهـم جماعـة، منهـم: مقـدَّم الدَّاويـة. ومقدَّم الأسبِتَـارية، وصـاحـب طبريّة، وأخـو صاحـب جبيل، وابن القـومصيّة، وابن بارزان صـاحب الرّملة، وصـاحب جينين، وقسطِـلان يافـا، وابن صـاحب مـرَقيّـة وعدّة مـن خيّالـة القدس وعكّـا وغيرهم من المقـدَّمين والأكابر، زادت عدّتهم على مـائتين وسبعين، سوى غيرهم، فنقلهـم السّلطان إلى دمشق.

فأمّا ابنُ بارزان فإنَّه بـذَل في نفسه مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صوريّـة، وإطلاق ألف أسير مـن المسلمين، والتزم بفكاك الفقيـه عيسى الهكـاري، وأما ابـنُ القومصيـة فافتكتـه أمُّه بخمسـة وخمسين ألف دينـار

صوريّة. وأما مقدَّم الداويّة فإنّه هلك، فطلبت جثته بإطلاق ألف أسير من مقدَّمي المسلمين.

قال: وفي هذا اليوم ظَفِر الأسطول المصريّ ببَطسَةٍ كبيرة للفرنج، فاستولى عليها وعلى أخرى، وعاد إلى الثّغر بألف أسير، والله أعلم.

ذكر هدم بيت الأحزان

كان الفرنج قد عمروا حصن بيت الأحزان في مدّة مُقام الملك النّاصر على بعلبك واشتغاله بأمرها؛ فبَنْوه على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين صَفَد وطبريّة نصف يوم.

وكان في بنائه ضررٌ عظيمٌ على المسلمين، فبذَل لهُم الملك النّاصر في هَدْمه مائة ألف دينار، فأبَوْا ذلك. فجَّهزَ إليه الجيش، فوصل إلى المخاضة يوم السبت لإحدى عشرةَ ليلةً بقِيَت من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين، والحِصْنُ مبنيٌّ دُونها من الغرب. فَنَصبُوا عليه المجانيق بعد العصر من يوم الأحد، فما جَاءَ الليل إلاّ وقد استَوْلَوا على الباشُورة. ثم أدار حَوله النُّقُوب،فاستمَّرت إلى يوم الخميس، لِست بقين من الشهر، فهُدم الجدار، ودَخَل العسكر الحصْن وغَنِموا مافيه؛ فكان ماغنمُوه من أنواع السّلاح الجديدة مائةَ ألف قطعة؛ وأسروا سبعمائة أسير، ومن أسرى المسلمين مائة. ثم هُدِم الحصن إلى الأسَاس، وكان سمكُه عشرة أذرع.

قال: ولمَّا عمر الفرنج بيت الأحزان قال النشو أحمد الدّمشقي:

هلاكُ الفرنج أتى عاجلا ... وقد آن تكسير صُلْبانها

ولو لم يكن قد دنا حتفُها ... لما عَمَرت بيت أحْزانها

ذكر مسير الملك الناصر إلى بلاد الأرمن

وفي سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، توجَّه الملكُ النّاصر إلى بلاد الأرمن، وذلك أن ابن لاوون ملك الأرمن كان قد اسْتَمال قوماً من التُّركمان، فلمّا أتوه وهم آمنون أَسَرهم. فدخل الملكُ النّاصر إلى بلاده واستولى على قلعة تُعرف بالمناقير، وهَدَمها إلى الأساس، وأخذ مافيها من الآلات، ووَجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً من الآلات الذهب والفضّة والنحّاس، فبذل ابنُ لاوون جُملة من المال، وأنّه يُطلق الأسرى، ويشترى خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويطلقهم، فأجابه السّلطان إلى ذلك، وأخذ رهينةً عليه. ثمّ عاد إلى الدّيار المصرية، وأقام بها إلى سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة.

ذكر مسيره إلى الشام والإغارة على طبرية وبيسان وماكان من الظفر بمراكب الفرنج ببحر عيذاب

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة توجّه السّلطان الملكُ النّاصر لقَصد الشام عند وفاة الملك الصّالح بن الملك العَادل نور الدّين، فأغار على طبريّة وبَيْسان في العشر الأوسط من شهر ربيع الأوّل، فانتصر بعْدَ قتال.

وفيها كان الظفر بالفرنج ببحر عيذاب، وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك عمل أسطُولاً بالكرك، ونَقَل قِطَعه إلى بحر أيلة وألْقَاها في البحر، وشحنَها بالمُقاتلة، فساروا في البحر وافترقوا فرقتين: فرقة حصرت أيلة، وفرقة توجَّهت إلى عيذاب، وأفسدوا السواحل، ونهبوا، وأخذوا ماوجدوه من المراكب الإسلامية ومَنْ فيها من التُّجار، وجاءُوا على حِين غَفْلة، فرأى الناس مالم يعهدوهُ، فإنّ هذا البحر لم يَرَ النّاسُ فيه فرنجياً قطُّ، ولاتاجراً ولا مقاتلاً قبل هذا الوقت.

وكان الملكُ العَادِل ينوب عن أخيه الملك النَّاصر بالدّيار المصريّة، فعمر أسطولاً وجَهّز فيه جماعَةً من المسلمين، ومقدَّمهم حُسام الدّين لؤلؤ الخاص، فسارُ في طلبهم. وابْتَدأ بالمراكب التي على أيلة، فظفِر بها، وقتل بعض من فيها وأسر بعضهم. وتوجَّه لوقته بعد ظَفَره بهم إلى الذين توجَّهوا إلى عيذاب، وكانوا قد عَزَموا على الدّخول إلى الحجاز وأخْذِ الحاج، والدُّخول بعد ذلك إلى اليمن، فوصل لؤلؤ إلى عيذاب فوجَدَهم قد نهبوا ماجدوه بها وتوجَّهوا، فسَار في إثرهم، فبلغ رابغ والحوراء. فأدركهم بها، وأوقع بهم. فلمّا تحققّوا العَطَب خرجوُا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب، فنزَلَ من مراكبه وقاتلهم في البرّ أشدّ قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هُناك فركبها، وقاتلهم، فَظفِر بهم وقَتل أكثرهم؛ وأسَر مَنْ بقي، وأرسل بعضهم إلى مِنَى ليُنْحروا بها عُقوبةً لهم على قَصدهم البيْتَ الحرام. وعاد إلى مصر ببقية الأسرى، فقُتلوا.

ذكر الإغارة على الغور

قال: ولمّا ملك الملكُ النّاصر حلب عاد إلى دِمَشق، ثم رحل منها في ثامن جُمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسمائة فنزل على بيسان، فوجد أهلها قد ارتحلوا عنها، فنهبها العسكر النّاصري وتقوَّوا بما فيها، وحرَقُوا مالم يمكنهم أخذُه. وسار بهم حتى أتى الْجَالوت، وهي قريةٌ عامِرَةٌ وعندها عينٌ جارية، فعبّأ أصحابه عندها للقتال، ورحَل إلى الفُولة، ووقع القتال بينه وبين الفرنج، وكان الظَّفر له، ثمّ عاد إلى دمشق، فوصل إليها في يوم الخميس الرّابع والعشرين من جمادى الآخرة من السّنة.

وتوجّه إلى الكرك في هذه السَّنة، وعاد.

ثمّ جمع العساكر المصريّة والحلبيّة وغيرها، وقَصد الكرك في سنة ثمانين

وخمسمائة، وهي الدّفعة الثانية؛ فجمع الفرنجُ فارِسَهم وراجِلَهم للذَّبِّ عنها، ففارقها السلّطان، وجهَّز طائفة إلى نابلس فنهبوها وعادوا إليه.

ذكر غزوة الكرك والشوبك

وفتح طبرية ومجدل يابا ويافا

قال العماد الأصفهاني في البرْق الشامي: وفي سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة بَرَزَ الملك النّاصر من دمشق في أول المحرّم، في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنّة لجهَاد أهل جهنم، فلمّا وصل إلى رأس الماء أمَر الأفضل بالمُقَام عندَها ليجتمع عندَه الأمراء الواصلون من الجهات، وسار السّلطان إلى بُصرى، ثمّ منها إلى الكرك، ورَعى الزُّروع، وقَطعَ الأشجار، ثمّ سار إلى الشوبك وفَعَل مثلَ ذلك، ووصل إليه العسكر المصري ففرّقه على قلْعَتَي الكرك والشوبك، وأقام إلى أن انْقضى من السنّة شهران، والملكُ الأفضل مقيمٌ برأس الماء، وقد اجتمعت عنده العساكر، فتقدّم إلى سريّة منهم بالغارة على أعمال طبريّة، فانتهوا إلى صَفّوريّة، فخرج إليهم الفرنج فقاتلوهم، فكان الظفر للمسلمين، وهلك مقدّم الأسبتار؛ وعادُوا إليه فكانت مقدّمة النّصر المبين.

وانتهت البشائر إلى الملك النّاصر وهو بِنَواحي الكرك والشوبك، فسار بمن معه في يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول، وعَرضهم في اثْنَي عشر ألف فارس، وعَزم على دُخول السّاحل، فانْتهى إلى ثغر الأقحوانة فاجتمعت الفرنج في زُهاء خمسين ألفاً، ونزلوا على مَرْج صَفُّوريّة بأرض عكّا، فلم يتقدّموا عنها، فتقدّم السُّلطان إلى الأمراء أن يُقيموا في مقابلتهم، ونزل هو بمَن معه من خواصّه على طبريّة، وشرع في نقب سُورها، فهدموه في ساعة من نهار، وامتنعت القلعة بمن فيها.

فلّما اتّصل بالفرنج فتحُ طبريّة تقدّموا، وذلك في يومْ الخميس ثالث

شهـر ربيع الآخـر، فترك السّلطان على طبريّـة من يحفـظ قلعتها، وتقـدّم بالعسكر، فـالْتَقَيا على سَطْح جبل طبريّة الغرّبي منهـا،وحالَ بينهما اللّيل، فباتـا إلى صبيحة يـوم الجمعة، فتصادمـا بأرض قريـة اللّوبيـا؛ واستمرّت الحرب بينهما إلى الليل فكانت من أعظم الحُروب. ثمّ باتا إلى صبيحة يوم السّبت، فالْتَقَيا.

فلّما عايـن القومص أنّ الدائرةتكـون على طائفته هـرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وسار نحو صُور، فتبعـه جماعة من المسلمين، فنجا بمفرده، ثمّ انهزمـت طائفة أخـرى فتبعها أبطـال المسلمين، فلم ينج منهـا واحد، واعتَصمت الطّـائفة الأخـرى بتلِ حطّين، فضـايقهم المسلمـون، واشعلوا حولَهم النّيران، فقَتَلهـم العطش، فـأُسِر مقدَّمهـم، وقُتل البـاقون، وألقـى عليهم الخِذلان.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لقَـد حكى لي مَن أثِق به أنّه لقي بحوران شخصاً واحداً ومعه طُنُبُ خيمة فيه نَيّفٌ وثلاثون أسيراً.

وأمّـا القومـص الذي هـرب فإنـه وصـل إلى طرابلـس، وأصابـه ذات الجنب، فأهلكه الله.

قـال: وبَات السُّلطـان بـالمنزلـة، ونَزل يـوم الأحـد على طبريّة وتسلّـم قلعتها في بقيّة يومه، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قال: ولمّا يسر الله هـذا الفتح كتـب السّلطان إلى أخيـه الملك العـادل سيـف الدّيـن بمصر يُبشره به، وأمـره بالمسير إلى بـلاد الفرنـج من جهـة مصر بمَـنْ بقي عنـده مـن العساكـر، ومحاصرة مـايليـه منها؛ فسـارع إلى ذلك، وسار ونازل حَصْن مجدل يابا وفتحه، وغنـم مافيه، ثم سار إلى يافا وفتحها عنوةً، وقتل وسبى وأسَر وغنم .

ذكر فتح عكا، ونابلس، وحيفا، وقيسارية، وصفورية والنّاصرة، ومعليا، والفولة، والطور، والشّقيف، وغير ذلك

قال ابـن شداد: ثمّ رحـل السّلطان طالبّاًعكّـا، وكان نزولـه عليها في يـوم الأربعاء سَلْـخَ شهر ربيـع الآخر سنـة ثلاثٍ وثمانين، وقـاتلها بُكـرة الخميـس مستهل جُمادى الأولى، فـأخذهـا، واستَنْقَـذَ من كـان فيها مـن الأسـارى، وكانـوا زهـاء أربعة آلاف؛ واستـولى على مـافيهـا من الأمـوال والذّخائر.

ثـم تفـرّقـت العساكـر في بـلاد السّـاحـل فـأخذوا نـابلـس، وحَيفـا، وقيسـارية، وصفّـوريـة، والنّاصرة، ومعليـا، والفُـولـة، والطوُّر، والشقيـف وقلاعاً تلي هذه كثيرة؛ وكان ذلك لخلوهـا من الرّجال، فإنهم عمّهم القتل والأسر.

ذكر فتح تبنين وصيدا وصرفند وبيروت وجبيل

قـال: ثم أرسـل السلطان ابـن أخيه تقـي الديـن إلى تبنين فضايقهـا، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه، فـوصَل إليها ونازَلها يوم الأحد الحادي عشر مـن جُمادى الأولى، فسـأل مَـنْ بها الأمـان واستُمهلـوا خمسـة أيـام لينـزلوا بـأموالهم، وأطلقـوا الأسارى، فخـرجوا إليـه، فسُرَّ بهم وكَسَاهـم، وخلص في تلك السنـة من الأسرى أكثر من عشريـن ألـف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألـف.

قال: ثم رحل السّلطان من تبينن إلى صَيْـدا، فاجتاز في طَريقه بصَرَفَنْد فأخذها بَعْد قتال.

ثم سار إلى صَيْدا، ففارقها صاحُبها وتركها خالية، فتسلَّمها ساعة وصوله إليها لِتسعٍ بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين.

وسار من يومه نحو بيروت فقاتل أهلها على سُورها وظنُّوا أنهم قد قَدَروا على حفظه، فدخلها المسلمون من الجانب الآخر، فسألوا الأمان فأمنَّهم على أنفسهم وأموالهم، وتسلَّمها في التاسع والعشرين من الشهر.

وأما جُبَيْل فكان صاحبُها في جملة الأسرى الذين نُقِلوا إلى دمشق، فسأل إطلاقه وتَسْليمها، فأحضره مقيّداً، فسلّم البلد وأطلق أسرى المسلمين، وأطلقه السّلطان.

ذكر فتح عسقلان ومايجاورها

قال: وسَار السّلطان إلى عَسْقلان، والرملة، وغزة، والدّاروم، وغير ذلك.

فَنَزل على عَسْقلان في يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، ونصبَ عليها المجانيق، فسلّموها على خروجهم بأموالهم سالمين؛ وذلك في يوم السبت سلخ جمادى الآخرة.

ثم تسلَّم حصُون الدَّاويَّة وهي: غزّة، والدّاروم، والرّملة، ويبنى، وبيت لحم، ومشهد الخليل، ولدّ، وبيت جبريل.

قال: وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمسٌ وثلاثون سنة، فإن العدّو استولى عليها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة.

-١٠٥٧٣-

قال العماد: وفوّض السّلطان القضاء والحكم والخطـابة وجميع المناصب الـدينيّـة بمـدينـة عسقلان وأعمالها إلى جمال الـديـن عبـد الله بـن عمـر الدّمشقي، وهو المعروف بقاضي اليمن.

ذكر فتح البيت المقدس

قال المؤرخ: لمّا فرغ السّلطان الملك النّاصر من أمر عسقلان ومايجاورها سار إلى البيت المقدس، فكان وصوله إليه في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. وكان به البَطْرك المعظم عندَهم، وهو أعظم شأناً من ملكهم، وبه أيضاً باليان بن بارزان صاحب الرّملة، ومَنْ خلص من فرسان الفرنج من حطّين، واجتمع به أهل عسقلان وغيرها، كلُّهم يرى الموت عليه أهون من أن يُملك البيت المقدّس.

فنزل السّلطان بالجانب الغربي، وأقام خمسة أيّام يطّوف حول البلد لينظُرَ مِن أين يقاتلهُ، ثمّ انتقل إلى الجانب الشّماليّ يوم الجمعة، العشرين من الشّهر، وكانت عدّة من به من المقاتلة ستين ألفاً غير النّساء والصبيان، فنَصب السّلطان المجانيق في تلك الليلة، ونصب الفرنج على السُّور مجانيق أيضاً، وقاتلوا أشد قتالٍ رآه النّاس، لأنّ كلامن الفريقين يرى ذلك عليه من الواجبات لايحتاج فيه إلى سُلطان. وكانت خيّالة الفرنج يخرجون في كلّ يوم إلى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون، وتوالى الزّحف، ونقب المسلمون السّور مما يلي وادي جهنم.

فلما رأى الفرنج ذلك أخلدوا إلى طلب الأمان، وبعثوا جماعةً من أكابرهم في ذلك؛ فامْتَنع الملكُ النّاصر من ذلك وقال: لاأفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، فلما رجع إليهم، أرسل باليان بن بارزان يطلب الأمان لنفسه ليحضر إلى الملك النّاصر، فأمنّه، فحضر إليه وسَأله الأمان، فلم يُجْبه، واستعطفه فلم يتعطف، واسترحمه فلم يرحمه، فلّما أيس منه قال له مامعناه: أيها السّلطان، اعلم أننا في هذه المدينة في خَلق كثير لايعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاءَ الأمان، وهم يكرهون الموت

ويرغبُون في الحياة؛ فإذا رأينا أن الموت لابدّ منه والله لنقتلَنّ أبناءنا ونساءنا، ونُحرق أموالنا وأمتعتنا، فلا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولادرهماً، ولاتَسْبُون ولاتأسِرُون رجلاً ولا امرأة، فإذا فرَغْنا من ذلك أخربنا الصّخرة والمسجد الأقصى؛ وغير ذلك من المواضع الشّريفة؛ ثم نقتل مَنْ عندنا من أسرى المسلمين، وهم خمسة آلاف، ولانترك لنا دابَّةً ولاحيواناً إلا قتلناه، ثمّ نخرج إليكم، كلُّنا، فنقاتلكم قتال مَنْ يريد يحمي دمه ونفسَه، فلا يُقْتَل الرّجل منا حتى يَقْتُل؛ فإمّا أن نموت أعزاء أو نظفر كراماً.

فلمّاسمع الملكُ النّاصر كلامه استشار عند ذلك أصحابه، فأشاروا عليه بمُوافقتهم.

ووقع الّصلح على أن يسلّموا أسرى المسلمين، ويبْذُلوا عن كلِّ رجلٍ من الفرنج عشرة دنانير، وعن كلّ امرأة خمسة، وعن كلّ طفلٍ وطفلةٍ دينارين، يستوي في ذلك الغنّي والفقير، وبذَل ابن بارزان في الفقراء ثلاثين ألف دينار من ماله، وعلى أن تكون المدّة أربعين يوماً، فمن أدّى ذلك قبل المدّة خلص، ومن تأخر استُرِق.

وتسلّم السّلطانُ المدينة في يوم الجمعة السّابع والعشرين من شهر رجب، وكان يوماً مشهوداً، ورُفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار، ورتّب السّلطان على أبواب البلد أمناء من الأمراء يأخذون من أهله ماٱستقرّ عليهم، فخانُوا، ولو أدُّوا الأمانة لامتلأت الخزائن.

قال: وصلّى الملك النّاصر الجمعة الثّانية في رَابع شعْبان في قبّة الصّخرة،وكان الخطيبُ والإمامُ القاضي محيي الدّين بن الزّكي قاضي دمشق.

ثم رتَّب له خطيباً وإماماً، ونقل إليه المِنْبر الذي كان عَمِله الملكُ

العادل نور الدِّين بحلب برَسْم البَيْت المقدّس إذا فتحه، وكان بين عَمَله وفَتْح البيت المقدّس مايزيدُ على عشرينَ سنة.

ثمّ تقدّم أمر السّلطان بعمارة المسجد الأقصى ومَحْوِ ماكان الفرنج صنعُوه من الصُّوَر على عادتهم، ونقل إليه المصَاحِف، وطهّره من أدْنَاس الكُفر، رحمه الله تعالى، وتقدّم بعمل الرُّبُط والمدارس، وجَعَل دار الأسْبتار مدرسةً للشّافعية.

ذكر رحيله ومحاصرة صور

قال المؤرخ:وأقام السّلطان الملك النّاصر بالبيت المقدّس إلى الخامس والعشرين من شعْبَان من السّنة، ثمّ سار لقَصد محاصرة صُور وقد اجتمع فيها خلقٌ كثير من الفرنج، وقِدم إليها المَرْكِيس في البحر بأموال عظيمة؛ وكانت عادتُه أن يحضر إلى البَيْت المقدّس بأموالٍ يفرّقها، فلمّا حضر في هذا الوقت وَوَصل عكّا فرآها قدْ خرجَت عن أيدي الفرنج سار إلى صُور فملكها، وأنْفَق مامَعُه على مَنْ بها، فقَوِي أمرُه وانحاز إليه جميعُ مَنْ خلص بالأمان من سائر البلاد، فأنفق على سور صُور وخَنَادقِها، وعمّقها، فصَارت كالجزيرة لايُمكن الوصول إليها.

فوصَل الملكُ النّاصر إلى عكّا في مستهل شهر رمضان، فأصْلَح من شأنها، ثم رحل عنها ونَازَل صور في تاسع شهر رمضان ونزل بالقرب من البلد؛ ثمّ نزل على تل يقاربُ صور في الثاني والعشرين من الشّهر، وقسّم القتال على العسْكر لكلِّ جَمْعٍ منهم وقتٌ معلوم. واستدعى الأسطول المصريّ، وكان بعكّا، فجاءته عَشر شوانٍ، وكان للفرنج في البحر مراكب فيها رماة الجروخ والزنبوركات، يرمُون مَنْ دنا مِن البحر، فاسْتَطال الأسطول عليها، وأحاط بهم المسلمون وقاتلُوا براً وبحراً؛ ثمّ أغفَلوا أمْرَهم فملك الفرنج من الشواني خمسةً وأسرُوا مقدَّمها.

ثمّ كانت حروبٌ كثيرة ووقائع.

ثـمّ رحل السّلطـان عنها في آخـر شـوّال، وهو أول كـانون، وسـار إلى عكّـا، وأذن للعساكـر بـالعَوْد إلى أوطـانهم للـرّاحـة في الشتاء والعَـوْد في الربيـع، فعادت عساكـرُ الشّرق والمَوْصِل والشّام ومِصر، وبقـي السّلطان في عكّا في حَلْقَته وخاصته، وردّ أمرها إلى الأمير عز الدّين جُرْدَيك.

ذكر فتح هُونِين

قـال المؤرخ: كـان السّلطـان لمّا فتَـح تِبْنِين امتنـع مَـنْ بهُـونين مـن تسليمها، وهـي من أحْصَـن القلاع وأمْنعَهـا، فرتـب عليها مـن يَحْصُرها؛ فطَلَبَ مَنْ بها الأمـان لمّا كان السّلطان يحاصر صُور، فأمّنهم، ونـزلُوا منها وتسلّمها.

واتفق أن فتح هـذه المدن والحصون جميعها من جبلـة إلى سرمينية، مع كثرتها، كان في ست جمع مع أنها في أيدي أشجـع الناس وأشدهـم عداوة للمسلمين، فيسر الله فتحها في أيسر مدة.

ذكر فتح حصن برزية

قـال: ولما رحـل السلطـان مـن قلعـة الشغـر سـار إلى قلعـة بـرزيـة، وبحصانتها يضرب المثل، وهي تقابـل حصن أفامية وتناصفها في أعمالها، وبينهما بحيرة تجتمع مـن ماء العاصي، ومن عيـون تنفجر من جبل بـرزية وغيره.

وكـان أهلهـا أضر شيء على المسلمين يقطعـون الطّـريـق ويبلُغُـون في الأذى.

فنَزل السّلطان شرقيَّهـا في رابع عِشْري الشّهر، وركب مـن الغَد وطاف عليهـا لينظُر مـوضعاً يقـابلها منـه، فلـم يجده إلامن جهـة الغرب وهـذه القلعة لايمكن أنْ تُقاتل من جهتـي الجنوب والشّمال البتَّة، فإنّ جبَلها لايُصعد إليه مـن هاتين الجهتين؛ وأمّا الجانب الشرقي فـلايمكن الصُّعود منه لِغَير مقاتل لِصُعوبته وارتفاعـه؛ وأما جِهَةُ الغرب فإن الوادي المُطيف بجبلها قد ارْتَفع هنـاك ارتفاعاً كثيراً حتى قارب القلعة بحيـث يصل منه حجر المنجنيـق والسّهام، فنَزَله المسلمـون ونصبوا المجانيق، ونصـبَ أهلُ القلعـة منجنيقـاً، فـرأى السُّلطـان المجانيـق لاتُفيـد، فتركهـا وعـزم على الزَّحف ومُكَاثرتها بالرّجال؛ فقسَّم العسكـر ثلاثة أقسام، يزحفون بالنَّوبة، فطـال ذلك على أهْلهـا وعجزوا عـن مُقـاتَلتهم فملكَهـا المسلمون عنْـوةً ونهبُوا وأسرُوا وسبَوْا،وأخذوا صاحبها وأهْلَه، وأمْسَـتْ خاليةً خاوية، وألقى المسلمُون النّار في بعْض البيُوت فاحترقت.

ذكر فتح قلعة دَرْبَسَاك

قال: ثمّ رحَـل السّلطان بعد فتُوح بـرزيّة من الغَد فـأتى جسرالحديد، وهو على العاصي بالقرب من أنطاكيّة، فأقام هناك حتّى وافاه من تخلَّف عنْه مـن عسكره ثـمّ سار إلى قلعة دَرْبَسـاك، فنزل عليهـا في ثامـن شهر رجب سنـة أربع وثمانين وخمسمائة، وهـي من أحصـن معاقـل الدّاويـة وقلاعهم التي يـدخرونها عند نُزول الشدائد بهم، فنَصَب عليهـا المجانيق، وتابَع الـرّمْيَ بالحجارة، فهـدم قطعةً يسيرة من سُورهـا؛ ثمّ أمر بالـزّحف عليها ومهاجمتها؛ فتوالى الزّحف والقتال، وتقـدَّم النَّقّابون فنقبوا منها بُرجاً وعلقـوه فسقط، وطَلـب أهلها الأمـان فأمنَّهـم على ألا يخرجُوا منهـا بغير ثيابهم خاصّةً، فخرجوا كذلك، وتوجهوا إلى أنطاكيّة، وتسلمها في تاسع عشر شهر رجب.

ذكر فتح قلعة بَغْرَاس

قال:ثمّ سار عن دَرْبَسَاك إلى قلعة بَغْرَاس، فحصرها بعد أن اختلف أصحابُه في حَصْرها، فمنهم من أشار به، ومنهم من نهى عنه وقال: هو حِصنٌ حصينٌ، وقلعةٌ منيعةٌ، وهي بالقرب من أنطاكية، فسار إليها وجعل أكثر عَسْكره مُقابل أنطاكية يغيرون على ضِيَاعها، وبقي هو في بَعْض أصحابه على القَلْعة ونصب عليها المجانيق فلم يؤثر فيها، فغلب على الظُّنون تعذُّر فَتْحها، فبينما هُم في ذلك إذ جاءَ رجلٌ من القلعة يطلب الأمان لرسولٍ، فأعطيه، وجاء رسولٌ يطلب الأمان لأهلها، وسلَّموها على قاعدة دربساك، فأجابهم إلى ماطلبوا، وعادالرّسول ومعه الأعلام السُّلطانية فرُفعت على رأس القلعة، وتسلّمها السّلطان وأمر بتخريبها فخربت.

ذكر الهدنة بين المسلمين وبين صاحب أنطاكية

قال: ولمَّا فتح السّلطان بغراس قصد حصار أنطاكيّة فجاءته رسُل بيمند تسأله الهدنة ثمانية أشهر بحيث يُطْلِق جميع من عنده من أسْرى المسلمين، فاستشار السّلطان أصحابه، فأشار أكثرُهم بذلك ليستريح العسكرُ ويجدِّدوا مايحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك، ووُقعت الهدنة ثمانية أشهر أولها تشرين الأول.

وتوَّجه السّلطان إلى حلب فوصل إليها في ثالث شعبان، وفرَّق العساكر الشّرقية: عماد الدّين زنكي بن مودود صاحب سنجار، وعَسكر الموصل، وغيرهما، ثمّ رحل إلى دمشق فدخلها في أول شهر رمضان من السّنة.

ذكر فتح الكرك والشوبك ومايجاورهما

قد ذكرْنا أنّ السّلطان كان قـد جعل على الكرك من يحصُره، وهو سعدُ الـدّيـن كمشبـه، في أوّل سنة أربـع وثمانين؛ فـلازَمَ الحصـار هـذه المدَّة الطـويلة حتـى نفـدت ذخـائرُ الفرنـج، وأكلـوا دوابَّهم، فـراسلوا الملـكَ العادلَ أخـا السّلطان، وكـان السّلطان قد جعلـه بتلك النّـواحي في جَمْعٍ من العسكر، وسـألوهُ الأمان، فأجـابهم إلى ذلك، وأرسل إلى سعْد الـدّينَ مقدّم العسكر فتسلّم القلعة منهم وأمنَّهم.

وتسلّم أيضاً ماقَـارَب هذا الحصن من الحُصون وهو الشـوبك، وهرمز، والوعيرة، والسلع فأمنت القُلوبُ من تلك الجهة.

ذكر فتح قلعة صفد

قـال: ولمَّا وصل السّلطـان إلى دمشـق أشير عليـه أن يفرّق العسـاكـر، فقال: إنّ العمـر قصير والأجل غير مـأمون، وقـدْ بقي بيـد الفرنـج هذه الحصون: صفد، وكوكـب، ولابدّ من الفَراغ من ذلك فـإنّها في وَسَط بلاد الإسلام، فـأقام بدمشـق إلى منتَصف شهـر رمضان من السّنـة، وسار إلى قلعة صفـد، فحَصرها ونصـب عليها المجانيـق، وداوَمَ الرَّمـي ليلاً ونهاراً، فسألوا الأمان، فأمنّهم وتسلّمها، وخرج أهلها إلى صور.

ذكر فتح كوكب

قـد قـدمنـا أنّ السلطـان كـان قـد جعـل على كـوكـب الأمير قـايماز النّجمي. فلّما حصر السّلطـان صَفَد أرسـل منْ بِصُور مِـنْ الفرنـج نجدةً من جهاتهم إلى كوكب، وهم مائتـا رجُل من الشُّجعان، فظَفر بهم قايماز فقتلهم عـن آخرهـم، وأرسل إلى السلّطـان المقدَّمين عليهـم، وهما رجلان

من فـرسان الأسبتار، فأمـر بقتلهما، فقال أحدهما: مـا أظن أنّنا ينالنـا سوءٌ بعد أنْ رأينا وجهك الصّبيح، فعفا عنهما واعتقلهما.

ولما ملك صَفَـد سار عنهـا إلى كوكب وشّـدد الحصار ووالى الـزّحف، وأشْرف على أخـذها، فسـأل الفـرنج الأمـان فـأمنّهـم وأطلقهم، وتسلّـم الحِصّن في منتصف ذي القعدة سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائة.

فـالتحق مَـنْ كان بـه بصُـور فقويـت شـوكتهم وكثـروا، لأنه اجتمـع عنـدَهُـم شجعانُ الفـرنـج وكُماتهم، وتـابعـوا الـرّسل إلى ملُـوك الفـرنـج بالأنـدلس وصِقِلية والجزائر يستغيثون بهم ويسـألون الأمداد، فكـان من أمرهم مانذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ثمّ سار السّلطان إلى البيت المقـدّس فعيَّد فيه عيد الأضحى، ثمّ سار منه إلى عكّا وأقام بها إلى أن انسلخت السنة.

وفي سنـة أربـع وثمانين وخمسمائة ثـارَ بـالقاهـرة اثنـا عشَر رجـلاً مـن الشّيعـة، ونـادوا بشعار العلـويّين، وصـاحـوا: يالَعَليّ، وسلكـوا الـدُّروب يُنادون، ظناً منهـم أن أهل البلد يُلبُّون دعوتهم ويخرجـون معهم، فيعيدون الدولة العُبيديّـة ويملكون البلد ويُخرجون مَن بالقصر مـن العلويين؛ فلم يُجبهم أحد من الناس.

فلّما خاب سعيُهـم تفرّقـوا فأُخـذوا، وكُتب بـذلك إلى السّلطـان فأهمه وأزعجه.

فقـالَ له القـاضي الفـاضل عبْـد الرّحيـم: ينبغـي أن يفرح السّلطـان بـذلك ولايحزن، حيـث عَلِمَ مِـن بـاطـن رعيّته المحبّـة والنَّصيحة، وتَـرْك المَيْل إلى عدُوّه، ولـو وضَع السُّلطان جماعةً يفعلون مثل هـذه الحالة ليَعلم بواطن أصحابه ورعيّته، وخسر الأموال الجليلة لكان قليلاً، فسُرِّيَ عنه.

ذكر فتح شقيف أرنون

وفي شهـر ربيـع الأول سنة خمسٍ وثمانين وخمسمائة سـارَ السُّلطـان إلى شقيف أرنون، وهـو من أمْنَع الحصون، ليحصره،ونزل بمـرج عُيون، فنزل صاحـبُ الشقيف، وهو أرنـاط صاحـب صَيْدا، إلى السّلطان؛ وكـان من أكثـر النّـاس دَهـاءً ومكـراً فقـال: أنَـا محبٌّ لـك ولـدَوْلتـك، ومعترف بإحسـانك، وأخـاف أن يطَّلِع المركيس على مـابَيْني وبَيْنَـك فينال أوْلادي وأهلي منْه أذىً، فـإنّهم عندهُ بصُـور؛ وأحبّ أن تمهلَنـي حتى أتـوصّل إلى تخليصهم مـن عنده، وحينئـذٍ أحضر أنا وهـم إلى عندك ونسلّـم الحصن إليك، ونكون في خدمتك، نقنع بما تعطينا مـن الإقطاع، فأجابه السلطان إلى ذلك وظـنّ صدقه، واستقـرَّ الأمر بينهما أن يسلّـمَ الشقيف في جمادى الآخرة.

وأقام السّلطان بمَرْج عُيون ينتظر الأجل وهو قلقٌ مفكرٌ لقُرب انقضاء الهدنة بينـه وبين صَاحب أنطـاكية، فأمر تقـي الدّين ابـن أخيه أن يسير فيمـن مَعَـهُ من عسـاكـره ومَـنْ يأتيـه مـن بـلاد الشّرق، ويكون مقـابـل أنطاكيّـة، لئلا يُغِير صاحبُها على مـايجاورهُ من بلاد الإسلام عنْـد انقضَاءِ الأجل.

وكان السّلطان أيضاً منزعِجَ الخاطـر لِماَ بلغَه من اجْتماع الفرنج بصُور، وَمَا يصـلُ إليهم من الأمداد، وأنّهم اجتمعـوا في خلق كثيرٍ، وخرجُـوا من مـدينة صُـور إلى ظـاهِرهـا؛ فخـاف أنْ يترُك الشّقيـف وراءَ ظهره، وكـان أرْنَاط في هـذه المدّة يشتري الأقوات مـن سُوق العسكـر، والسّلاح، وغيرَ ذلك مما يحصّـن به شقيفه، فيبلُغ السّلطـان فلا يُنكره بحسُن ظنّـه، وكان قصْدُ أرناط المطَاولةَ إلى أن يظهر الفرنج من صور.

فلما قاربَ الأجـل تقدّم السلطان إلى الشّقيـف، واستدعـى أرناط وقد

بقـي من الأجـل ثـلاثة أيّـام، فجاءه، فتحـدّث معـه في تَسْليم الحصـن، فاعتـذر بأولاده وأهلـه وأنّ المركيس لم يمكّنهم مـن المجيء إليـه، وطلَب المهلة مدّةً أخرى، فحينئذ تحقق السّلطان مَكْـرَه وخداعه، فأخذه وحَبَسه، وأمره بتَسْليـم الشَقيف فطَلَب قسّيسـاً وحمَّله رسـالةً سراً، وأظهر أنّـه أمره بتَسْليمـه؛ فـامْتنع مَـنْ بـالحصـن مـن تَسْليمه. فسيرَّ أرنـاط إلى دمشـق وسَجَنه، وتقدّم إلى الشّقيف وضَيَّق على مَنْ بـه، وتَرَك عليه من يحفُظه من الوصـول إليه، فتسلّمه في يوم الأحـد خامس عشر شهر ربيـع الأول سنة ست وثمانين، وأطلق صاحبه.

-١٠٥٨٤-

ذكر مسير السلطان من مرج عيون إلى صور وماكان عليها من الوقائع

قال: وجاءت السُّلطانَ كتبُ أصحابه الذين جعلهم يَزَكاً في مقابَلَة الفرنج على مدينة صُور يخبرونه أنّ الفرنج قد اجتمعُوا على عُبور الجسر الذي لصُور، وعزَمُوا على حصار صَيْدا. فسار جريدةً في شجعان أصحابه، فوَصَل إليهم بعد أنْ كانت الوقعَةُ بين الفرنج وبين اليَزَك.

وذلك أنَ الفرنج خرجُوا من مدينة صُور، فلقيَهم اليزكُ على مضيق وقاتلُوهم ومنعُوهم، وكانت حرباً شديدةٍ، وأُسِر من الفرنج جماعةٌ، منهم سبعةُ رجال من فرسانهم المشهورين، وقُتل من المسلمين جماعةٌ، ثم عجز الفرنج عن الوصول إلى صَيْدا، فعادوا إلى صُور والله أعلم.

ثم كانت لهم وقعة ثانية بعد وصول السّلطان مع المتطوّعة.

وذلك أنَ السّلطان لما جاء إلى صور أقام مع اليَزَك في خَيْمةٍ صغيرة ينتظرُ عودة الفرنج للخُروج؛ فرَكِب في بعض الأيام في عدَّةٍ يسيرة لينظُر إلى مخيّم الفرنج من الجبل، فظَنَّ مَنْ هُناك من المتطوّعة أنَّه قصد الغَزَاة، فسارُوا مجدِّين وأوْغَلُوا في أرض العدّو وبَعُدُوا عن العسكر، وخلَّفوا السّلطان وراءَ ظُهورهم؛فبَعث مَنْ يردُّهم فلم يَرْجعوا، وظنّ الفرنج أنّ وراءَهم مَنْ يحميهم فأحجموا عنهم؛ فلّما علمُوا بانفرَادهم حملُوا عليهم حمْلةَ رجل واحد، فقُتل منْهُم جماعةٌ من المعروفين؛ فشقَّ ذلك على السُّلطان والمسّلمين. وكانت هذه الوقعة في تاسع جُمادى الأولى.

فلمَّا رأى السّلطان ذلك انحدر من الجَبَل بمَن معه، وحمل على الفرنج فردَّهم إلى الجسر، فرمَوُا بأنفسهم في الماء، فغَرِق منهم مائة دَارع سوى مَنْ قُتِل، وعادُوا إلى مدينة صُور، فعاد السّلطان إلى تِبْنِين، ثم إلى عكا.

ثم كانت وقعةٌ ثالثة في يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة صبر فيها الفريقان.

ذكر مسير الفرنج إلى عكّا ومحاصَرَتها

قال المؤرخ: لما كثُر جمع الفرنج بصُور، على ماذكرناه مِنْ أنّ السّلطان كان كلّما فتح حصناً أومدينة بالأمان سار أهلُها إلى صُور بأموالهم وأهليهم، اجتمع بها منهم عالمٌ كثير لايُحْصَوْن، وأموالٌ كثيرة، ثم إنّ الرُهبان والقُسُوس لبِسوا السواد وأظهرُوا الحزن على خروج البَيت المقدّس عنهم، وتابَعَهم جماعةٌ من المشهورين. فأخذهم البترك ودخل بهم إلى بلاد الفرنج يطُوفُها بهم ويستَنْجدُون أهْلَها ويستجيرُون بهم، ويحثّونهم على الأخذ بثأر البيت المقدّس.

وصوَّرُوا صُورَة المسيح عليه السّلام وصُورة رجل أعرابي، والعَربيّ يضربُه بين جَماعةٍ، وقالوا: هذا المَسيحُ يضربُه محمّد نبي المسلمين، وقد جَرَحه وقتَله.

فعظُم ذلك على الفرنج وحشدُوا، حتّى النساء، فإنّهم كانَ معهم على عكّا عدَّةٌ من النسَاء يبارزْن الأقران، ومَنْ لم يستطع أن يخرج استأجر عنه أو يعطيهم مالاً، فاجتمع لهم من الرّجال والأموال مالا يُحصى كثرة.

واجتمعوا بصُور والبَحْر يُمِدُّهم بالأموال والأقوات والعُدد والذّخائر، فضاقت عليهم مدينة صُور، باطنُها وظاهرها؛ فأرادُوا قَصْد صَيْدا، فكان من ردَّهم ماذكرناه.

فاتّفقوُا على قَصْدِ عكّا ومُحاصَرتها؛فسارُوا إليها بفَارِسهم ورَاجِلهم، ولزمُوا البحْر في مسيرهم، لايفارقونه في السّهل والوعر، ومراكِبُهم تُسايرُهم وفيها السّلاح والذّخائر، فكان رحيلُهم من مدينة صُور في ثاني

شهـر رجب سنـَة خمس وثمانين وخمسمائة، ونـُزُولهم على عكّا في مُنْتَصـف الشّهر. فتَّخطف المسلمون مِنْهم في مسيرهم وأخذوا مَن انفرد.

وجاء الخبر إلى السُّلطـان برحيلهـم، فَسار حتى قـارَبَهم. ثمّ نـزلوا على عكّا قبـل وُصُوله إليهـا، ونَازَلُوهـا من سَائر جهـاتِها براً وبحراً، فلـم يَبْقِ للمسلمين إليهـا طريـق، ونَزَل السُّلطـان عليهـم وضرب خَيْمته على تـلّ كيسـان وامتـدّت ميمنتُـه إلى تلّ العيـاضِيَّـة وميسرَتُـه إلى النّهـر الجاري، ونزلـت الأثقال بصَفُورِية، وسيّر الكتـب إلى الأطراف يستَدْعي العسـاكر، فأتاه عسكر المَوْصل، ودِيار بكر، وسِنْجـار، وغيرها من بلاد الجزيرة. وأتاه تقيّ الدّين ابنُ أخيه،ومظفّر الدّين بن زين الدين صاحب حَرَّان، والرّها، فكانت الأمداد تأتي المسلمين في البّر وتأتي الفرنج في البحر.

وكان بين الفريقين مدّةَ مُقامهم على عكّا حروبٌ كثيرة.

نحـن نذكـر المشهـورَ منها على سبيـل الاختصـار؛ وأمّا الحُروب التـي تكون بَيْن بعْـضِ هؤلاء وبعْض هؤلاء، والمنـاوشات، فلو شَرَحْناهـا لطَال بها الكتّاب، لأن مُدّة هذا الحصار كانَتْ ثلاث سنين وشهراً.

وكان ابتداءُ القتال في مُسْتَهَلِ شعبان مـن السّنة. فقاتَلَهم السّلطان في ذلك اليوم ولم يَبْلُـغ منهم غرضاً؛ ثم بـاكَرَهم القتّال واسْتـدار عليهم من سـائر جهـاتهم إلى أنْ انتصـف النّهـار، وصَبَر الفـريقـان أعظـم صبر، فحَمل تقيّ الدّيـن من الميمنة على مَنْ يَلِيهِ منهم وأزاحهُـم عن مَوَاقفهم، فرَكِـبَ بعضُهـم بعضـاً لايُلوي الأخ على أخيـه، والتجأوا إلى مَـنْ يَليهم من أصحابهم. وانْكَشف نصفُ البَلَد، وملَك تقيّ الدّين مكانَهم، ودَخَل المسلُمون البلـد وخرجُـوا منه، واتصَلـت الطريـق وزال الحصار. وأدخـل السّلطان إلى البلـد مَنْ أراد من الرّجـال، وماأرَاد من الذّخـائر، والأموال، والسّلاح؛ فكان مِنْ جُملـة من أمره السلطان بالدّخـول إليها الأمير حسام

الدين أبوالهيجاء السّمين، وقُتِل من الفرنج في هَذا اليَوْم خلقٌ كثير.

ثم كانت بينهم وقعات في ثامن شعبان، وتاسِعهِ وعاشِره، وحادي عَشَره. ثمّ كانت وقْعَةٌ في تاسع عشر شعبان بين أهْل عكّا والعدّو فقُتِل مَن في الطّائفتين وجُرِح.

ثم كانت الوقعة الكبرى في الحَادي والعشرينَ من شعبانَ وذلك أن الفرنج اجتمعوا وتشاوَروا، وقالوا إن العسكر المصريّ إلى الآن ماقَدِم وهذا فِعْلُ السّلطان، فكيْفَ إذَا قَدِمتِ عساكِرَه فأجْمعوا رأيهم على مُناجزَة الحرب، وكانت عساكِرُ السّلطان متفرّقةً: منها طائفةٌ على حمص في مُقَابلَة طرابلس؛ وطائفةٌ تقاتِل مَنْ بقي بصُور؛ وطائفةٌ بالدّيار المصرية لحمايَة ثغْرَيْ : الاسكندرية، ودمياط، ومَنْ بقيَ من العسكر المصري إلى الآن لم يَصل؛ وهذا ممّا أطْمع الفرنج في الظّهور.

قال: وأصبح المسلمون في هذا اليوم على عادتهم، منهُم من يتقدّم إلى القتال، ومنهم مَنْ هو في خَيْمته، ومنهم من قد توجه في حاجته، فخرج الفرنج مِنْ معَسْكرهم كالجراد المنْتَشِر قد ملأوا الأرض، فكانت وقعةٌ عظيمة ابتدأوها على المسلمين، ثم أنزل الله نصره علَيهم، فهزَموا الفرنج أقبَح هزيمة، وقُتل منهم من رؤسائِهم عشرة آلاف، وقتل من المسلمين في هَذِه الموقعَة من الغِلْمان ومَنْ لم يعرف مائةٌ وخمسون، ومن المعْروفين الأمير مجلي بن مروان،والظّهير أخو الفقيه عيسى، وكانَ والي البيت المقدّس، جَمَعَ العِلْم والدّين الشجاعة، والحاجب خليل الهكّاري، وجمال الدّين ابن رَوَاحة الحمويّ، ولم يكن بالمصافّ، وأسِر منَ الفرنج مقدّم الدّاوية، وكان السّلطان قد أسَره فيما تقدَّم وأطلقه، فقتله الآن.

قال: وأمر السّلطان بجَمْع القَتلى وإلْقَائهم في النّهر الذي يشرَب منه الفرنج.

قال العماد الأصفهاني رحمه الله: ومن العَجب أنّ الـذين ثبتُوا في هذه الوقعة لم يبلغوا ألفاً، ردُّوا مائة ألف، وآتاهم الله قوةً بعد ضعف.

قال ابن الأثير: وأُخِذ في جُملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيّات كنّ يقاتِلْن على الخيل، فلما أُسِرن وأُلقي عنهنّ السلاح عُرِفن.

ذكر رَحيل السّلطان عَن مَنزلته وتمكّن الفرنج من حصار عكّا

كان رحيلُه في رابع شهْر رمضان من السّنة، وسَبب ذلك أنه لما قُتِل من الفرنج هذه المقتَلَةُ العظيمة جافَت الأرض منهم وتغيَّر الهواء، وحدث للأمزجة فسادٌ، وحصَل للسّلطان مرض القُولَنْج، وكان يَعْتريه، فأشار عليه الأمراء والأطباء بالانتقال، وقالوا:لو أراد الفرنج أن ينصرفوا لما قدَرُوا فإنّا كُفِينا شرَّهم، وإن أقاموا عدْنا إلى القتال، فوافَقهم. وكان بئْس الرّأي.

ورحل السّلطان إلى منزلة الخرُّوبَة، وكتب إلى أهل عكّا يُعْلِمُهم بسبَب رحيله ويحثّهم على حِفظ البلد وغَلْق أبوابها.

قال: ولما رحَل السلطان بعسَاكره عن تلك المنْزلة أمِن الفرنج وانبسَطُوا، وانْبَثّوا، وعادُوا إلى حصار عكّا في البّر والبحر، وشرعوا في حَفر خندقٍ عليهم يكون بينهم وبين المسلمين إن قَصَدُوهم وعَمِلوا سُوراً من تراب، وجاءوا بما لم يكن في الحُسْبان، هذا والسّلطان قد اشتدَّ به المرض فلم يستَقِل منه إلى أن تكامَل حَفْر الخَندق وعمل السّور من ترابه.

ذكر وصول العسكر المصري في البر والأسطول في البحر

قال: وفي مُنْتصف شوال سنة خمس وثمانين وصلت العسَاكر المصرية، ومقدَّمُها الملك العادل سَيْف الدّين، فلما وصلت قويتَ قلوبُ النَّاس، وأحضر من آلات الحصار شيئاً كثيراً، ثم وصل بعْدَه الأسطول المصري في خمسين قطعة ومقدَّمهم الأمير حُسَام الدّين لؤلؤ، وكان شهْماً شجاعاً، مِقْداماً ميمون النقيبة، خبيراً بقتال البحر؛ فوصل بغتةً، فوقع على بَطْسَةٍ كبيرة للفرنج، فغَنِمها وأخذ مافيها من الأموال الكثيرة والمِيرة، وعَبَر بذلك إلى عكّا؛ فسكنت نُفوس النّاس بذلك. وقال العماد: إنه ظفر ببطستين.

ذكر خبر ملك الألمان وماكان من أمره إلى نهايته

قال العماد الأصفهاني: ونُمِي الخبر بوصُول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قَصْد العُبور إلى بلاد الإسلام. فاستَنْفر الملكُ الناصرالجيوشَ والعساكر من كلّ جهة، وجهَّز القاضي بهاء الدين ابن شدّاد وأمره بالمسير إلى الدّيوان العزيز ببغداد وأن يمُرَّ على صاحب سنجار، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، ويستدعِيهُم بأنفُسِهم وعساكرهم.

قال ابن شدّاد: فَسرتُ في حَادي عشر شهر رمضان سنَة خمس وثمانين وخمسمائة، وأبلغت الرّسائل، فأجابوا إلى ذلك، فعُدْت في خامس شهر ربيع الأول سنة ستٍّ وثمانين، وسبقت العساكر.

ثم وصلت عند انقضَاءالشتاء في شهر ربيع الأول وأمده الخليفة

بِحْمل من النّفْط الطّيَّار وحِمْلين من القنا، وتَوْقيعٍ بعشرين ألف دينار يُقْبَض على الدّيوان العزيز من التجار، وخمسةٍ من الزَّرَّاقين.

وكان العدُوُّ قد اصْطَنع ثلاثة أبرجة من الخَشَب والحديد كالجبال، وألبسَها الجلود المسْقَاة بالخل، فيسّر الله تعالى على المسلمين إحْراقها، وذلك في الثّامن من شهر ربيع الأول.

قال: وكان السّلطان قد كتَب إلى مصر بعمارة الأسطول وإحضاره إلى عكّا، فوصل في يوم الخميس ثامن الشهر، فكانت الحربُ في هذا اليوم في ثلاثة مواضع في البحر، والحصار في البر، وكان النّصر بحَمد الله للمسلمين.

هذا ماكان من أمْر السّلطان لمّا بلغه خبرُ ملك الألمان.

وأما ملك الألمان فقال ابنُ الأثير في تاريخه الكامل:

وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة خرج ملك الألمان من بلاده، وهم طائفةٌ من الفرنج من أكثرهم عددا وأشدّهم بأساً، وكان قد أزعَجَهُ ملك المسلمين البيت المقدّس، فجمعَ عسَاكره وسارَ بهم، وطريقهُ في مسيره على القسطَنْطينية. فأرسل ملك الرّوم بخبره إلى السّلطان، ووعده أنّه لايمكّنهُ من العبُور إلى بلاده، فلمّا وصل ملك الألمان إلى القسطنْطينية عَجزَ ملكُها عن مَنْعه من العُبور لكثرة جمُوعه، لكنّه منَعَ عنهم الميِرة، فقلَّت أزْوادُه؛ وسارُوا حَتّى عبرُوا خليج القسطنطينية، وصارُوا على أرضِ بلاد الإسلام، وهي مملكة الملك قلج أرسلان بن مسْعُود السلجقي. فلمّا وصلُوا إلى أوائلها ثارَ عليهم التُّرْكمان يسايرُونَهم، فيقتلون من انْفَرد منهم ويَسْرقون ماقدَرواعليه؛ فنالهم لذلك مشّقةٌ عظيمة، وهلك كثير منهم من الجُوع والبَرْد وكثرة الثّلوج.

فلمّا قارَبُوا مدينة قُونْيَة خرج إليهم الملك قُطْب الدين ملكشَاه بن قِلج أرسلان[ليمنعهم] فعَجَز عن ذلك، فعاد إلى قُونيَة، فأسرعُوا السّير في إثره فنَازَلُوا قونية وأرسلوا إليه هدية وطلبوا منه أنْ يأذَن للرّعيّة في بَيْع الأقوات، فأذِنَ في ذلك.

وطلَبُوا من الملك قطب الدّين أنْ يأمُر رعيَّتَه بالكَفِّ عنهم وأنْ يجهِّز معَهُم جماعةٌ من أمرائه رهائن، فخافهم، وسلّم إليهم نيِّفاً وعشرين أميراً كان يكرهُهم، فسارُوا بهم معَهُم، ولم يَمْتنع اللّصُوص وغيرُهم من أذّاهم؛ فقبض ملكُ الألمان على مَنْ معه من الأمراء وقيَّدَهم، فمنهم مَنْ مات في أسره ومنهم من فَدَى نفسه.

قال ابنُ شدّاد: وأعْوَزَهم الزّاد وعَرَاهم جُوعٌ عظيم، وعجَزوا عن حمل أقْمِشَتهم، فجمعوا عُدَداً كثيرة وسِلاحاً وجَعَلُوا ذلك بيدراً، وأضْرمُوا فيه النّار، لعجزهم عن حَمْله، ولَئلاّ ينتفع به غيرهم.

قال: وبقيت بَعْد ذلك رابيةٌ من جديد.

قال ابن الأثير: ثمّ سار إلى أن أتى إلى بلاد الأرمن، وصاحبها يومئذ لافون بن اصطفانة بن ليون الأرمني، فأمدّهم بالأقوات والعُلُوفات، وحَكَّمهُم في بلاده، وأظْهر الطَّاعة لهم، ثمّ سار إلى أنطاكيّة، وكان في طَريقهم نهرٌ فنزلوا عنْدَه، وعَبَر ملكُهم إليه ليغْتَسِل فيه، فغرق في مكان لايَبْلُغ الماء وسطَ الرّجل فيه، وكفَى الله شره.

وقال ابنُ شدّاد: إنه لمَّا وصل إلى طرسوس سَبَح في النّهر فمرِض من شدَّة بَرْد الماءفيها؛ ولمَّا مات سَلَقُوه في خلٍّ وجمَعُوا عِظامَه في كيس ليحملوها إلى القُدْس ويدفنوها به.

قال ابن الأثير: وكان معه ولدٌ كبير فملك بعْدَه وسار إلى أنطاكية،

فاختلف أصحابهُ عليه؛ وأحبّ بعضُهم العَوْد إلى بلادِه فتخلّف عنه، ومال بعضُهم إلى تمليك أخ له فعاد أيضاً، وسارَ هُو فيمن بَقِي معَهُ، فعرضَهُم، وكانوا نيِّفاً وأربعين ألفاً وقع فيهم الوباء والموت، فوصَلُوا إلى أنطاكيّة وكأنّهم قد نُبِشوا من القبور، فتبرَّم بهم صاحبُها وحسَّن لهم المسير إلى عكّا، فسارُوا على اللاذقية وجَبَلة وغيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون؛ وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأسرُوا منهم خلقاً كثيراً، ومات أكثر ممّن أسر.

قال: وبلغوا إلى طرابلس وأقاموا بها أيّاماً فكثُر فيهم الموتُ، فلم يَبْق منهم إلاّ نحو ألف رجل، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكّا.

ولمَّا وصلُوا ورَأوْا مانالهم في طريقهْم وماهُمْ فيه من الاخْتلاف عادوا إلى بلادهم، فغَرِقت بهم المرَاكب، فلمَ ينْجُ منهم أحد.

وقال ابن شدّاد: إنّهم لمَّا وصلوا إلى أنطاكية طلب ابنُ ملكِهم من صاحبها قَلْعتها لينقل أموالَه وخزانتَه وأثقالَه، فسلَّمها إليه طمعاً في ماله، وكانَ كذلك، فإنّه لم يعُدْ إليه واستولى الإبرنس على مافيها.

قال: وجاءت فرقةٌ منهم إلى حصن بغراس وظنُّوا أنَّه للفرنج، ففتح لهم وَالي الحِصْن الباب وتسلّم منهم الأموال، وأسَرَ جماعةً منهم وقتل، وخرج إليهم العسْكر الحلبيّ فقَتَل منهم وأسر، ثمّ أخَذَ مَنْ بقي منهم على طرِيق طرابلس، فخرج عليهم مَنْ باللاذقية وجبلة، فقتلوا منهم وأسروا.

ثم ركب الألمان في البحر من طرابلس بمَنْ بقي معه لِقَصْد عكّا، في أواخر شعبان، فثارت عليهم ريحٌ كسرت منهم ثلاث مراكب، ووصل الباقون إلى صُور، ثمّ إلى عكا في سادس شهر رمضان سنة ستٍّ وثمانين؛ وكان لِقُدومهم وقْعٌ عظيم.

وسيأتي ذكرُ ماتجدّد بعد وصولهم إلى عكّا، إن شاء الله تعالى، فلنذكر ماكان قبل وُصُولهم من الوقائع.

ذكر الوقْعَة العادليّة على عكّا

كانت هذه الوقعة في يَوْم الأربعاء العشرين من جُمادى الأولى سنةَ ستٍّ وثمانين.

قال ابن شدّاد: لمَّا بلغ السّلطانَ وُصُول ملك الألمان إلى بلاد الأرْمن جهَّز بعض العساكر إلى البلاد المُتَاخمة لطريق عَسْكَر العدّو،وتقدَّم أمْرُه بهدم سور طبريّة، وهدْم: يافا ، وأرْسُوف، وقيْسارية، وهدم سور: صَيْدا، وجُبيَل، ونَقْل أ هلها إلى بيروت،فلمّا علِم الفرنج أنّ العساكر قد تفرَّقت نهضُوا للقتال بغتَةً وهجموا على الميمَنَة وفيها مخيَّم الملك العادل، فلما بَصُرَ بهم ركب فيمن معه، وتلاحَقَت به العَساكر، واقْتَتلوا، فكانت من أعْظم الوقَائِع، قُتل فيها خلقٌ كثير من الفرنج.

قال: ولقد خُضْت في الدّماء بدابّتي واجتهدت أن أعدّهم فما قدرت على ذلك لكَثْرتهم وتفرُّقهم؛ وشاهدتُ منهم امرأتين مقتولتين. وكانت هذه الوقْعَة فيما بين الظّهر والعصر في الميمنة وبَعْضِ القلب، ولم نفقد من المسلمين فيها غير عشرة معروفين.

قال: ولمَّا أخبر من بعكّا من المسلمين بهذه الوقعة خرجوا إلى مخيَّم العدّو من البلد، وجَرَى بينهم مقتَلَةٌ عظيمة انتصرَ فيها المسلمون، ونهبُوا ماكان بخيام الفرنج من الأقمشة وغيرها، حتى الطّعام الذي في القُدُور، وسبَوُا النّساء.

قال: واختلف النّاس في عَدَد من قُتِل من الفرنج في هذه الوَقْعة، فقيل ثمانية آلاف، وقيل سبعة آلاف، ولم ينقصهم حَازِرٌ عن خمسة آلاف.

ذكر وصول الكندهري إلى عكّا نجدة للفرنج وماجدّده من آلة الحصار

قال: ثمّ وصل الكندهري في البحر نجدةً للفرنج في عدَدٍ كثير، أضعاف ما نقص منهم، ففرّق الأموال واستخدم؛ ونصَب المجانيق على عكا فحرقها المسلمون؛ ثمّ نصب منجنيقين فأُحْرِقا في أوّل شعبان، وكان قد أُنفِق عليهما ألف دينار وخمسمائة دينار، وأسِر من الفرنج سبعون في هذا اليوم ومن جملتهم فارس كبير عندهم فقتله المسلمون ثمّ جهّز الفرنج بُطَساً لمحاصرة بُرْج الذبان، وهو برج في وسَطِ البحر على باب ميناء عكّا، فعمدُوا إلى بَطْسة من البُطس وعملوا بُرجاً على صَارِيها وملأوه حَطباً ونَفْطا على أنهم يُلْحقون البطسة بِبُرج الذّبان، ثمّ يُحرقون البرج الذي على الصّاري. وجعلوا في البطسة وَقُوداً كثيراً حتّى يُلْقوه في البرج إذا اشتعلت فيه النيران، وعبئوا بطسةً ثانيةً وملأوها حطباً على أنها تدخل بين المراكب الإسلاميّة ثم يلهبونها فتحترق هي والبطس الإسلامية وجعلوا في بطسة ثالثة جماعةً من المُقاتلة. وقدموا البطسة نحو البرج، وكان الهواء مُسْعداً لهم، فلّما أحرقوا البطسة والبُرج الذّي قصدوا بهما إحراق بُطس المسلمين وبُرج الذّبان انعكس الهواء عليهم بإذن الله تعالى، فاحترقت البَطْستان، وانقلبت الثالثة بِمَنْ فيها من المقاتِلة، والله أعلم.

ذكر ماكان من أمر الفرنج بعد وُصُول ابن ملك الألمان إلى عكا وماتخذوه من آلات الحصار

قال: ولمَّا وصَل ابنُ ملك الألمان القائمُ في الملك بعد أبيه إلى عكّا كان وصوله إليها في سادس شهر رَمضان سنة ستّ وثمانين وخمسمائة، فكان أول مابدأ به أنّه خرج إلى يَـزَكِيَّةِ السّلطان وقاتَلهم، فقُتل من أصحابه وجُرح خلقٌ كثير، وانكسَروا ورَجعُوا إلى المخيَّم غروبَ الشّمس من ذلك

اليـوم؛ وقَتل مـن المسلمين اثنان وجُـرح اثنـان وجُرح جماعـة، فلمّا عايَـنَ ذلك رجـع إلى قتال مَـنْ في البلد، واتّخذ مـن آلات الحصار مـالم يُرَ قبـل ذلك مثلـه، فكان ممَّـا أحدثه آلـة عظيمة تسمّـى دبّابة يَـدْخُل مـن تحتها المقاتلة، وهـي من الخشب الملبَّس بصفائح الحديد، ولها مِـنْ تحتها عجلٌ يحرَّكُ من داخلها حتى تَنْطَح السُّور بشـدّةٍ عظيمة فتهدمه بتكرار نَطْحها، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجالٌ تسحَبُـه وفيه كَبْشٌ، ورأس تلك الآلة ممدة شبه سكّـة المحراث، ورأس الكبشِ مـدَوَّر، هذا يهدِم بثِقَلـه، وتلك تهدِم بحدَّتها وثِقلها، وهي تسمَّى سفوداً، وأعـد السّتائر والسّلاليم وغير ذلك؛ وأعدّ في البحر بَطسَة عظيمةً،وصنع فيها بُرْجا بخُرطوم إذا أرادُوا قلبه على السّور بحرَكةٍ انقلب بحَركات ويبْقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلبُ عليه تمْشي عليهـا المُقَاتلـة، ونصـب المجانيـق وحكّمهـا على السّـور، وتوالـت حِجارَتُها حتـى أثّرت فيها أثراً بيّنـاً فأخذ المسلمـون سهْمَيْن عظيمين من سِهام الجُروخ وأحْـرَقوا نِصَـالهما حتّى بقيَا كـالشُّعلة مـن النّار ثـم رُميا في منجنيق الفرنج فاحترق، واتّصل لهبهُ بالآخر فأحْرَقه.

ثـمّ زحف العـدّو على البلد في شهـر رمضان في خلْـق كثير، فأمهلهـم أهل البلـد حتى سحبـوا آلتهم المذكـوُرة، وقارَبُـوا أنْ يُلصُقوهـا بالسّـور ويحَصل منهم في الخَنـدق جماعةٌ كثيرة، فأطلقوا عليهـم الجُروخ والمجانيق والسّهام والنيران، وفتحوا الأبواب على العدّو من كل مكان، وكبسُوهم في الخَنْدق، فـانْهَزَموا؛ ووقـع السّيف فيمَـن بَقي في الخنـدق منهُم، ثـم ألْقَوا النّار في كَبْشِهـم، فاحترق، وسَرَت نـارُه إلى السّفّود فـاحترق أيضاً، وعلّـق المسلمـون في الكَبْش الكَـلاليب الحديـد فسحبُوه وهـو يَشْتعل، فحصـل عندهم، فـأطفأوه بالماء. ووزن ماكـان عليه من الحديد فكـان مائة قنطار بالشّامي فكانَ هذا اليوم من أحْسَن أيام الإسلام.

قال:واستأنف الفرنج عَمَل دبـابة أخرى وفي رأسِها شكْلٌ عظيم يُقال له ا لكَبْش، وله قَـرْنَان في طُـول الرُّمح كـالعُمد الغـلاظ،وسقفُوهـا هي

والكبش بـأعمدة الحديـد، ولَبَّسوا رأس الكَبْش بعد الحَدِيـد بالنّحـاس، فلم يبق للنار عليهـا سبيل؛ وشحنُوها بالرّجـال. فنصب المسلمون عليها المجانيق ورمَـوْها بالحجارة، فأبعدت الـرّجال من حولها، ثمَّ رمَـوْها بحُزَم الحَطـب فأحـرقـوا مابين القـرنين، وخَسَفها المنجنيـق، وخـرج أهل عكّـا فقطعوا رأس الكبشين.

قال: وفي العشر الأوسـط من شهررمضـان ألْقَت الـرّيح بَطْسَتين فيهما رجَال ونساءٌ وصبيانٌ، ومِيرةٌ عظيمة وأغنام،فغنمهما المسْلمون.

وكـان في إحـداهما امـرأةٌ محتَشِمة كثيرةُ الأمـوال؛ واجْتَهـد الفـرنـج في استنقاذها فلم يُجَابُوا لِذلك.

وكان بينهُم في بقيَّة السّنة عدّةُ وقائع يطول شرحها.

وفي سابـع ذي الحجَّة هُـدِمَت قطعـةٌ عظيمة مـن سُور عكّـا فسدَّهـا المسلمون وقاتلوا عليها قتالا شديداً حتى أحْكَموا بناءَها.

وفي ثـاني ذي الحجّـة هلـك ابـنُ ملـك الألمان وكنـد كبيرٌ، ومـرض الكندهري، ووقع فيهم فناءٌ عظيم، والله أعلم.

ذكر وصول ملك افرنسيس

كان وصولُه في ثاني عشر شهـر ربيع الأوّل سنة سبع وثمانين وخمسمائة في سـتّ بُطَس عظـام مشحُونـة بـالمقاتلـة، وكـان مَلِكاً مُطـاعاً فيهـم، ووعَدَهم بالأمـداد خلْفه، وكان معه باز عظيم الخَلـق أبيَض اللّون، فطَار منْ يَـده وسَقَط على سُـور عكَّا، فأخـذه المسلمون وأنفـذُوه إلى السلطان؛ فَبَذل الفرنج فيه ألفَ دينار فلم يُجابوا لذلك.

قـال: وزحف الفـرنـج على عكّا في يـوم الخميـس الـرّابع مـن جُمادى الأولى سنـة سبـع وثمانين، ونصبُـوا عليهـا سبْعَــة مجانيـق، وبلــغ مـن مضايقتهـم لها أنّهم كانوا يُلْقُون في خنْدَقها مـايموت من دوابّهم ومايُؤْيَس منـه ممّن أثخنَتْـه الجراح، وانْقَسـم أهـلُ البلد أقسـامـاً: قسـم يَنْزلـون إلى الخَندق، ويقطعون الـدّواب ليسهُل نقلُها، وقسمٌ ينقلـون ذلك إلى البحر، وقسم يذُبون عنهم، وقسمٌ في المنجنيقات وحراسَة الأسوار.

قـال: وكـانـوا قـد صنعـوا دبَّابَـةً عظيمـةً أربـع طبقـات، الأولى مـن الخَشـب، والثّانيـة مـن الرّصـاص، والثّـالثـة من الحديـد، والـرّابعة مـن النّحاس؛ فكـانت تعلُـو على السُّور وتـركَبُ فيها المقـاتلةُ؛ وقـرّبوهـا من السّور، فكاد أهلُ البلد يطلُبون الأمان؛ فأعَان الله على حرْقها.

وكان في جُمادى الأولى عدَّة وقعَات.

قال: ولمَّا حُـرقت دبَّابات الفـرنج وكِبَاشُهـم وأبرجَتهم الخشب أقـاموا أمَام خيـامهم ممّا يلي عكّـا تلاً مستطيلاً عاليـاً من التُّراب، فكانـوُا يقفون وراءَه ويحوّلونـه ليقرّبُـوه من السّور؛ إلى أنْ صـارَ بينه وبين السُّـور مقدارُ نصف غلْوَة سهم. فَلَم تعْمَل فيه النّار.

ذكر وصول ملك الإنكلتير

كان وصـولُه إلى عكّـا في ثالـث عشَر جمادى الأولى من السّنـة بعد أن ملـك في مسيره قبرص عنـوةً؛ ووَصَـل في أربعين قطعــة، ولمَّا قـدِم تـوالَى الزّحـفُ والقتال، ثـمّ مرِض مـرضاً شديـداً وجُرح الإفـرنسيس، وهـم مع ذلـك لايَدَعُـون القتـال، هـذا واللُّصوص يـدخلـون عليهـم في خيامهـم ويَسْرقون أقمشتهـم ويخطَفونهم، فكانـوا يَدْخلون على الـرَّجُل من الفـرنج وهـو نـائم فيُـوقظـونه، ويُشيرون إليـه بـالسَّـلاح: إنْ تكلّمـت ذبحنـاك، ويحملُونه ويخرجُون به إلى عسكر المسلمين. فعلُوا ذلك مراراً كثيرةً.

قال: ثمّ تردَّدت الرّسائل من الفرنج إلى السُّلطان مدافعةً بسبب مَرَض الإنكلتير؛ ثم استأذن في إهْداءِ جوارح، وقال إنّها قد ضعُفَت وتغيَّرت من البحر، وطلب أن يُسيَّر لها دجاجٌ وطيرٌ تأكله لتقْوَى به ثمّ تهدى للسّلطان. ففَهِم السُّلطان أنَّه يحتاجُ ذلك لنفسه لأنّه حديثُ عَهدٍ بمرَض، فسيّر إليه ذَلك، ثمّ أرسل في طَلَب فاكهةٍ وثَلْج، فأُرسل إليه. وهم مع ذَلك يُحاصرون البَلَد أشدّ حصار.

ذكر استيلاء الفرنج على عكّا

قال: ثمّ اشتدّ الحصارُ في سابع جُمادي الآخرة، فركب السّلطان بالعَسْكر وجرَى قتالٌ عظيم إلى اللّيل، ولم يَطْعَم في ذلك اليوم؛ ولمَّا حَالَ بينُهما اللّيل عادَ إلى خيامه، ثمّ بَاكَر القِتال، فوصَلت مُطالعَةٌ مَنْ بالبلد يذكُرون أنّ العَجز قد بلغ بهم الغاية، وأنّهم في الغد مَتَى لم يُعْمَل مايمنعُ العدُّو طلبُوا الأمان وسلّموا البلد، فرأى السّلطان مهاجمة العدّو، فلم يساعِدْهُ العسكر، فضعُفَت نفوسُ أهل البلد، وتمكّن العدُّو من الخنادق فملكوها، ونقَبوا السّور وأحْرقُوه، فوقعت بدَنَةٌ من الباشورة ودخَل العدّو إليها، فقتل منها زهاء مائة وخمسين نفساً؛ وكان منهُم ستّة من أكابرهم، فقال أحدُهم: لاتقتُلوني حتى أرحِّل الفرنج عنكم، فقتله رجلٌ من الأكراد وقُتِل الخمسة، فناداهُم الفرنج من الغَد احْفظُوا السّتَّة فإنّا نطلقُكم كلُّكم بهم، فقالوا: قدْ قتلناهم. فقوي عزمُ الفرنج على عَدم المصَالحة وأنّهم لايُطلقون مَنْ في البلد إلا بإطْلاق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين، وتُعادُ إليهم البلاد السّاحليّة.

فصالحهم مَنْ بالبلد على أنّهم يسلّمون إليهم البلد وجميعَ مافيه من الآلات والعُدَد والمراكب، ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مَجاهيل الأحوال، ومائة أسير مُعَيَّنين، وصليب الصَّلَبُوت؛ على أنهم يخرجون بأنفسهم ونِسائهم وذَرَاريهم، ومَامعهم من أموالهم وأقمشتهم.

فكتبوا في ذلك إلى السّلطان، فأنكر هذا الأمر واستَعْظمه؛ وعزم على أنْ يكتُب بالإنكار عَلى مَنْ بعكّا، وجمع أمراءه وأصحاب المشُورة، فلما شعَر المسلمون إلا وقدْ ارتفعت أعلامُ الكُفر وصُلبانهُ على أسوار البلد؛ وذلك ظُهر نَهار الجمعة السّابع عشرَ من جُمادى الآخرة،سنة سبعٍ وثمانين وخمسمائة.

فعظُمت المصيبةُ على المسلمين، وتحيَّز المسلمون إلى بعض أطراف البلد، ثم تردّدت الرّسائل بينهُما على تقرير القاعدة في خَلاصِ مَنْ بعكّا من المسلمين، فاستقَرت الحالُ على مائة ألف دينار وستمائة أسير وصَليب الصلبوت، وأنْفَذوا ثقاتهم وعاينُوا الصّليب في ثامن عشر شهر رجب؛ ثم طلبوا أن يسلِّم ذلك إليهم، فإذا صار عنْدَهم أطلقوا الأسرى؛ فامتنع السّلطان من ذلك إلا بعد تسْليم الأسْرى.

فلمّا رأوّه قد امتنع منهُ أخرجُوا خيامَهم إلى ظاهر الخنَادق في الحادي والعشرين منَ الشّهر؛ ثمّ ركبُوا في وقت العَصْر في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب سنَة سبع وثمانين، وجمعُوا الأسْرى، وحملُوا عليهم حَملة الرّجل الواحد، فقتلُوهُم صبراً، طعناً بالرّمح وضرباً بالسّيف، رحمة الله عليهم؛ ولم يُبْقوا من المسلمين إلاّ أكابرهم. فلمّا اتصل الخبر بالسّلطان حَمل المسلمُون عليهم، وجَرَت بينهم حربٌ عظيمة دام القتال فيها طول النّهار، وتصرّف السّلطان فيما كان قد حصَّله من المال، وأعاد الأسرى إلى أماكنهم، وردّ صليب الصَّلبُوت إلى مكانه.

ذكر ماكان بعد أخْذِهم عكّا

قال: ثمّ سار الفرنج إلى صَوب عسقلان في مستهل شعبان، وسار السّلطان في عراضهم، والمسلمون يتخطَّفُونهم ويقتلون منهم ويأسرون؛ وكلّ أسير جيء به إلى السّلطان أمر بقتله، ثمّ كانت وقعةٌ عظيمة في

قال: ثمّ سار السّلطان إلى الرّملة في سابع شوّال، وأقام بها عشرين يوماً، فجرت وقعاتٌ؛ منها وقعةٌ في ثامن شوّال، وفي سادس عشره، والدّائرة فيها على العدو.

وفي ثامن عشر شوّال اجتمَع الملكُ العادل والإنكلتير على طعام، وانفَصلا على توادُد، وسأله الاجتماع بالسّلطان فامْتَنع السّلطان من ذلكً.

ثمّ رحل الفرنج في ثالث ذي القعدة إلى الرّملة، وأظهروا قصد بيت المقدس والحربُ مستمرّةٌ بين المسلمين وبينهم، ورَحَل السّلطان إلى القُدس في الثالث والعشرين من ذي القعدة بنيّة المقام به، وشرع في تحصينه.

ذكر وقوع الصُّلح والهُدْنة العامّةبين المسلمين والفرنج

قال:ولم تزل الحربُ قائمةً والمراسلاتُ متّصلةً بينهم على طلب الصُّلح، والسلطان لايرضى بما يختارونه، وهم لايُوافقون على مايريدُه السّلطان، إلى الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، فوُقِّعت هدنةٌ عامّة في البّر والبحر، وجُعِل لهم من يَافا إلى قيْسَارية إلى عكّا إلى صُور، وأدخلوا في الصُّلح طرابلس وأنطاكية. وأُخْرج من عمل يافا الرَّملة ويَجْدَل يَابَا ومن عمل عكًّا الناصرة وصفُّورية واشْتُرِط خرابُ عسقلان، ووقعت المصالحة مدَّة ثلاثِ سنين وثلاثة أشهر، أوّلها مُبتدأ أيلول الموافق لهذا التاريخ، وذَلك بعد سؤال ملك الإنكلتير وتكرار رَسَائله.

قال: ثمّ أمر السُّلطان أنْ يُنادى في الطُّرقات والأسْواق: ألاإنّ الصْلح قد انتظم، فمن شاء مِنْ بلادنا يدخل بلادَهم ومَن شاء من بلادَهم يدخل بلادَنا فليفعل.

تاسع شعبان عند رَحيلهم من قيسارِيّة، انتصر فيها المسلمون، ثمّ رحل السّلطان فنزل شعراء أرْسُوف، وطلب ملكُ الإنكلتير الاجتماع بالملك العَادل خلوةً، فاجتمعا، فأشار بالصُّلح، وكان حاصلُ كلامه أنّه قد طال بيننا القتال ونحن في نُصرة فرنج السّاحل، ورأيي الصّلح، ويرجُع كلٌّ منا إلى مكانه، فقال له الملك العَادل: على ماذا يكون الصُّلح؟ قال: على أن تسلّموا لأهل السّاحل ما أُخذ منهم من البلاد. فأبى الملكُ العادل.

ثم كانت وقعة أرْسُوف في يوم السّبت رابع عشر شعبان؛ وكانت الدائرة فيها على الفرنج.

ذكر هدم عسقلان

قال: ثمّ رحل السّلطان بعد وَقْعة أرسُوف في تاسع عشر شعبان،ونزل بالرّملة، واستشار أصحابه في أمْر عسقلان، فأشاروا عليه بتَخْريبها خشْيَة أنْ يستولى العدُّو عليها وهي عامرة، فتكون سبَباً لأخْذ البيْت المقدّس وقَطْع طريق مصر، فعَلِم السّلطان عجْز المسلمين عن حِفْظها لِقُرب عهدهم بقتال عكّا؛ فسارَ حتى أتى عسقلان، وأمر بتخريبها، وكان هُو وَوَلَدُه الملك الأفضل يستعملان النّاس في الخَراب خشية من حُضور العدّو فيتعذَّر هدمُها، ثمّ حرَقَها بالنّار؛ والأخبار تتَواتَرُ من جهة العدُّو بعمارة يافا، واستمر الخرابُ والحريقُ إلى سَلْخ شعبان.

ثمّ رحل السّلطان عنها يومَ الثلاثاء، ثاني شهر رمضان فنزل على الرملة يوم الأربعاء، وأمَرَ بتخريب حِصْنها وتخريب كنيسة لدّ، وركَب جريدةً إلى القدس الشريف، فوصل إليه في يَوْم الخميس.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان من السّنة كانت بينهم وقعةٌ انتصر فيها المسلمون.

ووَقع له عزمُ الحج في ذلك المجلس.

ثمّ أمرَ بإرْسَال مائة نقَّاب لتخريب سُور عسْقَلان وإخْرَاج الفرنج منها، فخرِّبت، وكان يومُ الصُّلح يوماً مشهوداً واختلط العسكران.

ثمّ اشتَدّ المرضُ بالإنكلتير فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان وسار معه الكندهري إلى جهة عكّا، ولم يبْق بيافا إلا مريضٌ أو عاجز، ثم أذِن السّلطان للنّاس في الرُّجوع إلى أوطانهم، فسار عسكرُ إرْبل والموصِل وسِنجَار؛ وقوي عزمهُ على الحج.

ثم عاد السّلطان إلى القُدْس ورتّب أحواله وعَيَّنَ الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان، ونقل إليه العقاقير والأدوية؛ وأدار سُور القدس، وأقام بالقُدس إلى يوم الأربعاء رابع شوال، وخرج في يوم الخميس خامس الشهر قاصداً دمشق، فلمّا انتهى إلى طبريَّة وصل إليه بهاءُ الدين قراقوش الأسدي، وقَدْ خلص من الأسْر، فاستصْحَبه معه وكَشَف القلاعَ والحصُون، ودخل إلى دمشق في يوم الاثنين السادس عشر من شوَّال سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، وَجَلَس النّاس يوم الخميس؛ وأنشده الشّعراء؛ وكان مجلساً عاماً، وعمّ النّاس فيه بعَدْله. ولم يَزَلْ كذلك إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

-١٠٦٠٣-

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين

يوسف ين أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى بَعد صلاة الصُّبح يومَ الأربعاء لثلاثٍ بقِين من صَفَر سنة تسعٍ وثمانين وخمسمائة.

وكان مولدُه بقلعة تكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة؛ فكان عمرُه سبعاً وخمسين سنة تقريبا ومدة ملكه منذ ولي وزارة العاضد لِدين الله ولُقّب بالملك النّاصر لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة سنة أربعٍ وستين وخمسمائة وإلى هذا التاريخ أربعاً وعشرين سنة وثمانية أشهرٍ وخمسة أيام؛ ومنذُ خُلع العاضِدُ في سابع المحرّم سنة سبعٍ وستين وخمسمائة اثنتين وعشرين سنةً وشهراً واحداً وعشرين يوماً.

وكان ابتداء مرضه يوم السبت سادس صفر ؛ ونال المسلمون لوفاته من الألم مالا يُعبر عنه، ولما مات دُفن بقلعة دمشق في منزله؛ وما زال ابنه الأفضل يتروى في موضع ينقله إليه، فشرع في بناء تربته عند مسجد القدم وبنى عندها مدرسة للشافعية، وأمر ببناء التربة في سنة تسعين وخمسمائة؛ فاتفق وصول ابنه العزيز تلك السنة من الديار المصريّة للحصار، فخرب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم أمر بعمارة القبة في حد جامع دمشق. فعمرت ونقل إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة؛ ومشى الأفضل أمام تابوته، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع ، وصلى عليه قدام باب النسر صلى عليه القاضي محيي الدين محمد بن علي بإذن الأفضل، ثم حمل إلى لحده، وألحده الأفضل وجلس في الجامع ثلاثة أيام.

وكان الملك الناصر رحمه الله كريماً جواداً شجاعاً، حسن الأخلاق، مضت أكثر أيامه في الجهاد في سبيل الله تعالى.

قال ابن شداد: لما مات السلطان لم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرما واحداً ذهباً صورياً ، ولم يخلف ملكاً في سائر أنواع الأملاك ، وحسب ما وهبه من الخيل في مدة مقامه على عكا فكان تقديره اثني عشر ألف رأس: ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه يلازمه في طلبه: وما حضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وكان لا يلبس إلا ما يحل كالكتان والقطن والصوف، وكان له ركعات يصليها من الليل .

وخلف رحمه الله من الأولاد، على ما نقله العماد الأصفهاني وغيره سبعة عشر ولدا: الملك الأفضل نورُ الدّين أبوالحسن علي، وهو أكبرهم؛ والملك العزيز عمادُ الدّين أبو الفتح عثمان؛ والملك الظاهر غياث الدّين، وقيل شهاب الدّين، أبو منصور غازي؛ والملك الظآفر مظفّر الدّين أبو العباس خضر؛ والملك المعز فتح الدّين أبو يعقوب يوسف؛ و الملك الأغر شرف الدّين أبو يوسف يعقوب والملك المؤيّد نجم الدّين أبو الفتح مسعُود؛ والملك الزّاهر مجير الدين أبو سليمان داود؛ والملك المفضل قطب الدّين أبو محمد موسى؛ والملك الأشرف عزّ الدّين محمد؛ والملك المحسن شهاب الدّين أبو العباس أحمد؛ والملك الجواد ركن الدّين أبو سعيد أيوب؛ والملك المظفّر فخر الدّين أبو منصور تُورَانشاه؛ والملك العادل نور الدّين أبوالمظفّر ملكشاه؛ والملك المنصُور نُصرة الدّين ميرمران؛ والملك الصالح معين الدين إسماعيل ؛ وعماد الدين شادي، ويسمى عمر؛ وابنة صغيرة.

ذكر من ملك الممالك التي كانت جارية في ملك السلطان

الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله تعالى

من أولاده وإخوته وأقاربه وألزامه بعد وفاته

استقَرّ ملكُ دمشق وما معَها للملك الأفضل نور الدّين أبي الحسن علي، وهو أكبر أولاده، ووليّ عهده، وعنده أخواه شقيقاه، الملك الظّافر خضر، والملكُ المفضّل مُوسى.

واستقرّ ملكُ الدّيار المصريّة للملك العزيز عماد الدّين أبي الفتح عثمان.

واستقرّ ملكُ حلب ومايَليها للملك الظّاهر غياث الدّين غازي، وعنده أخوه: الملك الزاهر داوود، فجعله من قِبَله على البيرة.

واستقرّ ملك حمص والرّحبة[وتدمر] للملك المجاهد أسَد الدّين شيركُوه بن محمّد بن شيركوه، وهو ولد ابن عمّ السّلطان الملك النّاصر.

واستقر ملك حماة وسَلَمْية والمعرّة ومَنْبج للملك المنْصُور ناصر الدّين محمّد بن تقي الدين عُمر بن شاهنشاه بن أيوب.

واستقرّ ملك حرّان، والرَّها، ومَيَّافَارقين، والرّقة، وقلعة جعبر، والكرك والشّوبك للملك العادل سيف الدّين أبي بكر بن أيوب، وهو أخو السّلطان.

واستقرّ ملك بعلبك للملك الأمجد[بَهْرَامشاه] بن فَرُّخْشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

واستقر ببعْـرين وأفـامية وكَفَـرْ طاب عز الـدّين[إبـراهيم] بـن شمس الدّين بن المقدّم.

واستقرّ بصهْيَوْن ناصر الدّين[منكورس بن خمارتكين].

[واستقر] بشيزر وأبي قبيس[سابق الدين عثمان بن الداية].

واستقرّ بتلّ باشر بدر الدّين دُلْدُرم بن ياروق.

واستقرّ بَعَينْتاب ناصر الدّين شحنة حلب.

هذه الممالك التـي كانت جارية في ملك السّلطـان الملك النّاصر رحمه الله.

فلنـذكر الآن أخبـار الدّيـار المصريّة ومَـنْ ملكها بعْـدَ وَفاة السّلطـان الملك النّاصر، ونجعـل مايقع لهؤلاء الملوك، أو في ممـالكهم، من الحوادث في ضِمنْ أخبار ملُوك الدّيار المصرية؛ وننبّـه عليها بالتراجم، على مانقفُ عليه إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الملك العزيز عماد الدّين أبي الفتح عثمان ابن الملك النّاصر صلاح الدّين يوسُف بن أيوب

وهو الثاني من ملوك الدّولة الأيوبية بالدّيار المصرية ملك الدّيار المصريّة عندما وصل إليه الخبرُ بوَفاة والده السّلطان الملك النّاصر، رحمه الله تعالى، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

ولما ملك أحْسَن السيرة وأطلق جميع ماكان يُؤْخذ من التُّجار وغيرهم من المكوس على اسْم الزّكاة، وجّهز إلى البيت المقدّس عشرة آلاف دينار لتُصْرف في مَصَالحه؛ وأكرمَ أصحَاب أبيه وعامَلَهم الأفضل أخوه صاحبُ دمشق بخلاف ذلك، فمالت القُلوب إلى الملك العزيز ونَفَرت عن الملك الأفضل، فاستَشْعَر الأفضَلُ من أمرائه، وعَزَم على القَبْض عليهم؛ فبلَغهُم الخبرُ ففارقُوه، واتّصلُوا بخدمة أخيه الملك العزيز بالدّيَار المصريّة في بقيّة السّنة فأكرمهم وقرَّبهم وكان منه مانذكُرهُ إن شاءَ الله تعالى.

ذكر استيلاء الفرنج على جبيل

كان استيلاؤهم على حصن جُبَيل في مستَهلّ صَفَر سنةَ تَسْعين وخمسمائة بمُواطَأة ممَّنْ كان فيه، وذلك أنّ الحصن كان عدَّةُ من فيه خمسَة عشَر رجلاً، فندب متولّي البلد منهُم عشرةً لجباية الجِزْيَة، وخرج متولّي الحصن إلى الحمام، فاستصحب أحد الخمْسَة الذّين تأخّروا بالحصْن معه، وبقي به أربعةٌ من الأكراد، فأغلقُوا بابَ الحصْن، وتوجّه أحدُهم إلى الفرنج الذين بالتّيرون فأخبرهم بخلُو الحِصْن، وكان به حدّادٌ نصراني، فصعد هو والثلاثة إلى أعلى الحصن، فلمّا عادَ الوالي منعُوه من الدّخول ورَمَوْه بالحجارة، فكسَروا يده، وقالُوا هذه القلعة قد صارت للقَومَص، وجاء أهل التيرون بالليل فطرَدُوا من كان بالباشُورة من المسلمين.

ووصل ابن ريمون أخو صاحب جُبيل وتحدَّثُوا مع الأكراد، فنزل أحدهم إليهم وقرّر معهم أن يُعطوا نَصفَ ما بالحصن من سائر الحَواصل وغيرها، وأن تكون لهم ثلاثة ضياع من عَمَل طرابلس؛ واستحلفهم على ذلك. وتسلّموا الحصْنَ، فرَتَّب الفرنج فيه من الجَرْخِيّة ألفاً وخمسين جرخيا.

فلما اتّصل الخبرُ بالسّلطان الملك العزيز عظُم عليه، وأخرَجَ خيامه في يوم الأحد العشرين من شهر ربيع الأول، وأمر بالاستعداد للخروج إلى الشام لاستنقاذ جُبَيل من الفرنج، وأرسل شمس الخلافة رسولا إلى الفرنج بسبب إعادة جبيل، فتوجّه في سادس عشر شهر ربيع الآخر.

وفي سنة تسعين وخمسمائة، لسبع بقين من شهر ربيع الأول، عُزل القاضي صدر الدّين بن دِرْبَاس وفُوِّض القَضاء بالدِّيار المصرية للقاضي زين الدّين أبي الحسن على بن يُوسف بن عبد الله بن رمضان الدّمشقي؛ فوَلِيَ وعُزل في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي صدر الدّين، وقيل بل وَلى القاضي محيي الدّين محمّد بن عبد الله بن أبي عصرون، وعُزل في يوم الأحد سادس عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي زين الدّين الدّمشقي فولي سنَةً، ثم عزل، وأعيد القاضي صدر الدّين إلى أن توفي سنة خمس وستمائة والله أعلم.

ذكر مسير الملك العزيز إلى الشام والصُلح بينه وبين أخيه الملك الأفضل وعوده إلى القاهرة

قال: وفي تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنةَ تسعين وخمسمائة توجَّه الملكُ العزيز إلى الشام، وترك بالقاهرة من الأمراء بَهاء الدّين قراقوش

وصيرم، وجَهّز ثلاثة عشر لواءً إلى ثغرَيْ الإسكندريّة ودمياط ومعهُم سبعمائة فارس، واستصْحَب معه من الأمراء سبعةً وعشرين أميرا عدتهم تقدير ألفي فارس، ومن الحَلْقة ألف فارس. فلمّا اتصل بالأفضل خروجهُ استَعدّ وأنفق النّفقات الوافرة، وخرج إلى رأس الماء في سبعمائة فارس، ولمّا وصَل الملك العزيز إلى الغَوْر احْتاط على الخَاصِّ الأفضلي به، وشَرَع في إقْطاع أعمال الشام، وجهّز من أمرائه: قايْماز، وعشرين أميراً، منهم، جهَارَكس،وميمون القَصْري، وسُنْقُر الكبير، والشجاع الخادم، والجناح، وجُرْدَيك، فتقدّموا ووقعُوا على أطراف العسْكر الشّامي، فرجع الأفضل إلى دِمشْق وغُلّقت أبوابُ البلد لمّا قرَب العسكر المصريّ منها.

وتقدّم العزيز وترك ثِقَله بمسجد القصب بظاهر دمشق، ونزل هو بالكُسْوة؛ فاستَنْجد الأفضل بعمه الملك العادل فحضر إلى دِمَشق، وحضَر الظّاهر من حَلب، وناصرُ الدّين صاحبُ حماة، وأسد الدّين صاحب حمص، وعسكرُ الموصل وغيره. فلّما رأى العزيز اجتماعهم علم أنْ لاقُدْرَة له بهذا الجمع، وكَتب إلى عمه العادل يقول: أنا ماخرَجْتُ من الدّيار المصريّة إلا لِاسْتنقاذ جُبيل من الفرنج، فبلغني أنّ الملك الأفضل حالف الفرنج عليَّ، واستنْصر بهم، ووَعدَهم أن يُعيد البلاد إليهم، فاقْتضى ذلك سَوْقَنَا إليه، وبَلَغنا أنك تدخل بيْننا وبيْنه، وحُوشِيت من ذلك، وأنا خيرٌ لكَ منْ غيري، وإنْ أرَدْت أنْ تكُونَ السّلطان ورئيسَ الجماعة فأنَا راضٍ بذلك.

وكتب لأخيه الملك الظّاهر وغيره من أصحاب الممالك وتردّدت الرّسائل بيْنهم.

وتقرَّرت الحال على أن يكُون للملك العزيز البيْتُ المقدّس وماجاوَرَه من أعمال فلسطين؛ وأن تكون دمشق وطبريّة وأعمال الغور للملك الأفضل؛ وأن يُعْطِي الأفضل لأخيه الملك الظّاهر جَبَلة واللاذقيّة؛ وأن

يكون للملك العـادل بالدِّيار المصريّة إقطاعـه الأوّل، وأنْ يُخْطَب للملك العزيز ببلاده، وتُنْقَش السِّكّة باسمه؛ وأنّ الملك العزيز يُمدُّه بألف فارسٍ إعانةً له على فتح خلاط.

واجتمع الملكُ العادلُ بالملك العزيـز، وتزوَّج العزيزُ ابنْتهُ، وجاء الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب إلى أخيه الملك العزيز. وتقرَّرت قواعد الصلح.

وتأخّـر الملكُ العـزيز إلى الكُسْوة ثـم إلى مَرْج الصُفَّـر، ومرض بـه ثمّ أفاق.

ولمَّا عزم على العَوْد إلى الدّيَار المصريّة خرج لـوَدَاعه سائرُ الملوك الذين حضَروا لنصرة الأفضل، ثـم خرج إليـه الأفضل في سـابع شعبـان وأدركه بفيق، وهـي أعلى الغور، فأكـرمه الملك العـزيز، وبـالغ في احْترامه وسـاله الأفضل أنْ يـرجع إلى دمشق ليزُورَ قبر أبيـه، فأجاب إلى ذلك؛ ثـم أشارَ عليه أصحابُـه ألاّ يفعل، فامتنع، وعـاد الأفضل، وسار العَزيـزُ إلى الدّيار المصريّة فدخلها في أواخر شعبان.

وفي مستهل جمادى سنـة سبعين وخمسمائة هبَّت رياحٌ عـاصفةٌ بالقـاهرة مِـن وَقْت العَصْر، وسقَـطَ في ثـالث الشهـر بَـرَدٌ كثير أكْبَرُه قدر البيـض وأصغَـرُه قـدر النّبـق، وصـار على جبل المقطـم منـه شيء كثير كـالجبـل الثّاني؛ونقل النّاس منه مدّة أربعة أيام؛ ثم سَالَ حتى ملأ الخندق، ودخل الماءُ من المرامي الّتي في السّور إلى القاهرة، وعَلاَ، حتى خِيف على البلد.

- ١٠٦١١ -

ذكر خروج الملك العزيز لقَصْد الشّام ثانيا ورجوعه وقصْد العادل والأفضل الدّيار المصريّة وماتقرر من القواعد

كان سبب ذلك أن الملك الأفضل قَلّد وزارة دمشق لِضياء الدّين ابن الأثير الجزَري وحكّمه في البلاد، فقَصَد الأمراء بالأذى والإطِّراح، وتشاغَل الأفضل عنهم، ففارق خدمة الأفضل ميمون القصري وسنقر الكبير، وعز الدّين سامة، وغيرهم، وحضر بعضُ هؤلاء إلى الدّيار المصْريّة، وانضموا إلى الملك العزيز، وقالوا له: إنّ الأفضل مسلُوب الاختيار؛ وحَرَّضُوه على قَصْد دمشق؛ فخرَج إليها في سنَة إحْدَى وتسْعين وخمسمائة.

فلمّا اتَّصل خبرُ خُروجِه بالأفضل ركبَ من دمَشق في رابع جُمادى الأولى وتوجّه إلى عمّه الملك العادل، وهو بقلعة جَعْبَر، واستنجد به، وسار إلى أخيه الملك الظّاهر بحلب واستنجد به أيضاً، فركبَ الملكُ العادلُ وجَدّ في السّير إلى دمشق خوْفا أنْ يسبقَه العزيز إليها، وكاتَب الملكُ العادل الأمراءَ الذين صُحْبة العزيز، وكان العزيز قد نَزَل بمنزلة الفَوَّار على مرحلتين من دِمَشق، واستمالَهُم وحذّرَهم من العزيز، فمالُوا إليه، واستمالوا أبا الهيجاء السّمين، وفارقوا العزيز وقَصَدُوا دمشق؛ وذلك في يوم الاثنين رابعِ شوال من السّنة.

فلمّا وصَلوا إلى دمَشق أتّفق العادلُ والأفضل، وتحالَفَا على قَصْد العزيز وانْتزاع الدّيار المصريّة منه، على أن يكون ثُلُثُ الدّيار المصرية لْلمَلِك العادل إقطاعاً، والثُّلثان للملك الأفضل. وسارُوا في طلب العْزيز، فَرجع إلى الدّيار المصريّة وجَدّ في السّيْر ودخلَ القاهرة.

قال: ولمّا وصل العَادلُ والأفضل إلى القُدس سلَّماه وأعمالَه ومايجاوِرُه من أعْمَال السّاحل لأبي الهيجاء السّمين، فرتَّب فيه نُوّابه، وسار معهُما إلى الدّيَار المصريّة، فنَزَل المُلْك العادل على بلبيس، وكان السعر ماشيا فاستظهر العزيز عليهم.

قال: ولم يكن غرضُ العادل قَصْدَ مِصْر، وإنما خَشِي على الملك العزيز من الأمرَاء أنْ يقتُلوه ويستَوْلُوا على الدّيار المصريّة، فقصدها لهذا السبب.

ولمّا ضاقت الميرَةُ على العسكر الشّامي، وقلت أزوادُهم ندِموا على وصُولهم إلى الدّيار المصريّة؛ فأرْسَل الملك العادل إلى القاضي الفاضل عبْد الرّحيم في الاجتماع به، فأذنَ له العزيزُ في ذلك؛ فخرج إليه، فاستَبْشَر النّاس بخرُوجه رَجَاء وقُوع الصّلح، ورَكب العادلُ وتلقّاه على فَرَاسِخ، فاجتمعا، واستقرّت القواعد على أن يكون إقطاع العادل بمصر على عَادَتِه، وأن تكون إقامتهُ عِنْد الملك العزيز بالقاهرة، وأن يعفو[العزيز] عن الأسَديّة والأكراد.

واجتَمعَ العادلُ بالأفضل وأمرهُ بالرُّجوع إلى دمشق، ثمّ اجتمع الأفضل بالعزيز، واستقرّ الصلح بينهما، وأهدى العزيز إليه هدايا جليلة المقدار، ورَجع الأفضل إلى دمشق ومعه أبو الهيجاء السّمين، فدَخَلها في المحرّم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

ولم تَطُل المدّة إلى أن بلغ الملك العادل عن الأفضل مااستوغَرَ خاطَره، فعند ذلك قرّر، مع الملك العزيز، أن يُجّهز العساكر لتمهد قواعد الملك بالشّام وسائر البلاد، واتّفقا على أن يكون العزيزُ بدمشق والعادل ينوب عنهُ بالدّيار المصريّة.

ذكر ملك العزيز دمشق وخروج الأفضل إلى صرخد

قال: ولمَّا اتفق الملك العادلُ والملك العزيز على ماقرَّراه تجَّهز [الملك العادل] للمسير إلى دمشق وبرز بخيامه من القاهرة في يوم السّبت مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة في ثلاثة آلاف فارس. ثمّ برز الملك العزيز في يوم الثلاثاء، رابع الشهر، وظاهرُ خروجهِ وداعُه لعمّه الملك العادل، وحث العساكر المجرَّدة على الخروج، وأقام ببركة الجُبّ.

فلمّا كان في العشرين من الشهر اتصل بالملك العادل عن الملك الأفضل أنّه كاتب الأسَدِيّة، وأنّه قبض على أموال كانت للعادل بدمشق، وأطلق رهائن كانت عند نُوّابه، وأنّه وافق الظاهر صاحب حلب؛ فقرّر مع الملك العزيز أنْ يتوجَّها جميعا ويأخذا دمَشْق من الأفضل وحَلَب من الظّاهر، فاتَّفقا على ذلك وعقدا بينهما يميناً.

وشرع الملك العزيز في تجهيز رجال الحلقة والأعيان، ورَحَل هو وعمَّه الملك العادل من البركة في يوم الثّلاثاء ثامن جُمادى الأولى، فحَصَل لِلْعَادل ضعفٌ في هذا النهار منَعَهُ عن الحركة، وكان وصُولهما إلى بلبيس في سابع عشر الشهر، وكمُلَت صحّة العَادل في العشرين من الشهر، وسَارَ إلى الشام على مهل ورفق.

فلمّا تحقَّق الملك الأفضل قَصْدَهما لبلاده اسْتَشار شيوخ دولته. فأشاروا عليه أنْ يستقبل أخاه وعمه ويسلِّم لهُما الأمر؛ وأشار وزيرهُ ضياءُ الدّين ابن الأثير الجزري بالتصميم والمخالفة، فرَجع إلى رأيه، وحصَّنَ البلد، وفرّق الأمراء على الأسوار، فلمّا رأى شيوخ الدولة وأكابرها أنّه لم يرجع إليهم واعتمد على رأي وزيره راسلوا الملك العزيز والملك العادل في انتهاز الفُرصة؛ فركبا بعساكرهما وتأهّبا في يوم الأربعاء

السادِس والعشرين مـن شهر رجب، وخَرَجَ أهلُ دمشـق لِقتالهم؛ والْتَقَوْا في السّـابع والعشريـن من الشّهـر، فلـم يكُن بـأسْرع من انهزام العَسْكـر الشّامـي. وتبعَهُم العزيـز والعادل حتـى ألْجأوهم إلى سُور البلـد، ودخلوا دمشق، وتبعهم العسكر، فملكت البلد.

فعندها ركب الملكُ الأفضل إلى خيمة أخيـه الملك العزيز، واجتمع به بظاهر دمشق.

قال: ودخل الملـك العادل ومَنْ معه بـاب تُوما والباب الشّرقـي، ونَزَل الدّار الأسديـة، ودَخَل الملك العزيـز من باب الفرج وبـات في دار عمّته الحساميّة، ومَلَك العـزيز دمشق وأقيمت لهُ الخُطْبة في يـوم الجمعة الثّامن والعشرين من الشهر.

قال: ولمّا ملـك الملكُ العـزيز دِمَشق نـدم على ماكان قـرر من إقـامته بالشـام وتمْكين عمه الملك العادل مـن الدّيار المصريّة، واعْتَـذر إلى أخيه الملـك الأفضـل في السّر، فـأظْهَر الأفضـل سِرَّهُ لمن معـه فظنـوا أن هـذه خديعة، فأرسـل إلى العَادل وأعْلمه بمُراسلة العزيز، فعتَبَـه العادل، فأنكر الحال، وخَرَج الأفضل إلى صَرْخد، وقُرِّر لَهُ في كـل سنة مائتي ألف درهم من صرخد وغيرهـا، وهو كارهٌ لذلك، وسألَ أن يكـون بمكّة؛ وينقطع إلى الله تعالى، وينزل عن المُلك، فلم يُجِبْه العزيز.

وكان خـروج الأفضل مـن دمشق إلى صَرْخـد يوم الاثنين،ثـاني شعبان سنة اثنتين وتسعين، فكـانت مـدّة ملكه لدمشـق، منذُ وفـاة والده إلى أن ملكها العزيز، ثلاث سنين وخمسة أشهر.

ودَخَـل الملكُ العـزيز قلعَـة دمشـق واستقرّ بها في يـوم الأربعاء رابـع شَعْبـان من السّنـة المذكـورة، وجَلَس يـوم الجمعـة بـدَارِ العدل واسقـط

المكُوس بدمشق ماهو مقرّر على سُوق الرقيق، وسُوق الدوّاب، ودار البطّيخ، والملاهي، والعصير، والفَحْم، والحديد، وسَبْكَي الفولاذ والزّجاج.

قال:وهرب ضياءُ الدّين ابن الأثير ونُهبت داره.

ونُودي في دمشق أن يلْبَس أهل الذّمَّة العمائم الغيار ليُعرفوا من المسلمين، وكان سببُ ذلك أنّ الملك العزيز لمَّا جلس بدار العدل دخل عليه رجلٌ له هيئةٌ حسنة، فما شكّ العزيز أنه من الأشراف، فلمّا علم أنّه ذمِّيٌّ أمر بذلك.

قال: ولاطَف الملكُ العزيز عمَّه الملك العادل إلى أن قام بدمشق في النّيابة، فأجاب بَعْد امتناع، وسلّم ديوان دمشق لصفيّ الدّين ابن شُكر كاتب العادل.

وفارق الملك العزيزُ دمشق في العشر الأوسط من شعبان، وعادَ إلى الدّيار المصريّة بعد أنْ استخْلَف الملك العادل وسلَّم إليه دمشق وماهو مضافٌ إليها من القلاع والحصُون والأعمال؛والخُطْبة والسّكّة باسم الملك العزيز.

ودخل العزيز إلى القاهرة جريدةً في رابع شهر رمضان؛ وفوّض شدّ الأمْوال والخطاب عليها للأمير فخر الدّين إياز جهاركس؛ وضمن الخُمور في كلّ سنة بسبعةعشر ألف دينار، فتجاهر النّاس بها وظهر الفَساد وفشا في النّاس؛ واجتمع الرّجال والنّساء في شهر رمضان من غَيْر اسْتِتَار، سيّما في الخليج وساحل مصر؛ ورتّب ضمان الخمر في النَّفَقَة على طعام السّلطان؛ وهذه من البَلايا التي لم يُسْمع بمثلها، فإنّ عادَة الملوك والأكابر[أن] يجتهدوا أن يكون مأكُلُهم من أحلّ الجهات كالجوالي ومايُنَاسِبها، وبسبب إطلاق الخُمور كثر القتل بالقاهرة والجراحَات، وخَطْف العمائم والأمتعة والمآكل من الأسواق.

قال المؤرخ: وغَلَت الأسعار في هـذه السّنة بـالدّيـار المصريّة، واشتَـدَّ الأمرُ على النّاس، وكثُـر الوباء، وبلغ القمـح كلَّ أردبّ بدينارين، وأظُن الدّينـار ثلاثة عشر درهما وثُلُـث درهم، وهـذا كان نهاية الغَـلاء في ذلك العَصر.

ولقد وصف الفاضـل الفاضـل عظم ماحلّ بالنّاس مـن غلوّ السّعر أمراً عظيماً، فكيف لو أدرك الفـاضل الديـار المصريَّة في سنة خمس وتسعين وستّمائة، وقـد أبيع القَمـح سعر الأردب ثـلاثـة عشر ديناراً ونصفَ دينار، وأبيـع الفـرُّوج بخمسين درهماً، ورطـل البطّيـخ الأخضر بـأربعـة دراهـم، والسَّفَرْجلة بثلاثين درهما.

قال المؤرخ: وفي سنة اثنين وتسعين وخمسمائة كانـت وفاة الشيخ السّيد الشريف عبد الـرّحيم[٢٢]، قدّس الله روحه ونـوَّر ضريحه، بقنا من أعمال قُـوص ودُفن بجبّـانتها، وضريحه معـروفٌ هنـاك من أعظـم مزارات أهـل الصلاح بالدُّنيا.

وممَّا نُقِـل من كلامه، قـدّس الله روحه، وقَدْ سمع المؤذّن يقـول: أشهد أن لاإله إلا الله،فقال الشيخ: شهـدنا بماشَاهَدْنا، ومن كـلامه: لايستطيع العارفُ أن يوصِّـل إلى منْ لايعرفُ حقيقة مـاعَرف، كما لايستطيع البصيرُ أن يوصل إلى الأكْمَـهِ حقيقة الألوان، وعُرض هذا الكـلامُ على الشّيخ عزّ الدّين عَبْد العزيز بن عبد السّـلام، رحمه الله ونفع به، فقالَ هَذا كلامُ مَنْ غرِق في الحقيقة.

ذكر استيلاء الفرنج على بيروت

وفي يوم الجمعـة عاشر ذي الحجّة سنة ثـلاث وتسعين وخمسمائة مَلَك الفـرنج مـدينـة بيروت من المسلمين، وسبـبُ ذلك أنّ فـرنـج السّاحـل راسَلُـوا مَلِـك الألمان في سنـة اثنتين وتِسْعين وخمسمائة، وكـان قـد مَلَـك

جزيرة صقلية، وعرَّفوه أنّ المسلمين قد اشْتَغَلوا بحرب بعضهم بعضاً؛ فأقبل في مراكبه إلى عكّا. وصادَفَ ذلك سقُوط الكُندهري ملك عكا من شُبَّاكٍ فهلك، فملَك ملِكُ قبرص عكّا، وخرج إلى بيرُوت فملَكها من المسلمين، وكان بها عزّ الدين سَامة، فعمرّها الفرنج ولَمْ تزل بأيْديهم إلى أن فتحها الملك الأشْرفُ في سنة تسعين وستمائة، على ما نذكرهُ إن شاء الله تعالى في أخبار دولة الترك.

وفيها خَرَجت المراكبُ الحربية لقَصْد بلاد الفرنج، فوجَدُوا بُطَساً للفرنج فملكوها، فوجد المسْلمون فيها أموالاً جليلة.

وفيها أنشأ الأمير فخر الدين إياز جهارَكس النّاصري القيْسَاريّة المعروفة به بالقاهرة المحروسة، وجاءت من أحسن الأبنية.

ذكر وفاة سيف الإسلام بن أيوب ملك اليمن وملك ولده شمس الملوك

وفي يوم الأربعاء الثالث من شوّال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفي الملك العزيز سيف الإسلام طُغْتكين بن أيّوب، أخو السّلطان الملك النّاصر بالمنصُورة التي أنشأها باليمن، وكان قد طرَدَ ولدَه شمس المُلوك إلى الحجاز. فلمّا سمِع بوفاة والده سار إلى اليَمن وملَكَ بعْدَه.

وإلى سيْف الإسلام هذا يُنْسَب البستان الذي كان بظَاهر القاهِرة، وهو الآن عمائر تُعْرفُ بحِكر سَيْف الإسلام.

ذكر وفاة الملك العزيز وشيء من أخباره

كانت وفاتُه في ليلة الأحد العشرينَ من المحرّم سنة خمس وتسْعين وخَمسمائة بداره بالقاهرة.

وكانَ قـد خرَج إلى الفيُّوم لقَصْـد الصّيد إلى ذات الصّفا، فحُـمَّ، فعاد إلى القاهـرة واشْتدّ مـرضُه، فمات، وقيل إنّـه ساق خَلْـفَ الصّيد فكَبا به فرسُه مرّةً بعد أخرى، فماتَ بعد ثلاثٍ. ودُفـن بدارِه بالقاهرة[وكان مولده بـالقاهـرة] في ثامـن جُمادى الأولى سنـةَ سبع وستّين، وقـال الفَاضـل في جُمادى الآخرة. فكانت مدّة عمره سبْعـاً وعشرين سنةً وثمانية أشهر واثني عشر يوما؛ ومدة ملكه خمس سنين وعشرة أشهر وعشرين يَوماً.

وكان رحمهُ الله عـادلاً كريماً بالمال، بخيلاً على طعـامه، شجاعـاً حسَن الأخلاق.

وخلف من الأولاد أحد عشر ولـداً، وهم الملـكُ المنصُـور محّمد، والقـائمُ بعْـده؛ وعلي، وغمـر، وإبـراهيـم؛ وعيسى؛ ومحمـود؛ ورعـاه؛ ويـوسـف؛ ويونس؛ وولدان صغيران، ولم يخلِّف في خـزانته ذهباً ولادراهم إلاّ بعض قماش ليْسَ بالطّائل.

ذكر سلطنة الملك المنصُور محمد بن الملك العزيز ابن الملك الناصر وهو الثالث من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصريّة

ملَك الدّيـار المصريّة بعدَ وفاة أبيـه في يَوم الأحد العشرين مـن المحرّم سنَـةَ خمس وتسعين وخمسمائة بوصيـة منـه. ولمَّا مَات الملـكُ العـزيز كـان عَمَّه الملـك العادل يُحاصِر مَارِدين فـاجتمعت الأمراء الصَّلاحيـة وعَقَدُوا الأمر لِولده ولقَّبُـوه بالملك المنصور، وكانَ قبل ذلـك يُلَّقب بالنَّاصر، وإنما تـركُـوا النّـاصر لموافَقَتـه لَقَـب الخليفـة، وركـبَ في يـوم الثـلاثـاء الثـاني والعشريـن من المحـرّم، وشـقَّ القاهـرة مـن بـاب زَويلة إلى بـاب النَّصر، والأمراء في خـدمته، وكتب الأمراء إلى الملـك العادل يعزّونه في ابـنْ أخيه

الملـك العزيـز ويذكُـرون اتفاقهـم على تنصيب ولَـده في السَّلطنة بعْـده، وأنهم على طَاعة الملك العادل.

ثم اجتمعـت الأُمراء الأسَـدية والصَّلاحيـة بظَاهرِ القَـاهرة وقـالوا: إن الذي فعلنَـاه من حِفظ الملـك العَزيز في وَلَـده هو نِعْم الـرأي، وإنما هُو صَغير السِّن لايفهم مايُقـال له، ولايقُوم بأعباء المُلك، ولابـد لنا من كبير منْ هَذا البيت يُـربِّيه ويكْفُلُه ويدبّر أحوال الدَّولـة، ولَيْس لها مثلُ الملك العـادل، وهـو الآن مشغـول ببـلاد الشّرق، وقصَـدُوا أن يكتُبـوا إليـه ويَستدعوه فكرهَ بعضُهم شِدةَ أخلاقه ومُمَـاقَتَتَهُ للجند، فعَدلوا عنه واتفقوا علَى استِدعاء الملكُ الأفضل من صَرْخَد.

وأن يتـولَّى أتابكيـة الملك المنصـور وأن ينـوب عن الأفضـل إلى حين وصولة، أخوه الملك الظافر خِضْر، فاستَقرَّ ذلك.

وكتبـوا إلى الأفضل وذَلـك في يـوم الخميـس سَادس عشَر صفَـر مـن السّنة، ونزل الملـك الظّافر بدَارِ السّلطنة في القـاعة العزيزيَّة، وقـام بنيابة السلطنة.

قال: ولمَّا وصـل كِتابُ الأمـراء إلى الأفضل، خـرج من صَرْخَـد في ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرِّيَّة إلى البيت المقدَّس.

ذكر وصول الملك الأفضل إلى القاهرة
واستقراره في تدبير دولة المنصور

كان وصولُـه إلى القاهرة في يوم الخميـس السّابع من شهـر ربيع الأول سنـةَ خمسٍ وتسعين وخمسمائة؛ فبرزَ النـاس لِلقـائه، وزُيِّنَـت المدينـةُ، لقُدومـه، ولمَّا دخل أقـرَّ الخُطبة بـاسم الملـك المنصور ابـن أخيه، ونَقَـش

السّكة باسمـه، وكان الأفضل يُذكـر بعده. وكَتَب إلى عمّه الملـك العادِلِ يبذُل له الطَّاعة والانْقِياد إلى أمره.

قـال: ولمَّا وصَل الملـكُ الأفضـل إلى بلبيس خـرج فخـر الـدّين إيـاز جهـارَكس، وزيـن الديـن قراجـا على أنهما يلتقيَـانه، فتـوجها إلى الملـك العادل، ثم خـرج في يَوْم وصُوله الأمير شمس الدّيـن سراسُنْقر بمماليكه، وجماعة من أصحابه والتحق با لملك العادل، وسَار إليه، إلى مَارِدِين.

ذكر مسير الملك الأفضل إلى الشام وحصَار دمشق وعوده عنها وخروجه عن الديار المصريّة

قـال:ولما استقَرَّ الأفضـل في تدْبير الـدّولة بـالدِّيـار المصريَّة، ولم يَبْـقَ للملـك المنصُـور معه إلا الشّركـة في الخُطْبـة، حملَـه أصحابُـه على قصـد دمشق وحَصْرها، وقـالوا: هي لك بـوصِيّة أبيك الملك النَّـاصر، فعَزم على المسير إليهـا، وأمر العَسَـاكر بـالاسْتعداد لـذلك. وبَـرَز إلى المخيّم ببركـة الجُبِّ، هو وابن أخيه الملك المنصُـور، في يوم السّبت العشرين من جُمادى الأولى من السّنة واستَحثَّ العسكر على الخروج.

ووصل إليـه في يوم الأربعـاء، السّادس مـن جمادى الآخرة، رسـولٌ من أخيه الملك الظّاهر صَـاحبِ حَلب وهو يَلُومُه على إنْفَاذ الرُّسـل بالطَّاعة للعادل، ويقول: إن أكثـر الناس كانوا منْصَرفين عنه فانصَرفـوا إليه، وحثّه على سُرعة قَصْـد دِمشق؛ ويقول: اغْتَنم الفُـرصة مادام العَـادِلُ في حصَار مارِدِيـن؛ ووَعَده بالـوصُول إليه، فـأكَّدَ ذلـك ماعنده، وأقـام ببركة الجُبّ وهو يحثُّ العسكر على سُرعة الحركة، إلى ثاني شهر رجَب، فرحل عنها.

وفي مدّة مقامه ببركة الجُبّ أحضر قـاضي القضاة والشُّهود، وأشهدهم على نفسه أنـه وقف المطـريَّة (٢٣) ومُنْية البـاسل (٢٤) ، والرّباع المسـوّغة

والمستمرّة بيد الدّيوان على عِمارة سُور القاهرة ومِصْر والبيمارِستان بالقاهرة.

قال: ولمَّا وصل الأفضل إلى بلبيس احْتاطَ على ماكان بِاسْم العَادل وألْزَامه بالدّيار المصريّة؛ وأقْطَعه، ثم قَبَض على أخيه الملك المؤيّد وقَيّده وأعاده إلى القاهرة، فاعتُقل بالقَلْعة، وتمَادى الملك الأفضل في سَيْره إلى دمشق. هذا ماكان منه.

وأما الملك العادل فإنَ سَراسُنقر النَّاصري وصَل إليه بمارِدِين واستحثَّه على العَوْد إلى دمشق، فأوصى ولدَه الملك الكامل بمُحاصَرتها. وفارقَها العادلُ لخمْسٍ بقين من شهر رجب، ووصل إلى دمَشْق في يوم الاثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحْصين البلد. ووصلت العساكرُ المصرية في يوم الخميس، ورتَّب الأطْلاَب وسارَ الملكُ المنصورُ بنُ الملك العزيز في الْقَلْب وزحَفَ على الْبلَد فأخذ قصْر حَجاج والشَّاغور، وكان العادلُ لما شاهدَ إقبال العَساكر أمر بإحْراق قصْر حجّاج فأُحرق، واحترق فيه عدَّة مساجد وأطفال. وأحاطت العَساكر المصريَّة بدمشق، ودَخَلها جماعة منهم من باب السَّلامة، وانتهَوْا إلى السُّوق الكبير، وخرجُوا من باب الفرَاديس. وقدم الأفضل الميدان الأخضر، ثم تأخّر إلى مَيدان الحصى؛ واستقر بهذه المنْزِلة أكثر من ستَّة أشْهُر.

وكاتب الملكُ العادل جماعةً من الأمراء المصريّين، ففارَقُوه ودَخَلُوا إلى دمشق فأكرمهم.

ثم وصل الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب ومعه أخواه الظّافر والمعزّ وجاءهُم الملكُ المجاهدُ صاحب حمص، وعسكر حماة دُون سُلطانها، وحسام الدّين بشارة صاحب حصن بانياس، وكان من أكابر الدّولة، فأشار بالصلح.

قال: ولمّا حاصَر الملكُ الأفضل دمشق، مَنَع مَنْ يدخُل إليها بشيء من الميرة، وقطع عنها الأنهار؛ فاشتدَّ الأمر على أهل دمشق، واستغاثت الرَّعايا على العادل، وتسلَّطوا عليه، وحملوه على تَسْليم البلَد. وانْتَقَل أكثر مَنْ في البلد إلى العَسْكر، ونصبوا به أخْصَاصاً ومساكن؛ وأُقيمت الأسواق به.

فلما اشتدَّ الأمر على العَادل كتب إلى الظّاهر يَستميلهُ وقال: أنا أسلّم البلَد إليك دونَ غيرك، فنُمِي الخبرُ إلى الأفضل، فاضطَرب رأيُهما، وقيل بل كتب إليهما يقول: أنا أسلم البلَد إليكُما بعد سَبْعَة أشهر، فأجَابَاهُ إلى ذلك، وقيل إنه كان يكتب إلى الأفضل يقولُ:الظّاهر قد صَالحني، وإلى الظّاهر بمثل ذلك.

واتَفقَ في فَسَاد حال الأفضل أن جماعة الأمراء كان بأيديهم إقطاعات بالدّيار المصريَّة جليلَةُ المقدار، فحسَدَهم آخرون عليها، فكانوا يأتُون إلى الملك الأفْضل ويقولُون: إنَّ فلاناً قد عزَم على قَصْد عَمّكَ العَادل والانضمام إليه، ويأتون لذلك الأمير فيقولون: إنّ الأفضل قَدْ عَزم القَبضَ عليك، ويأتي ذلك الأمير إلى الأفضل فَيَرى في وجْهه أثر التغيُّر لِمَا نُقل عنه، فلايشكّ ذلك الأميرُ في صِدْق النَّاقل فالْتَحق به جماعةٌ من الأمراء.

فبينما الأفضل كذلك إذ قَدِم الملكُ الكامل بن الملك العَادل من الشَّرق، في تاسع عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة، بالعساكر والتُّركمان فاشْتدّ به عضد أبيه، وتأخر الأفضل بمن معه إلى سَفح جَبل العقَبة، ثم انتقل إلى مَرْج الصُّفَّر في يوم الاثنين ثاني عشر صفر؛ وعَادَ الظّاهر والمجاهد.

واشتد البرْد على العَسْكر المِصري، فعاد الأفضلُ إلى الدّيار المصريّة،

وسَاقَ العَادل بعسَاكره في إثره، فكان وُصُول الأفضل إلى بلبيس في حَادي عشري شهر ربيع الأول، فأشارعليه أصحابه بالإقامة بها.

قال: ولَمَّا وصَلَ الملكُ العادِل إلى تلّ العجُول، أقام به حتى اجتمع إليه أصحابه، ورَاسَل الأفضل، فعاد جوابه أنه لايصالحُه حتىّ يفارق الأمراء الصلاحية.

فلما اتصل ذلك بالصلاحية غضبوا على المسير إليه.

هذا والأفضل على بلبيس، وقد تفرق معظم أصحابه إلى إقطاعاتهم وجماعة منهم باطنوا الملك[العادل].

حواشي نهاية الأرب

١ـ أتسز بن أوق، تقدم ذكره في الجزء الأول من موسوعتنا.
٢ـ أي فرقة يبلغ تعدادها عشرة آلاف:
٣ـ أي السلطة المملوكية أيام الناصر محمد بن قلاوون
٤ـ القبق بالتركية قرعة عسلية، وقد أطلقت على لعبة رياضية ، حيث كانت القرعة تنصب هدفا لرمايات الفرسان ، أو يتخذ بدلا عنها دريئة خشبية بأعلاها دائرة تسدد نحوها الرمايات .
٥ـ أي جعبتين أو كنانتين.

٦ـ زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الأثير، فهو مصدر النويري الاساسي، والاشارة اليه دوما عند ما يقول: قال المؤرخ.
٧ـ حصن من أعمال أحمص أو حماه كان على مقربة من حصن الأكراد . معجم البلدان.
٨ـ كذا بالاصل وفي تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢٦١ ، والمعني بهذا برترائد الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، وعند ابن القلانسي كان هذا سنة اثنتين وخمسمائة.
٩ـ أي الخراج المقرر على كل اقطاع.
١٠ ـكان على مقربة من قلعة القاهرة ـ طبعا ـ قبل تأسيسها
١١ـ أواني من الخزف.
١٢ـ هو سلطان بن ابراهيم بن مسلم المقدسي ، المعروف بابن رشا. توفي سنة ٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا للمقريزي
١٣ـ هو محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللبني المغربي ـ سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا
١٤ـ هو هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد ، أبو الفضائل، المعروف بابن الأزرق سيأتي ذكره في اتعاظ الحنفا

١٥ـ هو المفضل بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن ابي كامل ـ سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا
١٦ـ تعرف منية الباساك حاليا باسم المنيا في محافظة الجيزة ـ مركز الصف. القاموس الجغرافي لرمزي ق ٢ ج٣ ص ٣١.
١٧ـ أطفيح حاليا بلدة تابعة لمركز الصف ـ محافظة الجيزة ـ القاموس الجغرافي ق ٢ ص ٣ ص ٢٦
١٨ـ تتبع دلاص حاليا مركز بني سويف بمحافظة بني سويف ، القاموس الجغرافي ق ٢ ج٣ ص ١٥٩ ـ ١٦٠
١٩ـ هي مدينة المنية الحالية في مصر حاضرة محافظة المنيا فيها.
٢٠ـ من قرى مركز الجيزة ـ محافظة الجيزة . القاموس الجغرافي ق ٢ ج٣ ص ٣
٢١ـ الجبال المشرفة على مدينة طرابلس في ليبيا.
٢٢ـ عبد الرحيم بن أحمد بن حجون القنائي
٢٣ـ من ضواحي القاهرة، القاموس الجغرافي ق ٢ ج١ ص ١١
٢٤ـ من اقليم الأطفيحية ، تابعة حاليا المركز الصف بمحافظة الجيزة . القاموس الجغرافي ق ٢ ج٣ ص٣١

المحتوى

-١٠٦٣٦-